الموسوعة الشوقية

الأعمال الكاملة

لأمير الشعراء أحمد شوقي

جمع وترتيب وشرح

ابراهيم الابياري

المجلد الثامن

النثر المسرحيات

لاد ياس - مجنون ليلى - مصرع كليوباترا - دل وتيمان

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ ١٩٩٤م

دار الكتاب العربي

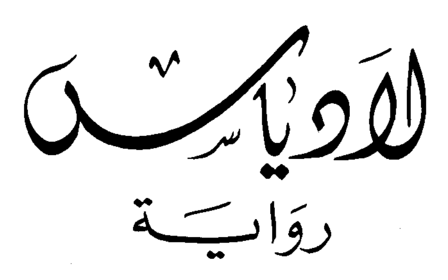
الطابق الثامن - بناية بنك بيبلوس - فردان - تلفون : ٨٦١١٧٨ / ٨٠٠٨١١ / ٨٦٢٩٠٥
تلفاكس : ٤٧٨١٤٣١ (١٢١٢) تلكس : ٤٠١٣٩ L.E كتاب برقياً : الكتاب . ص.ب : ٥٧٦٩-١١ بيروت . لبنان

الموسوعة الشوقية

الأعمال الكاملة

لأمير الشعراء أحمد شوقي




رواية



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بطل هذه الرواية هو: حماس، يعني: أحمس الثاني.

ويبدو أن هذا كان لقباً له، وأن آسمه كان: أمسيس.

وكان الجالس على عرش مصر عندها: ابريس. الذي عرف على الآثار المصرية بآسم خفرع.

وفي الأيام الأولى من حكم ابريس، أو خفرع، أغار على البابليين، وإذا هو يستولي على بعض المدن الفينيقية.

حتى إذا ما آمتد به العمر شيئاً بعث بجيشه لمعاونة اللوبيين على الإغريق المستعمرين لمقاطعة فبرينيقيا (برقة) بشمالي إفريقية.

فإذا هذا الجيش الوطني المصري يُمْنَى بهزيمة نكراء، وإذا هو بعدها يثور بالملك ابريس، وإذا هو يختار أحمس الثاني، أو أمسيس، ملكاً لمصر.

وبعد وفاة أحمس الثاني خلفه على عرش مصر آبنه أبسمتيك الثاني، وهو الذي في أيامه دخل الفرس مصر، ووقع هو في أيديهم أسيراً.

وبدخول الفرس مصر، وأسرهم أبسمتيك الثالث، كانت نهاية الأسرة السادسة والعشرين، التي حكمت مصر منذ سنة (٦٦٠ق.م) إلى سنة (٥٢٥ق.م).

وبقي الفرس في مصر منذ دخولهم سنة (٥٢٥ق.م) إلى أن كُتب للمصريين أن يُخرجوهم من أرضهم بمعونة الإغريق سنة (٤٠٥ق.م).

ولقد شَغل الفرس من صفحات تاريخ مصر صفحة الأسرة السابعة والعشرين، وحين آل الحكم إلى المصريين كانت لهم الأسرات: الثامنة والعشرون، والتاسعة والعشرون، ثم الأسرة المتمة الثلاثين.

وكان آخر ملوك هذه الأسرة الأخيرة تختقبو الثاني، الذي غزا الفرس في آخر أيامه مصر سنة (٣٤٠ق.م).

ومع هذا الغزو الفارسي الثاني بمصر كانت نهاية الحكم الفرعوني الذي دام نحواً من أربعة آلاف عام (٤٠٠٠).

ولم يكن حماس، أعني أحمس الثاني، آخر الفراعنة، كما جاء على الصفحة الأولى، من الطبعة السابقة.

ولو أنه قُدِّر لمن أخرج هذه الطبعة السابقة أن يستأنس بما جاء في ختامها من قول شوقي:

تليها رواية (دل وتيمان)، أواخر الفراعنة، وهي متممة لها، ويعرف القارىء منها كيف زال ملك الفراعنة.

لو أنه قدر له هذا لعرف أنه لا مكان لهذه العبارة هنا، وهي: أواخر الفراعنة. وأن مكانها هناك في رواية دل وتيمان، التي تحمل هذه العبارة في آخرها.

وقد نشرت هذه الرواية أول ما نشرت في مجلة الموسوعات تباعاً، ثم جمعتَ لتطبع طبعة أولى بمكتبة الآداب سنة (١٨٩٩م).

وبعد هذا بعهد يطول شيئاً طُبِعت طبعتها الثانية بمطبعة السعادة، وكانت المكتبة التجارية هي الناشرة لها.

وهذه الطبعة هي التي وقعت لي، وما أظنها خالفت الطبعة الأولى في شيء.

ولقد جاءت خالية من الضبط والترقيم، كما لم تسلم من أخطاء مطبعية ليست بالقليلة، هذا إلى ما حملته من هذا العنوان الخاطىء الذي أرى أنه لم يكن من وضع المؤلف.

وبعد، فلعلني بهذا الجهد الذي أضفته، وبهذا التقديم الذي قدمته، أكون قد وضعت بين يدي القارىء طبعة مقروءة من هذه الرواية، مَجْلُوَّة أحداثها.

ومن الله العون..

ابراهيم الأبياري
ذو الحجة ١٤١٢ هـ/أغسطس ١٩٩٢



الباب الأول

الحوادث في بلاد اليونان

الفصل الأول

نزهة على شاطىء البحر

فَلَكُ المَمَـالِـكِ أَنْتِ فيـه ذُكَـاءُ — يـا مَـلْكَـةً في ظِـلِّها الأُمَرَاءُ[1]

خَلَعَ الجَمَـالُ عَلَيْكِ حُلَّة عِـزِّهِ — وكَسَتْـكِ ثَـوْبَ جَـلاَلِهَـا النَّعْمَـاءُ

يـا زِيْنَـةَ اليُـونَـانِ أَنْـتِ لأُفْقِـهَـا — نَـجْـمٌ وأَنْـتِ لِنَـجْـمِـهَـا أضْـوَاءُ

حَـوّاءُ أُمُّـك أُمُّ كُـلِّ مَـلِيْـحَـةٍ — لَـكِـنَّ مِـثْـلَكِ لَـمْ تَـلِدْ حَـوَّاءُ

كـانت «لادياس» بنت المَلِك «بـوليقراط» صـاحب «سامـوس»، إحـدى ممالك اليونان في غابر الـزمان، تتمشّى في طـريق نُزهتهـا على البحر. تحت الأزين الأنضر من ألفاف الشجر الأخضر. وعند رمل أزهـر، كأنـه دينار واحـد أصفر، والبحر فيما يلي، ينجلي ما ينجلي. وللريح نقِر في صفحـات الماء، كنقر الغزال في الحَصبـاء. وقد قـابل الأصيـل مرآتي البحـر والفضاء، فسـالتا بنُضاره الموهوم، وسالت العوالم والأشياء.

وكانت «لادياس» فتنة الناس، بالبدر الطالع في الغُصن الميّاس، لا من

---

(١) الفلك: مدار النجوم، وذُكاء الشمس.

طينة البشر. ولا من أديم الشمس والقمر. ولكن صورة آية في الصور. فوق مبلغ الخواطر ومنال الفكر. وكانت لابسةً حلة بيضاء. هي فيها حرير تحت حرير وضياء في ضِياء. وعليها من عاطر الورق وبديع الزهر، في الرأس وفوق النَّحْر، ومكان المِنْطقة من الخصْر، ما يجتمع منه باقة زاهرة. «لادياس» فيها الزهرة النادرة. وقد اتحدت بهذه الحلة الباهرة. حتى تشابه المجموع وتشاكل الأمر. فكأنما زهر ولا «لادياس»وكأنما «لادياس» ولا زهر.

وكان يُساير الأميرة في نُزهتها القصيرة. أتراب لها كريمات عليها، وقرينات من أحب الناس إليها. رُبِّين معها في الصِّغَر. ودُمْن على لزامها في الكِبَر. فكانت تحادثهن لاهية ناعمة. وهي تقول: ماذا تقلن يا صاحبات «لادياس» في شروط القِرَان؟ فسألتها إحداهن بسرعة:

- قِران مَن يا مولاتي؟

فأجابت الأميرة مازحة: قِراني لا قرانك، يا فاجرة.

- وأي شروط يا مولاتي إلاّ أن يَخْطُبك حَبيبُك. ويحبَّك خَطِيبُك.

- صدقت، لكن هذا يجوز على بعض بنات الناس. ولا يجوز على بنت الملك. إني أراك تجهلين الأمر. ولا تَدرين ما يجري من الأحوال في القصر. فآعلمي أنه لا يكون من زواجي إلاّ ما أرضى أنا، ويأذن الملك، وتصادق المملكة بعد ذلك عليه. فأنا أقترح أن يكون المُتعرِّض لِخطبتي، الراغب في صُحبتي، فتى بين العشرين إلى الثلاثين، فائق النظراء والأمثال، في الشجاعة والحكمة والجمال. والملك يشترط أن يكون صِهْرهُ ملكاً سواء نال الملك بكدّه وجدّه، أو توارثه عن أبيه بعد جَدِه. والمملكة تريد أن يرفع بَعْلي لآلهة اليونان، أربعين هيكلاً مُشيّدة البنيان. في البلاد التي له فيها المُلك والسلطان.

فَلعِب هذا الجواب برأسِ الفتاة، وساء موقعاً عند سائر البنات. فصِحْن جمعاء قائلات: حقّاً إن هذه لهي الثلاثة المستحيلات. فإنْ صَحّ ما

تقول الأميرة، فلا هي متزوّجة ولا نحن متزوجات.

فقالت «لادياس» وقد أضحكها غضبُ أترابها:
وهل تكرهن أن تأخذن من حالاتي بِنَصيب. فإن تزوجت تزوجتنَّ، وإلا عشتنَّ أبكاراً ما عِشتنّ. فسألتها فتاة:

وكيف الطريقة يا مولاتي في معرفة من يفوق النظراء والأمثال، في الشجاعة والحكمة والجمال؟ أترجعون في ذلك إلى امتحان؟ أم عندكم أن الشهرة تغني الإنسان؟

بل إلى الامتحان. حيث يُكرم المرء أو يُهان. فأمَّا الشجاعة والحكمة فينظر الملك فيهما. ويختار لي من يَستوفيهما. وأمَّا الجمال فيعرض على عَيني وقلبي. فلا يختاران منه إلاّ ما يُصْبِي.

قالت: سبحان المنعم، وجَلَّت أيادي السماء. فَلْو لم تكن مولاتي أسعد النساء، وأنعم بنات حَوَّاء. لما أُتيح لها أن تتزوّج من الرجال من تشاء. بل عندي أن جميع ما سبق من إحسان السعادة إليك في كِفّة من ميزان. وهذه المِنّة بمفردها في الكِفّة ذات الرُّجْحان. ولكن هل اقتصرتم يا مولاتي على شُبّان أبناء الديار؟ أو بلغتم ذلك إلى غيرهم من بني الممالك والأمصار؟

قالت: بل إن المَلِك بعث منشوراً بذلك إلى أُمراء الجِوَار. وإلى فرعون وكِسرى وصاحب الهند، ملوك الوقت الثلاثة الكبار. وعمَّا قريب تتوافد المراكب. حاملة الملوك والأمراء من الأجانب، مُقِلّة الشجعان متقاطرين من كل جانب. وحينئذ ينظر فيمن يليق، ولا يفوز بي إلاَّ الجدير الخليق.

قالت فتاة: إن جماعة القصر، يا مولاتي، يتساءلون عن نبأ عظيم. وأمر يقع الآن جسيم. إلاَّ أنهم يذهبون في التكتُّم على خَط مستقيم. كأنَّما يتجاهلون، أو كأن ليس منهم رجل عليم.

قالت: وعمَّ يتساءلون؟

عن أمر أولئك القوم. الذين يُقْبَض عليهم في كل يوم. ويُزَجُّون في السجن سجن القصر، حتَّى كأنَّ هناك عِصياناً يتلافى الملكُ وقوعه. أو حِزْباً خَفِيّاً هو يَحُلّ نظامَه ويفكّك مجموعه.

قالت: لا عصيان ولا حزب مع مَلِك حكيم عادل مثل أبي. ولكن ربما كان للمَلِك في ذلك مُراد. لم يُطْلع عليه أحداً من العباد.

- حسبت يا مولاتي أنَّ للأمر عَلاقةً بالأمير آبن عمِّك.

فأجابتها «لادياس» مغضبة محتدّة: لا تقولي الأمير. وقولي الشقيّ النَّذل الحقير، وماذا بقي من أمر هذا الخائن الغدّار. ممّا يشغل بال المَلِك من جهته، أو يهُمُّه إلى هذا المقدار. فهو قد كفاني شَرَّه حتَّى لأنا أتمثّله من مكاني هذا سُوقة ضائعاً في مدينة من مُدن اليونان. يَمُدّ يد السؤال إلى كلّ إنسان.

وما زال حديث الزواج يسرِق البنات. خُطُواتهن والأوقات. حتَّى نبّههن هجومُ المساء. واشتمال الوجود بحُلّته السوداء. حِداداً على الشمس الغريقة في الماء. وعندئذ آرتجلت الأميرة حركةً إلى الوراء. كالراغبة في الانثناء. فعارضتها الفتاة قائلة: إن وقت الرواح لم يجىء، بعدَ، يا مولاتي، ونحن قد صِرْنا من حَدَب البحر[1] بحيث تراها أعيننا، وهي الغابة العجيبة الشأن، التي لم نرها إلى الآن. فماذا علينا لو مددنا لأرجلنا الخطى فجئناها، فتمتعنا منها بنظرة، ثم نُعطي الرجوع من السرعة ما تأخذ منّا زيارتها من الوقت.

فصادفت هذه الدعوة أسرع مُلَبٍّ من طيش البنات. فما زلن بالأميرة يؤيدن عندها هذا الاقتراح، ويذهبن كلَّ مذهب من الإلحاح. حتى أذعنت، فسار هذا الملأ الكريم من المِلاح. وما هي إلا ساعة مَسِير بحساب تلك الخطى الخفيفة، وهاتيك الأقدام الناعمة اللطيفة. حتى انفتحت حَدَبة البحر

---

(١) حَدَب البحر: ما ارتفع من موجه.

للبنات. فدخلنهـا بسلام آمنـات، وهي غابـة كثيفة متّسعـة. محدَّبـة كاسمهـا مـرتفعة. وليس فيهـا ما يبعث العجب سـوى شكلها المـائـل إلى الحَـدَب. وكانت من أماكن الأمان والاطمئنان، التي لا يُخاف من وجودهـا على إنسان. فلبث الفتيات فيها برهة من الزمان، في لَهو ولعب وآغتباط وآمتنان. فلندعهن وما هُنَّ فيه الآن. ولْنَخُضْ في شانٍ غيرِ هذا الشأن.

الفصل الثاني

رجال الزورق

كان في «ساموس» جانب من الجزيرة مهجور. بعيد عمّا حوله من المعمور. وكانت فيه كتلة من الصخر هائلة. مُنحنية على البحر مائلة. وهذه الكتلة فيها غار. سَحيق القَرار. مُظلم بالليل والنهار. مرتفع مدْخله عن سطح الماء نحو خمسة أمتار. وكان الأهالي يُسيئون به الظنون، ويخلقون في أمره ما يَخْلقُون. ففريق يَزْعَم أنه من مَكامِن الأشقياء. أشقياء الماء. وفريق يَحسبه مَبيتاً لسَبع جَهنمي من سباع السماء. وعلى كل حال فقد طالما تهيّبوه، وحرمتهم الأوهام أن يقربوه.

ففي ذات يوم أقبل زورق فجراً، من طراز زوارق الإمارة، أو هو واحد منها، وعليه كما عليها الشارة، فرَسا هنالك متوارياً في الحجارة. ثم صدرت منه بالبُوق إشارة.

فأشرف إنسان من الغار ينظر، فخاطبه رجل من الزورق قائلاً: خذ ثوبك يا «بيروس» فالبسه كما لبسنا نحن ثيابنا. ثم إنه شدَّ الثوب بحبل أرسل من الغار فرفعه «بيروس» إليه، ولم يكن إلاّ كلمح البصر. حتى ترك بيته وانحدر. بكل سرعة وحَذر، كما تنزل القِردة من أعالي الشجر. فتلقاه أصحابه، وفسحوا له فركب فجلس. ثم حول الجميع المجاذيف إلى الطريق التي رسموا للزورق أن يسير فيها، فاندفع بهم ينساب. في بحر راكد

العُباب، مأمون المركب على الركاب. وكانوا سبعة رجال. عراض طوال بُهم أبطال[1]. كلهم قد غيّـر شِعاره، ولبس للحـالة حِليتهـا المُستعـارة. حتى صـار رئيسهم يقول: هذا من زوارق الملك وهؤلاء من البَحارة.

فلما جدَّ بهم المضيّ مـع المـاء، وآحتجب بهم الـزورق إلا عن العين التي في السماء، قال أحدهم: ألا تعلمون يا إخوان ما يجري الآن. في ميـاه اليونان؟ قـالوا: بلى فخبـرِّنا أنت بـالخير. ولا تُطِلْ كعادتـك، فليس ذا وقت الهـذي والهذَر، ولا مقـام الحكـايـات والسِّيَـر، التي تصيِّـرهـا مملوءة بكثـرة الأمثال والعِبَر.

قــال: علمت، يا إخـوان، واللبيب يعلم،ومن لا يستفهم لا يفهم. أن «بوليقراط» ذاك الطاغية. السياسي الداهية. يعمل الآن عملاً يحتذي فيـه مثال كثيـرين من ملوك اليونـان الغابـرين. الذين خـالفوا الشـرف والآباء، وحـالفوا لصوص الماء، فاستراحوا، وأراحوا الرعيَّة من أذى هؤلاء الأشقياء، وأنها وأيم الحق لمقدرة من «بوليقراط» القادر. وآيـة من آيات دهـائه النـادر. بل مـا بال سائر الملوك. لا يسلكون مثل هذا السلوك. فيحتالون ليتخذوا لصـوص البحر قُوَّة. مأمولة النفع بعد الضرّ مَرجوة. . .

قال البحارة: مـا لنا يـا «كلكاس» ولتـواريخ الأوَّلين والآخـرين. وانتقاد أفعال الملوك الحاضرين منهم والغابرين. ألم نَدَعْكَ لتوجز وتبين.

قـال: إذن فخذوا الخبـر. واسمعوا القـول المختصر: أن «بـوليقراط»، يعمـل الآن. عملاً من الحكمـة بمكان. سـوف يكون لـه شان. ويبقى ذكـره على مَمَرّ الأزمان.

قالوا: وماذا تراه يعمل؟ فهذا الذي نريـد أن نعرفـه ولا نريـد أن نعرف غيره.

---

(١) البُهم: الشجعان. الواحد: بُهمة، بالضمّ.

قال «كلكاس»، وقد أغضبه مقاطعة أصحابه: إن كان ولا بد من الاختصار المُذْهِب لطلاوة الأخبار. فإني أنقل إليكم الخبر على علاّته. وأدع لعقولكم السخيفةِ عِلْم مفصلاته: سمعت من صاحب أثق به. ولا أشك في عقله وأدبه. أنَّ مياه اليونان. يَجري فيها أمور الآن. لا يعلم بها إلا الملك وزعيمِ الأشقياء «أورستان».

قال البحارة: أهذا كل الخبر، يا «كلكاس»؟

نعم، وإنه لو تعقلون لعظيم، ولكنّي عهدتكم منذ صَحبتكم تحتقرون الأمر الجليل. وتسخرون من كل قال وقيل. وهذا لعمري منتهى السَّفَه.

وأيَّة فلسفة تريد أيُّها المهووس أن نستنبط من روايتك التي لا تقبل الزيادة؟ ولا تشير إلى وقوع حادثة فوق العادة.

قال: وما يدريكم يا أغبى الناس. أن يكون لفعل الملك هذا مساس بنا أو بعروس اليونان «لادياس».

فقال: «بيروس»:

أمّا بِنَا فلا، لأنني أعلم علم اليقين. أن الملك أمسك عن مطاردتي من نحو ثلاث سنين. أي بعد أن اضطرني إلى الاختفاء. وصيَّرني في زعم ميت الأحياء. العاجز عن كل عداء، وأما كون الحادثة قد تكون واقعة من أجل «لادياس» فهذا يكذبه كتاب عنها. حديث العهد بخط أقرب الناس إليها.

وبينما القوم في هذا الذي نصفهم عليه يسخرون من «كلكاس». و«كلكاس» يسخر منهم، إذا بفُلك أربعة. خفّاقة الأشرعة. قد ملكت جهاتَ الزورق. حتى كاد من شدة ضَغطها يَغْرق. ثم وقفت وأطلَّ من أحدها رجل، فصاح يقول: من القوم؟ ومن أين؟ وإلى أين؟.

فوقع البحارة من أمرهم في مَعِيص[1]. ولم يجدوا لأنفسهم من الغرق

---

(١) معيص: مبهم.

من مَحيص[1]. إلاَّ «كلكاس» فإنه لم يمهل الـرجل ريثمـا يستتم، بل وثب من مكانه وقال:

نحن بحّـارة الملك أيُّها الـرجـل، ولولا أنـك تغـالط عقلك لكـان الـزِّيُّ وحـده دلّك، والآن فمن أنت حتى تسيء الأدب على هـذه الشـارة؟ وتهـاجم الزورق وتستبيح حِصـاره، كأنـك لا ترجـو وقاراً لـزوارق الإمارة، وحتى تقف لبحارة الملك في الطريق، وهم في الخِدمة الشريفة التي لا يليق أن يعتـريهم فيهـا تعويق. أليس هـذا انتهاكـاً لحرمـة الملك وعُقوقـاً، وخروجـاً من واجب الطاعة ومُروقاً، ألا تقضي القوانين بالقتل، على مرتكب مثل هذا الفعـل. فيا قـوم: ما أسمـاؤكم؟ وإلى من انتماؤكم؟ حتى نـرفع ضـدكم الشكوى، ونقيم عليكم حال وصولنا الدعوى.

وكان أصحاب «كلكاس» حوله لساناً واحداً يدعوه ليختصر في قوله وهو لا يـريد الإجـابة، ولا يـزيـد إلا إهذاراً[2] في الخطابـة، حتى قـام في اعتقـاد المهـاجمين أن رجـال الـزورق حقيقـة من البحـارة التـابعين، فحـوَّلـوا عنهم المـراكب للحين، ومضوا لسبيلهم تـاركين «كلكاس» يَهـذي وحده كـالخاطب في الناس ولا ناس، حتى أسكتـه أصحابـه فسكت، ثم التفت فقال: إنّ مـع العِيّ لغَبْناً، وإن من السكوت لَجُبناً، أعلمتم، بعـدُ مكاني، أرأيتم كيف نفعتكم فلسفتي وأغنى عنكم بياني!

قالوا: وهل جهلنا مقدرتك وإمكانك حتى تعـرفنا، يا «كلكاس»، مكـانك إنك لأعظمنا إقداماً وبسالـة، وأفصحنا منـطقاً ومقـالة. وأصلحنـا لبـوسـاً لكل حالة، أليس هذا الـزِّيّ نفع من مواليـدرأيك المتبع. وتدبير فكرك الذي يسع من الحِيَل ما يسع؟

ثم إن الـزورق استمر سـائراً دائبـاً على بُغيته رائـداً، حتى ذهب معظم

---

(١) محيص: محيد ومهرب.
(٢) الاهذار: الإكثار من الكلام مع هذيان.

النهار، وتحفزت الشمس لتحتجب عن الأبصار. فالتفت «بيورس» عندئذ إلى أصحابه وقال: لم يبق، يا إخوان، إلا أن ننحدر جهة الشاطىء فنسير بحيث نحاذيه.

قالوا: أوتدري أننا دنونا، بعد؟

قال: نعم؟

قالوا: إذن فإنّا فاعلون!

ثم وجَّهوا السواعد بالمجاذيف جهة البرّ، وظلوا يتقدمون. و«بيروس» يرشدهم أين يتوجّهون. وقد غلب الغرام الفتى على أمره، وحل الإلمام عُقدة صبره. فأجرى من الدمع ما لم يزد أصحابه عِلْماً بِسِرّه. واندفع ينشد من أعماق صدره:

يا آبْنَةَ العَمِّ رُوَيْدا	كِدْتِ للمَفْتُونِ كَيْدا
أنتِ للعَيْنِ سَوَادُ	أنتِ للقَلْب سُوَيْدَا
كان لي في الدَّهر تاجٌ	صار ذاك التاجُ قَيْدَا
كنتُ مولًى صِرْتَ عَبْداً	كنتُ عَمْراً صِرْت زَيْدَا
أنا إن نالت شِبَاكِي	ظَبْيَة جَيْداء غَيْدا[1]
لم أكُنْ أولَ صَبٍّ	أخَذ الغِزْلان صَيْدَا

حتى إذا تكامل للشمس الغروب، وآن للنهار أن ينتحي والليل أن ينوب، دخل الزورق في ظل أشجار، متكاثفة هنالك مرتفعة كِبار، فتقصى «بيروس» النظر. فوجد البقعة صالحة للمُستقر، فأعلم أصحابه أنهم قد وصلوا، وأشار لهم أن يلقوا المَراسي ففعلوا.

ثم نزلوا فتوارى الكُل وآستتر، بين الحجر والشجر، يتربصون الموعد المنتظر.

فلندعهم وشأنهم الآن يتربصون على ذلك المكان، إلى أن نعود فنذكر من أمرهم ما كان.

---

(١) الجيْداء: الطويلة العنق. والغيدا: أي الغيداء، بالمد: وهي المنثنية في نعومة.

الفصل الثالث

لصوص الماء

لم يكن يمضي يوم على الملك «بوليقراط» بدون أن يفد عليه «أورستان» زعيم أشقياء اليونان، أو مَن يُنيبهُ عنه من أعوانه الشجعان، فيلبث في حضرته برهة من الزمان. ثم يأمر الملك من يذهب معه إلى حيث يريد، فلا يأتي الليل إلاَّ ويعود الرسول ومعه أسير مكبل بالحديد، فتصدر الإشارة بإضافته إلى ما في السجن من عديد.

وظل الأمر كذلك تسعة وثلاثين يوماً، بغير انقطاع، وقع فيها بين مخالب أولئك السباع تسعة وثلاثون أسيراً، من بني الأمصار والأصقاع، ليس فيهم إلا ملك مُطاع. أو أمير له الأمراء أتْباع، أو بطل شجاع، شاع ذكره وذاع، وملأ الأسماع. ثم مرَّت سبعة أيام بدون أن يقبض على أحد، أو يُزاد السجن على ذلك العدد، وفي اليوم الثامن حضر «أورستان» يَضْرب الأرض برجليه كأنه شيطان، وعيناه جمرتان، من الغضب متّقدتان. فدخل على الملك، فحيَّاه ثمَّ قال:

لقد كِدت أيُّها الملك أظفر بالبطل الشجاع، الذي لا من البشر ولا من السباع، ولولا أنَّ نفسه العالية الأبي، فضَّلت وُرود المنيَّة، فآثر الثَّواء بقرار البحر، على الوقوع في هَوان الأسر، قال: ومن ذاك يا «أورستان»، وما حديثه؟

قـال: يا مـولاي، فتًى من مصر رفيـع الرتبـة في الضُّبَّاط. تـدل زخارف حُلَّتـه على أنَّه من حـرس البلاط، وكـان على ذاتِ شِـراع، ومعـه ثـلاثـة من الأتباع، فدعوناه كعادتنا للاستسلام. فأبت نفسُ عِصام، فزدناه حصـاراً، فزاد تأبّياً وآستكبـاراً، حتى بلغ من حَيرتي ويـأسي، أن مارستـه بنفسي، فظهرت بسالةُ الفتى على قوَّتي وبأسي. ولـو لم ينجدني رجـالي لَصيَّر البحـر رَمْسي، إلى أن خانه على مِراسنا الجَلَد.

وكان أن أذعنت البسالة للعدد، فصرخ الفتى صَرخة تُذيب الأسـد. قام لها البحر وقعد. وسمعته يقول: مكانك يـا «حماس» إن الجندي المصري لا يعرف التسليم للملوك. فكيف يسلم للصّ صُعلوك. ثم لم أبصر، يا مولاي، إلا بالسّفينة تحترق. ثم إذا بها قـد غرقت، وإذا بـالفتى قد غـرق. فشق عليَّ أن يموت، وأن يفوت ساحة الوغى من عناقه ما يفـوت. لكونـه إنَّما خلق لهـا لا لبـطن الحوت. فقفَّيتـه برجـالي يغوصـون عليه القـرار. وينشدونـه بين العَبَب والتيَّار. وما زلنـا نفعل حتى مغيب النهـار. فلما لم يُجْـدِ الالتماس. ونَفضنـا أيدي اليـأس. رجعنا نبكي فقده. ونبكي الإقدام والثبات بعده.

فقـال الملك، واغرورقت عينـاه بالـدمع: إن كـانت ذاكرتي صادقة، يـا «اورستان». فهذا آسم شاب مصريّ كان لنا وله فيما مضى شان.

قال «أورستان»: وما ذلك يا مولاي؟

كنت عرضت على فلاسفة اليونان. وحكماء سائر البلدان هذا السؤال، وهو: «لقد بلغت الزيادة قصاراها حتى أصبحت أتوقَّع النقصـان. وطال أُنسي بهذا الحال مع الزَّمان. حتى خِفت تحوُّل الحال ونفار الزَّمان. فهل من يصف لي ما يخرجني من هذا الوَجَل؟ وآمن به الدهر أن يـأتي على عَجل؟» فـانهال عليّ من الأجـوبة، مـا ظهر فسـاد جميعه بـالتجربـة. حتى كتب إليَّ فتًى من مصر بهذا الاسم يقول: «إن الحوادث أيُّها الملك لا يعرفن ليلاً ولا نهاراً. بل إنَّهن قـد يَـطْرُقن أسحـاراً. وإني لا أرى للملك مـا يُـدَرِّجَ بـه النفسَ على آحتمالهن قبل ارتجالهن، إلَّا أن يعمد لأعزّ ما يحبّ ويكرم من الأشياء فيُبيده

إبادة. بقوّة الإرادة. ويحرم منه النفس، وهي صاغرة مُنقادة. وهكذا تفعل بين الحين والآخر حتى يصير الصبر لك عادة» فكان هذا جواب الحِكمة والصواب بإجماع أهل الخِبرة، من أعظم الحكماء شُهرة. وأبعد الفلاسفة صيتاً وذكرى. وإذ كانت الجائزة المجعولة لمن يُفيد. ويُجيب الجواب السديد، أن يشتهي عليّ ما يشاء إلا المُلْك، فقد كتبت إلى ذلك الشاب بالتمنّي، ولكنه لم يجب حتى الآن، فإن كان ذاك «حماس» هو الذي تبالغ في وصف بسالته وإقدامه فنِعم الصهر كنا نعتزّ به لو عاش، يا «أورستان»، وهل لمحته عيناك. وقت الاشتباك؟ قال: نعم يا مولاي، أبصرته فأبصرت البدر عند التمام. وألفيته جميلاً بقدر ما هو باسل مِقدام.

قال: كذلك مصر ما زالت مَرزوقة على ممرّ السنين. ميمونة مباركاً لأهلها في البنين. وإن لأهلها لعُذراً إذا ألّهوا بعض الناس منهم، فقد يجتمع للمصري من عظيم الخِصال. ويتمّ على يده من جلائل الأعمال. ما يضيق عنه الطَّوق البشري، وتنوء به عزائم الرجال.

قال: والآن، ما رأي الملك بشأن الأَسْرَى؟ هل يظل مُمسكهم أو في النيّة فكّهم؟

بل سأفُكُّهم وأردُّهم إلى بلادهم خائبين، لأنني لم أجد بينهم ضالَّتي المنشودة.

ذلك ما أرى أنا أيضاً، يا مولاي، ولكن أذكر أن بين الأسرى. أحد أشقاء الملك كِسرى، فماذا ترى فيه؟ وما عندك من الترضية لأخيه؟

- ليس لكِسرى أن يحتجَّ، ولا علينا أن نترضَّاه، إذ الأمر شخصيّ مَحض، ولا دخل للرسميات في خصوص المعاملات، وما علينا إلا أن نكتب إلى الملك بتَفصيل ما جرى، ونخبِره أن الامتحان أسفر عن خيبة أخيه خيبة فاضحة، فلم يعد ممكناً أن أركن إلى مصاهرته، بعد أن ارتبطت بوعودي وعهودي أمام العصر والممالك والناس.

قال: نِعْم الرأي، يا مولاي.

ثمَّ إنه استأذن الملك في الانصراف، فأذن له فانصرف على أن يعود في الغد مُغادياً.

وكان الليل قد أقبل يواشك، فالتمس الملك فتاته ليبلغها ما ظهر وبان من نتائج الامتحان. فقيل له: إنها متغيِّبة لم تعد، بعد، من نزهتها اليومية على شاطىء البحر. فأراب الملك الأمر، وشغله هذا الإبطاء، فجلس إلى نافذة مُطلَّة على طريق رجوع الأميرة وأشرف ينظر، وإذا الطريق تنكشف لمدى البصر خالياً من الأقدام. لا دارجَ عليها إلا الظلام، فجد بالملك الارتياب. واضطرب فؤاد الوالد أي اضطراب. لا سيما إذ لم يكن من عادة «لادياس» أن تلبث خارج القصر بعد العشاء. فدعا الملك ثلاثة من غلمانه الأمناء، وقال لهم: اذهبوا فاستعجلوا الأميرة، وهي عائدة. وقولوا لها: الملك بانتظارك على المائدة. فقالوا: سمعاً وطاعة، وآنطلقوا للحين. خِفافاً مسرعين. فما زالوا بالطريق يُحِيطون به طولاً وعرضاً. وتأخذه عيونُهم سماء وأرضاً. فلم يأت البحثُ بفائدة. ولا رأوا الأميرة لا ذاهبة ولا عائدة. وحينئذ آرتأى الغِلمان. أن يبقى منهم على الطريق آثنان. وأن يتقدَّم الثالث إلى حَدَبة البحر. وهي الغابة التي سلف لها في الفصل الأول ذِكر، لعلّ التلهِّي في المشي قد ساق الأميرة إليها، فلَوَت هي وأترابها عليها. فآندفع الغلام يُجْهِد في السير الأقدام. إلى أن أتى مدخل الغابة، فدخل يُوغل فيها. ويضرب في جوانبها ونواحيها. لا وَجِلاً ولا هَيَّاباً، ولا حاسباً للظلام حِساباً. حتى بُدِهَت أذناه بصوت أُنين، له في جوف الغابة خفيف رنين. فالتفت وتفزَّع. ثم استجمع وأنصت يَسمع.

فأوجس الغلام أيَّما إيجاس. وخشي أن تكون صاحبة الأنين هي «لادياس»، فاندفع حَثِيثَ السيَّر. ويَهُبُّ هُبوب الطير. لعلَّه يُوافيها قبل تناهي الشدة، فينجدها في كَربها قبل فوات النَّجدة. وهو يَنْفُذ على الصوت المدى. لعل أن يجد عليه هُدى. حتى بلغ موضعه، كما يبلغ الصدى مَرجعه، وإذا مصدر التأوُّهات. ومُنبعث الأنات، ثلاث من الفتيات. حقّقهنَّ الحارس في

ضوء النِّبراس. فعلم أنَّهن ممَّن كُنَّ مـع «لادياس»، وأن أبـدانهنَّ الناعمـات. في الحبال مْوثَقات. وبشدّة الـرِّباط مُـوهَنات. فحـلَّ على الفور ذاك الـوِثاق. ومَزّق تلك القيود والأطواق. ثم أنْهِضْنَ فما استطعن القيام. وخـاطبهنَّ فعجزن كـذٰلك عن الكـلام، فتركهنَّ على هـذه الحال، وابتعـد قليلاً بحيث لا يفـوته حِفظهنَّ، ثم أخرج صَفَّارة. وبادل رفيقيه الإشارة، فجاوباه، فـآستمرَّ يَصْفِـرُ، وهما يتوجّـهان وجهة الصفيـر . حتى أقبلا من أقصى الغـاب يُهرولان، فحين رآهمـا حـدّثهمـا حـديث البنـات، ثم دعـاهمـا ليُعينـاه على حملهنَّ حمـلاً، والرجوع بهنَّ إلى القصر، لأنهمَّ من شدة الضعف بحيث لا يمكنهنّ الحَـراك ولا الكـلام. فَضْلاً عن المشي على الأقـدام. فوافق الصـاحبـان على ذلـك، وتكفَّل كل واحد من الفتيان الثلاثة بواحدة من الفتيات الثلاث ثم سـاروا على هـذه الصورة آيبين إلى القصـر، فمـا قـطعـوا ثلث المسـافـة حتى التقـوا في طـريقهم بثـلاثـة آخـرين من الحـرَّاس، أرسلهم الملك للبحث عن الأميـرة ومساعدين لمن سبقهم في هـذه المهمَّة، فحين نـظر رجال الـوفد الثـاني إلى أصحابهم وما يحملون، هالهم الأمر، وسألوا عن السبب فأعلموهم بالحادثة، وأنهم اضطروا إلى العودة بـالبنات إلى القصـر يَشرحن واقعـة الحال للملك، فينظر في ذلك نظر حكمة، أويدبِّر لنفسه أمراً، فاستصوبوا عمل رفاقهم هذا، ثم اتَّفق الفـريقان على أن يستمـرَّ الوفـد الأول في ذهابـه إلى القصر، ليـرفـع الخبر إلى مسامع الملك، وأن يَجِدّ الثـاني في السير، لعلَّه يقف للأميرة على أثر. أو يجيء عن أمرهـا بخَبر. على ذلـك انطلق الأول آيباً، واندفـع الثاني ذاهباً.

الفصل الرابع

أين أصبحت لادياس

كانت «لادياس» كلَّما أصبح الصباح، طلعت على آفاق «ساموس» بالجَلال والجمال هي والشمس. كلتاهما في رَونق ضحاها. وعند سرير مجدها وعلاها، لكن للادياس من الشمس مُصبَحها، وليس للشمس منها مُمْساها.

كانت تصبح كل يوم وإذا المُلك لله ثم لها في بلاد أبيها، والأمر في القصر أمرها، وأهل القصر والملك الوالد في أولهم على قَدم يخدمون إشارتها في كل مُقترح.

كانت عيناها الزرقاوان لا تَنفتحان إلا على نَعيم المُلْك وعِزّ السلطان، وما بينهما من صنوف السعادات، وأنواع الملاهي واللذات.

فإذا لَبِست للإمارة حُلتها، وأخذت تُجاهَ المرآة زينتها، وافى الشعراء حَضرتها، وإذا على لسان كل واحد منهم مرآة تنظر فيها الأميرة إلى محاسنها، كيف كملت، وإلى آدابها كيف جملت، وإلى نسبها كيف شرف وارتفع، وإلى ملكها كيف عظم واتسع.

فإذا أتمَّ الشعراء كلمات المَدح والثناء، أقبَل العازفون وأهل الغناء، فأجزلوا لها من الطرب، وكالُوا لها من كل لحن عَجب.

فإذا خرج هؤلاء دخل الأمراء والوزراء والكبراء والعلماء والحكماء هـذا يسجد وهذا ينحني، وهذا يقبل اليد ثم ينثني، وهذا يضحكها بنادرة يـرويها، وهذا يهزُّ أعطافها بحكمة يلقيها، والكل بين المَهابة فيها والإعجاب، يبالغون لعروس اليونان في الخطاب.

ثم يؤتى إليهـا من أقاصي المـدينة بـالتُّحف الغاليـة، والهدايـا الثمينة، بُرهاناً إثر برهان، على ولاء رعيتها الصادقة الأمينة.

وبـالجملة كانت «لاديـاس» في كل صُبـح هي العنايـة في يـدي ملك، والشمس الورود في فَلَك. ظل للرعية وعِصمة. وسـلام فيهم ورحمة. تمنـح إذا الدنيا منعت، وترفع إذا الأيام وَضعت. ولا تُستشفع إلا شفعت.

إذا عرفت هذا شقّ عليك أن تعلم أن عروس اليـونان أصبحت في غـد تلك الليلة النحيسة، لا تحكيها في شقائها وبؤسها وبلائهـا جاريـة في مملكة «ساموس»، بل في ممالك الأرض جمعاء. أصبحت في ظلمات تلك الصخرة الهائلة، وِسَادُهاالحجر بعد الخَزّ. ورِدْؤُها[1] الذل بعد العزّ. ونكد الدنيـا يتمثل لها في صورة ابن عمها وهو قائم عند رأسها يقول:

انظري أين أصبحت، يا «لادياس»؟

قالت: في أسر شيطانك، يا باغي، وما أسرت إلا الجسم ولن تملكه حتى يصير للدود، فلا تطمع مني بحب ولا قبول. ولا ظفر بمأمول. بل اقتلني فهو خير لك من طلب المُحال، وأهون لي من عذابي بنحس وجهك المستمرّ.

قال: أَمَّا أني أقتلك أو أدعك تقتلين نفسك، فـأَمْر لا يكـون، وأمَّا أني لا أنـال ذاك المُرام ، فهذا، يا «لادياس»،كلام في كـلام، فإن لم يكن لي أن أطمع فإنَّ لي أن أغْصب الإرادة كما غَصَبت المريد.

قالت: إن للفضيلة والطهارة آلهة بهم اليوم آعتصامي، فإن لم يغنوا فإن

---

(١) الردء: المعين والناصر.

غداً بهم آنتقامي، والآن أطلب منك، يا «بيروس»، الراحة الصغرى، بعدما بخلت عليَّ بالراحة الكبرى.

قال: مُري، يا ابنة العمّ!

فشقَّ على الأميرة قبول هذه القرابة، وازدادت غضباً على غضب.

فقالت: إنني أحرمك، يا «بيروس»، أن تدعوني بيا ابنة العم، فقد أخرجك المُلْك من قرابته، ولا يليق ببنت الملك أن تكون أول مخالف لإرادته.

قال وتَبسَّم: ولكني أنا الملك هنا، وأنت لي كل الرعية، يا «لادياس». ومع ذلك فإني عبدك أسألك ماذا تأمرين.

قالت: لقد بخلت عليّ بالقتل، فلا أظنك تبخل عليّ بتركي وحدي، لعلّي أجد بعض الراحة في الوحدة.

قال: ذلك إليك.

وكان حب الفتى لبنت عمه يداني الجنون، وهي بالعكس تبغض ابن عمها بغض الموت، فلم يثنه ما رأى منها وما سمع، عن رجاء انقيادها. والوصول يوماً ما إلى اجتذاب فؤادها. وهكذا كبير الغرام. كبير المرام. فتركها وشأنها وما تبتغي من الخَلوة، ظناً منه أن ذلك منها نفار ويزول. وصدود عنه ستحول.

فنحن نتركه الآن يقضي الأيام. في الأماني والأحلام. ويروم من عروس اليونان ما لا يرام.

الفصل الخامس

الملك بوليقراط

الـهَمُ فـي الـدُّنْـيـا لـنـا شـامِـلُ
لـم يَـخْـلُ لا عـالٍ ولا سـافِـلُ
حِـمْـلٌ إذا شئـنـا وإنْ لـم نَـشـأ
فـكُـلـنـا يـومـاً لـه حـامِـلُ
إذا حَـواه الـمَـلْك فـي بُـرْدِهِ
أوْعـاه فـي كَـشْـكُـولـه الـسـائـلُ
يَـرْقَـى إلـى الـصـاعـد فـي عِـزّه
ويَـلْتـقـيـه دونَـه الـنـازِلُ
ويَـعْـثُـر الـرَّاكـب مـنَّـا بِـهِ
ولا يُـوَقَّـى الـعَـثْـرة الـرَّاجِـلُ
فـقُـلْ لبُـقـراط لـقـد كـان مـا
خِـفْـتَ وجـدَّ الـزمـنَ الـهـازِلُ
أمْـسَـيْـتَ ، لا دارُك مَـلـوءة
أنْـسـاً ، ولا الـصَّـفْـوُ بـهـا كـامـلُ
قـد نـام ذو جُـوع وذو غُـلَّة
ونـام حـافِـي الـنـاس والـنَّـاعِـلُ

ونــام فـــي الــسِّــجْــن سَــجِــيــنٌ بــه
ونــام مَــن أَبْــعــدت والــواصــلُ
وأنْــتَ فــي قَــصــرك أنــت الــسُّــهــا
لا نــومَ لا إغــفــاءَ يــا ثــاكِــلُ

ولمـا بلغ الخبر مسـامع الملك «بـوليقـراط» كـادت لأجله أن تصم من الذهول وشـدة الغم، وكان البنـات هن اللاتي قصصن عليـه قصتهن وما لقين في حَـدبة البحـر، وكيف وصل البحـارة إلى اختـطاف الأميـرة، وصـاحبتهمـا «هيلانة» بعدما ردُّوهن جمعاء إلى العجز، وفقدان الحراك، بقوة الحِبال. ومـا أعدُّوا لهن من السلاسل والأغلال. فلمـا سمع الملك ذلـك أيقن أن في الأمر مكيدة، وأن فتاته إنما وقعت في مَصِيدة.

وكان قد اجتمع بالملك على الفور كل الرجال ذوي الشـأن في القصر، فبدأ الأخذ والعطاء، وحمي الحديث وكثرت الظنون، فكان أول مـا ذهب إليه الملأ أنَّ ناصب الشرك قد يكون أحد الأجانب القادمين إلى البلاد، في طلب الزواج بالأميرة، فلما لم يستطع الوصول إلى ذلك سَوَّلت له نفسه أن يأخـذها غصباً ففعل.

ثم تنقّلوا من هذا الظن إلى غيره، فزعمـوا أن الكمين لا يكون إلا أحـد الرجال ذوي المكـانة في البحـري، بدليـل أن خاطفي الأميـرة هم كما أخبـر البنـات من جُنـد السفن السلطانيـة، وأنهم يعـرفـون عـادات الأميـرة وأوقـات خروجها ودخـولها، ولـولا ذلك مـا جاءوا في الـوقت اللازم. ولا اهتـدوا إلى المكان الملائم.

وفي آخر الأمر ذهب قليـل منهم إلى أنَّ الفخَّ لم ينصبـه إلا «بيروس»، بدليل أنه وليُّ الثارات القديمة، وصاحب العداوة المستديمة، وأن الزيَّ الذي أخبر به البنـات ليس إلا مستعاراً، فهـو حيلة آنطلت على المخـافر البحرية، حتى مرَّ «بيروس» ورجاله في أمن وسلام.

وفي هذه الأثناء حضـر «أورستان» وكـانت الرسـل قد أرسلت تبـاعاً في

طلبه، وما هو إلاَّ أن وصل حتى خاض في الحديث مع الخائضين، واشتغل بالمحادثة مع المشتغلين.

وكان رئيس السفائن السلطانية في جملة المتشرِّفين بمجلس المَلِك، فسأله «أورستان»: هل كان لكم زورق يسير اليوم في الخدمة الشريفة؟ قال: لا، اللهمَّ إلاَّ أن يكون جلالة الملك هو المسيّر له، ولا أدري، فقال الملك: لا أذكر أني أخرجت زورقاً اليوم، ولكن ما علاقة هذا السؤال بما نحن فيه، يا «أورستان»؟ قال: ذلك، يا مولاي، أن رجالي أخبروني قبيل وصول رسلك إلي أنهم التقوا اليوم بزورق من زوارق الإمارة، فيه ثلّة من البحارة. فدنوا منه وداروا به كالعادة، ولكنهم ما لبثوا أن خلَّوا سبيله كرامة لذكر اسم جلالتك فقد قام منهم رجل مِهذار. يبالغ لرجالنا في الوعيد والإنذار. حتى ضحكوا منه بقية النهار. فإذا كنت، يا مولاي، لا تذكر أنك سيَّرت زورقاً، والرئيس يقول إنه لم يخرج شيئاً من ذلك، فلمن ذلك الزورق إذن؟ وما ذلك الزيّ؟ وأين ذهب أولئك البحارة؟ إن الأمر لا محالة مريب، ولكني أتكفل لجلالتك بكشف دخيلته، ولا أسألك أكثر من ثلاثة أيام ثم آتيك بالخبر اليقين. قال: أفعل، يا «أورستان»، ولك الشكر، ولكني قد وجدت الذي ينفعني في البحر، فمن لي الآن بالساعد المساعد في البرّ؟ لأنك تعرف أحوال الجزيرة. وتعلم أن المجاهل فيها كثيرة. فما يدرينا أن تكون «لادياس» نقلت إلى بعض المكامن، حيث هي الساعة مقبورة أو أسيرة. قال ذلك، واغرورقت عيناه بالدمع، فأمسك عن الكلام. وأطرق «أورستان» يفكر في طِلْبة الملك، ثم التفت إليه وقال: قد وجدت الذي ينفعنا في البر، يامولاي. قال: ومن ذاك؟ قال: قد وعدت يا مولاي أنك تفكُّ الأسرى، فإذا كنت فاعلاً فاجمعهم في مجلسك هذا، واعلمهم بحقيقة القصد مما عوملوا به، وأنك لم تُرِدْ بهم الشرّ، ولكن لِتبلوهم أيّهم أثبت جأشاً، وأعظم شجاعة وبسالة.

ثم أعلمهم بما كان من اختطاف الأميرة على أثر ذلك وأن الفرصة قد تهيَّأت للشجاع منهم أن يُظهر شجاعته، فمن وجدها منهم وردَّها إليك سالمة

كان بها أحقَّ، فلا يُعطاهـا إلاَّ هو. فـوافق الملك على هذا الـرأي واستحسنه سـائر أهـل المجلس، فصدر الأمـر عنـدئـذ بـإطـلاق الأسـرى والمجيء بهم معزَّزين مكرَّمين.

ولـم تكن هنيهة حتى جيء بالرجال، وقد أبدلـوا حالاً من حـال. فرُدَّت إليهم أسلحتهم، وعـوملوا بعد الحَقـارة بـالإجـلال. فلمـا دخلوا على الملك خَفّ لهم، فخفّ المجلس على أثره، ثم وقف فيهم موقف الخطيب، فقال:

«أيها الأمراء الأقيال، والشجعان الأبطال؟

إن ما وصل إليكم في مياه مَملكتي من الأذى، وما عانيتم بعد ذلك من السجن، لم يكن عن سُـوء قصـد، ولا ابتغـاء الأضـرار بكم، ولكن لِنبلوَكم أيّكم أثبت في ساعة الهول جأشاً، وأعظم شجاعة وبسالة، وبـالجملة لم نكن فيما عاملناكم به إلا مختبرين.

والآن بـرغمي أن أخبركم أن الأميـرة قد اختـطفت، وهي كما تعلمـون واحدتي التي لا أُعطي الصبـر عنها، فمن وجـدها منكم وردّهـا إليّ سالمـةً، موفورة العِرض، أعطيتُه إياها، فلا يفوز بها سِواه، فاخـرُجوا الآن إلى مبـاشرة العمل، اخرجوا فانظروا ماذا أنتم فاعلون».

فما أتمَّ الملك كلماته هذه، حتى صار الملأ حَيـارى كأن بهم سِحْـراً، أو كـأنهم لا يَعُون، حتى إذا استفـاقـوا من دَهشتهم، وخـرجـوا هـائمين على الوجوه، يخيَّل لكل أن «لادياس» بين عينيه وفي يديه، ولـو كانت في السمـاء لَصعد إليها قبل أن تنزل إليه.

وكـان الليل قـد انتصف أو كاد، فـأشار الملك لأصحـابه بـالانصراف، فـانصرفـوا وانقلب هو إلى مقـاصيره الخـاصة، حيث الملكة، حالهـا كحالـه، وأوجاعها وأوجالها من جنس أوجاعه، وأوجاله، فقضى الوالدان كـلاهما تلك الليلة سُهاداً حتى مطلع الفجر.

الفصل السادس

حياة ثم موت ثم بعث

إنْ كَـانَ عُـمْـرٌ طَـوِيـلٌ فَـمَـا إلَـيْـكَ سَـبِـيـلُ
فَـالـبَـحْـرُ حِـرْزٌ حَـرِيـزٌ والـبَـرُّ ظِـلٌّ ظَـلِيـلُ
ولا الـمَـخَـاوِفُ إلّا حَـوادِثٌ وتَـزُولُ
والـبَـأْسُ لَـيْسَ بِـمُـرْدٍ والـجُـبْـنُ لَيْسَ يُـنِـيـلُ[1]
فَـكُـنْ كَـمَـا شِـئْـتَ إلَّا أنّ الـجَـبَـانَ ذَلِـيـلُ

علم القارىء أن «حماس» غرق في البحر على أثر التقاء مركبه بمراكب «أورستان»، وما وقع بينهما من الحرب العَوَان، وأن القوم غاصوا عليه طويلاً فلم يجدوا له أثراً، وإذ أخذهم اليأس في أمره حوَّلوا مراكبهم عن ذلك الموضع من البحر إلى غيره.

والآن نقول: إن «حماس» لما أُلقى نفسه في البحر، كان لا يزال في أَجله طول، فما صار تحت الماء حتى آنسحب بتيّار كامن خفيف، فلبث فيه هنيهة يجاريه بصَدْر قويّ صحيح، حتى تمكن من إخراج رأسه من الماء. وإذا هو بعيد عن «أورستان» وجنوده، بحيث يرى السفن ولا يراه مَن في السفن، فما تَوَانَى أن ذهب سَبْحاً في عريض الماء، يسلك طريقاً غير طريق الأعداء، وكان البحر هادئاً ساكناً إلا رجّة فيه خفيفة نشأت عن تلك المعركة

(١) المُردي: المهلك.

العنيفة، وخصوصاً عند سُقوط السفينة المحترقة فيه، وكان الفتى طويل الباع في العَوْم، فزاده الأمل بالنجاة طولَ باع في ذلك اليوم، فما زال يَنساب آنسياباً، ويذهب في ثنايا الماء ذهاباً، حتى يمسي وإذا هو بِليل كموج البحر، في بحر كموج الليل، وكان الفتى قد وهت قواه، وبرىء منه ساعداه، بعد أن طال ما ساعفاه، فوقف وقفة المودّع للوجود الساجد للسماء في الماء، لو قدر على السجود، ثم تراخت أعضاؤه، وانحلَّت من الكَلل أجزاؤه، فنزل قليلاً قليلاً يهوي إلى القبر الأعظم، من عالم الدَّأماء.

ولكنه ما كاد يحتجب رأسه في الماء حتى آصطدم كتفه بجسم صلب صَدْمة كادت تترضّض بها عظامه، فتعلَّق بهذا الجسم من حيث يدري ولا يدري، فلم يشعر إلا بحياته قد آنبعثت، وبجُثته قد خرجت من ذلك القبر الهائل، ملأى من روح الأمل بعد اليأس، وقوى الحياة بعد الموت، ثم لم يبصر إلا بلوح عظيم كأنه بقية من بقايا فلك منكسر، وهو يتوكَّأ عليه، ويتخذه سنداً ليديه، فرفع إلى السماء عيناً شاكرة، إلى آلائها ناظرة.

ثم تلا هذا النورَ نورُ الوجود بعد العدم، أضواء ضعيفة تبدو على بعد كأنها دنانير تَهَادى في الفضاء، فدبَّ دبيب الرجاء في حماس، وفاء، إلى الطمأنينة والإيناس، إذ رأى البر وأعلامه، وأيقن أنه عن قريب يجتلي وجه السلامة.

فلبث مدة يسيرة لا يجهد أعضاءه ولا يتحرك، حتى أخذ لِبدنه قسطه من الراحة. وآمتلأ من القوة اللازمة لاستئناف السباحة. ثم دفع اللوح أمامه واندفع يتخذه مُتَّكأه وزمامه، وهو يسرع في سيره تارة، ويتأنَّى في مشيته طوراً، ويستريح مرة، ويصل العوم أخرى، وما زال كذلك نحو ساعتين من الزمان حتى أشرف على البر بسلام وأمان.

ولكن تلك الأضواء التي وجد عليها الهُدى كانت لا تزال تلوح له قصية واهية خفّاقة، بل قد رآها، وهو على خطوات من البر أضعف كثيراً مما كانت

تبدو له وهو في أحشاء البحر، وقد قامت أمامه صخور هائلة لا نر
سبيل مع الظلام إليها.

ومع ذلك فلم ير الفتى بدّاً من الوصول إلى اليَبَس، وا
الليلة على الفراش العام الأمين، فراش السَّراة بالليل والمُعدمين، فدنا من الشاطىء يدفع اللوح، وهو به ضنين، حتى مالت يداه الأرض، فأتبعهما الأقدام، وهو لا يدري أفي يقظة أم في منام، أم هو غريق يختنق وهذه سكرات الحمام، حتى إذا آحتوت الأرض قدميه، كان أول ما فعل أن جذب اللوح إليه يحمله بكلتا يديه، ولو استطاع حملَه في عينيه، ثم قال يناجيه:
«أيها اللوح المنزل رحمة من السماء، المخرج عِصمة من الماء، المسخر لإنقاذي من لَدُن الآلهة الكرماء، أقسم لك بأسمائهم العظيمة، وآلائهم الجسيمة، إني أحملك وأصحبك، وأفي لك كما حملتني في اليمّ، وصحبتني في الغمّ، ووفيت لي فيما أَلمّ. وأعدك وعد حرّ كريم. أني إذا أوتيت ملك مصر آمُر بعودك فتصنع منك قوائم عَرْشها العظيم.
وبعد ذلك مشى «حماس» في ضوء القمر الطالع، يرتاد مَبيتاً بين كُتل الصخر المتشعبّة المتكاثفة هنالك، وهو لا يكاد يجمع أعضاءه من شدة النَّصَب، فهَداه حُسن الحظ إلى مكان صالح بعض الشيء للمبيت، وهو مُستوًى من الصخر، تنحني فوقه كتلة من الصخر كذلك، بحيث يحصل منهما للآوِي وِطاء وغطاء، ففرش اللوح أرضاً واضطجع، فأخذه النوم للحين.

فلما كان الصبح نبّهته الشمس بشُعاعها الأول وبَشيرِها إلى الوجود، فانتبه خفيفَ الجِسم، نشيط الأعضاء، جافَّ الثياب من حرّ الشمس في الحجر.

وكان الجوع والعطش قد أخذا من الفتى كلَّ مأخذ، فأخذ يدبِّر لمعدته أمراً، فلم ير إلا أن يخرج إلى فضاء الأرض يَبتغي من فضل الله، فتأبط اللوح وهَمّ بالنزول من مكانه العالي.

ولم يكد يتحرك حتى نظر أمامه شيئاً أدهشه، واضطره إلى البقاء بعدما عزم على الرحيل، وذلك أنه أبصر على البُعد زورقاً يُلقي المراسي، وقد نزل منه رجل قصير القامة، كثير اللحم والشحم، وله زيّ الصيادين، فجذب الزورق إلى الشاطىء، حتى صار كأنه جزء منه، ثم أخرج منه قُدُوراً وقِرَباً مملوءة، وأشياءَ أخرى كثيرة، وجعل ذلك كلَّه على الأرض، بعضه بجنب بعض، ثم تركه ومشى يَسْلُك طريقاً في الصخر كثير الاعوجاج، فأمهله «حماس» ريثما ابتعد، ثم نزل مُستعجل الخَطو، خفيف الحركات، يرقب بإحدى عينيه الزّورق، ويتقي الصيّاد بالأخرى، حتى بلغ المكان، والرجل ماضٍ في طريقه، مُجدّ في سيره، لا يلتفت وراءه، إلى أن توارى شخصه.

وعندئذ دنا «حماس» من الزورق، وتأمل ما بجانبه من المَتاع، وإذا هو بكمية وافرة من أنواع السِّلاح، فسُرّ بذلك كثيراً، وقال في نفسه: الآن رُدَّت على الأسد مخالبه، فلنبدأ بها فإنها هي الزاد الباقي، لا جوع معها ولا خوف. ثم قلب الأسلحة فتخيّر منها خِنجراً وسَيفاً ورُمحاً وتُرْساً وقَوْساً، ومقداراً من السهام، فتقلّد جميع ذلك حتى صار فيه حِصْناً لا يُرام، وأسداً كلُّ الأرضِ له آجام، ولوى بعد ذلك على القُدور ففتحها واحدة واحدة، فإذا فيها من اللُّحوم والبقول ما يكفي جماعة من الناس مدَّة من الزمان، ثم فتح القِرَب فوجد بعضها مملوءاً ماء، وبعضها الآخر يفيض من أنواع النبيذ، فأكل هنيئاً، وشرب مريئاً، حتى كاد يُؤْذَى من الريّ والشِّبع، ثم لم يكتف بذلك بل أخذ ما قَدر على حمله من الزاد والماء والنبيذ، وانثنى آيباً إلى مأواه، فأودعه هناك وأقام بعد ذلك يترقَّب.

وقد كان أولُ ما خطر على بال «حماس» أن يُعيد جميع ما على الأرض إلى الزورق، ثم يركب فيه فيسير. حتى يبلغ ما خلف تلك الصخور من المعمور، إلاَّ أنه راجع فكره، فبدا له أن هذه الكمِّية الوافرة من الزاد والماء والسلاح لا يمكن أن تكون لذلك الصيَّاد وحده، وأنَّ الرجل ليس صيّاداً كما توهَّم لأول وهلة، بل هو لص من لصوص الماء يأوي إلى تلك الصخور،

ضِمن عصـابة من الأشقيـاء، فخشي الفتى عاقبـة التسرُّع، وخـاف أن يُبصـره القوم وهو في الزورق يسير به، فيرموه بسهام لا طاقة له بها، ولا دفـاع معها، فاختار أن يرجع إلى جحره فيبقى فيه حتى يظهر من ذلك السر خافيه.

فلم يمض إلَّا القليل حتى تراآى شخص الصيَّاد عائداً من حيث ذهب، ثم ما زال يقترب حتى صار بين الزورق وبين القِرَب والقُدور، فلما رآها على تلك الصورة من الخَراب والنقصان غَشِيـهُ من الفزع ما غشيـه، وضاقت الـدنيا في عينيه، فوقف حَيران لا يدري ماذا يصنع، ثم اندفع يبكي ويتوجَّع.

وكان «حماس» قد نزل إليه كأنه الأسد في فريسته بين يديه، فلم يشعـر الـرجل إلا بيـد قويـة قد ضـربته على كتفـه ضربـةً قاسيـة، كادت تكـون هي القاضية، فالتفت مذعوراً، فرأى شيئـاً في طول النَّمـر إذا النَّمر انتصب، ولـه خِـفّة إذا هـو وثب، فتـرامى على قَـدمي الفتى يقـول: الأمـان الأمـان، أيُّـها الشيطان. فتبسَّم «حماس» ضاحكاً وقال: قُم أيها الجبان، إني لست شيطاناً، ولو تأملتني ما وجدتني إلا إنساناً، قال: إذن فالأمـان أيها البـطل الكريم، إني ورأسك لست منهم، وإنما أنا رجل تاجر أبيع للصِ الحقير، كما أبيع للمَلك الكبير.

قال: وأنا أعطيك الأمـان، بشرط أن تُعـرِّفني من أنت؟ ومن أين أتيت؟ وإلى أين ذهبت ثم عـدت؟ وما هـذه الذخـائر؟ ولمن هي؟ تكلَّم وحَـذارِ من الكذب.

قال أنا، يا مولاي، رجل تاجر أعامل عصابات كثيرة من اللصوص، ومن جملتها الشِّرذمـة الآوية إلى هـذا المكان، فـأربح منهـا المال الـطائل، وهـذا الـزورق مصنوع بحيث يُمكنني في سـاعة الخـطر أن ألقي جميـع مـا بـه في البحر، بدون أن يمسَّ الزورق سوء، ولي زمان أعامـل أصحاب هـذا المكان ويعاملونني، وهم لم يأتوا إليه إلا من نحو شهر.

قـال: وأين كانوا قبل؟

كانوا في الصخرة الجَهنميّة، ثم انتقلوا إلى صخرة الحَدَبة، فلم يلبثوا فيها إلا يوماً بليلة، ثم جاءوا إلى الصخرة المَلساء التي هم فيها الآن مقيمون.

وأين هذه الصخرة الملساء؟ قال، وأشار بيده: هي تلك التي تُنَاغِي السماء، ولكنك لا ترى إلا ظهرها، وهي قريبة منًّا، ولهذا لا أرى من العقل أن نُطيل الوقوف هنا، فإما أن تركب معي في الزورق فأنجو بك وبنفسي، وإما أن تدَعني أذهب وحدي، فإنهم يا مولاي شِداد أقوياء، لا تنفعك معهم شجاعتك.

قال: هذا لا يعنيك أيها الرجل.

وهل عُمري لا يعنيني يا مولاي؟

قال: ثبت جأشك أيها الرجل، فلو حضر لصوص الأرض أجمع ما ملكوا لك من دوني أمراً لا خيراً ولا شراً، والآن، قل لي: كم عدَّة أصحابك اللصوص؟

قال: سبعة، بما فيهم رئيسهم، يا مولاي.

قال: وكيف أنت ماض وتاركٌ هذا الزاد؟

بذلك أمرت، يا مولاي.

قال: فإن عليَّ أن أودع بضاعتي هنا وأذهب بعد ذلك فأخبرهم بحُضورها، ثم عليهم أن يأتوا متى شاءوا فيأخذوها، لأنهم لا يتحركون حركة إلا بحساب.

قال: إن أمرهم إذن لمُريب، فهل تعلم دخيلته؟

قال: لا، يا مولاي، والآن ائذن لي بفضلك أن أمضي لسبيلي. فإن لي أطفالاً صغاراً يموتون بموتي.

قال: ذلك لك بعد أن تقول لي: ما المسافة بيننا وبين المدينة؟

ثلاثة أيام في البحر بسير الزَّورق، وأربعة في البرِّ بمشي الأقدام، إلا أن البر أوطأ مركباً، وآمن في هذه الجهات سبيلاً.

قد عرفتُ ما تهمني معرفته، فخذ زورقك الآن واذهب بسلامة.

فانحنى الصيَّاد إجلالاً، ولَعثم كلمات فيها شكر ودعاء، ثم أتى الزورق فركب، وأعمل مجذافيه بقوة، فصار الزورق في عُرض الماء، وعندئذٍ لم يدر «حماس» إلا بذلك الخادع قد صفر صفيراً امتلأت من دويّه الآفاق، وعلى أثر ذلك انحدر من الصخرة رجلان يَهْدران، كأنهما فحلان يتبادران، فحين رأى الفتى ذلك لم يلتفت إلى القادمين، بل بدأ برجل الزورق فسدَّد نحوه سهماً كسهم المَنون، ثم رمى فأصاب مقاتله، فصرخ صرخة واحدة ثم لم يُثنِّ، فأيقن «حماس» أن سهم الانتقام قد أصاب، وأن الكذب قد قتل الكذاب.

ثم إنه استعد للقاء الرجلين، وكانا قد تقدَّما حتى صارا منه وجهاً لوجه، فصاح به أحدهما يقول: من الرجل؟ وما يبتغي؟

ومن أنت، يا لص الخنا، حتى تسأل هذا السؤال؟

ثم لم يزد على أن اندفع يتهادى ذات اليمين وذات الشمال، ويشيد بهذا النشيد، الذي اعتاد أن يقوله في مثل هذه الحال:

إنِّي أنا حماسُ ... لي في الحُروبِ باسُ
مِن خَيرِ جِنْسٍ في الوَرَى ... تَعْنُو له الأَجْنَاسُ
أريكتي ما أمْتَطِي ... وتاجِيَ النُّحَاسُ
وصَوْلجاني صارِمِي ... والرُّمْح والأَتْرَاسُ

وما استتمّ حتى بدر إليه أحدُ الرجلين يلعب بالرمح لعباً، ثم حاول أن يطعنه، فتخلى «حماس» فاستجمع الرجل ليطعن الطعنة الثانية، و«حماس» لم يَهُمَّ ولم يطعن، بل اقتصر على خُطة الدفاع مع منازله، وكان يُلقي معظم باله للرجل الآخر، يراقب حركاته وسكناته، فثنى الرجل، فتخلى «حماس» كذلك إلا أنه عانق منازله في هذه المرة عِناق مُغتصِب قدير، فصرخ

اللص صرخة المَطعون، ثم سقط على الأرض مضـرَّجاً بـدمائـه. كأنمـا جاءه الموت من ورائه. فلم يزده «حماس» على أن قال له: بيد صاحبك لا بيدي يا لص الخَنَا.

وبالحقيقة لم يكن هلاك الرجل إلا على يد صاحبه، وهذا السهم الذي قتله إنما سُدِّد نحو «حماس» مخالسة وغدراً، ولكن الفتى لحظ ذلك فـآرتقب حتى حـان وقت الـرَّمي، فلم يُـرْسَـلْ السهم إلا و«حمـاس» متـدرِّع بخصمـه الأول، فكانت الجناية عل الدِّرع وحده.

أما الرجل فإنـه لما رأى مـا حلّ بصـاحبه هَمّ بـالفرار، فقفـاه «حماس» بسهم آخترقه من ظهره إلى صدره، فألحقه بأخيه جزاء خيانته وغَدره.

وبقي الفتى هنيهة كما كـان وحيداً على المكـان، وقد دخـل في جنون القتـال، وأخذه مـا يأخـذ الأبطال، في سـاعـة الكـرِّ والنِّـزال، فـوقف يـطلب الضرب وحده والطِّعان، طِلاب شجاع لا طِلاب جبان.

وذي جُـنُـونٍ عـاشِـقِ الـقِـتَـالِ
مُـنْـفَـرِد كـالأَسـدِ الـرِّئْـبَـالِ
لا يَـرْتَـوِي مـن مُـهَـجِ الـرِّجـالِ
يُـقَـلِّب الأرضَ عـن الأبـطال
يَـسْـألـهـا هَـلْ مِـن فَـتَـى نِـزَال
لـه الـرَّدَى الـيـومَ أو الـرَّدَى لِـي
إنّي أنا بالموت لا أُبالِي

وفي هذا الأثناء أقبل ثلاثة آخرون من اللصـوص، يتحدرون من أعـالي الصخـر، وكأنمـا نظروا إلى رفيقهم، وقـد أصـابهمـا من بَـأس «حمـاس» مـا أصاب، فلم يدر الفتى إلا بالسهام تساقط حوله تباعاً، آتية من عَلُ. فتزحـزح قليلاً قليلاً حتى خرج عن مَرماها، ثم تخير لنفسه مُـرتفعاً من الصخـر يَحتمي فيه ويرمي منه، فصعد إليه، ثم شرع يُرسل سهامه التي لا تطيش ولا تخيب، فأصاب واحداً منهم في أُمِّ فؤاده، فسقط ميتاً. فحين رأى الآخـران ذلك أيقنـا

أن جنود المَلِك على المكان. وأنهما حيث صار رفاقهم صائران. فألقيا سِلاحهما، ونزعا ثيابهما، ثم انغمسا في الماء، فلم يخرجا منه إلا على الزورق للطيران. وهما لا يصدقان بالنجاة، ويظنان كل لُجَّة جندياً من جنود السلطان.

فلما شاهد «حماس» ذلك، ورأى المكان قد عاذ فخلا له، نزل عن مَكْمنه مسرعاً يتقدم نحو الصخرة الملساء، مستخفّاً بمن بقي من الأعداء، حتى إذا صار تحتها رفع عينيه يتأملها، فإذا بها كُتلة واحدة في صورة البُرْج. لا تصل الأيدي إليها، ولا تَثْبُتُ الأقدام عليها، فوقف يدعو مَن فيها للنزول فالنزال، متغنياً بنشيده الذي يقوله في مثل هذا الحال:

إنِّي أنَا حماسُ لي في الحُروب باسُ
من خَير جِنْسٍ في الوَرى تَعْنُو له الأجناس
أَرِيكتي ما أمتطي وتاجِيَ النُّحَاسُ
وصَوْلَجانِي صارِمي والرُّمْحُ والأَتراسُ

وعندئذ أشرف من ذِروة الصخرة رجلٌ كأنه زنجيّ، لكثافة شعر وجهه، فقال: من الرجل؟ وماذا أتى بك إلى هنا؟

قال: أنا مَن أنا أيها الرجل، وقد أتيت لألحقك بأخوانك الخمسة، ثم لي ولسابعكم شأن.

وأي ثأر لك عندنا، يا سيدي؟ «من أنا»؟

وأي ثأر للناس عند الوحوش غير كونها مُضرة، يجب إزالتها، فإما أن تنزل إليَّ أيها الرجل مُسلِّماً صاغراً، وإما أن أصعد إليك فأجعل هذه الصخرة قبرك.

قال: أما أن هذه الصخرة تكون قبري فهذا ما أشتهيه بعد عمر طويل، فإنَّ فرعون على فخامة جاهه، لو علم بها ما طلب أن يُدفن إلا فيها، وأما أني أنزل إليك وأزايل هذه الصخرة ولو لحظة، فهذا يحول دونه حِفظ العهد، وأداء الأمانة.

قال: وما هذا العهد وهذه الأمانة أيها الرجل؟

قال: هذه أسرار أخفيها، وشؤون لا دخول لك فيها، فإن شئت فاذهب بسلام، وإن شئت فابق حيث أنت حتى يأتي حَيْنك في الظلام. ثم وقف كالمتحمّس وراء حِصْني، وترنم بهذا النشيد:

إنـي أنـا كلكـاسُ البطل الدّواسُ
تُنجدني فَطانتي والرَّأيُ والمِرَاسُ
لا في آغتيالي حِيلَةٌ ولا عَلَيَّ باسُ
وصَخرتي في بُعدها كأنها البُرْجَاسُ[1]
فإنْ أردتَ فآنْصَرِفْ أو فَابْقَ، يا حماسُ
فَلَسْتَ منها خارجاً حتى يَزول الراسُ

ثم إنه احتجب في صخرة كما يُمعن الضبُّ في جُحره، وغادر «حماس» حيران قلقاً، ينظر من جهة فيما يكون من أمر تلك الأسرار، وما يعاني «كلكاس» مراسه من الشؤون الكبار، ومن جهة أخرى يمعن في الصعود إلى الصخرة كيف يكون، وهي كأنها عمود عالٍ طُلي بالصابون.

(١) البرجاس: هدف ينصب مَرْمَى.

الفصل السابع

في طلب الأميرة

كان في جملة الأجانب الذين ذهبوا تحت كل كوكب في طلب الأميرة يفتِّشون عن مكانها، ويعلِّلون النفس بوُجدانها، شقيق ملك العجم، وقد تقدَّم لنا القول بأنه خاب في الامتحان ، فكان نصيبه مما أمل نصيب سائر الأقران.

وكان فتى جميلاً جريئاً، كما تحبُّ المعالي وتهوى العظائم، فحين قال المَلك للقوم ما قال، وكان الأمير معهم يسمع ويرى، شجّعته رؤية الأب الحزين، وجزع على ذلك الكنز الثمين، فخرج مسرعاً، فطلب من أحد الخدم أن يجمعه برئيس الركائب الملوكية، فجاءه الخادم به، فنزع الأمير خاتماً من الياقوت كان في إصبعه، وناوله الرجل قائلاً: هذا الخاتم أيها الرئيس من أنفس ما حمل الملوك والسلاطين، وأنا أودعه لديك على شريطة أن تذهب بي الساعةَ إلى المرابط العامرة، لأختار من خيل الملك جواداً أركبه، فإذا أنا عُدت سالماً رَدَدْت إليك الجواد، ولم آخذ الخاتم، وإذا عاجلني حَيني في سفري، وهلك الجواد لهلاكي، كان لك التصرف في الوديعة لذلك، فتبيعها وتشتري من ثمنها ما شئت من بدل لأمانتك.

فأخذ الرجل الخاتم وتأمله، فإذا هو يَسوَى دواب الملك جمعاء، فالتفت ينظر هل من مطلع عليهما، ثم أشار للأمير أن يتبعه، فتبعه وسارا

تحت ستار الظلماء، حتى وصلا الاصطبل العامر، وهنالك فتحت لـه الحُجر واحـدة واحـدة، وإذا في إحـداهـا ثـلاث أفـراس من أكـرم مـا اتخـذ الملوك للرباط[1]، أحدها فارسي، والثاني أشوري، والثالث مصري، فـأراد الأمير أن يختار، فقال له الرئيس: لو أخذت المصري، يا مولاي، كان ذلك أخفَّ بليَّة، وأدنى إلى السلامة. قال: ولِمَ؟ قال: لأنـه للأميـرة خاصـة، وما دامت غـائبة كمـا تعلم، فالملك لا يسـأل عنه فِـراراً من ذكراهـا بـرؤيتـه، قـال: وأنـا قـد تفاءلت، فلا آخذ إلا هذا المصري، لعل الأميرة أن تعود عليه. قال: هـو لك يا مولاي، ثم قرب منه مَربط الجواد، وهو يُحكمه إسراجاً وإلجـاماً حتى تهيَّـأ للركـوب، فركب الأميـر وسار يـريد أن يسبق إلى «لاديـاس» النهار، فمـا زال يصـل السُّرى في ليـل غـاب نجمـه، وكثف غَيمه، حتى طلع الصبـح عليه، وهو خارج المدينة في أماكن صخرة يستعصي على أرجـل الخيل دوسهـا فيها من غير خطر.

وكانت المدينة لم تغب بَعْدُ عن ناظر الأمير الغريب، وإن هو بَعُدَ عنهـا مسيرة ساعتين على الجواد، فحين رأى أنه يسلك طريـقـاً ليس بالمأمون، وأنه قطع كل تلك المسافة ولم يمرر بِغَياض الحَـدَبة، مـع علمه أنهـا لا تَبْعد كـلَّ هذا البعد عن البلد، خشي أن يذهب سَعْيُه سُدًى، فثنى عنان فرسه يـريد أن يتّخذ له طريقاً غير الذي هو فيه، فالتفت فوجـد وراءه رجلاً سُـوقة لا يُـرى له شأن، وإن بدت مخايل الشجاعة عليه، فعَجِل الرجل إليه يقول: لعلك ضـالٌّ أيهـا البـطل، فـإنمـا تسيـر على الـدَّرْب الأصفـر، وهـو مملوء من المخـاوف والأخطار، فقل لي: إلى أين تريد الذهاب وأنا أدلُّك على الطريق، قال: بـل بُغيتي هذا الدرب الأصفر. قال: إذن فأنت من العصابة؟ قال: نعم.

قـال: ولكن هذي أولى مـرة أراك. قال: وأنـا أيضاً لم أرك إلا اليـوم، فلعـلّ أحدنـا قد دخـل حديثـاً في العصابـة، والآن قل لي: مـا مخاوف هـذا

---

(١) الرباط: موضع المرابطة.

الطريق؟ قال: ليس فيه مخاوف، وإنما حسبت أنك أجنبي عنّا، فأردت أن أوهمك كما أوهمنا الناس من قبل، فلم يعد أحد يستطيع المَسِير على الدرب الأصفر، قال: وما وقوفك الآن هنا؟ قال: ألم ترني كِدْتُ أُرجعك من حيث جئت، لولا أني علمت أنك من رجالنا، قال: إذاً فأنا أشكر لك سَعيك، وأعدك ثناء جميلاً جال ٱلتقائي بالإخوان.

ثم إن الأمير ٱندفع يسير، وهو يحمد تلك المصادفة الحسنة، وعلى الخصوص قوله للرجل في ٱبتداء المحادثة: بل بُغيتي هذا الدَّرْب الأصفر، إذ لو لم يُلْهَم هذا الجواب ما علم بوجود تلك العِصابة، التي لا يبعد أن يكون لها شأن في الحادثة عظيم، وكان قد عَرف من كلام الرجل وإشاراته أين يبتدىء الدَّرْب الأصفر، فأطلق لجواده العِنان فيه، حتى احتجب بين صُخوره وفَيَافِيهِ.

الفصل الثامن

ساكن الصخرة

ما زال «بيروس» منذ وقعت الأميرة في أسره، يلين لها، ويشـرح هواه، كمـا يشرح المـظلوم شكواه، أو السـائل فقـره وبلواه، وهي عنـه في صمم لا ترثي لحالـه، ولا تُلقي بالاً لأقـواله، حتى انتهى الـرجل إلى اليـأس، فانقلب العـاشق فصـار أحقـد حـاقـد، واستحـال الغـرام إلى عـداوة وانتقـام، فعقـد «بيـروس» العزم على الفَتـك ببنت عمِّه، قبـل أن تهتدي حكـومـة المَلِك لـه ولجمـاعته، فتـرجع «لاديـاس» إلى العِزّ القـديم، وعندئـذ يُعطاهـا من تشـاء وتختار، ولا يُعطى هو إلا عاجل الدمار.

وكـان هناك عـاملان مهمّـان يستحثّـان في الفتى نيّـة العـدوان، جنـون اليائس، وخصوصاً إن كان من أهل العِشق، كما هي حال «بيروس»، ووجـود تلك الفتاة الخائنة «هيلانة» أكبر قرينات الأميرة.

وجملة الخبر عنها إلى الآن، أنها كانت الشيـطان السائق لـلادياس إلى الشِّـرك المنصوب من أجـل ثأر لهـا عند بنت الملك، وهـذا الثـأر لا يتعـدّى شخص، «بيـروس» فإن «هيـلانة» كـانت تُحب هذا الشقي، لا تكتمـه حُبّهـا إياه، وذلك قبل أن ينزل عليه سُخط الملك، فلما غضب «بوليقراط» على ابن أخيه، وأخذ ماله وجَرّده عن ألقابه، فرّ من العـاصمة وآختفى تـاركاً «هيـلانة» على العهـد تزداد وَجْـداً على وَجد، فمـا لبث أن استعملت كل حـوْل وحيلة

لمواصلة عشيقها في الخفاء.

أما «بيروس» فكان من الغرام ببنت عمه بحيث لا يُمكنه أن يملك «هيلانة» فؤاده بعدما وقف على «لادياس» وقفاً لا شرط فيه، ولا حاكم غير الهوى ينفيه.

وكنتُ إذا التمستُ لكم بَدِيلاً
أُعاتبكم بِه، عَزَّ البَدِيلُ

إلا أن الفتى لم يكن يبغضُ التي تُحبه، كما أنه لم يَرَ من الحكمة أن يأبى على «هيلانة» جمائلها، وخدماتها المستقبلة، وهي أعظم القرينات منزلة في القصر، ولا سيما في فؤاد الأميرة، فبقاء المواصلة، ولو سِرّية بينها وبينه في منفاه، أمر فيه نَفع وليس فيه ضرر، وبالاقتصار فإن «بيروس» خدع «هيلانة» حتى نال بُغيته بحسن مهارتها وجميل سِفارتها.

حتى إذا مضت الأيام على وقوع «لادياس» في قبضة عدويها، بدون أن ينجح «بيروس» فيما حاول من آستمالتها إليه، وجدت «هيلانة» مجال العمل ذا سعة، فعملت بكل دهائها ومكرها حتى أخرجت «لادياس» من قلبه بسحرها، ودخلت هي ظافرة الغَرام، تتخذ ذلك القَلْب القُلَّب آلة للانتقام.

فلما كان صبح اليوم الذي دهم الأشقياء فيه ما دهمهم، انتبه «بيروس» من منامه، وقد صمَّم أن يقتص من بنت عمِّه أشنع قصاص، فجمع أصحابه وقال لهم: أيها الأصحاب، إني خارج اليوم في بعض الشؤون، فإذا طلع القمر ولم أعد فآدخلوا على «لادياس» فخذوا أنْسَكم منها بقوة، ثم يتقدم أحدكم فيُريق دمها الأثيم، قالوا: سمعاً وطاعة، ثم خرج «بيروس» وسار تاركاً الفتاة على أعظم الأخطار، وهي تستجير بهيلانة فلا تجار، وتود لو وجدت سبيلاً إلى الانتحار فراراً من هول ذلك العار.

ثم كان ما كان مما ذكرناه، ولم يبق في الصخرة سوى «كلكاس» و«هيلانة» وقد أبى الرجل أن ينزل إلى «حماس» بل تركه غضبان حائراً يصول

كل مَصال، ويطلب الطعن وحده والنزال، وانثنى إلى داخل الصخرة فقصّ على «هيلانة» الخبر، فأشفقت وآضطربت، وأوجست خيفة من سوء العقبى.
وكان الليل قد أقبل أو كاد، فشرعت الخائنة تطلب من «كلكاس» بالإلحاح أن يفعل ما أمره به «بيروس» وأن ينوب عن سائر إخوانه في إمضاء إشارة الرئيس، وهو يتثاقل عن تلبية دعوتها السابقة الأوان، ويخبرها أنه ما دام القمر لم يطلع فإن يديه مَغلولتان، ويدخل معها في أبحاث فلكيّة ما أنزل الله بها من سلطان، وكان القمر حقيقة قد طلع وبدا نوره والتمع. فحينئذ عيل صَبْرُ الفتاة، فطَفِقت تتهدد «كلكاس» وتوعده، وتمثل له غضب «بيروس» وانتقامه في أفظعِ الصور، حتى تملّكه الخوف، فاستل خِنجره ودخل على بنت الملك حُجرتها، وهو لا يكاد يمسك قدميه، أو يمسكه قدماه، إشفاقاً من هول ما هو قادم عليه، لأن الرجل كان رحيم القلب سليم النية بقدر ما كان جريئاً مهذاراً، إلا أن «هيلانة» كانت خلفه تدفعه إلى الجريمة، كأنها شيطان القاتل المسلّط عليه، حتى صار أمام «لادياس»، وكانت الفتاة قد سمعت الحديث كما جرى بين «بيروس» وأصحابه في أول النهار، وبين «كلكاس» و«هيلانة» في آخره، فحين دهاها الرجل لم يزدها بقصده علماً بل ألفاها بهيئة قيام وفي خشوع تام، تصلي لآلهتها وتسألهم حسن الختام.

الفصل التاسع

حماس في الصخرة

كان «حماس» قد قضى بقيَّة النهار بأسفل الصخرة لم يبرحها لحظة واحدة، حتى إذا جاء الليل توارى خلف حجر يَعصمه من بَغتات العدو في الظلام، ثم أقام يرقب، فلم تمض ساعتان من الليل حتى طلع القمر يُرسل أشعته على الصخور، فتضيئها من كل جانب، فاستبشر الفتى لهذا الملاك الهادي، والزائر المؤنس، ثم بدت منه التفاتة فإذا هو بظل يُقبل من بُعد، وكأنما يطير طيراناً من سرعة السّير، فازداد «حماس» أنساً على أُنسه، وهنّأ النفس على حَفيد جديد، ولكنه دخل في الحَجر كل الدخول بحيث صار منه بالمخبأ الأمين.

وما هي إلا دقائق قليلة حتى تجسَّد ذلك الظلّ فصار إنساناً طويلاً عريضاً يتقدّم نحو الصخرة وَثْباً، كأنه الليث النافر وهي عَرينه، ثم إذا هو بأسفلها وقد صَفّر صفيراً دوّى له الفضاء، فأخرج «حماس» عندئذ رأسه وخالس الرجل نظرة، فرأى له هيئة أصحابه الذين عرفهم في أول النهار، فهمّ بالخروج إليه ليلحقه بهم، ولكنه رأى سُلّم حبل يُدَلَّى به من أعلى الصخرة، ليصعد الرجلُ عليه، فخشي إذا هو تحرك أن يتنبه له مَن في الصخرة، فيرفع الحبل بعدما أرسله، فأمهل «حماس» غريمه ريثما نزل الحبل تماماً، ثم خرج إليه وهو لا يشعر به، كما يخرج الذئب إلى الشاة، وكان الرجل قد تعلق

بالحبل أو كاد، فتعلق «حماس» معه وقد أمسك الحبل بيد وغرس بالأخرى خِنجره المسلول في أم فؤاد اللّص، فنزل يهوي جثة لا حراك بها، واستمر «حماس» صاعداً حتى بلغ مدخل الصخرة، وهناك استقبله «كلكاس» وهو يحسب أنه «بيروس» صاحب الإشارة، وحامل الصفّارة، فانتصب «حماس» أمامه كأنه «عزرائيل» قد أتى بلا ميعاد، ثم قال له بصوت أنكر من صوت الرعد:

من الرجل؟ وما شأنك؟

فأخذ «كلكاس» الذعر شَرَّ مأخذ، فوقف يتلعثم بكلمات متقطعة، وأسنانه يدق بعضها بعضاً من الرعدة، وهو يقول:

عفواً أيها الملك إن الأميرة بخير.

لا تؤذني أيها الشيطان.

- لعلك عفريت «بيروس»!
- سامحني، يا سيدي «حماس».

إلى غير ذلك من لغو الذهول، حتى أضحك الفتى حاله، فتركه وتقدَّم في جوف الصخرة، فوجد بها حجرة فيها قليل نور، فدخلها وإذا هو بمنظر هائل، إذ رأى فتاتين إحداهما قتيلة لم تجفَّ دماؤها بعد، والأخرى قائمة عند رأسها، وفي يدها خِنجر تَقطر صفحتاه من دماء تلك الفتاة، فصرخ حماس بها يقول:

من أنت أيها الشرّيرة؟ وما هذا المشهد الفظيع؟ فألقت الفتاة سلاحها وقالت: حلمك أيها الرجل، فليست الشريرة إلا طريدة الحياة هذه - وأشارت للفتاة القتيلة - وأنا إنما قتلتها مدافعة عن عِرضي وحياتي قال: وما حديثكما؟ قالت: أنا بنت بعض الناس، وقد وقعت في أسر عصابة من الأشقياء، يَرْئسُها طريد المملكة «بيروس» ثم إنها حدثت «حماس» أخبارها من يوم وقعت في قبضة العصابة إلى الساعة التي هي فيها، ثم قالت: واعلم أيها البطل أنه لولا

بعض رحمة في قلب الرجل الذي مدَّ لك الحبل لكنت الآن مكان هذه الأثيمة الظالمة، وكانت مكاني أنا البريئة المظلومة، فإنها ما زالت تدفعه إلى الجريمة دفع الأبالسة الناس إلى الشرّ، حتى دخل عليَّ ليقتلني، كما هي إشارة، «بيروس» فجاءني كسلان متراخياً كأنما يريد أن يمهلني ما استطاع إمهالي، وفي هذه الأثناء سمع صفير الصفارة، فخطفت هذه الشقيَّة الخِنجر من يد الرجل، وخرج هو ليدلي الحِبال كما هي العادة، فكان من حسن حظي أن الخِنجر سقط من يد «كلكاس» وهي تحاول أخذه منه، فوثبت فسبقتها إلى موضعه من الأرض. ثم حملت عليها وطعنتها به الطعنة القاضية، وإذ كنت قد سمعت طَرَفاً من جدالك في هذا النهار مع «كلكاس» ممّا جعلني أطمئنُّ بعض الشيء، فقد وقفت وقفتي التي رأيتني عليها الخِنجر بيدي، وأنا مستجمعة لأقتل «بيروس» فإن لم أتمكَّن فنفسي.

وكانت الفتاة تتكلَّم ولباس الجُرم ينحل عن جسمها الطاهر، كما تُمَاط الستور عن تمثال بديع فاخر.

فما آستتمَّت حتى رفع «حماس» عينيه فأبصر، ولم يكن رأى من قبل شيئاً، فإذا هو بِمَلِك يبرىء نفسه، وهو البراءة متجسمة. ويتكلَّم، ولو سكت لكان الطهارة متكلمة.

وكانت «لادياس» قد وصفت من قبل «لحماس» فحين تأمَّلها عرفها بتلك الأوصاف. وسبقت فِراسته لسانها إلى الاعتراف، فدنا منها وهو يقول بأعذب هتاف:

يا مَلِكاً فوق الثَّرَى ... قد هامَ فيه الناسُ
إن صَحّ أخبار الوَرَى ... فأَنت لي لادياسُ

فلما سمعت الأميرة هذا الكلام، وكان قد داخلها من الفتى ما داخل الفتى منها، أقبلت نحوه صامتةً، وعيناها تتكلّمان، فنظرت إليه نظرة لا يَقوى على مثلها جَنان. ولئن أطاقها فؤادهُ فلأنه من حَدِيد أو صَوَّان.

ثم قالت مجيبة له بأعذب بيان:

أنت الجَمِيلُ المُفْتَدَى والبطلُ الدُّوَّاسُ
وأنت لي من الرَّدَى ومِ الخَنَا لَبَاسُ
فلستُ أنساها يداً أَسْدَيْت يا حماسُ

قال: وهل تعرفين اسمي يا منية «حماس» قالت: عرفت منذ النهار، إذ أنت تحت الصخرة تنشد نشيدك، تدعو «كلكاس» للنزول، قال: لقد ذكَّرتنيه، فأين هو؟ قالت: لا ينل «كلكاس» منك أذى، فإنه بالكرامة أحقُّ، يا مولاي، ثم إنهما برحا الحجرة ففتَّشا عن «كلكاس» فلم يجدا له أثراً في الصخرة، وكان الحبل مدلَّى لا يزال، فعلما أنه نزل وفرّ على عجل، فالتفت «حماس» عندئذ إلى الأميرة وقال: لم يبق إلا أن نحذو حذوه فننزل نحن أيضاً، قالت: الأمر لبطل الصخرة الملساء.

فمسك «حماس» الحبل بيمناه، وجعل اليسرى سند «لادياس» ثم نزل متَّئداً محترساً، كمن ينزل بحمل من زجاج، حتى مسَّ الأرض، فاستقرَّ به وبالأميرة النزول، وأول ما نقلت «لادياس» القدم تعثرت في جسم بين اللِّين والصلب، فذعرت لأول وهلة، وارتدت مجفلة، فدعاها «حماس» لتطمئنَّ قلباً، وأعلمها أن تلك جثة شقيّ من الأشقياء، فدنت حينئذ منها وتأملتها فعرفت القتيل، فرفعت عينها نحو السماء مبتهلة للعناية، ثم قالت: ما معناه:

يا سماءَ اللُّطْفِ شُكْراً قُتِل الباغي ودِيسَا
لكِ مَجْرى العدلِ طُرّاً وعلينا أن نَقِيسَا

فسألها «حماس»: ومن هذا الباغي، يا مولاتي؟ قالت: هذا «بيروس» ابن عمي ومختطفي، ورئيس العصابة الهالكة، قال: إذن، فقد قطع رأس الأفعى، وأصبح الطريق مأموناً من هذا الصخر إلى القصر.

وكانت لبيروس ذؤابة يعتني بها، ويبالغ في تسريحها وتطبيبها. بقدر ما بلغت الخلقة في تذهيبها. فأعجب «حماس» بها، وأراد أن يتخذها علامة على ما جرى له في ذلك اليوم مع الأشقياء. وذكرى لوقائع الصخرة الملساء،

فاستأذن الأميرة في ذلك، فأذنت له، فاستأصل الذؤابة من جذورها، ثمَّ تمنطق بها، فكَفَت ووَفت.

والتفت بعد ذلك إلى «لادياس» فقال لها: الآن آجعليني أيتها الأميرة زمامك، وثبِّتي أقدامك، ولا تبصري إلا وقدَّامك، فإن ذلك أمضى سلاح يتقلَّده الإنسان في مكان مَخوف مثل هذا المكان، قالت: سمعاً وطاعة، ثم مشى البطل المصري، ومشت أميرة «ساموس» بجنبه كأنها ظلُّه المديد، أو رمحه السديد، وهو يتوجَّه بها حيث وصف له ذلك الصياد، وينظر في سهل الطرق ويرتاد. فيهبط الأغوار، ويعلو الأنجاد، وتُسلمه الهضاب إلى الوهاد. حتى أقامه السُّرى في طريق مستوية منبسطة، يشرف عليها الصخر من الجانبين، فكأنها مضيق بين جبلين.

وكان قد ذهب من الليل ثلثاه، والقمر لا يزال ملتمع الضياء، وهّاج السِّراج في الأرض والسماء، فمال بالأميرة السُّرى، ومالت إلى الكُرى، فاشتهت من «حماس» لو سامحها في الاضطجاع، ولو هنيهة من الزمن، فلم ير من بأس في تلبية هذا المقترح، وفتَّش للحين عن جانب من الأرض يصلح لضم ذلك الجسم الناعم، فلما وجده عرضه عليها، فاضطجعت واضطجع هو أيضاً دون قدميها، فأخذهما كليهما النوم، فناما مثقلين بالمتاعب. ثملين من كأس السُّرَى النَّاصب.

فحين تملَّك «حماس» المنام، وسرت روحه من دنيا الأوهام إلى عالم الأحلام، رأى في نومه كأن الشعب في «سييس»، عاصمة مصر يومئذ. يلبسه تاج البلاد، ويجلسه على عرشها، ثم كأن الأُمة بأسرها موكب له يسير فيه إلى الهيكل الأعظم، ثم كأنه دخل الهيكل فمثل سُدّة الآلهة، فحمدهم وأثنى عليهم، ثم هَمّ بأداء يمين الطاعة والأمانة لهم، فسمع عندئذ من وراء الحجاب صوتاً يقول: «ليس للملك يمين، وعند اللوح الخبر اليقين»، فتذكر «حماس» على الفور أقسامه ووعوده للوح، فانتبه من نومه مبغوتاً مذعوراً، فنظر إلى «لادياس» فإذا هي لا تزال في أسر النعاس، فحدثته نفسه

المضطربة أن يرجع إلى حيث تـرك اللوح، فيأتي بـه قبل أن تهبَّ الأميـرة من رقادها، فنـظر إليها نـظرة معتذر خجـل، ثم تركهـا في حفظ الآلهة، وانـطلق يعدو في طلب اللوح، فلو رأيته حسبتـه يقظان وهـو نائم، لم يستفق بعـد من النوم، وإنما تلك حال كانت تعـاوده في منامـه، فيبلغ إلى مثل هـذا الحد في أحلامه.

الفصل العاشر

كيف انتبهت لادياس

بينما كان «حماس» يخبط في أحلامه، ويأخذ ليقظته من منامه. وقد حل سلطان النوم عقدة من أقدامه. فانطلق مستعجل الخطو، حثيث الهدو، يكفر عن ذلك السهو، كان فارس آخر، لا يقلُّ عنه حسناً وجمالاً، ولا تكاد العين تفرق بينهما شكلاً واعتدالاً، يطلق لفرسه في الطريق العنان، ويتقدَّم بسرعة نحو ذلك المكان. حتى إذا صار على مقربة من مرقد الأميرة، جَفل فرسه وكاد يكبو به لولا شدة احتراسه، فكان ذلك للفارس بمثابة الإنذار. فأخذ لنفسه من الموقف الحِذار. ثم أرسل النظرات تباعاً، فوقعن على إنسان قد توسد الأرض، فتوهَّمه لأول وهلة قتيلاً. ترجَّل من فوره ودنا منه، ثم حقَّقه في سنا الفجر، فخيل له بادىء بدء أن المكان للآلهة، وهم عليه رقود. وأن الفجر إنما يستمد لألاءه من ذلك العمود الممدود. فواصل التأمل فإذا هو بفتاة ما خُلق الجمال إلا لها، وعليها من الحُلل والحَلي ما يمثّل المُلك وشعاره. وتُبين عن عزّ الإمارة، فلم يقم بنفسه شكّ أنها «لادياس». تأخذ لعينيها بقسطيهما من النعاس. ففرح أعظم الفرح بقربها، وتقدَّم فاضطجع بجنبها، ثم أقام يراقب حركاتها، وينتظر انتباهها من طويل سباتها.

وفي هذه الأثناء لمح الفارس عند قدمي الأميرة سيفاً ملقى، فتحرَّك فأخذه وتأمله ثم تقلَّده، ووجد مكان السيف أثر رقاد، فعلم أن السِّلاح سلاح

«حماس» ولكن لم يعلم أين ذهب منقذ «لادياس.».

وكانت الأميرة قد هبت من نومها، فالتفتت إلى صاحبها وقالت: أين نحن الآن يا سيدي «حماس»؟ قال: في الدرب الأصفر، يا مولاتي، وبيننا الآن وبين المدينة مسيرة يوم كامل، فحين سمعت «لادياس» هذا الصوت، أنكرته مسامعها، كما أنكرت عيناها هيئة الفارس من أول نظرة، فنفرت عنه كالمُنبغتة، ثم قالت: من أنت أيها الفارس؟ ومن جعلك مكان البطل «حماس»؟ قال: أنا هو ذا يا مولاتي، أنا «حماس» بعينه، وما مسخت ولا جعل أحد مكاني، ولكن شُبّه لك، فتأملته الفتاة مليّاً، وكانت فيه مَشابه من بطل الصخرة الملساء، فما ازدادت الأميرة إلا آنبغاتاً، وهمَّت أن تتَّهم الظلام، وأن ترى في ثياب الفارس منقذها الهمام. فلما آنس الفتى منها ذلك أقبل عليها ملاطفاً يقول: و«حماس» أيضاً اسم وضعته لي أوهامك يا مولاتي، ولا أحسبك إلا قد استفقت مما كنت فيه من الذهول، فكادت هذه العبارة تخرج عقل الفتاة من رأسها، وألفاها الفتى غادية على خطر الجنون، فأردف في الحال بأن قال: ما بالك، يا مولاتي، باهتة باغتة؟ كأنك تشكّين في أمري، ألست مبيداً لعصابة الأشقياء؟ ألست بطل الصخرة الملساء؟ ألم يكن لي ولأعدائك الشأن العجيب؟ ألم أدخل عليك الصخرة، و«كلكاس» فيها، فحين رآني لم يملك ليديه حراكاً ولا لقدميه انفكاكاً. ألم أجدك أسيرة ففككت إسارك؟ ومهدّدة فأمنتك؟ ألم نفتقد «كلكاس» بعد ذلك فما وجدناه؟ فما بالك وهذه دلائلي وأماراتي لا تزالين لي بالجحود؟ ولا تعودين لأنسك المعهود؟ فراجعي، يا مولاتي، عقلك، واعلمي أنك ماكنت إلا في خيال، وما اختبلك إلا رؤية تلك الأهوال، والآن أنت بحمد الآلهة ناجية سالمة، وعن قريب على أبيك الملك قادمة، فلا تجعلي جزائي عمَّا قاسيت بالأمس. أن يقال ردَّها وبها مَسّ.

وكان الفتى يتكلَّم و«لادياس» تسمع ولا تكاد تعي من شدَّة الدهش، إلا أن ما أشار إليه الفارس من حوادث الأمس قد أنزل عليها بعض السكينة، كما

أن مشـابهته لحمـاس كانت تـدعوهـا للطمأنينـة، فما لبثت أن اتهمت ظنـونها وأوهامها، فرجعت إلى الفتى آمنة مطمئنَّة تسـأله، ومن أين لنـا هذا الجـواد يا سيـدي «حمـاس»؟ قـال: لقـد آن أن يمحي هـذا الاسم من لـوح خـاطـرك الشريف، إذ ليس له في الحقيقة وجود إلا في وهمِك، قالت: فكيف أسمِّيك إذن؟ قال: الأمير «بهرام» شقيق ملك ملوك ميديا وفارس، فاهتزَّت «لاديـاس» لهـذا الاسم وهـذا اللقب، وانحنت فحيَّت الأميـر، ثم قـالت: من أين هـذا الجواد، يا سيدي«حماس»؟ قال: لا حَوْل لنا الآن في هذا الذهول ولا حيلة، فتـأملي الجـواد أيتهـا الأميرة، لا تجـديـه إلا جـوادك، فـدنت «لاديـاس» من الفرس، فوجدته حقيقة جوادها المُهدى إليهـا من مصر، فقـالت: ومن أعطاك إياه؟ قال: أخذته من مَـرابط الملك لهذه الغـاية، والآن لم يبق يـا مولاتي إلا الركوب، لعلنا نختصر من الـزمن، فلو علمت حال المَلِك من الـوَجد عليـك لاخترت أن تَطيري إليه مع الريح، قال هذا، وأخذ بيد الفتاة فـأركبها، ووثب بعد ذلك فصار خلفها، ثم أطلق للجـواد العِنان، وهـو يهنِّي النفس على هذه الغنيمة الباردة.

الفصل الحادي عشر

بوليقراط والدهر

قد بلغ من شقاء الملك «بـوليقراط» على أثـر اختفاء فتـاته أن زهـد في الـدنيا ولـذَّاتها، وتسلَّى عن الإمـارة وطيّباتهـا، وأصبحت نفسـه على نعيمهـا الموفور تحسد سائـر الأنفس على كافـة حالاتهـا. وبالجملة فقـد حقَّت كلمة الدهر على طاغية «سـاموس» وعلت الحـوادث فوق عليـائه. فـدهمته بضـرَّاء أنسته ما كان من سَرَّائه.

إلا أن البحث عن الأميرة في كل ناحية من نواحي المملكة كان كل يوم في ازدياد، خصوصـاً «أورستان»، فقـد كادت سفنـه تقلب الأمواج. عن تلك الدرَّة الساقطة من التاج.

وكانت نتيجة البحث تعرض على الملك ومجلسه في كل يـوم، بل في كل ساعـة، فلا يـزداد إلا بأسـاً على بأس من لقـاء فتاتـه العزيـزة، بل حيـاته الغالية.

وللوالـد العذر فـإنه لم يقبض في خـلال ذلـك الشهـر النحيس إلا على رجلين قليلي الشـأن، لا يمكن أن يبني على وجـوههمـا أدنى أمـل بكشف الحقيقـة، أما أحـدهما فـأُخذ في البحـر، وفتَّش زورقـه فـوجـد بـأسفله ثقبـاً صناعياً، ينفتح لدى الحاجة وينسدُّ لدى الحـاجة كـذلك، فكـان ذلك مجلبـة للريبة في أمره، فقُبض عليـه وسيق إلى السجن. وأما الآخـر فوقـع في قبضة

الشرطة حديثاً، وهو وافد على البلد من طريق مَهجورة مريبة، وبهيئة منكرة مشكّكة، فلما سئل تظاهر بالبَله والعَته، فلم يزد النفس إلا جناية عليها، وكان نصيبه من البلاء نصيب صاحبه الصيَّاد، وقد تعبت الحكومة وتعب رجالها في بَلادة الرجلين وبلاهتهما وتصميمهما على الجحود والإنكار، فاكتفت بتركهما في السجن، وكان منها عليهما نسيان طويل.

فبينما الملك ذات يوم كالعادة يشاور أهل مجلسه ويشاورنه في خَطبه الجلل، وقد ظهر الضعف عليه وبان، وأخذ يهرم قبل الأوان، لم يدر الجَميع إلا بالقيامة قد قامت في المدينة، وكان الوقت الضُّحى، والحركة في الطرق والأسواق عظيمة، فساعد ذلك على نموِّ الضجَّة تلك الهائلة حتى بلغ صداها عنان السماء.

فأشرف الملك من نافذته ينظر ماذا طرأ، وأشرف من معه من سائر النوافذ، فإذا هم برجال كالرياح أو أسرع جرياً، ووجهتهم القصر، فاستبشر «بوليقراط» برؤيتهم، ووجد يعقوبِ ريح يوسف من أول وهلة، ثمَّ ما هي إلا هنيهة حتى اقترب الرجال من القصر كلَّ الاقتراب، ثمَّ سبقهم إلى الجدار المشرف منه الملك رجل كأنه سارية، فوقف ثم صاح بصوت كادت تميد له جوانب القصر، يترنَّم بما معناه:

بُشراك يا مَلِكَ البلادْ إن الذي تَرجوه عادْ
عادت أميرتُنا إليك ولم يَطُلْ منها البعَادْ

فحين سَرَت هذه البشرى في خُروق المسامع السلطانية، لم يكن على الملك ساعتئذ إلا خاتَمٌ في إصبعه، من أنفس ما حمل الملوك والسلاطين، فرمى به إلى البَشير، فتلقَّفه وانقلب شاكراً داعياً.

ثم تلت وفد البشرى وفودٌ من الشعب تَتْرَى، مهنّئة الملك بأناشيد المديح، من كل وزن، ومعنى مليح.

ثم أقبل رسول من الأمير «بهرام» يحمل رسالة مختومة منه إلى الملك،

فقوبل من باب القصر إلى الحجرة السلطانية بالوُجوه الباشَّة والصدور الرحبة، حتى إذا مثل بين يدي الملك، رفع إليه الرسالة فتناولها وقرأها، فإذا هي قد جاء فيها ما معناه:

مولاي الملك الموقَّر.

قد توفقت بفضل الآلهة وبمَنِّ تضرُّعاتك الأبويّة المستجابة لوجدان الأميرة العزيزة، وأنقذتها من يد الشقيّ «بيروس» ورجاله، بعد شدائد جسيمة، وأهوال عظيمة، والآن نحن عند الباب الثاني للمدينة، ننتظر من حكومة جلالتك أن تهيىء لنا موكب الوصول إلى القصر، وهناك أردّ إلى الملك فتاته الكريمة كما أخذتها من يد العِناية، محفوظة بأكمل السلامة وأتمّ الرعاية.

التوقيع
الأمير بهرام
شقيق ملك ملوك ميديا وفارس

فلم يكتف الملك بقراءة الرسالة في نفسه، بل تلاها على الملأ بلسان تُثقله نشوة الطرب، فاشتغل المجلس للحين بتهيئة الموكب المطلوب، وحُملت إلى الأميرة وإلى مُنقذها الأمير ملابس الزينة اللائقة بمقامهما الخطير.

هذا بعض ما اتَّخذت الحكومة من التدابير. وما أعدَّت من الاحتفال لاستقبال الأميرة والأمير، فما بال الشعب، وقد عرف القارىء مكان «لادياس» عنده. وكيف كان يحبّها جهده ولا يريد أن يولي سواها عهده، فلا تسل عن مجالي أفراحه. ومظاهر سروره وانشراحه، وحدِّث بما شئت عن معالم الأنس في المدينة، وما أضفي عليها توّاً من حُلل الزينة.

فلم يكن الأصيلُ إلا والبلد قد ازَّين، والموكب قد سار بين إعظام الخلائق والإكبار.

وكان الملك في انتظار وفود الأميرة بالقصر، فحين أقبل موكبها استقبلها هو وسائر أهل مجلسه، كما يستقبل الشحيح كنزه المفقود، أو العليل الفاني عائد الوجود، وهنَّأها الجميع على نجاتها من شرِّ الأشقياء، ثم أقبلوا على الأمير «بهرام» وكان متوَّجاً بأكاليل الغار، علامة على الفوز والانتصار، وعنواناً على كسب المجد والفخار، فهنَّأوه كذلك بخروجه سالماً غانماً من تلك المعارك، وشكروا له مِنّته العظمية على الملك والملكة، بإنقاذ الأميرة الفخيمة، ثم خاطبه «بوليقراط» فقال: «أيها البطل المجامل، وغداً أقول: أيها الصهر الكريم، لقد أعدت للوالد مُهجته، ورددت على التاج دُرَّته، ومثلك يُرْجَى لهذا ولمثله، وهذا الكنز على عِظَم قيمته. سوف يقدم لك برُمته. فقد أصبحت آمُل أن الحكومة والشعب يوافقانني على الاكتفاء بما كان، لتقرير القِران، وإن نكن قد حصلنا على شرط واحد وبقي شرطان اثنان» فقام الأمير على أثر ذلك فقال: أُعد من سعودي أن مولاي الملك قد اختارني للشرف السامي، شرف مصاهرته العليَّة، وأني بما نلت من جليل ثقته لأسعد، إلا أنه برغمي أن يَعلم الملكُ أن ما مرَّ على الأميرة من الحادثات، واختلف عليها من الأهوال، لا يزال له أثر خفيف في قواها العقلية، فلقد عهدتها تفقد الصواب في بعض الأحيان، فتهذي بوساوس أعجز عن فهمها. وتذكر من الأسماء ما لا وجود له إلا في وهمها، ولكنِّي أبشِّر الملك بأن هذه الحال، وشيكة الزوال، وأنه لا يمضي على الأميرة أيام، حتى تحصل على الشفاء التامّ. فقد ذهب عنها الآن معظم ما كانت فيه من الذهول المتاخم للجنون، وأصبحت تتماثل، وتنبعث قواها وتتكامل، فكيف اليوم وهي موفورة الراحة والهناء، مردود أمرها إلى عناية الأطباء، فما آستتم الأمير حتى عاد الكدر فاستولى على الملك «بوليقراط» واشتغل سائر أهل المجلس بهذه الحادثة الجديدة، وأخذ الكل يسألون الأميرة عن أمور حدثت لها في صباها، فأجابت أحسن جواب، ولم تخرج قطُّ عن دائرة الصواب، حتى جاء ذكر الحادثة التي نحن بصددها، فأحسنت الوصف، ووفت الشرح، وما زالت تفصّلها للمجلس تفصيلاً، من ساعة أن وقعت في أسر الأشقياء إلى ساعة أن دخل عليها

«حمـاس». فلما نـطقت الأميرة بهـذا الاسم كاد الملك يجنّ لـذكـره، وكـان جنون «أورستان» يكون أشدَّ وأعظم، فصاحـا معاً، وهـل خرج «حمـاس» من بطن الحوت؟ ثم أردف «أورستان» بأن قال: أما الأمير فلا يخلو من مشابه من «حماس»، وأما أن يكون «حماس» حيّاً يرزق فهـذا ما لا أصـدِّق، ولو لقيتُـه وجهاً لوجه وكلَّمته فماً لِفَم، وحينئذ فلا أحسب الأميرة إلا ذاكرة ما كنت أقوله للملك عن «حمـاس» وهي حـاضـرة، فعلقت اسم ذلـك البـطل، وهي الآن تَهذي به في جملة خطراتها.

ثم انتهت الكلمة الأخيرة من بعد ذلك إلى الطبيب الخاص، وكـان في المجلس، فلم ير في أحوال الأميرة ما يدعو إلى القلق والفـزع، بل أبـدى أن بضعة أيام تكفي لذهاب الرّوع عنها، فلا تلبث أن تعود إلى ما كانت عليه من تمـام صحّة العقـل والجسم، وعلى ذلك انفضَّ المجلس بعـد أن أمر الملك للأمير الفارس بالمقرّ اللائق بمقامه، ووكل بخدمته من يعتنون بأمره ويبـالغون في إكرامه.

الفصل الثاني عشر

قرية الوحش الهائل

لما بلغ «حماس» الصخرة الصمَّاء، وكانت الشمس في رونق الضُّحى، افتقد اللوح فوجده حيث تركه، ووجد عنده ذاك الزاد وذا الماء، فتأبطَّ من فوره اللوح، وحمل ما يكفيه هو والأميرة من الطعام والشراب، وحينئذ ذهبت السَّكرة وجاءت الفكرة، وأدرك الفتى أنه أساء إلى «لادياس» إساءة قد تتناول حياتها بتركه إياها وحيدة فوق طريق اللصوص والوحوش، فندم أعظم الندم ورجع على الفور القهقرى، وهو يعدو عدو الظَّليم، فلم يكن الظهر حتى وصل المكان المعلوم، وهنالك فتش عن مضجع «لادياس» فلم يجدها، فكاد الموقف يطير بلبِّه. ودخل في أشبه الحالات بالجنون، فذهب بالبحث في غير كنهه، ومضى من بين الصخور يهيم على وجهه. وكان العقل أن يسلك الطريق الأقصد الأقصر، طريق الدرب الأصفر.

فبينما هو في هُيامه يوغل في الصخور إيغالاً، ويذهب فيها يميناً وشمالاً، سمع زئيراً مادت له الصخرة الصمَّاء، واهتزَّت له جوانب الفضاء، فما فزع ولا انذعر. بل وقف يتقصَّى النظر، فإذا هو بأسد هائل كتلة الجسم، وقد قصد نحوه يتخطَّى له الصخر، وهو يهدر كالفحل، فثبت «حماس» في مكانه. يتراءى للوحش بكل عِيانه، ثم اندفع يهتّز ويتثنَّى، ويترنَّم بهذا الكلام ويتغنى:

إنِّـي أنـا حـمـاسُ لـي في الـحـروب بـاسُ
من خيـر جِنْسٍ في الـوَرَى تَـعْـنُـو لـه الأجـنـاسُ
أريـكـتـي مـا أمْـتـطي وتـاجِـي الـنُّـحـاسُ
وصَـولـجـاني صـارِمـي والـرُّمْـحُ والأتـراسُ
يـا مـن يُـريـد لي الـرَّدى رُدَّت عـلـيـك الـكـاسُ
وأحصيتُ منـك الخُـطـى وعُـدَّت الأنـفـاسُ
مـا فـي حـمـاس حِيـلـة ولا لـه مِـرَاسُ
قـد تَـعـب الـوحشُ بـه وحـار فـيـه الـنـاسُ
ولـسـت مـن أكـفـائـه ولا بـه تُـقـاسُ
فـطأطـىء الـرأسَ لـه فـمـا عـلـيـك بـاسُ

فكانت هذه الصَّيحات. وما تقدَّمها من شدة الثبات. وخفة الحركات، كنذير للوحش أن القِرْن. ممَّن يقام له وزن. ولا يستخفُّ له شأن، فتباطأ في مشيته، وتخلَّى عن كثير من عِزّته، حتى صار من بطل الصخرة الصمَّاء وجهاً لوجه، ولم يبق بينهما إلا دائرة النزال. والبعد اللازم للتناوش والقتال.

فبدر «حماس» إلى الأسد، وكان الوحش نادراً في نوعه من حيث الجسامة والضخامة وطول السواعد وعظم الهامة، حتى كنت تراه بالثيران الوحشية أشبه منه بالأسود، وكانت لهلِبَدْ وافية ضافية، يحتجب فيها رأسه وتبرز أنيابه من خلالها، كأنها المنايا الزرق، وله عينان حمراوان تذيبان الحديد فما بال الإنسان. فحين رأى «حماس» وقد برز له شعر على ساعديه، وزأر زأرة رجّعت صداها الآفاق، ثم حمل على «حماس» حملة منكرة، فتخلى عنها وراغ كالثعلب منه ومنها، فعاد الوحش فثنّى وهو يكاد يخرق الأرض ويبلغ عنان السماء طولاً، من هول دَبدبته وخفّته في وثبته، فمرق «حماس» هذه المرة من تحت بطن الأسد، وهكذا طفق الحيوان يثب تارة ويَحوم أخرى، ويجري يمنة ويصول يسرة، ويقوم ويقعد، ويرغي ويزبد و«حماس» يُغريه ويجننه، ويطمعه ولا يمكِّنه، حتى خانته قواه، وخذله

ساعداه، فوقف وقد فغر فاه. ولم يبق منه حيّاً إلا عيناه. وعند ذلك دنا «حماس» منه فألقمه اللوح فعضّه بأنيابه، فنشبت فيه من شدة الغيظ، وإذ أيقن الفتى أن الأسد عجز عجزاً، وأنه صار كالعَير أو أسهل قياداً، أقبل عليه يلاعبه ويداعبه، ويتلطَّف له ويُطايبه، كالظافر المعتذر، أو المجامل وهو منتصر. وكأنما أثّر كل هذا التعطف في وجدان الليث، فأطرق برأسه، وجعل يدور حول قاهره، ويحتكُّ به ويحتمي فيه، فخطر حينئذ على بال «حماس» أن يحفظ هذه الهدية الفاخرة ليهديها إلى الملك حال وصوله إلى العاصمة، إلا أنه استنكف عن أن يسحب الأسد، ورأى أن ركوبه إياه أسمى له وأجلب للراحة، فترك اللوح في فمه كما هو، ورفع رجله فصار فوق ظهر الوحش، وإذا هو لا يتأبى ولا ينفر. ومن عادة الليث أن يتشامخ ويستكبر. ثم حركه فتحرك يمشي به مستعجل الخطو ناشط الأقدام. ولم يكن «حماس» يعلم أين يؤم بدابته فمَلَكها الزمام، وسامحها في اللجام. وأرسلها تروم به كل مرام، فما زالت تطوي الصخر نحو الصخر. وتخرج من قفر وتدخل في قفر. حتى مرَّ به الليث على غابته، وهنالك بدت من بعد أنثاه. وإلى جانبها شِبلاه. وهي كأنها الفرس الكريم في حسن المنظر وتناسب الأعضاء، وكأن صغيريها لَيثان كبيران. وما اكتملا حولاً من الزمان. فأشفق «حماس» من هذا العدد. وظنَّها خدعة من الأسد. فاستلَّ خنجره، واستعد للقتال راكباً وهو لا يشك أنها مَسبعة، وأن فيها أكثر من هذه الأربعة، ثم أقبلت الأم وولداها يتبعانها، وهي تواصل الزئير. وتتأهَّب لتغير. حتى اقتربت من الأسد، فلم يكن منه إلا أن أدار نحوها الوجه، ونظر إليها نظرة الزاجر الرادع، ففهمت الإشارة ومشت أمامه ذَلولاً صاغرة، وشبلاها في جانبيها يسيران حيث تسير.

وما هي إلا ساعة سَير على هذه الصورة حتى بدت لحماس من بعد معالم مدينة تتراءى بين المزارع والجبال.

ثم إذا به قد دخل في المعمور، فحين رآه الأهالي ولَّوا منه فراراً ضاجّين صائحين متفرِّقين ذات اليمين وذات الشمال، وهو يدعوهم لتطمئنَّ

قلوبهم، فلا يزيدهم نداؤه إلا هلعاً وفزعاً،حتى ارتبك في أمره، وخشي أن يعود الحيوان فيثور تِلقاء جُبن الإنسان، فلم يكن منه إلا أنه ترجّل ثم ساق البهائم أمامه، وهو يفتش الطرق والأماكن عن محل يودعها فيه إلى حين.

فمر ببعض الملاعب على الطريق، مما كان الأهالي يتخذونه للمصارعة، وكان متين البنيان عالي الجدران، فعالج بابه فانفتح، وحينئذ تحيّل إلى أن أدخل فيه الوحش وجماعته وأغلق الباب بعد ذلك كما كان.

وكان الناس ينظرون إلى فعله هذا من بعيد، فلما أيقنوا أن الوحوش أصبحت في الأسر، بحيث لا يخشى أذاها، انهالوا عليه من كل جانب، وهم بين الارتياب فيه والاستغراب، وآنس «حماس» ذلك منهم فوقف فيهم خطيباً، فشرح لهم الأمر كما جرى، وأخبرهم كيف تمكن من قهر الوحش، ولم يجرد لذلك سلاحاً، وكيف بلغ من هَيبة الأسد له أنه حمل أنثاه وولديه على طاعته، وكيف كان له مطيَّة ودليلاً حتى بلغ به المعمور، بعد أن يئس من بلوغه.

فعند ذلك علا تهليل الشعب حتى بلغ عنان السماء، ولم يدر «حماس» إلا بأكاليل الغار تُجعل على رأسه، وبالأزاهر تُنثر في طريقه وتحت أقدامه، فاستغرب الأمر واستعلم ممَّن حوله عن السبب، فأخبروه أن الحيوان الذي جاء به وبصِغاره أسْرى ليس بالأسد كما زعم، وإنما هو الوحش الهائل، وأن تلك القرية قَريته المسمّاة باسمه، لكثرة ما فتك فيها وأغار على أهاليها، وأن الملك قد أقطعها من يُدَمِّر الوحش ونَسله تدميراً، فما بال من يأتي به أسيراً؟ وأن عدداً كثيراً من أبطال اليونان. وجند «ساموس» الشجعان. ذهبوا فريسة هذا الحيوان.

ثم إن الصُّنَّاع في قرية الوحش الهائل آجتمعوا فقرروا فيما بينهم أن يصنع قفص من الحديد يَسع الحيوانات الأربعة لتُجعل فيه، ثم يُحمل إلى الملك «بوليقراط». وبينما هم يباشرون هذا العمل بما في الوُسع إتيانه من

السرعة كان «حماس» يشتغل بتعهُّد الوحوش وإطعامها وسقايتها. وهي لا تزداد إلا تعلُّقاً به وألفة له واحتماء فيه.

فلم يجىء اليوم التالي إلا والقفص قد خرج من أيدي الصنّاع، ولم يبق إلا نقل السباع إليه، فأخذ «حماس» هذه المَهمَّة على نفسه، فأدخل فيه الوحش وأنثاه وصغيريه، وجعل فيه زادها، وماءها، ثم اجتمع نحو ألف من أهل القرية فحملوا القفص. وساروا به قاصدين نحو العاصمة، وكانت المسافة نحوها يوماً كاملاً بالسير الحثيث.

الفصل الثالث عشر

زفاف لادياس لبهرام

تركت «لادياس» شغلاً لوالـدها الملك بعـد شغل، وهمّـاً بفؤاده الرقيق بعد هَمّ، وإن كان الطبيب الخاص قد اجتهد في التخفيف عليه حتى أقنعه أن الأميـرة ليست مهتلسة العقـل، بل هي كمـا يقـول الأميـر «بهـرام» مضـطربـة الوجدان من شدة ما قاست في أسر اللصوص.

إلا أن مقالة الـطبيب لم تصدق ولا أغنت من حقيقـة الحال شيئـاً، فإن هذيان الفتاة كان يزداد من اللحظة إلى الأخـرى، وكان اختـلال الشعور يـظهر عليها كل الظهور، وعلى الخصوص كلما وقعت عينها على الأمير «بهـرام» أو دخلت معه في كلام، إذ تتذكر حينئذ حقيقة الحوادث، وتشتاق رؤيـة منقذهـا فلا تجد في «بهرام» منه إلا مشابه طفيفة لا تأسو جراحها ولا تَبُلّ صداها.

وكان الملك يرى ذلك على فتاتـه فتزداد آلام فؤاده، ويـودُّ في نفسه لـو كـانت هلكت من أول الأمـر، ولم تُـرَدّ إليـه كمـا هي الآن، جسم ولا روح، وروح ولا حياة، وحياة ولا شعور.

ولهذا كانت لا تمرُّ ساعة حتى يدخل عليها، أو يـأمر بهـا فتخرج إليـه، فيمتحنها فيجدها في كل ما تقول وتفعل كما كـانت قبل الاختفـاء وأعقل، إلا في أمر واحد وهو الاعتراف للأمير «بهرام» بمنّته عليها بالإنقاذ.

أما «بهرام» فقد خشي من أول يوم ظهور صاحب الحق بَغتة فَيُعْطى «حماس» كَنزه الذي وجده، ولا يُعْطَى هو إلا الفضيحة والعار، فعمد إلى حيلة من أحسن ما يتخذ في مثل هذه الأحوال، ذلك أنه أوعز في اليوم الثاني إلى الطبيب الخاص بصوت رنين الذهب الفارسي أن يشير على الملك بتزويج الأميرة في الحال، لعلّ الألفة إذا انعقدت بينها وبين خطيبها بصفة فعليَّة تخرج أعصابها من أسر الأوهام.

فتوجه الطبيب تَوّاً إلى الملك واستأذن عليه، ثم بذل له النصيحة مزخرفة مقبولة، فلم يكن من الملك عندئذ وهو في موقف الغريق إلا أن أبقى الطبيب في حضرته، ثم أمر بمجلس الشُّورى الأعلى للمملكة فانعقد للحين.

فلمَّا تكاملت هيئة المجلس أشار «بوليقراط»، لطبيبه أن يتكلَّم، فقام فألقى على الملأ خطاباً شرح فيها الداء، ووصف الدواء، ملحّاً في طلب الزواج، ووجوب تعجيله، حتى أقنع المجلس كل الإقناع، فقرَّر قبول إشارته بالإجماع، ثم ضُرب اليوم الخامس من وصول الأمير والأميرة إلى العاصمة موعداً للاحتفال بعقد النِّكاح في الهيكل الأعظم.

وما كاد المجلس ينفضّ حتى صدرت الإشارة السلطانية لكل ذي شأن، بين رجال المملكة، بالعمل الذي يُرسم له في مثل هذه الظروف ويفرض عليه.

وانقضى اليومان الباقيان في تهيئة معدات القِران، وترتيب حفلات المِهرجان، حتى إذا كان صبح اليوم الخامس، يوم العَقد لبهرام على «لادياس» تحرّك موعد الزفاف بالعروسَين حاشداً فاخراً رهيباً، أوَّله في أرحاب القصر السلطاني وآخره في ساحة الهيكل الأعظم.

ثم وصلت المركبة العالية فآستقبلها على أبواب الهيكل الملكُ «بوليقراط»، وكان قد سبقها إليه، يُحيط به الكهنة العظام وسائر وجوه الدولة الفِخام، وهنالك نزل العروسان يختالان في أبهى الحُلل يُغيران بزينتهما

الشمس في رَونق الضحى، فمشيا يجتازان سور الهيكل وطُرقاته، وهي كأنها بُيوت النمل من زحمة الشعب عليها.

وكان الملك قد أمر، في مساء الليلة التي أسفر صُبحها عن يوم القِران السعيد، بالإفراج عن المساجين، فخرجوا مئات يؤدون شكر هذه المِنة بالدعاء لجلالته في الهيكل وخارج الهيكل، ويتيَّمنون بطلعة مَن هي السبب في هذه المرحمة الكبرى.

حتى إذا بلغت الحَفلة تمامها، وأخذت الرسوم فيها نظامها، ولم يبق إلا صدور الإشارة السلطانية للكهنة بالشروع في العمل، لم يَدْر الناس إلا بصوت جَهْوري مسموع، قد خرج من بعض جهات الهيكل، فتفزع الجمع، والتفت الملك ومَن حوله، فحين آنس صاحبُ الصوت منهم ذلك قام يتراءى لهم بكل عِيانه.

ثم قال:

أنا الساموسي «كلكاس» أشهد أمام الآلهة والناس، وأُعلم أن الشهادة دين، وأن ليس على الآلهة مَين، وأن كِتمان الشهادة جُبن وبلادة، وجُرْمٌ كجرم الكذب وزيادة، فيا أيها الناس لا تَغتصبوا حقوق الغير. ولا تنالوا السِّوى بضير وأدُّوا لكلٍّ أمانته، ورُدُّوا إلى كلٍّ بضاعته...

الناس: تكلم أيها الرجل. قل.. أوجز.. أدِّ الشهادة.

كلكاس: أيها الناس، إن العَجلة مذمومة، وأنّ عواقب التسرُّع مَشْؤومة، فأمهلوني أخبركم اليقين. وآتكم بالعجب بعد حين.

الناس: هذا مجنون! هذا مهتلس العقل! خذوه! أخرجوه!

وكانت الأميرة لما ذكر اسم «كلكاس» عرتها هَزة لم تكن بالمعهود، وانحنت على أبيها فطلبت منه أن يستمع مقالة الرجل إلى آخرها، وأن يعلي محلَّ شهادته، فحين برز الجند إلى «كلكاس» ليخرجوه من الهيكل أشار لهم الملك أن يكفُّوا، ثم أمر بالرجل فقدم بين يديه.

وعندئذ حقَّقته الأميرة وعرفه الأمير كذلـك، فاضطربا وبدت على الأولى علامات الدهشة والأمل، وعلى الثاني دلائل الحيرة والارتباك.

فسأل الملك «كلكـاس» قـائـلاً: من الـرجـل؟ ومـا عملك؟ ومـا تلك الشهادة؟

كلكاس: عبدُ جلالتكم الساموسي «كلكاس» خادم الأمير «بيروس»...

الملك: بيروس؟ وكيف أفلتّ من حِبالة الحكومة، يا خائن؟

كلكاس: لأنفعك في مثل هذا اليوم، يا مولاي.

الملك: وأين نفعك؟ هات، أدِّ الشهادة، وحذارِ من الكذب.

كلكـاس: اعلم، يا مولاي، أن هذا الأمير ليس هو منقـذ الأميـرة، كمـا كذب عليك ويكذب الآن على الآلهة.

الأمير بهرام: أنت الكاذب لا أنا أيها السوقة النذل.

كلكاس: السوقة النذل تعرفه مولاتي الأميرة، فأنا أترك لها الكلام.

الأميرة: بل تكَّلم أنت يا «كلكاس» فما عليك من بأس.

كلكـاس: ولكن منقذ الأميـرة الحقيقي هو البـطل «حماس». الجهنمي «حمـاس». المارد «حمـاس». إني لا أذكره، يا مولاي إلاَّ وتـرتعد فـرائصي، وأكاد أذوب في ثيابي رعباً.

الملك: حمـاس؟ إذن أنت، يا لادياس، عاقلة ونحن المجانين. إسمع لما يقول «كلكاس» يا «أورستان».

أورستان: إني اكاد أجنّ دهشاً يا مـولاتي وأتمنى على الآلهة أن يكـون هذا الحديث صدقاً.

وفي هذه الأثناء أقبل رجل من أقصى الهيكل يخترق الجمـع، حتى إذا اقترب من الملك و«أورستان» دخل في حديثهما مندفعاً، فقال: وأنا يا مولاي عبدك الساموسي «مندراس» أزكّي شهادة «كلكاس».

الملك: ومن أنت أيضاً؟

مندراس: أحد أصحاب «بيروس»، يا مولاي، والوحيد الباقي منهم. اضطررت أنا وصاحبان لي من العصابة إلى النجاة يوم الموقعة على زورق مثقوب لبعض الصيادين، فنزل رفيقاي في الطريق مُفضِّلين المسير بَرّاً إلى بلادهما، وبقيت أنا وحدي في الزَّورق إلى أن أسرني بحَّارة الملك، فزُججت في السجن، فلبثت فيه أياماً، ثم أخذت بنصيب من عفو الملك بالأمس عن المسجونين.

الملك: وهل تعرف هذا الأمير؟ وأشار إلى «بهرام». فدنا الرجل من الأمير وحقَّقه ثم عاد فقال: هذا أول عهدي برؤيته يا مولاي.

الملك: ولكنه يزعم أنه منقذ الأميرة.

الرجل: أسأل الآلهة ألا يسلِّطوا عليه منقذها الحقيقي، فورأسك لو شهد هذا الناعم أهوال ذلك اليوم لشاب قبل أوان المشيب.

وبينما الرجل في الكلام سمعت ضجّة عظيمة خارج الهيكل، كادت تقلقل دعائمه، ثم تلا هذه الضجَّة زحام شديد على أبواب الهيكل، فأرسل الملك مَن يأتيه بخبر ذلك، فاندفع الرسول يشقُّ عُباب ذلك الجمع الحاشد، ولكنَّه ما بلغ الباب خارجاً حتى لقيه عليه داخلاً رجلٌ غائب الرأس في أكاليل الغار، كأنه القمر المنير بِشْراً وجمالاً، أو الأسد الفَتِيّ، مهابة وجلالاً، فتنحَّى الرسول حتى تجرَّد «حماس» عن سلاحه، وكان الناس قد انشقُّوا نصفين، وانقسموا صفّين، فتمهّد الممرّ للبطل المصري، فقصد نحو «بهرام» لا يَلوي على أحد سواه، حتى إذا صار منه وجهاً لوجه، صاح يقول له: هل تمَّ العَقد بعدُ، أيها السوقة النذل؟

كلكاس: لقد قلتها له قبلك فلم يصدِّقني، يا سيدي «حماس»، ولكن ليطمئنَّ قلبك، فقد حُلْتَ دون تمامه، ولولا ذلك لجئت في الزمن الأخير.

وكانت «لادياس» قد عرفت حبيبها من أول نظرة، فلا تسل عن فرحها

به، وشدة سكرها من فرط السرور، ولكنها تركت كلمة الفصل في الموقف لوالدها الملك.

وكان «أورستان» قد عرف «حماس» أيضاً بمجرد النظر إليه، فهمس في أذن الملك بذلك، ثم دار بينهما حديث قصير كانت نتيجته أن «أورستان» تقدم حتى استقبل الأميرة خاطبها بصوت يسمع الملأ، فقال:

باسم مولاي الملك، أسألك يا مولاتي الأميرة، هل هذا منقذك «حماس»؟

الأميرة: نعم هو بعينه.

أورستان: وهل ترضين أن يكون قرينك الكريم.

الأميرة: بعد مشيئة جلالة الملك.

أورستان: كذلك شاء الملك، فتقدّموا أيها الكهنة العظام وأدوا عملكم بيُمن وسلام.

بهرام: ولكني أيها الوزير لا أزال على دعواي بإنقاذ الأميرة، وإني أنا نجيتها من الغم لا هذا الرجل، وقد وعدني الملك بالقِران، فلا يفكه من وعده إلا قرار القضاء، إن كان في البلاد شرائع ولها قضاة.

فحين سمع الملك والشعب هذه العبارة حاروا ودُهشوا، وتحوّلت أبصارهم إلى «حماس» ينظرون ما يكون من جوابه، فالتفت الفتى إلى منازعه، وقال: البلاد أيها الأمير عامرة بعدل الملك، ملآنة من قضاته العادلين، ولكن مسائل الشرف والشهامة يفصل فيها بطريق الشرف والشهامة، فإن كان ولا بد فإن السيف بيننا وهو خير الحاكمين.

بهرام: وأنا قابل حكمه.

حماس: إذن فاخرج بنا خارج الهيكل، وهناك تعطى السعادة من تشاء وتمنع من تشاء.

فاستحسن الجميع عمل «حماس» هذا وخرج الرجلان تَـواً يتبعهما نفـر من ضبـاط الملك، وخلق كثيـر من نـظار الحـروب وعشـاق المعـارك، وبقي الملك والأميرة وسائر وجوه المملكة في الهيكل ينتظرون المبارزة.

المبارزة

لا يجـول في نفس القارىء عنـد سماع هـذا اللفظ مـا كـان يجـول في أنفس الساموسيّين، إذ هم في الهيكل ينظرون ويسمعون، من أن القتال لا بد أن يسفـر عن مصـرع «بهـرام» وانتصـار «حمــاس» عليـه، لأول وهلة وحــال الصـدمة الأولى، وهـذا لأنه لم يعهـد في «بهـرام» أنـه بـطل شـديـد، وكميّ صِنديد، وأن الذي جعل فيه مَشابه خَلقية من «حماس» قد خلقـه كذلـك على مثاله، في ثبـات الجأش وشـدة البأس، بحيث لا يستخف بشـأنه ولا ينـزل به كثيراً عن قِرنه، والآن نصف المبارزة فنقول:

لما صار البطلان خارج الهيكل، ولم يعد يُؤخذ عليهما حمـل السلاح، ومِراس النزال والكفـاح، اتفقا على أن يجعـلا ميدان الهيكـل ساحـة الملتقى لقربه من محفل الزفاف.

فحين بلغاه اختارا السلاح لا مصرياً ولا فارسياً، ولكن يونـانياً، ليكـون أقرب للعدل، وأجلب لتكافؤ القوى، فـوقع الاختيـار على الحُسَام البتّـار، ثم التف حولهما الشهود كالحلقة المُفرغـة، من فرط الـزحام وشـدة الاستحكام، وعنـدئذ بـدأ القتال، فتـرك «حمـاس» لمبـارزه الـوثبـة الأولى، فحمـل عليـه «بهـرام»، بحـدّ الحسـام حملة يَجفُـل عن مثلهـا الحِمـام، فتنحّى «حمـاس» فضـاعت وطأتهـا الثقيلة على الهواء، ثم وقف الأميـر يلتقي ويتقي و«حماس» أمامه كالنمر المغضب، يـروح ويجيء، ويصول ويـطول، وهو لا يتمكن منـه في حـركة من الحـركات، ولا يغني عنـه منه الثبات في الـوثبات، حتى عيـل صبره لهذا الحال، وظن أنه غير قادر على خصمـه، ورأى الناس عليـه ذلك، فأوجست الأنفس خيفة، ودبَّ الروع في القلوب.

وكان «بهرام» أول أمـره يبارز بـراز المُستقتل المستميت، حتى إذا نـظر إلى سـواعد الخصم وقـد كلّت وملّت، ورأى الخَـوَر يـأخـذ عليـه في القتـال مأخذاً، عاوده الأمل بالحياة، وثـاب إليه الـرجاء بـالمستقبل، فـازداد قوة على قوة، واستجمع كالأسد ليعقب الوثبة القاضية.

وفي هذه اللحظة زأرت الأُسـود في قفصها فمـلأ دَوِيّ زئيرهـا الآفاق، وجـرى ذلك في خُـروق مسامـع الفتى، فنفر كـالليث الجريـح، وترنَّم يقـول بلسان فصيح:

تُـعـيِّـرنـي الأُسـودُ بـأنّ قـلبـي
يَـخُـور ولا يُـسـاعـد سـاعـديَّـا
وقَـلبـي لـو رأتْـه الأسْـد يـومـاً
وجِسْمِي في الثَّـرى لـرأتْـه حَيّـا
يَـفُـوز الـخَـصْـمُ بـي فـي كـل آنٍ
وكُـنْـتُ بـأن أفـوز بـه حَـرِيًّـا
فَـمَـا في صَـدْره مـا عِـنْـد صَـدْرِي
ولا فـي كَـفِّـه مـا فـي يَـدَيّـا
ولـكـنْ غـادةٌ أخـذتْ فُـؤادي
لِـيَـنْـصُـرنـي، فـرُدِّيـه إلـيَّـا

وعلى أثـر هـذا النشيـد تصـادم البـطلان، والتقى الخصمـان، فكـانت الدائرة أول الملتقى على حُساميهما إذ تحطّما من شدة الصدام، ثم طـارا عن أيديهما إلى فضاء بعيد، وكان سُكر القتال قد أعماهما وأصمّهمـا، فلم يشعرا بما أصاب السيوف، ولا طلبا سواها لاستئناف الضراب، بل اكتفيا بالسواعد، وما هي إلا هنيهة حتى تماسّا فتمازجا فاتحدا، وكان «حماس» في هـذه الأثناء قد شبك يديه من خلف ظهر الأمير، فلم يدر الناس إلا بهما كليهما قـد سقطا متحدّين كما كانا في حال القتال.

وعنـدئذ أقبـل الملأ عليهمـا يحركـونهما، وهم لا يشكُّـون أنهما فـارقا

الحياة، أو أن أحدهما بالأقل قد مات، وفي الواقع ما لبث «حماس» أن خلص جسمه من ذراعي الأمير، وكان كأنه منهما بين ناب الليث والظفر، من قوتهما قبل الموت، وجمودها بعده، فنهض الفتى قائماً بين تهليل الشعب وهُتافه، فكان أول ما أتى على أثر هذه الإفاقة أنه جثَا عند رأس القتيل، ثم قبّله من فوق جبينه البارد، وهو يَبُلُّه بعبراته ويقول: «إلى الحياة الأبدية أيها البطل العظيم، فوحُرْمةِ الآلهة ما وجدت في البشر نظيرك، ولا عهدت في السباع مثيلك».

العقد

وكان نبأ انتصار «حماس» على الأمير «بهرام» وقتله إيّاه بالساعد لا بالحسام، قد نقل إلى الهيكل في حِينه، فسُرَّ الملك ومَن معه به سروراً لا مزيد عليه، وأنه لم يعدل عُشر معشار ما استحوذ على الأميرة من الفرح والحبور.

فصدرت الإشارة حينئذ بعَودة البطل «حماس» إلى الهيكل، فعاد بين خلق لا يُحصى ممن شهدوا الموقعة، وهو يكاد يَنُوء بأكاليل الغار، ويختفي فيما يُنثر عليه أينما سار، من ورق الغصون والأزهار، فلما تراءىَ شخصه آيباً قُوبل في الداخل بمثل ما لَقِي في الخارج، من ثناء الناس وإعجابهم وإشارتهم إليه أينما توجَّه بالبنان.

حتى إذا اقترب من الملك تقدم «بوليقراط» فصافحه ثم قبّله وهنّأه على ما نال من عظيم الفوز وباهر الانتصار، وحذا عظماء المملكة بعد ذلك حَذْوَ سيِّدهم، فتقدَّموا واحداً بعد واحد، فصافحوا بطل اليوم والأمس، وهنَّأوه بما أوتي من صفات الشجاعة الجلائل.

وبعد ذلك أشار الملك إلى الكهنة أن يَعملوا عملهم، فاعترضه «حماس» قائلاً: إنني أُعُدُّ مصاهرة الملك من أشرف النِّعم، وأجلَّ السعادات، ولكني أتمنّى على جلالته أن يجعلني على وعد منها الآن، حتى

أستوفي الشروط، الأول شروط القران، أما العقد فلا يكون إلا في آخر هيكل من الهياكل الأربعين اليونانية، التي سأبنيها لِعرُوسي الفخيمة في بلادي ووطن آبائي وأجدادي».

فلم يَبق في نفس أحد من الحُضور، تلقاء هذا الشمم العالي، شكٌّ أن بين جنبي الفتى نفسُ ملك عظيم، وأن رجلاً يكون بهذه الصفات النادرة، وعلى مثل هذا الجانب من شرف الأخلاق، يسير عليه إذا عقد العزم أن يقول ويفعل. إلا أنه لم يَسع الملك على أثر ذلك إلا قُبول إشارة «حماس» على ما فيها من التطوّح في الآمال، والتطرف في الثقة من الحال والمآل. فأجاب صِهره بأنه راضٍ بما قضي به، وأن «لادياس» منذ اليوم وديعة لدى أبيها يطلبها متى شاء.

ثم انفضَّ المجلس، وخرج الملك ويده في يد صهره، وهما يتحادثان، ثم صعدا في المركبة السلطانية، فسارت بهم تشقُّ عباب الجماهير من أهالي «ساموس» وهم بين المهابة في «حماس» والإكبار، حتى بلغت القصر. وهنالك هيئت له المقاصير اللائقة بمكانه من نسب الملك، وحمل إليها جميع ما تشتهي النفس من دواعي الراحة وفرط النعيم. ثم عرضت من بعد ذلك عليه أن يقيم بها ما شاء، ويرحل عنها متى شاء، فرغب الفتى في أن تكون مدّة إقامته في ضيافة الملك شهراً من الزمان.

كلمة على حماس

كان المصريون قد فقدوا كرامتهم من زَمن في أعين الأُمة الساموسية، وسائر الأمم الأجنبية، وذلك بسبب ما اشتهر عن فرعون ابرياس ـ ملك مصر يومئذ ـ من نقضه عهده مع الملك «سيدياس» ملك يهودا من بلاد فلسطين، وكان قد عاهده أن يمدَّه بجيوشه لحماية مملكته من غارة الملك «بختنصر» حتى إذا أغار الأشوريون على بلاد «سيدياس» لم تكن جنود مصر وصلت لتنجد الضعيف على القوي، فوقع بيتِ المقدس في قبضة «بختنصر» فنشأ

عن ذلك فقدان كرامة المصريين في أعين الأمم المعاصرة، بعد أن كانوا إلى ذلك الحين المثال المحتذى بين الشعوب في كرم العهد ورعاية الذِّمام.

على أن خيانة الملك هذه كانت أشدَّ تأثيراً في رؤساء الجنود المصرية أنفسهم منها في الأجانب، لأنها إنما تمس كرامة الجيش مباشرة، وتوصل الأذى إلى شرفه الرفيع.

وكان «حماس» من ضبّاط الطراز الأول في الجيش، وله سُطور في سجل الانتصارات المصرية، وكان قد اتصل أخيراً بخدمة الملك الخصوصية، فأتيح له أن يطلع على نوايا «ابرياس» نحو الملك «سيدياس» وما يضمر من خذلانه والتخلّي عنه ساعة الشدة، فعارض في ذلك أشدّ المعارضة، وكان وحده في معيّة الملك لسان الجيش، والمدافع عن شرفه وكرامته، حتى إذا أخفق مسعاه لم يجد بدّاً من الاستقالة فاستقال.

رأيت مَلْكاً بلا آستقامه لا صِدْقَ فيه ولا سَلاَمَهْ
فَعِفْتُ باب الأُمور حَتّى خرجتُ بالعِزّ والكرامهْ

وكانت أحاديث «لادياس» في ذلك الحين قد ملأت الآفاق، وأخذ الشجعان في كل بلاد يشتغلون بأمرها وينظرون إليها، عن جوهرة في صدف الأخطار، لا يغوص عليها إلا كل مخاطر عنيد جبّار.

وإذا كان «حماس» في جملة من بلغتهم أوصاف الفتاة، وما يعترض دون اقتناصها من الصعوبات التي تكاد تكون من المستحيلات، لم يلبث أن زيّنت له البطالة ركوبُ هذا المسلك الوعر. والتماس المزيد من الشهرة في آصطياد عَنقاء «ساموس» فاشترى لهذه الغاية مركباً، ثم سافر عليه قاصداً الجزيرة، فالتقى في طريقه بمراكب «أورستان»، وكان من أمره المعروف بعد ذلك ما كان.

هذه كلمة نوردها عن «حماس» وهو على أبواب مصر، ليعلم القارىء كيف كانت صفات الفتى وهو في عنفوان صباه، وما كان عليه من قوة

العـزيمة، وثبـوت الإرادة، وشـدّة الإقـدام، إلا أنَّ المُـدّة التي أرتـاح إلى أن يقيمهـا في قصر الملك ضيفـاً كريمـاً على «بـوليقـراط» وأهـل بيـته، ورجـال حاشيته، كان من شأنهـا أن تُحدث تغيُّـراً عظيمـاً في أخلاقـه وأطواره، لا بـد تظهر نتيجته في مستقبل الأيام، فإن التمـدن اليونـاني، وهو أدبيّ محض كـان أجمع لشمل اللذّات، وأوعى لصنوف الطيّبات، وأسمى بالقـوى العقلية لعليّ الدرجات، من الحضارة المصرية التي هي بعكس الأولى، محض مادية، لم تُوفِ قسطها من الفنون الجميلة، ولم يرزق أصحابها هبة الفكر الجليلة.

فكان «حماس» من قصر الملك في معرض جامع لأسمى مظاهر تمـدّن اليونان القديم، وأبهى مجالي عزّهم والنعيم، حيث التفت فوجد حولـه عقولاً في درجة عالية، وأفكاراً في منزلة عظمى، ولغة مملوءة من الحيـاة قادرة على الغايات، وفنوناً جاوزت في الجمال حـدَّ الجلال، من نقش وتصـوير، وغنـاء ومـوسيقى وشعر وخـطابة، إلى غيـر ذلك ممـا هو الصبغـة الخاصـة بالمـدنية اليونانية القديمة، فلا غرو أن يكون للفتى من ذلك كلّه خير مدرسة متمّمة لما هو عليه من الأخلاق المصرية القويمة.

حتى إذا أوشك الشهر ينقضي، ولم يبق إلا أن يستعدَّ «حماس» للسفـر عـائداً إلى بـلاده، أمر الملك بثـلاث من السفن السلطانية، فهيّئت ركـاباً لـه تحمله إلى حيث يُريد الذهاب.

ولمـا كان يـوم الرحيـل ركب في واحدة منهـا، بين خَلْق لا يُحصى من الشعب السـاموسي خـاصته، مشيّعين ضيفهم العـالي بالقلوب والأبصـار، ثم تحركت الفلك تشق به العُباب وتُغالب التيار.

الباب الثاني

الحوادث في مصر

الفصل الأول

نظرة تاريخية

كان الحاكم على الأقاليم المصرية في الزمان الذي نحن بصدد الكلام عنه ملك من ملوك العائلة السادسة والعشرون يقال له فرعون «إبرياس».

وكان قليل المهابة، ساقط الشأن في الداخل، ميت الذكر في الخارج، لا من الفراعنة المحاربين، ولا من عشّاق السلم الممدّنين، لكن من فريق يمرّون بالعرش مرّاً، وما أجلسهم عليه إلا الميلاد، ولا نالوه إلا بفضل الآباء والأجداد.

وكانت مخايل السعادة حين ذاك لأمة الفرس، فبينما إفريقية نائمة بنوم مصر، ساكنة بسكونها، كنت ترى آسيا تموج وتتحرك، وهي من العناية على وعد، والجواري يجرين لها بالسعد، وقد شرع الدهر يمثّل على مسرحها الهائل رواية مما يخرج للناس بين العصر والآخر، علا فيها فوق علياء الفراعنة، ودكَّ بغيهم بِبَغْيٍ من مثله، والله للباغين بالمرصاد.

وما بطل رواية الدهر في هذه المرة إلا الملك الأشهر «كيروش»، ملك ملوك فارس وميديا، وكان في أول إقباله وبداية فتوحاته مشتغلاً بإخضاع البلاد

المجاورة له، التي هي طرق جيوشه الجرارة، وشعاب عارضها الهطل إلى شاسعات الممالك وبعيدات الأمصار.

إلا أن فارس مع ما هي عليه من سعود الطالع، ويُمن الأمر، والثقة من الدهر، كانت لا تزال تهاب مصر في ماضيها، بقدْر ما كان ملكها الأشهر «كيروش» جميل الظنّ في الحضارة المصرية، شديد الإعجاب بها، مؤمّلاً منها المنفعة لمملكته الناشئة، والخير لأمته الحديثة العهد بالفخار والمجد، وكل من قرأ تاريخ هذا الملك الحكيم، وتأمَّل معاملته لفرعون مدة حكمه الطويل، عرف لأول وهلة أنه إنما كان يريد أن تبقى مصر، ولو إلى حين، بمثابة مدرسة كبرى للفرس، يحذون في المجد مثالها، ويسيرون فيه على نهجها الفاخر الجليل.

إلا أن مثل هذه الحكمة من ملك فاتح مغوار مثل «كيروش»، لم تكن لتبقى سليمة الخلال، مأمونة الاتصال، إلا إذا قوبلت بأعظم منها من لدنْ ملوك مصر، وإذ كان فرعون «إبرياس» دون هذه المَهمّة رأياً وذكاء، وحذقاً في السياسة ودهاء، فقد ظلت مصر في أول أيامه على خطر الوقوع يوماً ما في قبضة الفرس.

على أن الدهر، وهو قد عوَّد مصر أن يعطيها من حيث يحرم، وأن يؤمّنها من حيث يخيف، كان قد احتاط لملكها، فهيَّأ له من هو أصلح له، ومن يقيه السقوط في الهوَّة التي كان «أبرياس» يدحرجه إليها، فإن الجند في مصر ما لبثوا أن سخطوا على الملك وسياسته المبنية على هجر المعالي. معالي الفتح والانتصار والانكماش، في مثل سلو البهائم، حتى أوشك الشرف العسكري المصري أن يؤذى من دوام هذه الحال.

ولم تكن حركة الخواطر في الجيش ضدَّ الملك بأقلَّ منها في سائر جهات الحكومة، وعلى الأخص في دوائر الصناعة التي مات يومئذ بموتها خلق كثير.

إلا أن الفتنة ما زالت نائمة لا يجسر أحد على إيقاظها، حتى اشتدَّت

القلاقل الداخلية، فظهر فيها جبن الملك في غاياته، وبدا للناس منه الحمق عند نهاياته، فطمع فيه من طمع، وتجرَّأ عليه من تجرَّأ، وأصبح الأمر فوضى، واستعدَّ الجيش والشعب في مصر لظهور جندي سعيد يأخذ التاج غصباً، وهذا الجندي هو البطل «حماس» كما سترى بعد.

الفصل الثاني

الاستعداد في مصر لاستقبال حماس

كانت شهرة «حماس» وأنباء شجاعته الفائقة قد سبقته إلى وطنه، فكان لها أحسن تمهيد من ماضي الفتى في خدمة الجيش، والصفات العالية التي طالما امتاز بها من بين أقرانه.

وإذ كانت أخبار الشجعان في كل أين وآن يغالى فيها ويبالغ، حتى تبلغ إلى الخرافات، فقد صارت أحاديث «حماس» في مصر موضع اشتغال الأطفال، فما بال الرجال، وأصبحت هي الحكايات والأمثال، فنشأ عن ذلك تمكّن حب الفتى من قلوب الشعب، وسريان المهابة له في الأنفس، قبل أن تطأ قدمه تربة الوطن آيباً من جزيرة «ساموس».

ولم يكن لحماس حاسد على هذه الشهرة الفائقة سوى الملك «ابرياس». إلا أن الغباوة دفعت به إلى تدبير حيلة يبرأ الصبيان منها، وذلك أنه يعيد «حماس» بمجرّد وصوله إلى وظيفته في البلاط، وكان الفتى قد استقال منها قبل سفره إلى جزر اليونان، بلا باعث سوى كونه ضابطاً ذكيّاً حرّاً، يقول الحق ولا يحيد في حال من الأحوال عن الصدق، وللأسباب التي تقدَّم ذكرها، فأراد الملك هذه المرة أن يطفىء نور «حماس» باستخدامه في القصر، حيث الأيدي مغلولة عن الأعمال، وحيث مظهر الملك والسلطان فوق كل مظهر وشأن.

فلما وصلت السفينة اليونانية المقلّة لخطيب «لادياس»، كانت على الشاطىء حوالى «نقراطيس» ـ فوة الآن ـ خلائق لا يحصى لهم عدد، قد أتوا من أقاصي البلاد لتحيّة بطل مصر الشاب حال وصوله، وعرفانه بالذّات مثل ما عرفوه بالصفات.

وكان الجمع من كثرة العديد وشدّة الزحام، بحيث لم يكن عسيراً على «حماس» أن يقوم بعمل عدائي تكون نتيجته وبالاً على البيت المالك، وتستحيل شرارته في أقرب وقت إلى جمرة لا طاقة لإبرياس بإطفائها، إلا أن نشوة الشهرة لم تغلب الفتى على حزمه وقوة عقله، فوقف بالآمال عند حدّه، مكتفياً، بهذه الخطوة الأولى العظمى في سبيل المجد والفخار.

حتى إذا ألقت السفينة مراسيها ونزل «حماس» عنها، تحوطه السفينتان الأخريان، كأنهما لِعُقَاب فُلكه جناحان، ضجّت الألوف من الناس بالهُتاف الشديد الموصول، وكان أول من تقدم فحيّاه مصافحة رسول الملك «ابرياس» وكانت له أيام على الشاطىء ينتظره مع المنتظرين. ويفتّش عنه السفين بعد السفين، فحين وقعت عليه عينه خف لاستقباله. وبالغ له في الخطاب، ثم أخبره أن أنباء الشجاعة الفائقة كانت ترد على الملك أولاً بأول وفي حينها، وأن جلالته كان يسرّ بها ولا يستكثرها على صفاته العالية المعلومة لديه، وأنه من أجل ذلك كلِّه وتذكاراً لخدماته السابقة الجليلة في الجيش قد قلّده رتبة القائد ورقّاه لوظيفة حارس أول لذاته الفخيمة.

فتلقّى «حماس» خبر هذا الإنعام بالقبول الحسن والشكر الوافر، وهو في نفسه حذر من الملك مرتاب، ثم قدم له الرسول جواداً كان قد أعدَّه لركوبه، فركب الرجلان وسارا من فورهما قاصدين مدينة سابيس ـ صا الحجر الآن ـ لمقابلة الملك في قصره بها.

الفصل الثالث

أين اللوح؟

كان وصول «حماس» ورفيقه إلى «سابيس» ليلاً، أي بعد أن نام الملك وهدأت المدينة، فلم يبق بها من ساكن يخشى تحرّكه، وكأن هـذه أيضاً حيلة من «أبرياس» دبَّرها في نفسه، ثم أوعز إلى رسوله المرافقُ لحماس بإنفاذهـا، فأنفذها على ما يرام.

وفي الواقع كان باب المدينة الذي دخل منه الرجـلان لا يزال مفتـوحاً، مع أن الأصول المتَّبعة يومئذ لم تكن تسمح ببقـاء أبواب المـدينة مفتَّـحة إلى مثل الساعة التي وصل فيها «حماس» من الليل.

ثم إن الفتى لما وصل القصر ليقضي بقية الليل في غرفـة منه، كمـا هو من واجبات وظيفته الجديدة، وجد أبوابـه مفتَّحة كـذلك، كـأنها تنتـظره ريثما يصل ثم تغلق، ولم يكن من الأصول أيضاً أن تبقى أبواب القصر مفتَّحة بعـد انصراف الناس منه ودخول الملك إلى مقاصير الحرم.

فاستنتج «حماس» من هاتين الحـادثتين أن الملك اتَّفق هو ومنـدوبه أن يكـون وصولـه مع «حمـاس» في ساعـة متأخـرة من الليـل لكيـلا يشعـر أحـد بقدومه، فتتولَّد في المدينة حركة لا تحمـد عقباهـا، إلا أن الفتى لم يُعِـر هذا العمل الصغير كبير اهتمام، بل آستمر في محادثة رفيقه وملاطفتـه، حتى صار على باب الغرفة الخاصة بالحـارس الأول في القصر، وهنـالك شكـر للضابط

حسن قيامه بتلك المأمورية التي يعدُّها من الملك تشريفاً له لم يكن يستوجبه، ثم تركه ودخل مقصورة نومه لينام، وما كادت المضاجع تطمئنُّ بجنبه حتى أخذه الكَرى، فرأى في منامه الرؤيا ذاتها التي رآها وهو على الدرب الأصفر، إذ هو بجانب «لادياس» وإذا هما يتوسَّدان الحصى والرمال، فهبَّ من نومه بحالة المجنون وهو يصيح: أين اللوح؟ أين اللوح؟

وعندئذٍ لم يدر الفتى إلا برجل يتقدّم نحوه في الظلام، وهو يقول بصوت منخفض: لا تخف، يا سيدي «حماس». لا تخف، يا سيدي «حماس»، إنني من أصدق محبّيك وأكبر أنصارك، ولولا ذلك ما استهدفت بحضوري في مثل هذه الساعة، ودخولي غرفتك على هذه الصورة، فانزل عن سرير نومك وأنا أريك أين اللوح.

فما استتمَّ الرجل حتى كاد «وحماس» أن يطير لبّه دهشاً واستغراباً. فقال للرجل بلسان معقود بالحيرة:

ومن ذا الذي أتى باللوح من ميدان الهيكل، وأنا على يقين أنَّني تركته نَسياً هنالك عندما كنت أبارز «بهرام».

الرجل: لا بل هوهنا، يا سيدي، هنا! أمامك! تحت قدميك! فانزل وأنا أريك إياه.

حماس: لعلك مجنون أيها الرجل، أوَ أنت آتٍ لتفتك بي غدراً، فإن كان لك في الحياة فاخرج من فورك وإلا قتلتك شرَّ قِتلة.

الرجل: بل أنت المجنون، يا «حماس»، إذ ليس اللوح على ميدان الهيكل بل هو أمامك كما قلت لك، تحت قدميك، وليس عليك إلا أن تنزل عن سرير نومك ثم تخطو خطوة واحدة لتراه، فانزل هات يدك. إنني ما أتيت لأفتك بك كما زعمت ظلماً، بل أنا أريد أن أنقذ حياتك.

ثم إن الرجل أخرج من جيبه فتيلاً فأشعله، فلما تأمَّل «حماس» صورة مفاجئه في الضوء آطمأن واستأنس، ونزل عن مضجعه قائلاً:

وأين ذاك اللوح أيها الرجل؟

الرجل: ها هو بين عينيك تأمل!

فتأمل «حماس» أرضية الغرفة، وإذا بالتحقيق فيها لوح لا تكاد العين تعرف حدوده منها، إلا إذا وجدت من يهديها له، وهو عظيم يكاد يشغل نصف مساحة الغرفة، وقد دار بسرير النوم من جهاته الأربع.

فحين حقَّقه «حماس» رفع عينيه ثم سأل الرجل قائلاً:

أوتعني باللوح هذا؟

الرجل: وأي لوح يهمُّك أنت أكثر من هذا؟ وهو قبرك الذي حفر لك فبينا أنت عليه في سبات عميق، إذ أنتِ تحت الثرى في قرار سَحيق.

حماس: لقد حسبتك تتكلَّم عن اللوح الإلٰهي، إذ هو وحده يهمُّني ولا يهمّني سواه، فانطلق الآن لشأنك، ودعني ونفسي والأحلام. فقد كفى ما قطعت عليَّ المنام.

الرجل: إن الذي أعطاك الإقدام والبسالة، سلب منك عقلك لا محالة، ولو لم أكن أضلَّ منك عقلاً لما سعيت في إنقاذك، ولا خاطرت بحياتي من أجلك، والآن فاستعدَّ للقاء حَينك، وإني أستودعك النار، وبئس القرار.

ثم إن الرجل عالج الباب بلطف فانفتح، فخرج ينسلُّ انسلالاً تاركاً «حماس» وحده في الغرفة، وكأنه لم تجر بينهما تلك المحادثة الطويلة، ولا علم «حماس» من محدِّثه أنه إنما يضطجع في فراش المنيّة. ويقرب نفسه للهلاك كما تقرب الضحيّة، بل انثنى إلى المضاجع فانغمس في خزّها وكتّانها، وقد ذكر باللوح، «لادياس» وأياماً تقضت له في البؤس بسببها، ثم في النعيم بقربها. فتهيج ساكن أشجانه وتؤجج كامن نيرانه، وأخذ بعضّ بنان النادم الآسف على ما أفات نفسه من نعمة الحصول عليها. ونعيم المقام لديها. على حين قد تهيَّأت له المنى. وكان له عن كل ذلك الطمع غنى.

وبينما هو في هذه الأحلام. بين اليقظة والمنام. لم يدر إلا باللوح كان وطاءً فصار غطاءً، ثم بالسرير يهوي به في ظلمات بعضها فوق بعض، حتى استوى على مثل اللحد الضيِّق من الأرض. فاستقرَّ به الهبوط هنالك، فنهض «حماس» واقفاً حيث ما في الموت شك لواقف.

ثم التفت فرأى الجند من كل الجهات، وقد سدَّدوا نحوه السهام، لا ينتظرون إلا الإشارة ليذيقوه كأس الحمام. فصاح عندئذ قائلاً: أخيانة يا قوم؟ فلم يجبه إلا الكهنة من خلف الجند بنَشيد الموت المحزن الرائع، فلم يبق في نفس الفتى شكٌّ ساعتئذ أن الملك قد اغتاله. وأن منيَّته قد دنت لا محالة، إلا أنه تجلد للشَّماتة، ولبس للموقف لبوسه من الاستجماع والوقار، فقال يخاطب الجلَّادين: إذن فاعملوا عملكم، فإني مستعدٌّ للقاء الدار الأبدية، فلم يجبه في هذه المرة أيضاً إلا الكهنة من خلف الجند بنشيد الموت المحزن الرائع.

وكانت هذه الهنيهة بين النشيدين كافية لردّ العاشق إلى ادّكار معشوقته، والرجوع إلى الفكر في خطيبته. وما وعدها من مستقبل بالحب سعيد. وعيش في الهناء مديد. بحيث أصبح ديناً عليه أن يحيا لتحيا منها الآمال. وأن يعيش من أجلها على كل حال.

وعلى أثر هذه الخطرات جبُن البطل وخذلته نفسه الأبية لأول مرة، فسكبت عيناه الدموع وهو يرفعهما نحو سماء الجبّ، ويقول: أيها الآلهة العظام، ثبِّتوا برحمتكم أقدامي، وأعينوني على رؤية هؤلاء الجلادين، فجاءه الجواب هذه المرة أيضاً من الكهنة خلف الجند يشيرون بنشيد الموت المحزن الرائع.

وعندئذ أيقن «حماس» أن الإشارة صادرة للجند لا محالة، فأمسك عن الكلام. وسدَّد صدره نحو السهام. كمن يستحثُّ الحمام. وفي هذه الأثناء تنحَّى الجندي الذي أمام «حماس» وقال بصوت جهوري رهيب: الملك.

فحين سمع سائر الجند هذه الكلمة أمالوا الأسلحة وانحنوا بهيئة

تعظيم، يستعدُّون لتحيّـة الملك، حتى إذا تراءى شخصـه كان «حمـاس» أول مؤدّ لـلتحيـة ، فأشـار، «ابرياس» للجند أن يبتعدوا ففعلوا، ثم قال يخـاطب «حماس» :

أعرفت أين أنت الآن، يا «حماس»؟ أرأيت كيف أمسيت؟

حمـاس: أسير احتيـالـك يـا مـولاي، ورهين اغتيـالـك، فعجِّـل لعلي أستريح من رؤية هؤلاء الجلادين.

الملك: ولكني إلى العفو أميل يا «حماس».

حماس: وهو منك أحرى، يا مولاي.

الملك: لكن العفو معلَّق بشروط ثـلاثة، فـإن تحقَّقت حصل وإلا فـلا سبيل إليه.

حماس: وما هي هذه الشروط، يا مولاي؟

الملك: أن تعترف أولاً أنك استوجبت عقوبـة الإعدام بمـا صرحت بـه في «ساموس» من تعلُّق آمالك بالملك، وسعيك في اغتصاب تاجي وعرشي. وثانياً، أن تكتب إلى «بوليقراط» بأنك لم تعد تطمـع في ملك سيدك ومـولاك بل تكتفي بما بلغت إليه في حكمه من رفيع الرتب وعظيم المناصب. وثـالثاً، أن تقسم بـالآلهة وبـالشرف العسكـري أنـك لا تخـونني ولا تتصـدَّى لإيـذاء عـرشي، بل تكـون له طـول حياتـك الخادم الأمين، والنـاصـر في الملمّـات والمعين، وهذا كله بالكتابة، وفي هذه الورقة. قال هـذا، وقدم للفتى طِـرْساً وقلما ودواة، فتردد «حماس» بادىء بدء بين قبول هـذه الشروط ورفضهـا، إلا أن البطل لم يلبث أن انخذل. وناب العاشق فامتثل. فمدَّ «حماس» يده وأخذ من الملك أدوات الكتـابة، ثم كتب جميـع ما أملى عليـه، ووضع اسمـه بعد ذلك في أسفل الورقة، ثم دفعها إلى «ابرياس» فتناولها فرحـاً مسروراً وقـرأها فـألفاهـا كما طلب وأزيـد، فطواهـا وجعلها في بعض جيـوبه، ثم التفت إلى «حماس» فقال: الآن عفوت عنك أيها القائد، واعلم أنه لا تمضي أيام قلائل

حتى أكون قد نقلت كبيـر حرسي إلى وظيفـة تليق به في الجيش، ثم أجعلك مكانه، فتكون قد رُقِّيت في شهر واحد لرتبتين من أسمى الرتب في المملكة، ووُلِّيت منصبين من أرفع المناصب فيها، قال: وأنا عاجز عن الشكر، يا مولاي تلقاء هذا الكرم الباهر، وليس عندي مـا أقدمـه سوى الـدعاء بـدوام وجودك، قال: إذَنْ فاطرح نفسك على السرير كما كنت، وهو يخفُّ بك صاعـداً حتى يبلغك غرفتك، قال: سمعـاً وطاعـة، واضطجـع في السريـر كالنـائم. فتقدم الجند عندئـذ وحركـوا الآلات، فتحرك السـرير معهـا، فلم يكن كلمح البصـر حتى صار «حماس» فوق الأرض بعد أن كـان تحتها، فقضى بقيـة تلك الليلة في هواجس وأوهام. ويقظة ملآنة من الأحلام.

الفصل الرابع

اتفاق غريب

أُطَـاوِعُ فـي لادِيـاس الـزَّمَـانْ فيـومـاً شُجـاعُ ويـومـاً جَبَـانْ
ويـومـاً أُطَـاعُ ويـومـاً أُطِـيـعُ ويـومـاً أعِـزّ ويـومـاً أُهَـانْ
ويـومـاً أرانِـي رَخِـيَّ الـقِـيَـادِ ويـومـاً أراني عَـصِـيَّ الـعِـنَـانْ
حـلفـتُ لـفِـرعـونَ لا خُـنْـتُـه وقـد كـان لي ولِفْـرعَـوْنَ شـانْ
ولـولاكِ لـم أهْـوَ مُـلْكَ الـبِـلَادِ ولـولاكِ لـم أَسْـلَ قَـبـلَ الأوانْ
يـمـيـنٌ لإبـرَيسَ فـي ذِمّـتـي وأُخـرى لكم قبلهـا في الصِّـيَـانْ
وهـذي أتـتـكـم بـخَطِّ الـفُـؤادِ وتـلك أَتَـتْـه بـخط الـبَـنَـانْ
فـأصبحتُ إن خُنْتكم في الـهَـوَى وإن لم أخُنْ عَهـدكم قِيـلَ خـانْ

كانت الأيام على «حماس» والأشهر تتعاقب عليه، وهو في أعلى مكانة من رِضوان المَلِك، بل هو الركن الأعظم في القصر، والواسطة في عِقد الحاشية، تُرَدُّ إلى رأيه الآراء، ولا تُرَدّ مشيئته إذا شاء. وهو يَزيد طاعةً وأمثالاً، كلما زاده الملك قبولاً وإقبالاً.

وكانت فرق الحرس، وهي يومئذ يونانية مستأجرة، وهي تكاد تتفانى في حبه من دون الملك، وهو إنما جذبها إلى محبته ذكرى وقائعه في بلاد اليونان أولاً، وبحُسن معاملته لها، وسببه في راحتها ورفاهتها ثانياً.

وكان الملك قد أنجز لحماس ما وعد في الليلة المشؤومة، فولّى كبير الحرس قيادة الجيش الاستعماري في فينيقيا، وجعل مكانه على قيادة الحرس العامة بطل هذه الرواية، فأصبح له بذلك النهي والأمر على أكثر من ثلاثين ألفاً من جنود الحرس، والإشراف العام على سائر المعسكرات السلطانية في العاصمة.

إلا أن طاعة «حماس» لمولاه، وبلوغه في الولاء إلى هذه الحد، لم يكونا ناشئين عن خوف ولا رجاء. ولا حب ولا استرضاء. ولكن عن محض تقيُّد باليمين المعلومة في الليلة المشؤومة، بحيث كان يخشى أن تغلبه المطامع على دينه، فيصبح له ولإبرياس شأن، وفي الواقع لم يكن يعوز «حماس» إلا حادثة تحرك من غرامه ما سكن، وتثير من آرائه ما كمن، لا سيما إن هي أتت من «ساموس».

فبينما هو ذات يوم في نزهته بالمدينة يمشي في الأسواق ويمر بمعالم الصناعة، ومعاملها ومخازن التجارة وحواصلها. وقف به المشي على دكان لرجل ساموسي من باعة الآثار اليونانية، وكان «حماس» من المولعين بصنائع اليونان وبدائعهم، فلبث هنيهة يتأمل فيما احتوته الدكان من ذلك، وكان لابساً حُلَّته العسكرية اليومية، فعرف البائع منها أنه من عظماء الضباط في الجيش، فدنا منه وكلَّمه همساً فقال:

لقد آل إليّ أثر من أنفس الآثار، لا سيما في نظر عظماء الضبَّاط أمثالك، يا مولاي.

حماس: وما ذاك؟

التاجر: إكليل من الغار مما فضل عن كبير الحرس القائد «حماس» يوم خرج من مبارزة الأمير «بهرام» ظافراً منصوراً.

فما كاد الرجل يستتمّ حتى اضطرب القائد اضطراباً بدت عليه دلائله، إلا أنه استردَّ جأشه فسأل الرجل قائلاً: وأين هذا الإكليل؟

الرجل: في منزلي بالقرب من الدكَّان، فإن أذن مولاي فلينتظرني هنا لحظة ريثما أحضره.

حماس: على أن لا تبطىء عني.

الرجل: لا تخف، يا مولاي، وإني مستبشر بوجودك، ولست أول من أقبل عليَّ في هذه الأيام من الأغنياء والسَّراة العظام بفضل اللوح، نعم اللوح، اللوح الإلٰهي، اللوح الرازق، اللوح المسعد، اللوح المنجي.

قال هذا وهَمّ بالذهاب، فمسك «حماس» بيده وسأله بلسان يتعثَّر من الدهش قائلاً:

ما هذا اللوح أيها الرجل؟ ما حديثه؟

الرجل: حديثه غريب، يا مولاي، ولكن لا يهمّك فدعني أذهب لأحضر لك الإكليل.

حماس: بل أنا أحبّ سماعه، وربما همَّني ذلك، فلا تذهب حتى تحدِّثني إياه.

الرجل: إعلم يا مولاي أنني قدمت مصر من سنتين، تاركاً امرأتي وولدي هذا ـ وأشار لِصَبِيَّهَ ـ في «ساموس» يتعيشان بها من بيع الآثار. كما أفعل أنا في هذه الديار. حتى إذا اطمأن بي المقام في «سييس» وسكنت إلى طول المعيشة فيها، بعثت إليهما أستقدمهما، فقدما بعد أن أشرفا على الهلاك غرقاً، وكانت نجاتهما على اللوح الميمون. وحديث ذلك أن امرأتي مشت ذات مرة على ميدان الهيكل في «ساموس»، فوجدت في طريقها لوحاً من الخشب، فحملته وعادت به إلى المنزل لتجعله حَطباً لنار الطبخ، قالت: لما هممتُ بكسره أحسست كأن يدي تخونني، ثم حاولت ذلك مراراً فلم تطاوعني يدي عليه، فتأمَّلت اللوح فوجدته صالحاً لنوم ابني، وكان يومئذ في شدّة المرض، ففرشته له فوجد الراحة والعافية عليه، قال التاجر: ثم أخذ الرزق يتيسَّر لامرأتي أسبابه، والحياة يتسهَّل محياها، حتى استبشرت باللوح،

فعظم ظنها به، واشتد حرصها عليه، حتى إذا استقدمتها حملته معها في السفينة التي ركبت فيها للمجيء إلى مصر، فقدر أن السفينة غرقت، فهلك جميع من فيها إلّا امرأتي وآبني، وكانت نجاتهما باللوح وعليه. هذا، يامولاي حديث اللوح، ولا تسل عما شمل أمري من اليمن منذ وجوده في بيتي، فإن الناس يقبلون عليَّ أعظم إقبال. والرزق يأتيني فيُرْبِي على الآمال.

حماس: وهل تمكنني من رؤية هذا اللوح؟

الرجل: ولِمْ لا، يا مولاي؟

حماس: إذن فائذن لي أن أذهب معك لأراه.

الرجل: على الرَّحب والسعة، فاتبعني، يا مولاي.

فسار التاجر و«حماس» يتبعه، حتى بلغا المنزل، وكان في نهاية الشارع الذي فيه الدكان، فدخلاه وهنالك طلب الرجل من امرأته اللوح ليريه القائد، فأحضرته فتأمله «حماس» فعرفه من أول وهلة، فأخذه متلهفاً وما زال يضمّه ويقبّله، وعيناه تفيضان من الدمع، حتى رثى الزوجان لحاله، فسأله الرجل عن السبب ملحّاً، فالتفت «حماس» إليه وقال:

هل تبيعني هذا اللوح أيها السيد؟

التاجر: لا أبيعه ولو أعطيت فيه خزائن الأرض.

حماس: ولماذا؟ وما فائدتك منه؟ فإن كان ما تُصيب بسببه من الرزق الواسع فأنا أجزيه لك كل يوم كما هو وأزيد، وإن كان...

التاجر مقاطعاً: لا تتعب نفسك يا مولاي، فإني أفِي لهذا اللوح كما وفى لزوجتي وابني، فلو كان لحياتهما ثمن عندي ما تأخرت عن مساومتك فيه.

فأطرق «حماس» برأسه هنيهة، وقد اقشعر بدنه واضطرب وجدانه عندما تذكَّر يمينه للوح، وما شهد من وفاء التاجر له، على حين كان الوفاء منه هو

أحرى، ثم رفع عينيه وقال؛

هب إن كان الراغب فيه صديقكم حماس؟

التاجر: لقد أشرق البيت بنورك فأهلاً بك يا مولاي وسهلاً، ولكنني لا أبيعه أحداً ولو أنه الملك «أبرياس».

حماس: فإن كان في بيعه خير لبلادك وسعادة لقومك وملك مصر تنهي فيه أميرتكم «لادياس» وتأمر.

التاجر: إذن فهي حياة أعزّ علي من حياة امرأتي وولدي الواحد، وأنا في هذا الحال لا أبيعه بيعاً ولكن أقدمه تقديماً.

حماس: وأنا أطلبه منك على هذا الشرط، ولكني أسألك أولاً أن تكتم الأمر كلَّ الكتمان. ثانياً: أن تقبل مني عشرين ألف قطعة من الذهب تأخذ نصفها لك خاصة، وتنفق النصف الآخر في عمل عرش يليق لجلوس الملوك، وتكون قوائمه مصنوعة من خشب اللوح. ثالثاً: أن تبقي هذا العرش عندك فلا تقدمه لي إلا إذا علمت أنني في خطر عظيم، أو كَرْب جسيم. قال هذا وناوله قلادة كانت في جَيبه تُرْبي قيمتها على المبلغ الذي وعد به، فتناولها التاجر فرحاً مسروراً، ثم خرج «حماس» وهو لا يبصر أين يضع القدم من شدة الاندهاش وفرط السرور.

الفصل الخامس

كلكاس في مصر

كانت حامية «منفيس»، وهي يومئذ الحامية الثانية للبلاد، مؤلفة من الجنود الوطنيين الذين لم يكونوا مع الملك في جانب، وإن هم ظهروا في طاعته واستمروا على الصدق والأمانة في خدمته.

وكانوا يحبّون «حماس» ملء القلوب، ويستعين به قوَّادهم على قضاء حاجاتهم لدى فرعون وحكومته، وكانت له المراقبة عليهم بمقتضى وظيفته العليا في القصر السلطاني، فكان يذهب إلى «منفيس» بين الوقت والآخر لإجراء التفتيش العسكري، والنظر في شؤون الحامية وانتقاد أحوالها.

فبينما هو ذات مرة في «منفيس» يباشر عمله هذا تقدم إليه رجل متلثم وقال له بصوت لا يجاوزهما سماعه:

أنا، يا مولاي، عبدك تاجر الآثار بسيبس.

حماس: وفيمَ حضورك الساعة وماذا تريد؟

الرجل: أريد يا مولاي أن أقصَّ عليك ما أصابني بسبب العرش الذي صنعته لك من خشب اللوح المعهود

حماس: وماذا أصابك؟

الرجل: اعلم يا مولاي أن النار شبت في الغرفة التي هو مخبوء فيها

مرَّتين، فالتهمت جميع ما فيهـا من متاع وأثـاث، ولم يبق مما تـأكل النـار في المرّتين سوى العـرش، مع كـونه خشبـاً في خشب، فهو بـذلك أول معـرض للعطب، وقد لاحظت أنا وزوجتي أن الحريقين حصلا في يـومي سِرار البـدر من الشهـرين المـاضيين، وكـان حصـولهمـا في سـاعـة واحـدة وعلى صـورة واحـدة، وقد رأت زوجتي منـذ ليلتين رؤيا هـالتها وأقلقني أنـا أيضاً سمـاعها منها، فعجلت إليك لترى في الأمر رأيـك، ولتريحني من وديعتـك التي تتهدّد بيتي من الأسـاس إلى السقف، فقد رأت امـرأتي أن البيت احترق مـرة ثالثـة، فغادرته النار تلاًّ من رماد، وإذ كنت أعهدهـا صادقـة الأحلام تبعتـك إلى هذا البلد، فانظر الآن ماذا تأمر.

فأطرق «حماس» برأسه ثم رفع عينيه ليكلّم الرجل، وإذا هو «بكلكاس» قد كشف اللِثام، فحين رآه عرفه أول وهلة، فـأشفق من رؤيته وصـاح يقول: كلكاس! كلكاس هنا!

كلكـاس: نعم، يا مولاي، وأنه رسـول الأميرة إليـك، ليذكِّرك وعـودك وعهودك، وليقول لك عن لسانها: إن السعادات بنات الهمم، وإن الفرص إذا لم تغتنم يندم تاركها حين لا ينفع الندم.

حماس: وما علاقتك بتاجر الآثار في سييس؟

كلكاس: هو أيضـاً سفير الأميـرة في شؤون الغـرام، ورسولهـا من قبلي لتحقيق ذاك المرام.

فحين سمـع «حماس» هـذه العبارة ازداد دهشـاً على دهش، وكاد فؤاده أن تلفـظه الضلوع من شدة الحنق، لـذكـر اسم الحبيبـة أولاً، ولغـرابـة هـذه المفاجأة ثانياً، فقال: آعلم يا «كلكاس» أنك لا تبرح هذه الـديار حتى يكـون الأمـر قد تمَّ، وتكـون أنت أول من يحمل البشـرى إلى الأميرة بـاستقدامهـا، ولكني أحذرك من الهَذْي والهَذر، كما هو طبعك، وأوصيك بالكتمـان الذي لا كتمـان بعده. والآن أرى أن تبقى في «منفيس» تـراني ولا أراك، فـإذا علمت

أني أغـادرها آيبـاً إلى العاصمـة فـاحْتَـلْ على مقـابلتي لأُطلعـك على نتيجـة مسعاي، قال: سمعاً وطاعة، يا مـولاي. وانصرف تـاركاً «حمـاس» في تفكير وتدبير، واحتيال على المراد الغزير.

الفصل السادس

توفر الشروط

لم يمض يومان على مجيء كبير الحرس إلى «منفيس» لتعهُّد حاميتها، حتى نشأت حركة بين الجند في جميع معسكرات المدينة قلق لها القواد كثيراً، وأخَّر «حماس» من أجلها عودته إلى العاصمة، وبسبب ذلك أنه شاع في «منفيس» أن الجنود الاستعمارية في برقة، غربي الديار المصرية، شقَّت عصا الطاعة، وأنها غادرت مراكزها في المستعمرة زاحفة على الوطن، لعزل الملك وقلب هيئة الحكم.

وفي الواقع ما سرت هذه الإشاعة حتى وردت على «حماس» أوامر الملك بتهيئة جيش «منفيس» للخروج إلى ملاقاة الثائرين، وكبح جماحهم، وتبديد شملهم، قبل توغُّلهم في البلاد، وأنه هو ـ أي الملك ـ سيفد على «منفيس» بجنوده اليونانية ليمدّه بهم منها، إن مسَّت الحاجة، وليحفظ له خط الرجوع فيها، إن دارت على جيشه الدوائر، فشرع «حماس» من فوره في تنفيذ الأوامر السلطانية بهمّة هو بها جدير.

إلا أن السبب في عصيان جيش «تونس» لم يكن مجهولاً لدى سائر العساكر الوطنية في مصر، وهو احتقار الملك للعنصر الوطني في الجيش وسوء معاملته له، وتفضيله اليونان المستأجرين عليه. وإذ كان الجند كلُّهم سواء في هذا الشعور لم تكن حركة الخواطر بينهم في «منفيس» إلا ناشئة عن

مشاركة إخوانهم الثائرين فيما يضمرونه، من بغض الملك وما يظهرون.

فلم تمض ثلاثة أيام حتى أخذت جنود «حماس» أهبتها واستعدَّت، فخرج القائد بها إلى ملاقاة العصاة، بين آستياء الأهالي وكدر الجند أنفسهم، حتى إذا اجتاز بهم أبواب المدينة أقبل عليه «كلكاس» فعرفه القائد من لثامه، وأنكر عليه في نفسه هذه الجرأة، فركض جواده ليلاقيه، حتى إذا اقترب منه سأله قائلاً:

هذا وقت الكلام، يا كلكاس؟

كلماس: نعم، ووقتالعمل، ياมولاي، فأنت الآن بين طريقين: طريق السلامة لك ولقومك وللأميرة عروسك، وطريق الندامة لك ولجميع من ذكرت، فأما طريق السلامة فالذي أنت تاركه، وأما طريق الندامة فالذي أنت الآن مالكه، فارجع من حيث جئت، ولا تترك «منفيس» فإنها حصن حصين، وركن أمين.

فأطرق «حماس» برأسه هنيهة، ثم التفت إلى من خلفه من القواد فخاطبهم على مسمع من الجيش قائلاً: أتدرون أيها الصحب ما يقول هذا المفاجىء الروحاني؟ قالوا: بلى، قال: يزعم أننا إذا قاتلنا إخواننا المصريين أمطرتنا السماء حجارة لا طاقة لنا بها، ويزعم أيضاً أن ثورة الجيش في «برقة» مكيدة دبَّرها الملك وأصحابه اليونان ليفنونا عن آخرنا. وما يفنوننا، ولكن نفني بعضنا بعضاً.

فحين سمع القواد المصريون هذه العبارة فاضت قلوبهم من الحقد على «ابرياس» ونقلوها برمتها إلى الصفوف، حتى إذا لم يبق جُنديٌّ إلا سمعها انقلب الجيش للحين عاصياً ثائراً، وصاح بلسان واحد يقول: حماس يحمينا! حماس ينتقم لنا! إلى سييس! إلى سييس! فلم يسع «حماس» عندئذ إلا الرجوع بالجنود، والمسير بهم إلى «سييس» لمقاتلة الملك وجنوده، وكان الجيش اليوناني قد دنا من «منفيس» فاشتبك القتال بين الفريقين، واستمرَّ من الضُّحى إلى الأصيل، حتى قتل من الجانبين خلق كثير، وكادت النصرة أن

تتمَّ لإبرياس وجيشه الجرَّار، تراءى على ساحة القتال رجل يحمل عرشاً من أنفس ما رَقَا الملوك، وهو يصيح قائلاً: هذا عرش السلام، سخَّره الآلهة للملك: حماس أمازيس. فما كاد الرجل يستتمّ حتى ألقى اليونان أسلحتهم خاذلين الملك، منفضِّين من حوله، وأجلس القواد زعيمهم على العرش، ثم حملوه على الأعناق، وجعلوا يطوفون على الصفوف من أهالي وعسكر، وقبض على «ابرياس». ثم تحرك الجيش معتزّاً بالملك الجديد، وهو يسير به إلى العاصمة حتى دخلها ليلاً، فإذا هي مفتَّحة الأبواب، تستقبل الملك القائم بأكمل ترحاب، وعندئذ أمر «حماس» بالملك الأسير فسِيق إلى القصر مُرَاعًى مكرّماً حتى ينظر في أمره.

إلا أن الشعب تجمَّع حول القصر يُلحُّ في طلب «ابرياس» والملك المعزول يسمع تهديده ووعيده، حتى يئس من الحياة، فأرسل إلى «حماس» في الفجر يطلب منه الأمان لِبنته الواحدة، ولم يكن له من الأهل سواها، فأجابه «حماس» إلى طلبه، وأنه يحافظ على حياتها، ويضمن لها المعيشة اللائقة بها من بعده، فحين ورد هذا الجواب على «ابرياس» أخرج من جيبه ورقة مختومة وناولها الأميرة، وقال لها: احفظي وديعتي لدى الآلهة هذه الورقة، فإنها صكّ منهم بالانتقام لأبيك من الغادرين، ثم قبلها وموج الدمع يحول بينهما، وخرج بعد ذلك إلى الشعب، فلقي منيَّته للحين، وما اطمأن السرير بأمازيس حتى أرسل «كلكاس» إلى «ساموس» في وفد من وجوه المملكة وسَراتها يستقدمون «لادياس»، حتى إذا قدم موكبها الفاخر زُفَّت إلى الملك زِفافاً مشهوراً، أُلقي في يومه أساسُ أربعين هيكلاً في الأوطان لمعبودات اليونان، فكملت بذلك الشروط الثلاثة للقِران.

تليها رواية دل وتيمان، أو آخر الفراعنة، وهي متمّمة لها ويعرف القارىء منها كيف زال ملك الفراعنة.

تمت



مجنون ليلى

تمثيليّة شِعْريّة



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

مجنون بني عامر. قيل: آسمه مهديّ، والصحيح أنه: قيس بن المُلوَّح بن مُزاحم، وينتهي نسبه إلى عامر بن صعصعة.

ولم يكن مَجنوناً، وإنما لُقِّب بهذا لما أصابه من شدة وَلَهه بابنة عمه لَيْلَى بنت مَهديّ.

وكان قيس يَهوى آبنة عمّه. وهما حينئذ صبيّان، فعَلِق كل واحد منهما صاحبه، وهما يرعيان مَوَاشي أهلهما، فلم يزالا كذلك حتى كَبِرَا، فحُجِبت عنه.

ولمّا شُهِر أمر المجنون وليلى، وتناشد الناس شعرَه فيها، خَطبها، وخطبها وَرْد بن محمد العُقيلي، وخيَّرها أهلُها، فاختارت وَرْدَاً على كُرْهٍ منها.

وما إن كان هذا حتى توحّش قيس وهام على وجهه في البيداء. لا يَفتأ لسانُه يَسيل بالشعر هُياماً وأَسًى.

وتَموت ليلى قَبله فيُجَنُّ جُنونه حين يبلغه هذا، ولم يلبث غيرَ قليل ثم لَحِق بها.

هذه كلمة موجزة، كُنت على ألّا أكتبها، مجتزئاً بمساق التمثيلية الذي فيه غِناء عن كل تَقديم.

وغاية ما قصدتُه بهذا الموجز هو الإبانة شيئاً عن آسم قيس وآسم معشوقته ليلى. ثم الاستطراد شيئاً في ذِكْر نسبيهما.

أما عمّا هو غير هذا من أحداث فأَمْرُه إلى السياق، فهو فيه مُسْتَوْفىً.

وبعد، فها هي ذي قصة المجنون مضبوطة مشروحة مافيها من غامضٍ، لتَسْتَوِيَ للقارىء مبنى ومعنى.

وما توفيقي إلا بالله

إبراهيم الأبياري

ذو الحجة ١٤١٢ هـ/أغسطس ١٩٩٢ م

تمهيد

زمن الرواية : صدر الدولة الأموية.

مكان الرواية: بادية نجد

أشخاص الـرواية:

قيس : مجنون ليلى

ليلى

المهدي : أبو ليلى

ورد : زوج ليلى

ابن عوف : أمير الصدقات في الحجاز وعامل من عمال بني أمية

زياد : راوية قيس وصديقه

منازل : غريم قيس في حب ليلى

بشر : رجل من بني عامر

ابن ذريح : شاعر من شعراء الحجاز

نصيب : كاتب ابن عوف

سعد	:	رجل من بني عامر
الغريض	:	مغن مشهور
ابن سعيد	:	شاعر
أمية	:	رفيق ابن سعيد
الأمـوي	:	شيطان قيس
عضرفوت	:	
هبيد	:	
عسر	:	شياطين
عاصف	:	
بلهاء	:	جارية قيس
عفراء	:	جارية ليلى
سلمى	:	
هند	:	فتيات من بني عامر
عبلة	:	

رجال ـ قوافل ـ حداة ـ صبية ـ فتيات.

الفصل الأول

«ساحة أمام خيام المهدي في حي بني عامر ـ مجلس من مجالس السمر في هذه الساحة ـ فتية وفتيات من الحي يسمرون في أوائل الليل، وفي أيدي الفتيات صوف ومغازل يلهون بها وهم يتحدثون ـ تخرج ليلى من خيام أبيها عند ارتفاع الستار ويدها في يد ابن ذريح»

ليلى :

دَعِي الغـزْلَ سَلْمَى وحَيِّ مَعِي   مَنـارَ الحِجَازِ فَتَى يَثْربِ[1]

[تصافحه سلمى]

ويـا هِنْدُ هـذا أديبُ الحِجَازِ   هَلُمِّي بِمَقْدَمِه رَحِّبِي

[تصافحه هند ويحتفي به السامرون]

سعد : أمِنْ يَثْرِبٍ أَنْتَ آتٍ؟

ابن ذريح :

أجل   مِـن البَلَدِ القُدُسِ الطيِّبِ

ليلى : أيَابْنَ ذَرِيحٍ لَقِينَا الغَمَامَ

هند : وطَافَتْ بِنَا نَفَحاتُ النَّبِي

---

(١) يثرب: اسم المدينة أولاً.

عبلة [هامسة إلى سعد]: مَنِ ٱبنُ ذَريحٍ ؟

سعد : فتًى ذِكْرُهُ على مَشْرِقِ الشَّمْسِ والمَغْرِبِ
رَضِيعُ الحُسَيْنِ عليه السَّلاَمُ وتِرْبُ الحُسَيْن مِن المَكْتَبِ[1]

عبلة [إلى بشر ومشيرة إلى ابن ذريح]:
أَتَسْمَعُ بِشْرُ رَضِيعُ الحُسَيْنِ فَدَيْتُ الرَّضِيعَيْنِ والمُرْضِعَهْ
وأَنْتَ إذا ما ذَكَرْنَا الحُسَيْنَ تَصامَمْتَ!

بشر [هامساً ومتلفتاً كأنما يخشى أن يسمعه أحد]:
لا جاهِلاً مَوْضِعَهْ
ولكنْ أخافُ ٱمْرأً أنْ يَرى عَلَيَّ التَّشيُّعَ أو يَسْمَعَهْ
أُحِبُّ الحُسَيْنَ ولَكِنَّما لِسَانِي عَلَيْهِ وقَلْبِي مَعَهْ
حَبَسْتُ لِسَانِيَ عَنْ مَدْحِهِ حِذارَ أُمَيَّةَ أنْ تَقْطعَهْ
إذا االفِتْنَةُ ٱضْطَرّمَتْ في البِلَادِ ورُمْتَ النَّجَاةَ فكُن إمَّعةَ[2]

ليلى :
إبْنَ ذَرِيحٍ نَحْنُ في عُزْلَةٍ فَهَلْ عَلَى مُسْتَفْهِمٍ مِنْكَ باسْ؟
دارُ النَّبِيِّ كيف خَلّفتَها؟ كَيفَ تَرَكْتَ الأَمْرَ فيها يُسَاسْ؟

ابن ذريح :
تَرَكْتُها يا لَيْلَ مَضْبُوطَةً يحكُمُها والٍ شَدِيدُ المِرَاسْ[3]
إنَّ حَدِيثَ النَّاسِ في يَثْرِبٍ هَمْسٌ وخَطْوَ النَّاسِ فيها ٱحْتِرَاسْ

ليلى :
إبْنَ ذَرِيحٍ لا تَجُرْ وٱقْتَصِدْ أحْلَامُ مَرْوانَ جِبَالٌ رَوَاسْ[4]

---

(١) الترب: المماثل في السن.
(٢) الإمعة: من لا وزن له.
(٣) المراس: الجلد والقوة على الأمور.
(٤) الأحلام: العقول. ومروان: أي بنو مروان. ورواس: أي رواس ثابتة.

يـؤسِّسُــون الـمُـلْكَ فـي بَـيْـتِـهِـمْ   والعُنْـفُ والشِّـدَّةُ عِـنْـدَ الأَسَــاسْ

[تتضاحك الفتيات وتقول إحداهن لأخرى]

فتاة :

لَـيْـلَى عَـلَى دِيـنِ قَـيْسٍ   فَـحَـيْـثُ مـال تَـمِـيـلُ
وكـلُّ مـا سَـرَّ قَـيْـسـاً   فَـعِـنْـدَ لَـيْـلَى جَـمِـيـلُ

ابن ذريح :

مـا الَّـذي أَضْـحَـكَ مِـنِّـي الـظَّـبَـيَـاتِ الـعـامِـرِيَّـهْ
أَلأَنِّـي أَنـا شِـيـعِـيٌّ ولَـيْـلَى أُمَـوِيَّـهْ؟
إخْـتِـلافُ الـرَّأْيِ لا يُـفْـسِـدُ لـلوُدِّ قَـضِـيَّـهْ

ليلى :

أَعِـرْنِي سَمَـاعَـكَ يـابْنَ ذَرِيـحٍ   ولا تَـسْـمَـعِ الـطِّفْـلَةَ الـهـاذِيَـهْ
أَتَـيْـتَ لـنـا الـيَـوْمَ مِـنْ يَـثْـرِبٍ   فـكَـيْـفَ تَـرَى عـالَـمَ البـادِيَـهْ؟
أَكُنْتَ مِـنَ الـدُّورِ أو في الـقُـصُـورِ   تَـرَى هَـذِهِ القُبَّـةَ الصَّـافِـيَـهْ؟
كـأنَّ الـنُّـجُـومَ عـلى صَـدْرِهَـا   قَـلائِـدُ مـاسٍ عـلى غـانِـيَـهْ

هند :

كَفَى يـابْنَـةَ الخالِ! هـذا الحَـرِيـرُ   كَـثِـيـرٌ عـلى الـرِّمَّـةِ البـالِـيَـهْ
تـأَمَّـلْ تَـرَ البِـيـدَ يـابْنَ ذَرِيـحٍ   كَـمَـقْـبَـرَةٍ وَحْـشَـةٍ خـاوِيَـهْ
سَئِمْنَـا مِـن البِـيـدِ يـابْنَ ذَرِيـحٍ   ومِـنْ هَـذه العِيـشَـةِ الجـافِـيَـهْ
ومِنْ مُـوقِـدِ النـارِ في مَـوْضِـعٍ   ومِنْ حـالِـبِ الـشَّـاةِ في نـاحِـيَـهْ
وراغِـيَـةٍ مِـن وَرَاءِ الـخِـيَـامِ   تُـجِـيـبُ مِـن الـكَـلأ الـثَّـاغِـيَـهْ[1]
وأَنْـتُـمْ بِـيَـثْـرِبَ أو بـالـعِـرَاقِ   أَوِ الشَّـامِ في الـغُـرَفِ العـالِـيَـهْ
مُـغَـنِّـيـكُـمُ مَـعْـبَـدٌ والـغَـرِيضُ   وقَـيْـنَـتُـنـا الـضَّـبُـعُ الـعـاوِيَـهْ[2]

---

(١) الراغية: الناقة، والثاغية: الشاة.

(٢) معبد والغريض: مغنيان مشهوران. والقينة: الجارية المغنية.

وقَـدْ تَـأْكُـلُونَ فُنُـونَ الـطُّهَـاةِ ونَـأْكُـلُ مـا طَـهَـتِ الـمـاشِـيَـهْ

ليلى :

قَـدِ اعْتَسَفَتْ هِـنْـدُ يـابْنَ ذَرِيـحٍ وكـانَـتْ على مَـهْـدِهَـا قـاسِيَـهْ

فَـمَـا الـبِـيـدُ إلاّ دِيَـارُ الـكِـرَامِ ومَـنْـزِلَـةُ الـذِّمَـمِ الـوافِـيَـهْ

لهـا قُبْلَةُ الشَّمْسِ عِنْـدَ الـبُـزُوغِ ولِـلحَـضَـرِ الـقُـبْـلَةُ الـثَّـانِـيَـهْ

ونَحْنُ الـرَّيَـاحِينُ مِـلْءَ الـفَضَـاءِ وهُـنَّ الـرَّيَـاحِـيـنُ فـي الآنِـيَـهْ

ويـقتُـلُنـا العِشْقُ والـحـاضِـرَاتُ يَـقُمْـنَ مِن الـعِـشْـقِ فـي عـافِـيَـهْ

ولـم نَصْـطَدِمْ بِـهُـمُـومِ الـحَـيَـاةِ ولم نَـدْرِ - لـولا الهَـوَى - مـاهِيَـهْ

وآنـاً نَـخِـفُّ لِـصَـيْـدِ الـظِّـبَـاءِ وآنـاً إلـى الأُسْـدِ الـضَّـارِيَـهْ

هند [ساخرة]:

وفِـي كُـلِّ نـاحِـيَـةٍ شـاعِـرٌ يُـغَـنِّـي بِـلَـيْـلاَهُ أو رَاوِيَـهْ

[تحاول ليلى أن تمد رجلها فتتألم وتستغيث]

ليلى : قَيْسُ، إليَّ قَيْسُ

هند :

ما دَهَـاكِ لَـيْـلَى مـا الـخَـبَـرْ

ليلى :

أُحِسُّ رِجْـلِي خَـدِرَت حَـتَّـى كَـأَنَّـهَـا الـحَـجَـرْ

هند : قَدْ صِحْتِ: قَيْسُ مَرَّتَيْنِ

ليلى : أو ثَلاَثاً ما الضَّرَرْ

هند [متهكمة]:

إسْـمُ الـحَـبِـيـبِ عِـنْـدَنَـا نَـذْكُـرُهُ عِـنْـدَ الـخَـدَرْ

ليلى :

هِـنْـدُ كَـفَـى دُعَـابَـةً إنْ هُـوَ إلاّ آسْـمٌ حَـضَـرْ

[لنفسها]

يـا قَـيْسُ نـاجَى بـٱسْـمِـكَ الـقَـلْبُ الـلِّسَـانَ فَـعَـثَـرْ

عبلة [ضجرة]:

أمَـا سِوَى هَـذَا الحَـدِيثِ شـاغِـلُ؟ كَـيْفَ ظَـلَلْتَ اليَـوْمَ يـا مُـنَـازِلُ؟

منازل [ضاحكاً]:

مُـنَـازِلُ الـيَـوْمَ كـأْسٍ هـازِلُ يَـشْـرَبُ أو يَـطْعَـمُ أو يُـغَـازِلُ

هند :

بَـخٍ! كَـذَا فَـلْتَـكُـنِ الـحَـيَـاةُ مُتْ يـا بَعِيـرُ وَانْفُـقِي يـا شَـاةُ[1]

انْغَمَسْتَ في التَّرَفِ الرُّعَاةُ

ليلى :

وكَيْفَ ظَلَلْتَ اليَوْمَ سَعْـدُ؟ أهـازِلٌ كتِـرْبِـكَ أمْ في صَـالـحٍ ورَشَـادِ؟

سعد :

بَـلِ الجـدُّ يـا لَيْلَى سَبِيلِي ودَيْـدَنِي حَيَـاتِي بِـوَادٍ والـمُجُـونُ بِـوَادي

صَحِبْتُ زِيَـاداً طُـولَ يَـوْمِي تَلَقُّفـاً لأَشْـعَـارِ قَيْسٍ مِـنْ لِـسَـانِ زِيَـادِ

وإنّ زِيَـاداً ـ مُنْذُ كـانَ ـ لَـرَائِـحٌ عَلَيْنَـا بِشِعْـرِ العـامِـرِيّ وغَـادي

ولَـوْلاَ زِيَـادُ مـا تَمَثَّـل حـاضِـرٌ بـأَشْعَـارِ قَيْسٍ أو تَـرَنَّـمَ بـادِي

[يبدو على ليلى شيء من الزهو فتهامس الفتيات]:

سلمى :

أُنْـظُرِي هِـنْـدُ تَـرَيْ لَيْـلَى اكْتَسَتْ زَهْـواً وكِـبْـرا

وتَعَـالَتْ كـابْـنَـةِ النُّعْمَـان أو كـابْـنَـةِ كِسْـرَى[2]

هند :

لِـمَ لا؟ سَـلْمَـى، ألَـمْ يَـر فَـعْ لَـهَـا الـمَـجْـنُـونُ ذِكْـرَا؟

---

(١) نفقت الدابة: ماتت.

(٢) النعمان: هو ابن المنذر ملك الحيرة. وكسرى: ملك الفرس.

عبلة :

لِـمْ إذَنْ يـا هِـنْـدُ مِـنْ قَـيْسٍ ومِـمَّـا قـال تَـبْـرا؟[1]

هند :

عَـبَـثُ الـنِّـسْـوةِ! إنَّـا نَـحْـنُ بـالـنِّـسْـوَةِ أدْرَى

سلمى : سَلُوا الآنَ بِشْراً فِيمَ أنْفَقَ يَوْمَهُ؟

أصوات : سَلُوهُ

هند : سَلِي يا لَيْلَ عَنْ يَوْمِه بِشْرَا

ليلى :

وهَـلْ يَـوْمُـهُ إلاّ شُؤونٌ كـأمْسِـهِ مِن الصَّيْدِ؟

هند : إنَّ الصَّيْدَ لَذَّتُهُ الكُبْرَى

بشر :

نَـعَمْ هُـوَ مَـلْهَـايَ الَّـذِي لا أمَـلُّهُ ولا النَّفْسُ تُعْـطَى عَنْ تَناوُلِـهِ صَبْـرا
ولَـوْ كـانَ عَيْشِي في قُصُـور أمَيَّـةٍ لَعَلّمْتُ فَنَّ الصَّيْـدِ فِتْيـانَهـا الـزُّهْـرا
ومـا أنَـا صَـيَّـادُ الأرَانِبِ مِـثْـلَهُـمْ ولَكِنْ على حَيَّـاتِـهِ ألِـجُ الـقَفْـرا

ليلى :

إذَنْ هـاتِ واَصْدُقْ، بِشْرُ، في القَوْل مَرّةً
ولا تَخْتَـرِعْ أوْ تَـبْنِ مِـنْ حَجَـرٍ قَـصْـرَا

بشر :

دَعِي عَنْـكِ هَذَا السُّخْرَ يا لَيْـلَ واَسْمَعِي

ليلى :

تَحَـدَّثْ فَـلاَ واللهِ لم أُضْمِـرِ السُّخْـرَا[2]

---

(١) تبرا: أي تبرأ.
(٢) السخر: الهزء.

بشر :

بَكَـرْتُ كَـدأبِي الـيَـوْمَ أبْغِي قَنِيصَـةً
ومَنْ يَتَصَيَّـدْ يَـحْسَبِ الغُـنْمَ والـخُسْـرَا
رَأَيْـتُ غَـزَالاً يَـرْتَـعِـي وَسْط رَوْضَـةٍ
فَقُلْتُ أرَى لَـيْلَى تَـراءتْ لَـنَـا ظُهْـرَا[1]

هند [مشيرة إلى ليلى]:

وأيَّ الـلَّيَـالِـي بِـشْـرُ آنَسْـتَ؟ هَـذِهِ

بشر : إذا شِئْتِ ـ أو هـاتَيـكِ ـ أو حُـرَّةً أُخْـرَى

فَـقُلْتُ لَـه يـا ظَـبْيُ لا تَـخْشَ حـادِثـاً
فـإنّـك لِي جـارٌ ولا تَـرْهَبِ الـدَّهْـرَا[2]
فَـمَـا رَاعَـنِـي إلاّ وَذِئْـبٌ قَـد آنْـتَحَـى
فـأغْلَقَ في أحْشَـائِـهِ الـنَّـابَ وَالـظُّفَـرا[3]
ففـوَّقتُ سَهْمِي في كَتُـوم غَمَسْتُهـا
فَخَـالَطَ سَهْمِي مُهْجَـةَ الـذِّئْـبِ والنَّحْـرَا[4]

ليلى [ضاحكة]:

أخِـي بِشْـرُ لا شُلَّتْ يَمِـينُـكَ مِـنْ يَـدٍ
ولا فَضَّ فـاكَ الصُّبْحُ واللَّيْـلُ مـاكَـرَّا
سَمِعْنَـا بـإقْـدَامِ اللُّصُـوصِ وفَتْكِـهِمْ
فَلَمْ نَـرَ أدْهَـى مِنْـكَ فَتكـاً ولا أجْـرَا[5]
ووالله لَـمْ تَغْـضَـبْ لِـظَبْـيٍ ولَـمْ تَـثِبْ
بِـذِئْـبٍ ولَمْ تُـعْمِـلْ خَيَـالاً ولا فِكْـرَا

---

(١) هذا البيت للمجنون.
(٢) هذا العجز للمجنون.
(٣) هذا البيت والذي بعده للمجنون.
(٤) الكتوم: القوس لا ترن إذا انبضت.
(٥) أجرا: أي أجرأ بالهمز.

أَخَذْتَ فَلَمْ تَتْرُكَ لِقَيْسٍ بِضَاعَةً
سَرَقْتَ لَعَمْرِي الظَّبْيَ والذِّئْبَ والشِّعْرَا

[ضحك من الجميع]

حَدِيثُ الظَّبيِ والذِّئْبِ وقَيْسٍ لَسْتُ أَنْسَاهُ
زِيَادٌ عَنْهُ نَبَّانِي ولاَ يُنْبِيكَ إلاَّهُ
رَأى قَيْسٌ على رَابِيَةٍ ظَبْياً فَنَادَاهُ
فأَلْقَى الظَّبْيُ أُذْنَيْهِ ومَسّ الأَرْضَ قَرْنَاهُ

[ثم تقول في لوعة وصوت مخفوض وكأنما تحدث نفسها]

بِرُوحِي قَيْسُ! هَلْ راحَتْ ظِبَاءُ القَاعِ تَهْوَاهُ؟
وهَلْ يَرْثِي لَهُ الرِّيمُ ولاَ أَرْثِي لِبلواهُ؟

[تسترسل في حديثها الأول]

عَلَى فِيهِ مِن العُشْبِ بَقَايَا صَبَغَتْ فَاهُ
رَأى في جِيدِهِ قَيْسٌ وفي عَيْنَيْهِ لَيْلاَهُ
فَبَيْنَا هُوَ في الشَّوْقِ وفي نَشْوَةِ ذِكْرَاهُ
حَبا الذِّئْبُ من الوَادِي إلى الظَّبْي فأَرْدَاهُ
تَغَدَّى بِحَشَا الظَّبْيِ غَدَاءً ما تَهَنَّاهُ
رَمَاهُ قَيْسُ في الْمَقْتَلِ بالسَّهْمِ فأَصْمَاهُ[1]

بشر [مندفعاً بحماسة!]:

أَجَلْ يا لَيلَ ما قُلْتِ سِوَى شَيْءٍ شَهِدْنَاهُ
وإنْ لَمْ تَذْكُرِي القَبْرَ ولاَ كَيْفَ خَطَطْنَاهُ
حَفَرْنَا القَبْرُ للظَّبْيِ وقُمْنَا فَدَفَنَّاهُ
وصَلَّيْنَا على المَيْتِ وبالدَّمْعِ سَقَيْنَاهُ
فَقُولُوا ولْتَقُلْ لَيْلَى مَعِي: يَرْحُمُهُ اللهُ

---

(١) أصماه: قتله مكانه.

أصوات [بين الضحك والسخرية]:

أَجَلْ بِشْرُ!

أَجَلْ بِشْرًا!

أَجَلْ: يَرْحَمُهُ اللهُ

ابن ذريح :

بِشْــرُ كَفَى هَــزْلاً وتَخْلِيــطاً كَفَـى ويــآبْنَـةَ العَمِّ مَضَى اللَّيْــلُ سُــدَى

أَرْسَلَنِي قَـيْسُ فَلَوْ أَخْبَـرْتِنِي مَتَى مَتَى بـأَمْـرِ قَـيْسٍ يُعْتَنَى؟

بِتْنَــا نَـخَــافُ أنْ يَجِــلَّ خَــطْبُــهُ وتَـبْـلُغَ البَلْوَى بِقَـيْسٍ الـمَـدَى

وقَـيْسُ يــا لَيْـلَى وإنْ لَمْ تَـجْـهَلِي زَيْنُ الشَّبَــابِ وابْنُ سَيِّـدِ الحِمَى

لَـمْ نَــدْرِ في حَيِّــكِ أو في حَيِّـهِ فَـتًـى حَكَــاهُ نَسَـبــاً ولا غِـنَــى

ولا جَمَــالاً، وهُنَــا يَــا لَيْــلَ مَــا تَــرَيْـنَ أَنْتِ لا الَّــذِي نَـحْنُ نَــرَى

بشر [ساخراً]:

بخٍ بَخٍ! إبْنُ ذَرِيحٍ خاطِبٌ

ابن ذريح : أسْكُتْ فَلَسْتَ للمُروءَاتِ أخَا

ليلى [غاضبة]:

فِيمَ هَذَا الكَلَامُ يابْنَ ذَرِيحٍ؟

ابن ذريح : إتَّقي اللهَ واقْصِدِي في التَّجَنِّي

ليلى : ما تجنّيْتُ

ابن ذريح :

بَــلْ ظَلَمْتِ، دَعِينـي أُحْسِنُ الـذَّوْدَ عن صَـدِيقِي وخِـذْنِي

ليلى :

أنــا أَوْلَــى بِــهِ وأَحْـنَــى عَــلَيْـهِ لَــو يُـدَاوَى بِـرَحْـمَتِي والتَّـحَنِّي

يَـعْـلَمُ اللهُ وَحْـدَهُ مــا لِـقَـيْسٍ مِنْ هَـوًى في جَـوَانِحِي مُسْتَكِنٍّ

إنَّني في الهَوَى وقَيْساً سَواءُ دَنُّ قَيْسٍ من الصَّبَابَةِ دَنِّي[1]
أنا بَيْنَ اثْنَتَيْنِ كِلْتَاهُمَا النَّا رُ فَلَا تَلْحَنِي ولَكِنْ أعِنِّي[2]
بَيْنَ حِرْصِي عَلَى قَدَاسَةِ عِرْضِي واحْتِفَاظِي بِمَنْ أُحِبُّ وضَنِّي
صُنْتُ مُنْذُ الحَدَاثَةِ الحُبَّ جَهْدِي وهُوَ مُسْتَهْتَرُ الهَوَى لم يَصُنِّي
قَدْ تَغَنَّى بِلَيلَةِ الغِيل، ماذا كانَ بالغَيْلِ بَيْنَ قَيْس وبَيْنِي[3]
كُلُّ ما بَيْنَنَا سَلَامٌ وَرَدٌّ بَيْنَ عَيْنٍ مِنَ الرِّفَاقِ وأُذْنِ
وتَبَسَّمْتُ في الطَّرِيقِ إلَيْهِ ومَضَى شَأْنَهُ وسِرْتُ لِشَأْنِي

[تهيب بالسامرين وقد بلغ بها الغضب أقصاه]

أَوْغَلَ اللَّيْلُ فَلْنَقُمْ

ابن ذريح [متوسلاً]:

بَلْ رُوَيْداً واسْمَعِي لَيْلَ

ليلى : خَلِّ عَنِّيَ دَعْنِي

[تدخل خباءها بينما ينفضُّ السامرون فلا يتثاقل منهم في القيام

إلا منازل ـ الهرج والأسف يسودان الجميع]

بشر :

إنْفَضَّ سامِرُ لَيْلَى وكانَ حَفْلاً كَرِيمَا

سعد :

قَدْ فَضَّهُ آبْنُ ذَرِيحٍ فَفَضَّ عِقْداً نَظِيمَا
أثَارَ لَيْلَى فَهَاجَتْ كَمَا تُنَفِّرُ رِيمَا[4]
تُرَى أتُبْغِضُ قَيْساً؟

---

(١) الدن: الوعاء الضخم.
(٢) لحاه: لامه وعذله.
(٣) الغيل: الشجر الكثير الملتف.
(٤) ريما: أي رئماً، وهو الظبي الخالص البياض.

ابن ذريح :

لا تَـقْلِبُـوا الـحُـبَّ بُـغْـضَـا

لَـيْـلَى الـعَـشِـيَّـةَ غَـضْـبَى ويُصْبِـحُ الـصُّـبْـحُ تَـرْضَـى

سعد : أَنْعِمْ مُنَازِ مَسَاءً

منازل : نَعِمْتَ سَعدُ مَسَاءَ

هند : بِشْرُ مُسِّيتَ بِخَيْرٍ

بشر : أَنْعَمِي هِنْدُ مَسَاءَ

هند :

نَـحْـنُ يَـحْـوِينَـا طَـرِيـقٌ فَـامْضِ بَـلِّغْـنـي الـخِـبَـاءَ

سعد [ضاحكاً]: إحْذَرِي يا هِنْدُ مِنهُ!

هند : أنَا لاَ أَخْشَى آعْتِدَاءَ

قَـدْ عَـرَفْـتُـمْ وعَـرَفْـنَـا كَـيْـفَ يَـصْـطَـادُ الـظِّـبَـاءَ

[تسمع ضحكاتهم من أقصى الطريق بينما يظهر

قيس وزياد من جانب المسرح الآخر]

قيس :

سَجَا اللَّيْلُ حَتَّى هاجَ لِي الشِّعْرَ والهَوَى

ومـا البِيـدُ إلاّ اللَّيْـلُ والشِّعْـرُ والحُبُّ

مَـلأْتُ سَمَـاءَ البِيـدِ عِشْـقـاً وأَرْضَهَـا

وحُمِّلْتُ وَحْـدِي ذَلِـكَ العشـقَ يـا رَبُّ

أَلَـمَّ عـلى أَبْيَـاتِ لَـيْـلَى بِـيَ الـهَـوَى

ومـا غَـيْـرَ أَشْـوَاقِي دَلِـيـلٌ ولا رَكْبُ[1]

---

(١) الَمّ بي: أتى بي.

وبــاتَتْ خِيَــامِي خُــطْوَةً مِنْ خِيَــامِهَــا
فَـلَمْ يَشْـفِـنِي مِـنْـهَـا جِــوَارٌ ولا قُــرْبُ
إذا طَــافَ قَلْبِي حَــوْلَـهَــا جُنّ شَــوْقُــهُ
كَـذَلِـكَ يُـطْغِي الغُلَّةَ المَنْهَـلُ العَــذْبُ
يَـحِـنُّ إذا شَــطَّتْ ويَــصْـبُــو إذا دَنَــتْ
فيَــا وَيْــحَ قَلْبِي كَمْ يَـحِنُّ وكَـمْ يَصْـبُــو
وأَرْسَلَنِي أَهْلِي وقَــالُــوا آمْضِ فــآلْتَمِسْ
لَنَــا قَبَساً مِنْ أَهْــلِ لَيْلَى ومــا شَـبُّــوا
عَفَــا اللهُ عَنْ لَيْلَى لَقَـدْ نُــؤْتُ بــالَّــذِي
تَحَمَّــلَ مِـنْ لَيْـلَى ومِنْ نــارِهــا الـقَلْبُ

منازل [وقد سمع همهمة الصوت ورأى شبحيهما في الظلام]:

أَرَى شَبَحــاً مُـقْبِـلاً فـي الـظَّلَامِ وأَسْـمَــعُ هَمْـهَـمَــةً فـي الــدُّجَـى
هــو آبــنُ الـمُــلَوَّحِ دَلَّ الـهُـزالُ عَــلَيْــهِ ونَــمَّ اضْـطِرَابُ الـخُـطَى
عَــدُوِّي الـمُبِـيـنُ ومــا بَـيْـنَـنَــا ولا بَـيْـنَ صَــاغِـيَـتيْـنَــا جِــفَــا[1]
رَوَى شِعْــرَهُ البَـدْوُ والحــاضِــرُونَ وشِــعْــرِيَ لَــيْسَ لــه مَــنْ رَوَى
وهَــامَ بِــلَيْــلَى وهــامَــتْ بِــهِ لَـقَــدْ كُنْتُ أَوْلَى بِـهَــذَا الـهَــوَى
تَـشَــرَّدَ مُسْتَعْـظِـمَــاً فـي الـبِــلَادِ وجُــنَّ فَــمَــا آزْدَادَ إلاَّ نُــهَــى
وإنِّــي لأَبْــدِي إلَـيْــهِ الــوِدَادَ وأُخْــفِي لَــهُ فـي الضُّـلُوعِ الـقِـلَى
وأَحْــسُــدُه حَــسَــداً مــا عَــلِمْـتُ أَقَــيْسُ الــشَّــقِــيُّ بِــهِ أَمْ أَنَــا؟

[يتقدم منهما خطوات]
مَن الرَّاكِبُ اللَّيْلَ؟ قَيْسٌ أَخِي؟

قيس :

مُنَازِلُ؟ ما أَعْجَبَ المُلْتَقَى!

---

(١) صاغية الرجل: خاصته الميالون لأتباعه.

منازل :

أَقَيساً أَرى في ظِلَالِ البُيُوتِ؟ وعَهْدِي بِقَيْسٍ حَلِيفَ الفَلاَ

قيس : مُنَازِلُ، مِنْ أَيْنَ؟

منازل :

مِنْ عِنْدِهَا مِن السَّمَرِ المُمْتِعِ المُشتَهَى

قيس [حنقاً]:

أَمِنْ عِنْدِ لَيْلَى تَجُرُّ الذُّيُولَ حَدِيثٌ لَعَمْرُ أَبِي مُفْتَرَى

منازل :

بَلِ الصِّدْقُ ما قُلْتُ يابْنَ المُلَوَّحِ

قيس :

إِخْسَأْ مَتَى قُلْتَ صِدْقاً مَتَى؟

وما كُنْتَ تَصْنَعُ؟

منازل [ساخراً]:

ما تَصْنَعُونَ لَهَوْتُ لَعَمْرِيَ فِيمَنْ لَهَا

وسامِرُ لَيْلَى كَثِيرُ الزِّحَامِ فَلَسْتَ تَعُدُّ شَبَابَ الحِمَى

ولَيْلَى تُفِيضُ عَلَى مَنْ تَشَاءُ رِضَاهَا وتَحْرِمُهُ مَنْ تَشَا

زياد [مغضباً]:

مُنَازِلُ، قَيْسُ، سَبِيلَكَ قَيْسُ! وكِلْ لِيَ تَأْدِيبَ هَذَا الفَتَى

منازل [وقد أخذ بتلابيبه]:

تُؤَدِّبُنِي زِيَادُ وأَنْتَ ظِلٌّ لِمَجْنُونٍ ورَاوِيَةٌ لِهَاذِي

وتَزْعَمُ أَنَّنِي نِدٌّ لِقَيْسٍ رَضِيتُ من المَصَائِبِ غَيْرَ هَذِي

زياد :

مَنْ قال ذا؟ أَنْتَ لِقَيْسٍ نِدُّ لَمْ يَبْقَ فِيكِ يا حَيَاةُ جِدُّ

إِمْضِ بِنَا ناحِيَةً يا وَغْدُ!

[يجره إلى حيث تسمع أصواتهما من بعيد ثم تختفي
فيقبل قيس على خباء ليلى وينادي]

قيس : لَيْلَى!

المهدي [خارجاً من الخباء]:
مَن الهَاتِفُ الدَّاعِي؟ أَقَيْسَ أَرَى؟ ماذا وُقُوفُكَ والفِتْيَانُ قد سَارُوا

قيس [خجلاً]: ما كُنْتُ يا عَمُّ فِيهِمْ

المهدي [دهشاً]: أَيْنَ كُنْتَ إذنْ؟

قيس :
في الدَّارِ حَتَّى خَلَتْ مِنْ نارِنا الدَّارُ
ما كانَ مِنْ حَطَبٍ جَزْلٍ بِسَاحَتِهَا أَوْدَى الرِّيَاحُ بِهِ والضَّيْفُ والجارُ

المهدي [منادياً]: لَيْلَى - انْتَظِرْ قَيْسُ - لَيْلَى

ليلى [من أقصى الخباء]: ما وَرَاءَ أبي؟

المهدي : هَذَا ابْنُ عَمِّكِ ما فِي بَيْتِهِمْ نارُ

[تظهر ليلى على باب الخباء]

ليلى :
قَيْسُ ابْنُ عَمِّي عِنْدَنَا يَا مَرْحَباً يا مَرْحَبَا

قيس :
مُتِّعْتِ لَيْلَى بالْحَيَا ة وبَلَغْتِ الأَرَبَا

ليلى [تنادي جاريتها بينما يختفي أبوها في الخباء]: عَفْرَاءُ

عفراء [ملبية نداء مولاتها]: مَوْلَاتِي

ليلى : تَعالَيْ نَقْضِ حَقّاً وَجَبَا
خُذِي وِعَاءً وامْلَئِيهِ لابْنِ عَمِّي حَطَبَا

[تخرج عفراء وتتبعها ليلى]

قيس :

بالرُّوحِ لَيْلَى، قَضَتْ لِي حاجَةً عَرَضَتْ
ما ضَرَّهَا لو قَضَتْ للقَلْبِ حاجَاتِ
مَضَتْ لأَبْيَاتِهَا تَرْتَادُ لِي قَبَساً
والنَّارُ يا رُوحَ قَيْسٍ مِلْءُ أَبْيَاتِي
كَمْ جِئْتُ لَيْلَى بأَسْبَابٍ مُلَفَّقَةٍ
ما كانَ أَكْثَرَ أَسْبَابِي وعِلاَّتِي

[تدخل ليلى]

ليلى : قَيْسُ

قيس :

لَيْلَى بِجَانِبِي كُلُّ شَيْءٍ إذنْ حَضَرْ

ليلى :

جَمَعْتَنا فأَحْسَنَتْ ساعَةٌ تَفْضُلُ العُمُرْ

قيس : أَتَجِدِّينَ؟

ليلى :

ما فُؤادِي حَدِيدٌ ولا حَجَرْ
لَكَ قَلْبٌ فَسَلْهُ يا قَيْسُ يُنْبِئْكَ بالخَبَرْ
قَدْ تَحَمَّلْتُ في الهَوَى فَوْقَ ما يَحْمِلُ البَشَرْ

قيس :

لَسْتُ لَيْلاَيَ دارِياً كَيْفَ أَشْكُو وأَنْفَجِرْ؟
أَشْرَحُ الشَّوْقَ كُلَّهُ أَمْ مِنَ الشَّوْقِ أَخْتَصِرْ؟

ليلى :

نَبِّنِي قَيْسُ ما الَّذِي لَكَ في البِيدِ مِنْ وَطَرْ؟

لَـكَ فِـيـهَـا قَـصَـائِـدُ جـاوزْتَـهـا إلى الـحَـضَـرْ
كُـلُّ ظَـبْـيٍ لَـقِـيـتَـهُ صُغْتَ في جِيده الـدُّرَرْ
أتُـرى قَـدْ سَـلَوْتَـنَـا وعَشِقْتَ الـمَـهَـا الأُخَـرْ؟

قيس :

غِـرْتِ لَيْلَى مِن الـمَـهَـا والـمَـهَـا مِنْـكِ لَـمْ تَـغَـرْ
حَـبَّـبَ الـبِـيـدَ أَنَّـهَـا بِـك مَـصْـبُـوغَـةُ الـصُّـوَرْ
لَـسْـتِ كـالـغِـيـدِ لا ولاَ قَـمَـرُ الـبِـيـدِ كـالـقَـمَـرْ

ليلى [وقد رأت النار تكاد تصل إلى كم قيس]:

وَيْـحَ عَيْنَيَّ مـا أَرَى؟ قَيْسُ!

قيس : لَيْلَى

ليلى [مشفقة]: خُذِ الحَذَرْ!

قيس [غير آبه إلّا لما كان فيه من نجوى]:

رُبَّ فَـجْـرٍ سَـأَلْـتُـهُ هَـلْ تَنَفَّسْتِ في السَّـحَـرْ
ورِيَـاحٍ حَـسِـبْـتُـهَـا جَـرَّرَتْ ذَيْـلَكِ الـعَـطِرْ
وغَـزَالٍ جُـفُـونُـهُ سَـرَقَـتْ عَـيْـنَـكِ الـحَـوَرْ

ليلى :

إطْـرَحِ الـنَّـارَ يـا فَـتًـى أَنْـتَ غـادٍ عَـلَى خَـطَرْ
لَـهَـبُ الـنَّـارِ قَـيْسُ فِـي كُـمِّـكَ الأَيْـمَـنِ انْـتَـشَـرْ

قيس [مستمراً بعد أن رمى النار من يديه]:

وذِئَـابٍ أَرَقَّ يـا لَـيْـلَ مِـنْ أَهْـلِكِ الـغُـيُـرْ
أَنِـسَـتْ بِـي ومَـرَّغَـتْ في يَـدِي النَّـابَ والـظُّـفُـرْ

ليلى :

وَيْـحَ قَـيْسٍ تَـحَـرَّقَـتْ راحَـتَـاهُ ومـا شَـعَـرْ

قيس :

أَنْتِ أَجَّجْتِ في الحَشا لاعِجَ الشَّوْقِ فاَسْتَعَرْ
ثُمَّ تَخْشَيْنَ جَمْرَةً تَأْكُلُ الجِلْدَ والشَّعرْ

[يترنح قيس في موقفه وتظهر عليه بوادر الإغماء]

ليلى :

فِدَاكَ أَبِي قَيسُ، ماذا دَهَاكَ؟ تَكَلَّمْ، أَبِنْ قَيْسُ، ماذا تَجِدْ؟

قيس :

أَحِسُّ بِعَيْنَيّ قَدْ غامَتَا وساقَيَّ لا تَحْمِلاَنِ الجَسَدْ

[يخر صريعاً إلى الأرض فتتلقاه على صدرها صارخة]

ليلى :

يا لأَبِي لِلْجَارْ قَيْسٌ صَرِيعُ النَّارْ مُلْقىً بِصَحْنِ الدَّارْ!

[يخرج أبوها من الخباء على صوت استغاثتها]

أبي . ها أَنْتَ ذا جِئْتَ أغِثْنَا أَبَتِي أَدْرِكْ
لَقَدْ حُرِّق بالنَّارِ فما يَصْحُو إذا حُرِّكْ

المهدي : يَرَانَا النَّاسُ يا لَيْلَى

ليلى :

أبي انْفِ النَّاسَ مِنْ فِكْرِكْ
هُنا لَا تَقَعُ العَيْنُ على غَيْرِي ولا غَيْرِكْ
ولا يَطْلُعُ إنْسَانٌ عَلَى سِرّي ولاَ سِرِّكْ
ولا أَجْدَرُ مِنْ قَيْسٍ بإِشْفَاقِكَ أَوْ بِرّكْ
أبي . صَدْرِيَ لا يَقْوَى فأَسْنِدْهُ إلى صَدْرِكْ

المهدي [وهو يتلقى عنها جسد قيس ويحاول إنعاشه]:

رَعَاكِ الله يا لَيْلَى وكَافَاكِ عَلَى صَبْرِكْ

أخـاف الـنَّـاسَ فـي أَمْـري وأَخْـشَـى الـقَـلْبَ فـي أَمْـرِكْ
وكَـمْ دَارَيْـتُ يـا لَـيْـلَى وكَـمْ مـهّـدْتُ مِـنْ عُـذْرِكْ
ولَـسْـتُ الـوالِـدَ الـقَـاسِـي ولا الـطَّـامِـعَ فـي مَـهْـرِكْ

[يناجي قيساً في غيبوبته]

أبـا الـمَـهْـدِيِّ عُـوفِـيـتَ ويـا بُـورِكَ فـي عُـمْـرِكْ
أَرَانِـي شِـعْـرُكَ الـوَيْـلَ ومـا أَرْوِي سِـوَى شِـعْـرِكْ
كـمـا لَـذّ عـلى الـكُـرْهِ كَـلامُ الله لـلـمُـشْـرِكْ

[يتحرك قيس ويبدو عليه كأنما يفيق فيناديه]: قَيْسُ

قيس [يحاول الوقوف فتسنده ليلى]: لبَّيْكَ عَمُّ

المهدي :

حَـسْـبُـكَ فـاذْهَـبْ لا تَـطَأْ لِي بَـعْـدَ الـعَـشِـيَّـةِ دَارَا

ليلى : أَبتِي لا تَـجُـرْ على قَيْسَ

المهدي :

لِمْ لاَ؟ إنَّ قَـيْسـاً عَـلَى الـقَـرَابَـةِ جـارَا

ليلى :

أَبَـتِـي مـا تَـرَاهُ كـالـفَـنَـنِ الـذَّا وِي نُحُـولاً وكـالمَغِيبِ آصْفِـرَارَا؟
وتـأمَّـلْ رِدَاءَهُ ويَـدَيْـهِ تَـجِـدِ الـنَّـارِ أو تَـرَ الآثَـارَا
أَبتِي دَعْه يَسْتَرِحْ

المهدي :

بَلْ دَعِينا لا تَـزِيدِي يـا لَيْلَ سُخْطِي انْفِجَـارَا

قيس :

حَسْبُ يـا لَيْـلَ، حَسْبُ ذُلاًّ لِعَمِّي وكَـفَـى حِـلْفَـةً لَـهُ وآعْـتِـذَارَا
عَمُّ ماذا جَنَيْتُ؟

ليلى : ماذا جَنَى قَيْسُ

المهدي : نَسِيتِ الرُّوَاةَ والأَخْبَارَا

قيس : إنَّهُمْ يَأْفِكُونَ يا عَمُّ

المهدي : والغِيْلُ أَلَيْلاً غَشِيتَهُ أمْ نَهَارَا؟

مـا الَّـذِي كـانَ لَيْلَةَ الغِيْـلِ حَتَّى قُلْتَ فِيـهَـا النَّسيـبَ والأَشْعَـارَا؟

قيس :

لـم تَكُـنْ وَحْـدَهَـا ولا كُنْـتُ وَحْـدِي إنَّـمَـا نَـحْـنُ فِـتْـيَـةٌ وَعَـذَارَى

جَمعْتَنَـا خَمَائِـلُ الغِيـلِ بـاللَّيْـلِ كـمـا يَجْـمَـعُ الحِمَى الـسُّمّـارَا

لَيْسَ غَيْـرَ الـسَّـلامِ ثُمَّ افـتـرَقْنَـا ذَهَـبْـتَ يَمـنَـةً وسِـرْتُ يَـسَـارَا

المهدي :

إمْضِ يـا قَيسُ إمْضِ لا تَكْسُ لَيْلَى كُـلَّ حِيـنٍ فَضيـحَـةً وشَـنَـارَا

فكـأنِّي بِـقـصَّـةِ الـنَّـارِ تُـرْوَى وكَـأنـي بِـذَلِـكَ الشِّـعْـرِ سَـارَا

وكـأنِّـي آرْتَـدَيْتُ فـي الـحَـيِّ ذُلاَّ وتَـجَـلَّلْتُ في الـقَـبَـائِـلِ عـارَا

إمضِ قيسُ امضِ

قيس :

عَـمُّ رِفْـقـاً بِـلَيْـلَى وبِـقَـيْـسٍ ولا تَـكُـنْ جَـبَّـارَا

الـحِـذَارَ الحِـذَارَ مِـنْ غَضَـبِ الله ومِـنْ سُخْـطِهِ الـحِـذَارَ الـحِـذَارَا

المهدي :

إمْضِ قَـيْسُ امْضِ جِئْتَ تَـطْلُبُ نَـاراً أمْ تُـرَى جِئْـتَ تُشْعِـلُ الـبَـيْـتَ نـارَا؟

[يخرج قيس]

ستـار

الفصل الثاني

«طـريق من طرق القـوافل بين نجـد ويثرب، على مقـربة من حي بني عامر حيث تبدو مضارب هذا الحي على مدى البصر وعلى سفحِ جبـل التّـوباد ـ قيس وزيـاد جلوس إلى جذع نخلة، يستشـرفان شبحـاً يسيـر نحوهما»

قيس :

زِيَادُ، ما تِلْكَ؟ منَ الجُوَيْرِيَهْ؟ أتِلْكَ بَلْهَاءُ؟

زياد : أَجَلْ قَيْسُ هِيَهْ

[تظهر بلهاء وعلى رأسها [قصعة]:

قيس :

بَـلْهَـاءُ كَيْـفَ الحَـيُّ؟ كَـيْـفَ أُمّـيَـهْ؟

بلهاء [وهي تضع القصعة]:

تَـسْـأَلُ عَـنْـكَ كَـمَـا سَـأَلْـتَ

[تبدو على قيس كراهة للطعام وعزوف عنه]

زياد : بالله قَيْسُ ألا أَكَلْتَ

[يشتد ميل قيس عن الطعام]

بلهاء [هامسة لزياد]:

زِيَــادُ، مــا ذَاقَ قَــيْسٌ ولَا هَــمّـا

زياد :

طَــبْــخُ يَــدِ الأُمِّ يــا قَــيْسُ ذُقْ مِــمّـا
الأُمُّ يــا قَــيْسُ لا تَــطْبُــخُ الــسُّمّـا

[ينزع عن القصعة غطاءها]

تَعَالَ تَأمّلْ قَيْسُ، تِلْكَ ذَبِيحَةٌ

قيس : عَسَى اليَوْمَ نَحْرٌ

زياد : أَيْنَ نَحْنُ مِن الأَضْحَى؟

قيس :

أَرَى صُنْعَ أُمِّي يـا زِيَـادُ، فَـدَيْتُهـا بِـرُوحِي وإن حَمّلْتُهـا الهمَّ والبَرْحَا[1]
سَتُخْبِــرنـــا البَـلْهَـــاءُ

زياد :

بَلْهَاءُ بَيِّني ولا تَكْتُمِي عَنّا الحَدِيثَ ولا الشَّـرْحَا

بلهاء :

لقـد مَـرَّ عَـرّافُ اليَمَـامَـةِ بـالحِمَى فَمَـا رَاعَنَـا إلاَّ زِيَـارَتُـه صُبْحَـا
طَوَى الحَيَّ حتَّى جَاءَ عَنْ قَيْسَ سَائِلًا وأَظْهَـرَ مـا شَـاءَ المـوَدَّةَ والنُّصْحَـا
ولاحَتْ لـه شَـاةٌ جَثُـومٌ بِمَـوْضِـعٍ تخيّلَهـا ظِـلًّا من اللَّيْـلِ أو جُنْحَـا
فقال آذْبَحُوا هـاتِيكَ فـالخَيْرُ عِنْـدَهَا فَقَـامَ إِلَيْهَـا يـافِـعٌ يُحْسِنُ الـذَّبْحَا
فقـال آنْزِعُـوا مِنْ جُثَّـةِ الشَّـاةِ قَلْبَهـا فلم نَألُ قَلْبَ الشَّــاةِ نَـزْعاً ولا طَـرْحَا
فَلَمَّــا شَــوَيْنَــاهَــا رَقَـى بِعَــزَائِـمٍ عَلَيْهَـا وأَلْقَى في جَـوَانِبِهـا المِلْحَـا
وقـــال آطْلُبُــوا قَيْســاً فَهَــذَا دَوَاؤُهُ كَــأَنِّي بِــهِ لَمَّــا تـنــاولَـه صَحَّــا

---

(١) البرح: الشوق.

زياد :

تَـعـلّلْ قَـيْسُ بـالـشَّـاةِ　　عَسَـاهَـا تُـذْهبُ الحُـبَّـا
فَمَـا العَـرَّافُ بـالـمَجْـهُـو　　لِ لا عِـلْمـاً ولا طِـبّـا
ولـم تَـعـلَمْ عَـلَيْـهِ الـبِيـدُ　　تَـدْجِـيـلاً ولا كِـذْبـا
طَـبِيـبٌ جـرّبَ الـيـابِسَ　　فـي الـصَّحْـرَاءِ والـرَّطْبَـا
فَـذُقْ قَـيْسُ ولا تَـرْتَـبْ　　بِـمَـا قـال ومـا نَـبَّـا
وتِـلْكَ الأُمُّ يـا قَـيْسُ　　أطِـعْـهـا تُـطِعِ الـرَّبَّـا

قيس :

زِيَـادُ آسْـمَـعْ وكُـنْ عَـوْنِـي　　وخَـلِّ الـلَّوْمَ والـعَـتْـبَـا
إذا مـا لَـمْ يَـكُـنْ بُـدٌّ　　فـإنِّـي آكُـلُ الـقَـلْبَـا

زياد :

قَـيْسُ يَـبْـغِي الـقَـلْـبَ يـا بَـلْهَـاءُ أيْـنَ الـقَـلْبُ أيْـنَـا؟

بلهاء :

هُـوَ عِـنْـدِي ويَـسِـيـرٌ　　مـا اشْـتَـهَى قَيْسُ عَـلَيْـنَـا
هُو في الشَّاةِ

زياد : هَلُمّي　　أخْـرِجِي الـقَـلْبَ إلَـيْـنَـا

بلهاء :

الـقَـلْبُ! أيْـنَ الـقَـلْبُ؟ أيْـنَ يـا تُـرَى وَضَـعْـتُـه؟
يـا وَيْـحَ لِـي! نَـسِـيـتُ أنِّـي بِـيَـدِي نَـزَعْـتُـهُ!

قيس :

وشَـاةٍ بِـلاَ قَـلْبٍ يُـدَاوُونَـنِـي بِـهَـا
وكَيْفَ يُـدَاوِي الـقَلْبَ مَـنْ لاَ لَـهُ قَلْبُ!

[تسير بلهاء إلى الحي ويظهر صغار من ناحية الحي يلهون في طائفتين وإذ تقع أبصارهم على قيس وزياد تتغنى كل طائفة بغناء]

الطائفة الأولى:

قَيْسُ عُصْفُورَ البَوَادِي وَهَزَارَ الرَّبَوَاتْ
طِرْتَ مِنْ وَادٍ لِوَادِي وغَمَرْتَ الفَلَوَاتْ
إيهِ يا شاعِرَ نَجْدٍ ونَجِيَّ الظَّبِيَاتْ
أضْمِرِ الحُبَّ وأبْدِ لأعَفِّ الفَتَيَاتْ

الطائفة الثَّانية:

قَيْسُ كَشَّفْتَ العَذَارَى وانْتَهَكْتَ الحُرُمَاتْ
ودَمَغْتَ الحَيَّ عارا في السِّنِينَ الغابِرَاتْ
قَدْ ذَكَرْتَ الغِيْلَ دَعْوَى واصْطَنَعْتَ الخَلَوَاتْ
صَلِيَتْ لَيْلَى بِبَلْوَى مِنْكَ دُونَ الفَتَيَاتْ!

[يلتقط قيس بضع حصوات من الأرض ويهم أن يحصب بها الصغار ثم يتردد فينثر الحصا من يديه، بينما يظهر من جانب الطريق الآخر ابن عوف وكاتبه نصيب]

قيس [مناجياً نفسه]:

قَيْسُ لا! سامِحْ صِغَاراً لا يُحِسُّونَ الخَطِيئَهْ
إنَّهُمْ فِيمَا أتَوْهُ بَبَّغَاوَاتٌ بَرِيئَهْ
لَقَّنُوهَا كَلِمَاتٍ نَزِهَاتٍ أو بَذِيئَهْ

زياد [وهو يصرف الصغار]:

إذْهَبُوا عُودُوا إلى آبائِكُمْ واذْكُرُوا قَيْساً بِخَيْرٍ يا خُبُثْ
إذْهَبُوا أوْحُوا إلى أتْرابِكُمْ ولْيُبَلِّغْ حَدَثاً مِنْكُمْ حَدَثْ
سَيْطَرَ الحُبُّ على دُنيَاكُمُ كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا الحُبَّ عَبَثْ

[يجري الصغار أمام زياد مضطربين ثم يختفون عن الأنظار، بينما يستلقي قيس على الأرض في شبه إغماء]

ابن عوف [إلى نصيب وزياد يطارد الصغار]:

انْظُرْ نُصَيْبُ، ضَجَّةٌ وصِبْيَةٌ ورَجُلٌ يَرْمِي الصِّغَارَ بالحَصَا

نصيب

أَرَى أَمِيـرِي نَـشَـأَ تَـعَـلَّـقُـوا بـآبْنِ سَبِيـلٍ مُتْعَبٍ واهِي القِـوَى

ابن عوف : بَلْ آمْضِ سَلْ:

نصيب [معترضاً زياد]: مَنِ الفَتَى؟

زياد [لنفسه وقد رأى ابن عوف]:

ماذا أَرَى؟ هَـذَا أَمِيـرُ الصَّـدَقَـاتِ هَـهُنَـا

[ثم يرد على نصيب]

قَيْسُ إِمَامُ العاشِقِينَ

ابن عوف :

أَيُّهُم؟ فَـهُمْ كَـثِيـرٌ، كُـلُّ قَـيْسٍ بِـهَـوَى

زياد :

أَجَـلْ ولَـكِـنَّ الَّـذِي تُـبْـصِـرُهُ أَرْفَعُهُمْ ذِكْـراً وأَعْـلاَهُمْ سَنَـا[1]

ابن عوف :

لَـعَـلَّهُ قَـيْسُ الَّـذِي نَـعْـرِفُـهُ لَقَـدْ رَوَيْتُ شِـعْـرَهُ فِـيمَـنْ رَوى

فأَيْنَ ظِلُّهُ زِيَادُ؟

زياد :

أنا ذا أَنَـا الَّـذِي يَـتْبَـعُـهُ حَيْـثُ مَـشَـى

ابن عوف :

أَنْتَ الَّـذِي تُـهـدِي لِكُـلِّ قَـرْيَـةٍ مُجَـاجَـةَ النَّحْـلِ ونَفْحَـةَ الـرُّبَى

مـا بـالُـهُ يَـطَا التُّـرابَ حـافِيـاً ويَـقْـطَـعُ الـبِـيـدَ مُـمَـزَّقَ الـرِّدَا

خُـذ يـا نُـصَيْـبُ بُـرْدَتِي فَـغَـطِّهِ لا يَـلْحَـقَـنَّـه من الـعُـرْيِ أذَى

---

(١) السنا: رفعة القدر.

زياد :

إحْفَظْ عَلَيْكَ البُرْدَ يا أَمِيرُ لا ... فَقْرَ إِلَيْهِ بِابْنَ سَيِّدِ الحِمَى
إنَّ لِقَيْسٍ مِنْ ثِيَابِ الوَشْيِ مَا ... يُفْنِي بِهِ العُمْرَ ومَا يُعْيِي البِلَى

ابن عوف [مناجياً نفسه]:

يا وَيْحَ قَلْبِي ما خَلا مِنْ قَسْوَةٍ ... ما بالُهُ رَقَّ لِقَيْسٍ وَرَثَى

[يقبل على قيس]

قَيْسُ بُنَيّ

زياد :

هُوَ فِي إغْمَاءَةٍ ... مِنْ وَجْدِهِ وما أَظُنُّه صَحَا

[يسمع صوت حادّ من ناحية نجد، ويتعالى الصوت قليلاً قليلاً حتى يظهر الحادي ومن ورائه قافلة تسير إلى المدينة ثم يذوب الصوت قليلاً قليلاً حتى ينقطع]

أنشودة الحادي

يا نَجْدُ خُذْ بالزِّمَامْ ... ورَحِّبِ
سِرْ فِي رِكَابِ الغَمَامْ ... لِيَثْرِبِ
هَذَا الحُسَيْنُ الإمَامْ ... إبْنُ النَّبِي
النُّورُ فِي البِيدِ زَادْ ... حَتَّى غَمَرْ
أُحْدُ الحَيَا فِي الوِهَادْ ... أُحْدُ القَمَرْ[1]
أُحْدُ جَمَالَ البَوَادْ ... زَيْنَ الحَضَرْ
إبنَ النبي

ابن عوف :

سَمِعْتُمْ؟ يا لَكِ مِنْ ... رَنَّةِ حادٍ مُطْرِبِ

---

(١) أحد: من الحداء، وهو الحث على السير بالغناء.

زياد :

يـا لَيْتَ شِعْرِي مـا الـرِّكـا ... بُ مَـنْ لِـوَاءُ الـمَـوْكِـبِ؟

نصيب :

قَـدْ بَيَّن الـحَـادِي فَقُـلْ ... أصَمٌّ أنْـتَ أمْ غَـبِـي؟
هَـذَا مَـنَـارُ الـعَـرَبِ ... هَـذَا الـحُسَيْنُ ابْنُ النَّبِي
هَـذَا الـزَّكِيُّ ابْنُ الـزَّكِـ ... ـيِّ الـطَيِّبُ آبْنُ الـطَّيِّبِ
عـارَضَنـا الـحُسَيْنُ فِي ... طَـرِيـقِـهِ لِـيَـثْـرِبِ
هَـذَا سَـنَـا جَـبِـيـنِـهِ ... مِـلْءَ الـوِهَـادِ والـرُّبِـى[1]
قَـدْ جَـلَّ حـادِيـهِ جَـلاَ ... لَ الـقَـارِيءِ الـمُـطَرِّبِ

ابن عوف [هامساً إلى نصيب]:

نُـصَـيْـبُ صَـهْ لا تَـسْـلُكَـنْ ... بِـنَـا مَـسَـالِـكَ الـتُّـهَـمْ
ولَا تَـظَاهَـرْ بـالـهَـوَى ... لِـوَارِثِ الـبَـيْـتِ الـعَـلَم
إحْـذَرْ جَـوَاسِـيسَ آبْـنِ هِـنْـدٍ ... وعُـيُـونَ آبْـنِ الـحَـكَـمْ[2]
نَـحْـنُ رِجَـالُ دُوَلَـةٍ ... قَـوَّامَـةٍ عَـلَى الأُمَـمْ
لَـيْسَ بِـعَـيْـنِـهـا عَـمًـى ... ولا بـأُذْنِـهـا صَـمَـمْ
تَـسْـمَـعُ فـي ظِـلِّ الـقُـصُـورِ ... هَـمْسَ رُعْـيَـانِ الـغَـنَـمْ

[إلى زياد مشيراً إلى قيس]:

زِيَـادُ انْـظُرْ فَـمَـا انْـفَـكَّ ... صَرِيـعَ الـوَجْـدِ والـذِّكْـرَى
كَـمـا مَـرّ بِـنَـا الـرَّكْـبُ ... الـحُـسَـيْـنِـيُّ بِـهِ مَـرّاً
فَـلَمْ يَـشْـغَـلْ لَـهُ بـالاً ... ولَـمْ يُـوقِظْ لَـهُ فِـكْـرا

زياد :

رُوَيْـداً سَـيِّـدِي مَـهْـلاً ... ولا تَـسْـتَـغْـرِبِ الأَمْـرَا

---

(١) السنا: الضوء.

(٢) ابن هند: معاوية بن أبي سفيان، وهند أمه. وابن الحكم: مروان ابن الحكم وإليه يُنسب بنو مروان.

لَـقَـدْ سُـقْـنَـاهُ بـالأَمْسِ فَـحَـجَّ الـكَـعْـبَـةَ الـغَـرَّا
فَـلَمَّـا لَـمَسَ الـرُّكْـنَ ومَـسَّـتْ يَـدهُ الـسِّـتْـرَا
وقُـلْنَـا الآنَ مِـنْ لَـيْـلَى ومِـنْ فِـتْـنَـتِـهَـا يَـبْـرَا
سَـمِـعْـنَـاهُ يُـنَـادِي الله مِـنْ سَـاحَـتِـهِ الـكُـبْـرَى

ابن عوف : وماذا قالَ؟

زياد :

مـا تـابَ مِـن الـعِـشْـقِ ولا آسْـتَـبْـرَا
ولَـكِـنْ قـالَ يـا رَبُّ مَـلَكْـتَ الـخَـيْـرَ والـشَّـرَّا
فَـهَـاتِ الـضُّـرَّ إنْ كـانَ هَـوَى لَـيْـلَى هُـوَ الـضُّـرَّا
وإنْ كـانَ هُـوَ الـسِّـحْـرَ فَـلاَ تُـبْـطِلْ لَـهَـا سِـحْـرَا
ويـا رَبُّ هَـبِ الـسَّـلْوَى لِـغَـيْـرِي وهَـبِ الـصَّـبْـرَا
وهَـبْ لِي مَـوْتَـةَ الـمُضْنَى بِـهَـا لا مِـيَـتَـةً أُخْـرَى

[يقبل على قيس ويميل عليه بحنان]

حَنَـانَيْـكَ قَـيْسُ إلاَمَ الـذُّهُـولُ؟ أفِقْ سـاعَـةً مِنْ غَـوَاشِي الخَبَـلْ
صَلِيـلُ البِغَـالِ وَرَجْـعُ الحُـدَاءِ وضَـجَّـةُ رَكْـبٍ وَرَاءَ الـجَـبَـلْ
وحَـادٍ يَسُـوقُ رِكـابَ الحُسَيْنِ يَهُـزُّ الـجِبَـالَ إذا مـا آرْتَـجَـلْ
فـلم يَـبْـقَ مـاشٍ ولا راكِـبٌ عـلى نَجْـدَ إلاَّ دعـا وآبْـتَهَـلْ
فَقُمْ قَيْسُ واضْـرَعْ مع الضَّـارِعِينَ وأنـزِلْ بِجَـدّ الـحُسَيْـنِ الأمَـلْ

[يسمع صوت حاد آخر قادماً إلى نجد من ناحية يثرب؛ على رأس قافلة أخرى وتمر هذه القافلة كما مرت الأولى]

أنشودة الحادي

هَـلاَ هَـلاَ هَـيَّـا * إطْـوِي الفَـلاَ طَيَّـا * وقَـرِّبي الـحَـيَّـا * للنَّـازِحِ الصَّبِّ
جَـلاَجِـلٌ في البِيـدْ * شَجِيَّـةُ التَّـرْدِيـدْ * كَـرَنَّـةِ الغِـرِّيـدْ * في الفَنَنِ الرَّطْبِ
أَنَـاحَ أَمْ غَـنَّـى * أَمْ لِـلْحِمِى حَـنَّـا * جُـلَيْـجِـلٌ رَنَّـا * في شُعَبِ القَلْبِ

هَـلاَ هَـلاَ سِيـري * وآمْضِي بِتَيْسِيـرِ * طِيرِي بِنَا طِيـري * للمَـاءِ والعُشْبِ
طِيري اسبقي اللَّيْلا * وأَدْرِكِي الـغَـيْـلا * الـعَهْـدَ مِنْ لَيْـلَى * ومَنْـزِلِ الحِبِّ
بـالله يا حـادِي * فتِّشْ بِتَوْبَـادِ * فـالقَلْبُ في الـوَادِي * والعَقْـلُ في الشِّعْبِ[1]
يـا قَمَـرًا يَبْـدُو * مَـطْلَعُـهُ نَـجْـدُ * قَـدْ صَنَعَ الـوَجْدُ * ما شَاءَ بالرَّكْبِ

[يفيق قيس ثم يتلفت مصغياً إلى الحداء]

قيس :

لَيْلى! مُنَـادٍ دَعَـا لَيْلَى فَخَفَّ لَـهُ نَشْـوَانُ في جَنَبَاتِ الصَّدْرِ عِـرْبِيـدُ
لَيْلى! انْـظُرُوا البِيـدَ هَـلْ مـادَتْ بـآهِلِهَـا
وهَـلْ تَـرَنَّـمَ فـي الْـمِـزمَـارِ دَاوُدُ
لَـيْلَى! نِـدَاءٌ بِلَيْلَى رَنَّ فـي أُذُنِـي سِحْرٌ لَعَمْرِي لَـهُ في السَّمْعِ تَـرْدِيدُ
لَيْلَى تَـرَدَّدُ في سَمْعِي وفـي خَلَدِي كمـا تَـرَدَّدُ في الأَيْـكِ الأغَـارِيـدُ
هَـلِ المُنَـادُونَ أَهْلُوهَـا وإخْـوَتُهـا أم المُنَـادُونَ عُشَّـاقٌ مَعَـامِيـدُ[2]
إن يَشْـرَكُوني فَي لَيْلَى فَـلاَ رَجَعَتْ جِبَـالُ نَجْـدٍ لَهُمْ صَـوْتـاً ولا البِيـدُ
أَغَيْـرَ لَيْـلاَيَ نَـادَوْا أمْ بِهَـا هَتَفُـوا فِـدَاءُ لَيْلَى اللَّيَـالِي الخُـرَّدُ الغِيـدُ
إذا سَمِعْتُ اسْمَ لَيْلَي ثُبْتُ مِنْ خَبَلي وثـابَ مـا صَـرَعَتْ مِنِّي العَنَـاقِيـدُ
كَسَـا النِّدَاءَ اسْمُهَـا حُسْناً وحَبَّبَـهُ حَتَّى كـأنَّ آسْمَها البُشَـرى أو العِيدُ
لَيْلَى! لَعَلِّيَ مَـجْنُـونٌ يُـخَيَّـلُ لِـي لا الحيُّ نـادَوْا على لَيْلَى ولا نُـودُوا

ابن عوف :

لا تَـكْتَئِـبْ وتَـعَـالَ يـا قَيْسُ آسْتَـرِحْ
مِـمَّـا تُـكَـابِـدُ فـي الـهَـوَى وتُـلاَقِـي

قيس :

هَـلْ أَنْـتَ آسٍ يـا أَمِيـرُ جِـرَاحَـتِي
أمْ أَنْـتَ مِنْ سِـحْـرِ الـصَّـبَـابَـةِ راقـي؟

---

(١) تورباد: جبل بنجد.
(٢) المعاميد: الذين جهدهم الحب.

ابن عوف :

بَـلْ مَـنْ رُوَاتِـكَ قَيْسُ مِـنْ زمَن مَـضَى
لَـمْ أخْـلُ قَـيْسُ عَـلَيْـكَ مِـنْ إشْـفَـاقِ

قيس :

قُـلْ للخَلِيفَةِ يـابْنَ عَـوْفٍ في غَـدٍ مَـنْ ذَا أبَـاحَ لَـهُ دَمَ الـعُـشَّـاقِ؟
هَـدَرَتْ حُكُـومَتُـهُ دَمِي فَتَحَـرَّشَتْ بِـدَمٍ عَلَى سَيْفِ الجُفُـونِ مُـرَاقِ

ابن عوف :

أَرَضِيتَنِي عِنْـدَ الخَلِيفَـةِ شـافِعـاً؟ يا قَيْسُ

قيس [في أنفة]: لاَ والوَاحِدِ الخَلاَّقِ

بَـلْ عِنْـدَ لَيْلَى فـامْضِ فـاشْفَـعْ لِي لَـدَى
لَـيْـلَى ونـاشِـدْ قَـلْبَـهـا أشْـوَاقِـي
جِئْهَـا فَـذَكِّـرْهـا العُهُـودَ وحِفْـظَهَـا
وآذكُـرْ لـهـا عَهْـدِي وصِـفْ مِـيثَـاقِي
لَـيْلَى إذا هِـيَ أَقْبَلَـتْ حَـقَـنـتْ دَمِـي
كَـرَمـاً وفَـكَّـتْ يـا أمِـيـرُ وَثَـاقِـي

ابن عوف :

الآنَ قَـيْسُ آذْهَـبْ فَـبَـدِّلْ حُـلَّةً
وتَـرَدَّ غَـيْـرَ ثِـيَـابِـكَ الأخْـلاَقِ
فـالصُّبْـحَ تَـدْخُـلُ حَيَّ لَيْلَى قَيْسُ في
رَكْـبِـي وبَـيْـنَ بِـطَانَـتِـي ورِفَـاقِـي

قيس [إلى زياد]:

أَسَمِعْتَ مـا قـالَ الأمِيـرُ؟ زِيَـادُ، طِـرْ
نَـحْـوَ الحِمَى بِجَنَاحَي الـمِشْـتَـاقِ

إذْهَــبْ وسَــلْ أُمِّي أعَــزَّ مَــلَابِــسِــي

مِــنْ كُــلِّ شَــامِــيٍّ وكُــلِّ عِــرَاقِــي

وٱذْكُــرْ لَهَــا فَضَــلَ الأَمِيــرَ، ولَمْ تَــزَلْ

نِــعَــمُ الأَمِــيــرِ قَــلَائِــدَ الأَعْــنَــاقِ

[يسير زياد نحو الحي بينما يتمسّح قيس بابن عوف كالطفل]

شُــكْــراً لِــصُــنْــعِــكَ يــا أَمِــيــ ـــرُ ودُمْــتَ مَــقْــصُــودَ الــرِّحَــابْ

عَجِّلْ أمير

ابن عوف [ضاحكاً]:

بَــلِ ٱنْــتَــظِرْ أَنَــسِيتَ يــا قَيْسُ الــثِّيَــابْ؟

قيس :

مَــنْ مُــبلغٌ أُمِّي الــحَــزِينَــ ـــة أنَّ عَــقْــلِي الــيــومَ ثــابْ؟

ومَن البَشِيــرُ إلَيْــكِ يــا لَيْلَى بِــقَــيْــسٍ فــي الــرِّكَــابْ؟

الــيَــوْمَ أهْــلاً بــالــحَــيَــاةِ ومَــرْحَبــاً بِــكَ يــا شَبَــابْ

ســتــار

الفصل الثالث

«قطعة من الصحراء تبدو في يسارها طائفة من مضارب بني عامر ممتدة إلى ما وراء اليسار على سفح جبل التَّوباد ـ خباء مضروب إلى يمين هذه الطائفة من المضارب كأنه نهاية خيام الحي ـ على اليمين أشجار بان يقف في ظلها ابن عوف وحاشيته وقيس وزياد»

ابن عوف :

تَــرَاءَى الــحَــيُّ لــلرَّكْــبِ   وأشْــرَفْــنَــا عَــلَى الشِّــعْــبِ
أفِــقْ قَــيْسُ أمَــا فــي رُؤْ   يَــةِ الخَيْمَــاتِ مــا يُصْــبِي؟
ألاَ تَــهْــتِــفُ بــالــشَّــكْــوَى   إلــى لَــيْــلَى وبــالــعَــتْــبِ

قيس :

دِيَــارَ الــحَــيِّ مِــنْ لَــيْــلَى   سَــلاَمٌ مِــنْ شَــجٍ صَــبِّ
عَــلَى الــحَــيِّ عَــلَى الــدَّارِ   عَــلَى لَــيْــلَى عــلى الــحُــبِّ
غَــدَا الــرَّكْــبُ عَــلَى طِــيــبٍ   كــريــحِ الــمَــنْــدَلِ الــرَّطْــبِ[1]
فــيــا لَــيْــلَى عَــسَــى الــيَــوْمَ   أبُــلُّ الــشَّــوْقَ بــالــقُــرْبِ
عَــسَــى الــخِــطْــبَــةُ لا تَــنْــزِلُ   فــي نــادِيــكِ كــالــخَــطْــبِ
عَــسَــاهُــمُ لا يَــقُــولُــونَ   فَــتًــى مُــشْــتَــرَكُ الــلُّــبِّ

---

(١) المندل: العود الطيب الرائحة.

ولا يَـذْهَـبُ إحْـسَـانِـي ولا يَـبْـقَـى سِـوَى ذَنْـبِـي
يَـقُـولُـونَ بِـهَـا غَـنِّـي لَـقَـدْ غَـنَّـيْـتُ مِـنْ كَـرْبِـي
سَـلِي تُـرْبَـكِ كَـمْ مَـرَّغْـتُ خَـدَّيَّ عَـلَى الـتُّـرْبِ
وكـم جُـدْتُ عَـلى الـرَّمْـلِ ولـم أبْـخَـلْ عـلى الـعُـشْـبِ
بِـدَمْـعٍ مِـثْـلِ دَمْـعِ الـثُّـكْـلِ مَـغْـروفٍ مِـنَ الـقَـلْـبِ

[يتطلع ابن عوف إلى ناحية الحي]

ابن عوف : قَيْسُ آنْتَبِهْ قَيْسُ

قيس : مَن المُنَادِي؟

ابن عوف :

الحَيُّ في السِّـلاَحِ سـدَّ الـوَادِي
وأنْـتَ قَـيْسُ بَـعْـدَ حِيـنٍ غـادٍ عَـلى خُـصُـوم لُـدُدٍ شِـدَادِ
فـالْـقَ الـرِّجَـالَ صـاحِيَ الـفُـؤَادِ لا تَـلْـقَـهـمْ مُـضَـيَّـعَ الـرَّشَـادِ

قيس [متطلعاً كذلك]:

أتُـبصـرُ يـا بنَ عَـوفٍ حَيَّ لَـيْلَى تَـدَجَّـجَ في السِّـلاحِ ولا تَـرَاهَـا
فَـمَـا لِـي لا أُحِـقّـقُ غَـيْـرَ لَـيْلَى وإنْ كَثُـرَ السَّـوَادُ لَـدَى حِمَـاهَـا
لَقَـدْ ألْقَـى هَـوَى لَيْـلَى حِجَـابـاً عـلى عَيْـنِي فَـلَسْتُ أرَى سِـوَاهَـا
وبَـغَّضَـتِ الـنَّـصِـيـحَ إلـيّ لَـيْلَى وسَــدَّ مَـسَـامِعِي عَـنْـهُ هَـوَاهَـا

[يسمع من بعيد ومن ناحية الحي لَجَباً وقعقعة
سلاح ويقترب الصوت ويتعالى شيئاً فشيئاً]

أرَى حَيَّ لَيْلَى في السِّلاَحِ ولا أرَى سِـلاَحـاً كَهجْـرِ العـامِـريّـة مـاضِيَـا
دَمِي الـيَـوْمَ مَهْـدُورٌ لِلَيْلَى وأهْلِهـا فِـدَاءٌ لِـلَيْلَى مُهْـدَراتُ دِمَـائِـيَـا
لِيَ اللهُ! مـاذا مِنْكِ يـا لَيْلَ طَـافَ بي ومـا ذَلِـكَ السَّـاقِي ومـاذا سَقَـانِيَـا؟
دَعُـوْنِي ومـا عِنْـدِي لِلَيْلَى أقُـولُـه لِلَيْلَى وأسْتَنْشِي الَّـذِي عِنْدَهـا لِيَـا
أهِيمُ فأسْتَعْدِي نَهـارِي على الجَوَى وأقْبَـعُ لَيْلِي أسْتَجيـرُ الـقَـوَافِيَـا

فمــا أُشْـرِفُ الأَيْـفَـاعَ إلّا صَبَـابَــةً ولا أُنْشِــدُ الأشعـارَ إلا تَــدَاوِيَــا[1]
إذا النَّــاسُ شَـطْـرَ البَيْتِ ولّــوْا وُجُـوهَهُمْ تَلَمَّسْتُ رُكْنَي بَيْتِهـا في صَلَاتِيَـا
أُصَلِّي فمــا أَدْرِي إذا مـا ذَكَــرْتُهــا أثِنْتَين صَلَّيتُ الضُّحَى أم ثَمَــانِيَـا[2]
تَــوارَتْ وَرَاءَ الجَمْـعِ لَيْلَى فَخَانَـهـا فَمٌ كابتسام الصُّبْحِ يأبَى التَّـوَارِيَا
وطِيبٌ بـه خُصَّتْ حَوَى الـطِّيبَ كُلَّهُ فَهَبْـهُ الأَقَـاحِي أو فَهَبْـه الفَـوَاغِيَـا[3]
فـأحْسَسْتُ مِنْ فَـرْعِي لِسَـاقِيّ هَـزَّةً كــأنَّ عِيَـانــاً مِنْـكِ لاقَى عِيَــانِيَــا
دَعُــونَــا ومــا يَبْقَى إذا مــا فَنِيتُـمُ فــوالله مـا شَيْءٌ خَـلَا الحُبَّ بَـاقِيَـا
مَشَى الحُبُّ في لَيْلَى وفِيّ مِن الصِّبَا ودَبَّ الهَـوَى في شَـاءِ لَيْلَى وشَـائِيَـا
وإنِّـي ولَيْـلَى لِـلأَوَاخِـرُ في غَـدٍ لَشُغْــلٌ كَمَا كُنَّــا شَغَلْنَــا الأَوَالِيَــا

[يبدو على وجهه الإصفرار والجهد ثم يترنَّح فيلقاه

زياد ـ تسمع أصوات الحي من قريب]

ابن عوف :

زِيَــادُ أَدْرِكْــهُ أَدْرِكْ إنِّــي أَرَى الــدَّاءَ عَــادَهْ
لَــقَــدْ تَــضَــاءَلَ قَــيْسٌ واصْــفَــرّ مِـثْـلَ الــجَـرَادَهْ
ولَــيْسَ قَــيْسٌ بِــمُــلْقٍ إلّا إلَــيْــكَ قِــيَــادَهْ
الآنَ أَسْــعَــى لِــقَــيْسٍ سَــعْــيــاً أخَــافُ فَــسَــادَهُ
فَــمِــلْ بِــنَــا وبِــقَــيْسٍ حَــتَّــى يُــصِــيــبَ رَشَــادَهْ

[يحملون قيساً ويختفون به وراء شجر البان، وتظهر طلائع الحي من اليسار

وعلى رأسها المهدي ومنازل، وكلهم شاكي السلاح]

المهدي :

يــا قَــوْمُ إنَّ البَغْـيَ شَــرٌّ مَــرْكَبُــهْ والـخَيْــرُ في جــانِبِ مَـنْ يُجَنِّبُــهْ
هـذا آبْنُ عَـوْفٍ قـد أطَـلَّ مَـوْكِبُـهْ وإنَّ قَيْســاً في الــرَّكَــابَ يَصْحَبُــهْ

---

(١) هذا البيت للمجنون. وأشرف: أعلو. والأيْفَاع: الجبال المرتفعة.
(٢) البيت للمجنون.
(٣) الأقاحي، جمع أقحوان، وهو نبات طيب الرائحة. والفواغي، جمع فاغية، وهي كل نبت ذي رائحة طيبة.

جـاء يَـرُومُ صِهْـرَكم ويَخْـطُبُـهْ وقَـدْ عَلِمتمْ كَيْفَ سـاءَ مَـذْهَبُـهْ
وكَيْفَ طَالَ بِأبْنَتِي تَشَبُّبُهْ

صوت :

كِـلْهُ إلـى سُـيُـوفِـنَـا تُـؤَدِّبُـهْ لَـقَـدْ وَجَـدْنَـاهُ وكُنَّـا نَـرْقُـبُـه

المهدي :

لا، دَمُ قَـيْسٍ دَمُنَـا لا نـقْـرَبُـهُ يَـكْـفِـيـهِ مِنَّـا أنَّـنَـا نُـخَـيِّبُـهُ
ونَصْرِفُ الأَمِيرَ عَمَّا يَطْلُبُهْ

صوت آخر :

شَـيْـخَ الحِمَى لا تَـضْـعُـفِ ولا تَـرَدَّدْ وقِـفِ
ذُدْ عَـنْ عَـقِـيـلَةِ الـحِـمَـى وآمْـنَـعْ حِـيَـاضَ الـشَّـرَفِ
لا تُـصْـغِ لـلشَّـافِـعِ فِـي قَـيْسٍ ولا الـمُـسْـتَـعْـطِفِ
لَيْسَ ابنُ عَـوْفٍ في الَّـذِي سَـعَـى لَـهُ بـالـمُـنْـصِـفِ
أبِـالأَمِـيـرِ بَـعْـدَ مَـا أجَـارَ قَـيْسـاً تَـحْـتَـفِي؟
لاَ تَـخْـشَ بَـأْسَـه ومِـنْ رِجَـالِـهِ لا تَـخَـفِ
نَـحْنُ كـعُـثْـمَـانَ ولَـيْـلَى بَـيْـنَـنَـا كـالـمُـصْـحَـفِ[1]

[يظهر ابن عوف وحاشيته من وراء الشجر ومعهم زياد]

ابن عوف : عِمْ أبَا لَيْلَى صَبَاحَا

المهدي : عِمْ صَبَاحاً يابْنَ عَوْفِ

ابن عوف :

قُـلْ لَهُمْ يُلْقُـوا السِّـلاَحَـا لَـيْسَ ذا مَـوْطِـنَ خَـوْفِ

صوت من الحي:

يـابْـنَ عَـوْفٍ يـا أمِـيـرْ لَـيْسَ ذا شَـأْنَ الـوُلاَةِ

(١) يشير إلى مقتل عثمان ابن عفان والمصحف بين يديه.

كَيْفَ تَحْمِي وتُجِيرْ   مُسْتَبِيحَ الحُرُمَاتِ؟

ابن عوف :

عَامِرُ يَا أَجَاوِدَ البِطَاحِ   وأَسْمَحَ النَّاسِ بُطُونَ رَاحِ
ما لِي وللسُّيُوفِ والرِّمَاحِ   ضَيْفٌ أنا ومَا مِن السَّمَاحِ
رَدُّكَ وَجهَ الضَّيْفِ بالسِّلاَحِ   ما جِئتُكُمْ يا قَوْمُ للكِفَاحِ
بَلْ جِئْتُ للتَّوْفِيق والإِصْلاَحِ

[تحدث ضجة في جانب الحي وتصايح وتهامس
ثم يلقي كثير منهم السلاح ويغمد السيوف]

صوت من الحي:

يَا أَبَا لَيْلَى بِلَيْلَى   جُدْ لِقَيْسٍ بالحَيَاةِ
إِنَّهُ شَاعِرُ نَجْدٍ   ونَجِيُّ الظَّبَيَاتِ

صوت آخر :

قَيْسُ أَخٌ وابْنُ عَمٍّ   ولَيْسَ أَهْلاً لِذَمٍّ
نَجْمٌ أَضَاءَ بِنَجْدٍ   سَمَا عَلَى كُلِّ نَجْمِ
هَبُوهُ جُنَّ بِلَيْلَى   لَيْسَ الغَرَامُ بِجُرْمِ

منازل [حيث يستقبل الجمعين خطيباً]:

إنَّ قَيْساً، مَعْشَرَ الحَيِّ أَخٌ   وابْنُ عَمٍّ أَفَمِنْهُ تَبْرءُونْ؟

أصوات : لا وربِّ البَيْتِ

منازل :

أَصْغُوا لي إِذَنْ   ثُمَّ ظُنُّوا كَيْفَ شِئْتُمْ بي الظُّنُونْ
إنَّ قَيْساً شَاعِرُ البِيدِ الَّذِي   لا يُجَارَى أفأَنْتُمْ مُنْكِرونْ؟

أصوات : لا وَرَبِّ البَيْتِ

منازل :

أَصْغُوا لي إِذَنْ   ثم ظُنُّوا كَيْفَ شِئْتُم بي الظُّنُونْ

إنَّ قَـيْـســاً سَـيّـدٌ مِـنْ عَـامِـرٍ وابْـنُ سَــاداتٍ، أفِيــه تَـمْـتَـرُونْ؟

أصوات : لا وَرَبِّ البَيْتِ

منازل :

أَصْــغُــوا لِــي إذَنْ ثم ظُنّـوا كَيْفَ شئـتُم بي الـظُّنُــونْ

إنَّ قَيْســاً قَــدْ بَـنَى الـمَجـدَ لَـكُمْ ولِـنَـجْـدٍ أبِـقَـيْسٍ تَـكْـفُـرونْ؟

أصوات : لا وَرَبِّ البَيْتِ

منازل :

أصْغُو لي إذَنْ ثُمَّ ظُنُّـوا كَيْفَ شِئْتُمْ بِي الـظُّنُــونْ

إنَّ قَـيْـســاً كــامِـلٌ فـي عَـقْــلِهِ أوآنَــسْـتُمْ عـلى قَـيْسَ الـجُـنُــونْ؟

أصوات : لا وَرَبِّ البَيْتِ

منازل :

أَصْــغُــوا لــي إذَنْ ثُمَّ ظُنُّـوا كَيْفَ شِئْتُمْ بي الـظُّنُــونْ

أنــا لَـمْ أَعْـدِلْ بِـقَـيْسٍ شــاعِـراً لَا ولَا أَنْـتُـمْ بِـقَـيْسٍ تَـعْـدِلُــونَ

أصوات : لا وَرَبِّ البَيْتِ

منازل :

أَصْــغُــوا لِــي إذَنْ ثُمَّ ظُنُّوا كَيْفَ شئـتُم بِي الظُّنُــونْ

أنَــا فــي وُدِّي وإعْــجَـابِــي بِــهِ لا يُــدَانِينِي الــرُّوَاةُ المُـعْـجَبُــونْ

شِعْــرُهُ يَـبْـقَـى ويَــفْـنَــى غَـيْــرُهُ لَيسَ كُــلُّ الشِّعْـرِ تَــرْوِيـهِ القُــرُونْ

شِعْــرُ قَيْسٍ عَــبْـقَــرِيٌّ خــالِــدٌ لَـيْـتَــهُ لَـمْ يَـتَــخَـلَّلْهُ الــمُـجُــونْ

ولَــو أنَّ الــمُـتَـجَـنّـي شــاعِــرٌ غَيْــرُ قَيْسٍ أَوْشَكَ الخَـطْبُ يَهُـونْ

رُبَّ شِـعْــرٍ قــالَ فـي لَـيْـلَى بِــهِ هَتَفَ البَــدْوُ وضَــجَّ الحــاضِــرُونْ

إنَّــنـي أَخْــشَــى عَــلَـيْـكُــمْ عــارَهُ رُبَّ عَــارٍ لَيْسَ تَمْـحُــوهُ السِّنُــونْ

ضَـجِــرتْ لَيْـلَى وَضَـجَّـتْ أُمُّـهــا وأَبُــوهَــا وتَــأَذَّى الأَقْــرَبُــونْ

وغَــدَا كُــلُّ فَــتَــى مِــنْ عــامِــرٍ حِينَ يَلْقَى النَّــاسَ، مَحْنِيَّ الجَبِينْ

أصوات كثيرة: هو ما قُلْتَ

منازل :

إذَنْ ما بالُكُم لَمْ تَثُورُوا، ما لَكُمْ لا تَغْضَبُونْ؟
هو ذا قَيْسٌ مَع الوَالي أتى يَطَأُ الحَيَّ وأَنْتُمْ تَنْظُرُونْ
وأبُو لَيْلَى امرؤٌ أدْرِي لَهُ رِقَّةَ القَلْبِ وأخْشَى أنْ يَلِينْ
بَعْدَ حِينٍ يَعْبَثُ القَوْمُ بِكُمْ ومِن الحَيِّ بِلَيْلَى يَخْرُجُونْ
آنَ يا قَوْمُ لَكُم أنْ تَعْلَمُوا أنَّ قَيْساً هَتَكَ الخِدْرَ المَصُونْ
قَيْسُ لَمْ يَتْرُكْ لِلَيْلَى حُرْمَةً ما الَّذِي أنْتُمْ بِقَيْسٍ فاعِلُونْ؟

صوت : ماجِنٌ لا بُدَّ مِنْ تَأْدِيبِهِ

صوت آخر : إنَّ بالسَّوْطِ يُرَبىَّ الماجِنُونْ

صوت : نأخُذُ الحَيَّ علَيْهِ

آخر :

ولْنَقِفْ دُونَ لَيْلَى وحِمَاهَا كالحُصُونْ

منازل :

حَلَّلَ السُّلْطَانَ بالأمْسِ لَكُمْ دَمَ قَيْسٍ ما الَّذِي تَنْتَظِرُونْ؟

صوت :

حَلَّلَ السُّلْطَانُ بالأمْسِ لَنَا دَمَهُ

أصوات أخرى: إنَّا بِقَيْسٍ فاتِكُون

[ضجيج واندفاع]

صوت :

مُنَازِ يابْنَ العَمِّ ما هَذَا الخَبَرْ؟ رَفَعْتَ قَيْساً فَجَعَلْتَهُ القَمَرْ
والآنَ أغْرَيْتَ بِقَتْلِهِ الزُّمَرْ كَفِعْلِ جَزَّارِ اليَهُوْد بالبَقَرْ
برّأها من العيوب وعَقَرْ!

[يصعد بشر منبراً للخطابة فيجتمع حوله جماعة من الناس]

قائل : إرْجَعُوا يا قَوْمُ هَذَا مِنْبَرٌ
وخَطِيبٌ

يسأل أحدهم: لَيْتَ شِعْرِي مَنْ يَكُونْ؟

آخر : أَوَ أَعْمَى أَنْتَ هَذَا بِشْرُ

آخر : هَلْ يُحْسِنُ الخُطْبَةِ بِشْرٌ ويُبِينْ

[يحاول منازل أن ينسل من الجماهير]

بشر :

قِفْ مُنَازِ اسْمَعْ سَمِعْتَ الرَّعْدَ مِنْ جانِبَيْ صاعِقَةٍ فِيهَا المَنُونْ
وسَمِعْتَ الذِّئْبَ فِي جَوْزِ الفَلاَ وَسَمِعْتَ اللَّيْثَ في جَوْفِ العَرِينْ
أخَطِيبٌ أَنْتَ أَمْ خَطْبٌ وإنْ لَم تَهُنْ والخَطْبُ أَحْيَاناً يَهُونْ

منازل [صائحاً]: بِشْرُ. . .

بشر : قِفْ!

منازل :

مالَكَ يا بِشْرُ ولي؟
إنَّ حَرْبَ الأَهْلِ والصَّحْبِ جُنُونْ

بشر :

لِمْ إذَنْ حارَبْتَ قَيْساً لَمْ تَصُنْ
حُرْمَةَ ابْنِ العَمِّ أو حَقَّ الخَدَيْنِ؟

منازل : قُلْتَ بِشْرُ الحَقَّ

بشر : خَلِّ الحَقَّ مَا
أَنْتَ واللهِ عَلَى الحَقِّ أَمِينْ
إنَّمَا أَنْتَ لِقَيْسٍ حاسِدٌ مُنْطَوِي الصَّدْرِ على الْحِقْدِ المُهِينْ

كُـلَّمـا حَـدّثت عَـنْـهُ عـامِـراً   قَـرَأْتَ في وَجْهِـكَ الـدَّاءُ الـدَّفِينَ
تُـرْسِـلُ الـزَّفَـرةَ تَـتْـلُو أُخْـتَـهـا   وتَـفُشُّ الصَّـدْرَ مِـنْ حِيـنِ لِـحِيـنْ
يـا مُنَـازِ يـابْنَ عَـمِّي أَصْـغِ لِـي   أَنْـتَ دُونٌ أَنْتَ دُونٌ أَنْـتَ دُونْ!

منازل : دَعُونِي

بشر من المنبر: دَعُوني فَلاَ بُدَّ لِي

رجل : أَنَاتَكَ

بشر : لا بُدَّ أَنْ أَقْتُلَهْ

منازل : دَعُونِي

بشر : دَعُونِي

رجل : دَعُوهُ اتْرُكُوهُ

آخر : ومَنْ كَتَّفَ النَّذْلَ أو كَبَّلَهْ؟

منازل : دَعُونِي

رجل : دَعُوهُ

آخر : كِلاَ البَطَلَيْنِ
يَقُولُ الوَعِيدَ ولَنْ يَفْعَلَهْ

بشر : دَعُونِي

رجل : تَقَدَّمْ

منازل : دَعُونِي

رجل : اَنْطَلِقْ

بشر : دَعُونِيَ

رجل : جِئْهُ

منازل : دَعُونِي

رجل : آمْشِ لَهْ

آخر :

تَـنَحَّـوْا وخَـلُّوا سَبِـيـلَيْـهِمَـا ولاَ تَـخْشَـوُا الـوَقْـعَـةَ الـمُـقْـبِلَهْ

بشر : منازلٌ في علقه كاملٌ

منازل :

وعَـقْـلُكَ يـا بِـشْـرُ مـا أَكْـمَـلَهْ

بشر :

أَنْـزُو عَلَى الحَيِّ نَـزْوَ الـدُّيُـوكِ ونَـقْـفِـزُ كـالأَكْـبُش الـمُـرْسَـلَهْ

وتَـفْـلِقُ رَأْسِـي كَـرُمَـانَـة وأَفْـلِقُ رَأْسَـكَ كـالـحَـنْـظَلَهْ

فَـمَـاذَا يَـرُدُّ عَـلَيْـكَ الـعَـوِيـلُ ومـاذا آنْـتِفَـاعِـيَ بـالـوَلْـوَلَـهْ؟

زياد :

مُـنَـازِلُ كُـنْـتَ كَـثِـيـرَ الـكَـلاَم ووالله مـا قُـلْتَ إلاَّ الـكَـذِبْ

صوت :

أَتَـزْعَـمُـهُ كـاذِبـاً يـا زِيَـادُ، وقَـدْ ذادَ عَنْ حُـرُمـاتِ العَـرَبْ؟

زياد :

رُوَيْـدَكَ لا تَـنْـخَـدِعْ يـا فَـتًـى ولا تَـأْخُـذ الأَمْـرَ دُونَ الـسَّـبَـبْ

فَـلَمْ يَبْـغِ إلاَّ خِـدَاعَ الـجُـمُـوعِ وجَـلْبَ الـظُّنُـونِ وخَـلْقَ الـرِّيَـبْ

وأَثَّـر فـيـكـم وفـي آخـريـن وأفـرغ فـيـكـم سُـمـومَ الـرُّقُـبْ

صوت :

مُـنَـازِلُ دافَـعَ عَـنْ سُـنَّـةٍ مُـعـظَّمـةٍ مِنْ قَـدِيـمِ الحِـقَـبْ

زياد :

تَـأَمَّـلْ مُـنَـازِلُ سُخْطَ الـجُـمُـوع وجَـهْـلَكَ مـاذا عَـلَيْـهِـمْ جَـلَبْ!

أَجَـلْ قَـدْ غَـضِبْـتَ ولَـكِـنَّـمَـا   لِـنَفْـسِـكَ لَـيْسَ لِـلَيْـلَى الـغَـضَـبْ
تَحُضُّ عَلَى قَتْـلِ قَيْسَ الـرِّجَـالَ   لِـتَـحْـظَى بِـلَيْـلَى إذا مـا ذَهَـبْ

أصوات : يُرِيدُ لِيَحْظَى بِلَيْلَى

زياد : نَعَمْ!

صوت : تَكَلَّمْ

صوت آخر : أَبِنْ

ثالث : إنَّ هَذَا عَجَبْ!

زياد :
سَلُوهُ أَلَـمْ يَـكُ يَـغْشَـى الـنَّـدِيَّ   ويَـطْلُبُ لَـيْـلَى أَشَـدَّ الـطَّلَبْ؟

صوت يخاطب المهدي: إذَنْ كانَ يَخْطُبُ لَيْلَى؟

المهدي : نَعَمْ!

صوت : إذَنْ قَدْ تَجَنَّى

صوت آخر : إذَنْ قَدْ كَذَبْ!

زياد :
مُـنَـازِلُ قُـلْ لَـهُـمُ كَـمْ ضَـرَعْـتَ   لِـلَيْلَى وكَـمْ أَعْـرَضَـتْ لَـمْ تُـجِـبْ

صوت : مُنَازِلُ اَخْدَعْ وغُشَّ غَيْرِي

آخر : قَدْ جازَ إلاَّ عَلَيَّ كِذْبُكْ!

ثالث :
مـا أَنْـتَ إلاَّ جَـوٍ شَـقِـيٌّ   تُـحِـبُّ لَـيْـلَى ولاَ تُـحِـبُّـكْ![1]

---

(١) الجوي: الذي وجَد من عشقه.

[تحدث ضجة حول منازل ويقف ثلاثة رجال
في ركن قصي من أركان المسرح يتحدثون]

الأول :

قَدِ اخْتَلَفَ الحَيُّ في أَمْرِ قَيْسٍ
ولَيْلَى فَكُلٌّ لَهُ مَذْهَبُ
وأنْتَ إلى أيِّ رَأْيٍ تَمِيلُ
وأَيَّ الفَرِيقَيْنِ تَسْتَصْوِبُ

الثاني :

إذا صَدَقَتْ نَظْرَتِي في الأُمُورِ — ولِي نَظْرَةٌ قَلَّمَا تَكْذِبُ
مَنَازِلُ غادٍ على خَيْبَةٍ — وقَيْسُ عَلَى فَضْلِهِ أَخْيَبُ
وقَدْ يُخْفِقَانِ ويَلْقَى النَّجَاحَ — غَرِيبٌ لَهُ فِيكُمُ مَأْرَبُ

الأول : غَرِيبٌ؟

الثاني : أَجَلْ مِنْ نَوَاحِي ثَقِيفٍ

الأول : ومَنْ ذَاكَ؟

الثاني : وَرْدُ

الأول : ومَا يَطْلُبُ؟

الثالث :

رَأَيْنَاهُ في الحَيِّ يَمْشِي الحَيَاءَ — وقِيلَ أَتَى عامِراً يَخْطُبُ

الأول :

ولَيْلَى ابْنَةُ الشَّيْخِ ما رَأْيُهَا — أَمَا مِنْ حِسَابٍ لَهَا يُحْسَبُ؟

الثاني :

أَرَاهَا وإنْ لم تَخَطَّ الشَّبَابَ — عَجُوزاً عَلَى الرَّأْيِ لا تُغْلَبُ
تَصُونُ القَدِيمَ وتَرْعَى الرَّمِيمَ — وتُعْطِي التَّقَالِيدَ ما تُوجِبُ

وبالجاهليَّةِ إعْجابُهَا   إذا قَلَّ بالسَّلَفِ المُعْجَبُ
ومِنْ سُنَّةِ البِيدِ نَقْضُ الأَكُفّ   مِنَ العاشِقِينَ إذا شَبَّبُوا
فَلاَ تَعْجَبُوا إنْ جَرَى حادِثٌ   يُحَدِّثُ عَنْهُ ويُسْتَغْرَبُ
وإن رَضِيَتْ وَرْدَ بَعْلاً لَهَا   وقَيْسُ الأَحَبُّ لَهَا الأَقْرَبُ
فَيَا طالَمَا الْتَمَسَتْ مَهْرَباً   وأَرْضُ ثَقِيفٍ هِي المَهْرَبُ

منازل :

بَنِي عامِرٍ لا تُضِيعُوا الحُلُومَ   فإنَّ الأَنَاةَ بِكُمْ أَجْمَلُ
هَبُوا لِيَ آذَانَكُمْ إنَّني   أَجِدُّ وصاحِبُكُمْ يَهْزِلُ
خَطَبْتُ وأخْطُبُ لَيْلَى غَداً   وما لِيَ يا قَوْمُ لا أَفْعَلُ
وقَدْ تُعْرِضُ اليَوْمَ لَيْلَى فَلاَ   أَضِيقُ، عَسَى في غَدٍ تُقْبِلُ
فما قيسُ أجدرَ مني بها   ولا هو خيرٌ ولا أفضل

زياد :

إلَيْكَ مُنَازِلُ! لا تَتَّزِنْ   بِقَيْسٍ قَدْ آخْتَلَفَ المَنْزِلُ
ولاَ يَسْتَوِي الشَّاعِرُ العَبْقَرِيُّ   ومَنْ هُوَ مِنْ باقِلٍ أَبْقَلُ[1]

منازل :

وما أَنْتَ؟ بَيِّنْ لَنَا يا زِيَادُ

زياد [ممسكاً بذراع منازل]:

سَتَعْلَمُ منِّيَ ما تَجْهَلُ

هَلُمَّ مُنَازِ، هَلُمَّ الصِّرَاعْ!   ووَدِّع ضُلُوعَكَ وانْعَ الذِّرَاعْ

منازل :

خَلِّ زِيَادُ خَلِّ عَنْ ذِرَاعِي

---

(١) باقل: رجل كان يضرب به المثل في العي. وأبقل: أشد عياً.

زياد :

سَـــأَلْتَ مـا أَنْتَ؟ فـأَصْـغِ، رَاعِ

إنِّي أَنا مُمَزِّقُ الأَضْلاَع

[ثم يجرّه من ذراعه ويمضي به إلى خارج المسرح]

صوت : ماذا يَكُونَ يا تُرَى؟

آخر : هَيُّوا نَرَى هَيُّوا نَرَى

آخر وهم يتدافعون: زِيَادُ غَيْرُ هازِلِ

آخر : نُوحُوا عَلَى مُنَازِلِ

آخر : حَمَامَةٌ وبازي!

آخر : هَلَكْتَ يا مُنَازِ!

آخر من بعيد: إهرب من البرازِ

[يخلو المسرح الآن إلا من المهدي وابن عوف

ونصيب ثم تسمع صرخة من وراء الشجر]

مهدي : ما بِقَيْسٍ يابْنَ عَوْفٍ؟

ابن عوف : إنَّه مُغْمىً عَلَيْهِ

مهدي :

قَيْسُ، لا بَأْسَ عَليهِ كَبِّرُوا في أُذُنَيْهِ

صوت من وراء الشجر:

الله أَكْـبَـرُ الله أَكْـبَـرُ

ابن عوف لنفسه

سُـدًى كَبَّـرُوا مــا أُذْنُ قَيْسٍ مُفِيقَـةٌ وإنْ سَـكَبُـوا فِـيهَـا أَذَانَ بِـلاَلِ[1]

---

(١) بلال: مؤذن رسول الله ﷺ.

ولَكِنْ عَلَى ليلى يُفيق وشِبْهِهَا إذا ما بَدَتْ لَيْلَى بِشَكْلِ غَزَالِ
ويَصْحُو عَلَى لَيْلَى إذا رُدِّدُ آسْمُها وراءَ بُيُوتٍ أو وَرَاءَ رِحَالِ

المهدي :

دَمُ الوُدِّ والقُرْبَى وإنْ كانَ ظَالِمًا عَزِيزٌ عَلَيْنَا أنْ نَرَاهُ يَسِيلُ
وإنِّي لإنْسَانٌ وإنِّي لَوَالِدٌ ولِي مَذْهَبٌ في الوَالِدَيْنِ جَمِيلُ
فَرِفْقاً بِقَيْسٍ يا أمِيرُ ونَحِّهِ بَعِيداً لَعَلَّ الشَّرَّ عَنْهُ يَزُولُ

ابن عوف :

أنَاةً أبا لَيْلَى وحِلْماً ولا يَكُنْ عَلَيْكَ لِطُغْيَانِ الظُّنُون سَبِيلُ
رَدَدْتُمْ ركابي وآتَّهَمْتُمْ زِيَارَتِي وأجْلَبَ فِتْيَانٌ وضَجَّ كُهُولُ[1]
تَأَمَّلْ تَجِدْ جَمْعاً مَغِيظاً وكَثْرَةً تَصُولُ وما تَدْرِي عَلامَ تَصُولُ!
رُؤوسٌ تنَزَّى الشَّرُّ فيهَا وَرَاءَهَا نُفُوسُ ذِئَابٍ ما لَهُنّ عُقُولُ[2]
تَطَلَّبُ أنْ يُلْقَى إلَيْهَا بِجُثَّةٍ عَلَى غَيْرِ جُوعٍ أو يُسَاقَ قَتِيلُ
نَوَاظِرُ ما يَأْتِي بِهِ اليَوْمُ مِنْ دَمٍ وإنْ لَمْ يُساوِرْها صَدًى وغَلِيلُ
نَزَلْتُ فلم أُكْرَمْ فَهَلَ أنْتَ مُتْبِعِي وقَوْمُكَ نارَ الطَّرْدِ حِينَ أمِيلُ؟
أبَيتم عَلَيَّ القَولَ قَبْلَ آسْتِمَاعِهِ فَلَمْ تُنْصِفُوا والمُنْصِفُونَ قَلِيلُ
فَهَلْ لِي أبا لَيْلَى بنَادِيكَ وَقْفَةٌ فإنَّ الَّذِي قَدْ جِئْتُ فِيهِ جَلِيلُ
وما أنا مَرْءُ السُّوْءِ أوْ رجُلُ الأذى ولَكِنْ سَفِيرٌ خَيِّرٌ ورَسُولُ
ولم أتَّخِذْ جَاهَ الأُمُورِ ذَرِيعَةً ألاَ إنَّمَا جَاهُ الأُمُورِ يَزُولُ

المهدي :

بَقِيتُمْ، بِخَيْرٍ يا وُلاَةَ أُمَيَّةٍ ولا زالَ يَقْوَى رُكْنُكُمْ ويَطُولُ

[مشيراً إلى باب الخباء]

هُنَا مَجْلِسٌ نَأْوِي إلَيْهِ لَعَلَّنِي أقُولُ صَوَاباً أو عَسَاكَ تَقُولُ

---

(١) أجلب القوم: اجتمعوا وتألبوا.
(٢) تنزّى الشر: ثار وتحرك.

وثَمَّ تَـرَى لَيْلَى وتَسْـمَـعُ قَـوْلَهـا ... ولَـيْلَى لَهَـا رَأْيٌ يُسَـاقُ جَـمِيـلُ
فَسَلْهَـا عَسَى أنْ نَهْتَدِي مـا جَوابُهَـا ... إبَـاءٌ وردٌّ أو رِضـاً وقَـبُـولُ

[يهم ابن عوف بخلع نعليه]

المهدي :

أَتخْلَعُ نَعْلَيْـكَ؟ لا يـابْنَ عَـوْفٍ ... نَـشَـدْتُـك بـالله لا تَـفْـعَـلِ
أَتَـمْشِي إلى مَـنْـزِلِي حـافيـاً ... فَـدَيْتُـك، مَنْ أنـا؟ مـا مَنْـزِلِي؟

ابن عوف :

خَـلَعْتـهُمـا وآنـتعـلت الـتُّـرَابَ ... إلَى خَيْمَـة السَّيِّـدِ المُـفْضِـلِ

نصيب [متدخلاً]:

دَعْـهُ يـا مَـهْـدِيُّ يَـفْـعَـلْ ... إنـمَـا يَـرْمِـي لِـمَـعْـنَـى
كـالـحُـسَـيْـنِ بْـنِ عَلـيٍّ ... هُـوَ بـالـعُشَّـاقِ يُـعْـنَـى
الـحُسَيْنُ آنْـتَـعَـلَ الـتُّـرْبَ ... إلَـى والِـدِ لُـبْـنَـى
فَـرَآهُ حـافِـيـاً فِـي ... سَـاحَـةِ الـدَّارِ فَـجُـنَّـا
قـال لا أَمْـلِكُ يـابْـنَ ... المُصْـطَفَى بِنْتـاً ولا آبْنَـا
أَنْـتَ فـي الـدَّارِ أَمِـيـرٌ ... فَـبِـمـا شِئْـتَ فَـمُـرْنَـا

[لنفسه]:

يـا دَهْـرُ دُرْ بِـمَـا تَـشَـا ... ويـا حَـوَادِثُ آهْـزِلِـي!
ويـا وَظِـيـفَـةُ اعْـزُبِـي ... ويـا جِـرَايَـةُ آرْحَـلِي[1]
يَـبْغِـي ابْنُ عَـوْفٍ أنْ يَـكُـو ... نَ كـالـحُسَيْـنِ بـنِ عَـلِي!

[يدخلان وينادي المهدي]:

هـو الضَّيفُ يـا لَيْـلَ هاتي الـرُّطَبْ ... وهـاتِي الشِّـواءَ وهـاتِـي الحَـلَبْ
وهـاتِـي مِن الـشُّهْـدِ مـا يُشْتَـهَى ... ومِـنْ سَمْـنَـةِ الـحَيِّ مـا يُـطَّلَبْ

---

(١) الجراية: ما يجري على الفرد من رزق.

فـمـا هُـوَ ضَيْفٌ ككُـلِّ الـضُّيُـو فِ ولـكِنْ أمـيـرٌ كَـرِيمُ الـحَسَبْ

ليلى [من وراء حجاب]:

أبِي أَلْفَ لَبّيْكَ!

ابن عوف :

لا بَلْ قِفِي فـمـا بِـي ظَـمَـاءٌ ولا بِـي سَـغَـبْ

وأَعْـلَـمُ أنَّ القِـرىَ دِيـنُـكُـمْ وأنَّ أَبَـاكِ جَـوَادُ الـعَـرَبْ

ولَكِنْ طَعَامِيَ

المهدي : ماذا؟ اقْتَرِحْ

ابن عوف : طَعَامُ الرَّسُولِ بُلُوغُ الأَرَبْ

المهدي : إذَنْ قِفِي لَيْلَى اقْرُبِي

[تظهر ليلى من وراء الستر]

تَقَدَّمي ورَحِّبِي

حَـلَّ ابْـنُ عَـوْفٍ دارَنَـا

ليلى : أكْرِمْ بِهِ وأَحْبِبِ!

قَـدْ زَارَنَـا الـغَـيْـثُ فـأَهْـلاً بـالـغَـمَـامِ الـصَّـيِّـبِ

ابن عوف :

أَهْـلاً بِـلَيْـلَى بـالـجَـمَـالِ بـالـحِـجَـى بـالأَدَبِ

عِـشْـتِ وقَـيْـسـاً فَـلَقَـدْ نَـوَّهْـتُـمَـا بـالْـعَـرَبِ

ليلى [بين الخجل والغضب]:

أَتَقْرِنُ قَيْساً بِنَا يا أَمِيرُ؟

ابن عوف :

ولِـمْ لاَ وَقَـدْ جِئْـتُ مِـنْ أجْـلِهِ

وَمَـنْ أنـا حَتَّـى أضُـمَّ الـقُـلُوبَ وأَعْـطِفَ شَـكْـلاً عَـلَى شَـكْـلِهِ

لَقَـدْ جَمَـعَ الـحُبُّ رُوَحيْـكُـمَـا ... ومـا زَالَ يَـجْـمَـعُ فـي حَـبْـلِهِ

ليلى [في استحياء]: أَجلْ يا أَمِيرُ عَرَفْتُ الهَوَى

ابن عوف : فَهَلاَ عَطَفْتِ على أَهْلِهِ؟

[يلتفت إلى المهدي]:

أَبَـا الـعَـامِـرِيَّـة قَـلْبُ الـفَـتَـاةِ ... يَـقُـولُ ويَـنْـطِقُ عَـنْ نُـبْـلِهِ

فـأَصْـغِ لَـهُ وتَـرَفَّـقْ بِـهِ ... ولا يَـسْـعَ ظُـلْـمُـكَ فـي قَـتْـلِهِ

المهدي :

أأَظْـلِمُ لَـيْـلَى؟ مَـعَـاذَ الـحَـنَـانِ! ... مَـتَى جـارَ شَـيْـخٌ عـلى طِـفْـلِهِ؟

هُـوَ الحُكْمُ يـا لَيْـلَ مـا تَحْكُمِينَ ... خُـذي في الخِـطَابِ وفي فَصْلِهِ

ليلى : أَقَيْساً تُرِيدُ؟

ابن عوف : نَعَمْ

ليلى :

إنَّهُ ... مُـنَى الـقَـلْبِ أو مُـنْـتَـهَى شُـغْـلِهِ

ولَـكِنْ أَتَـرْضَـى حِـجَـابِـي يُـزَال ... وتَمْشِي الـظُّنُـونُ عَلَى سَـدْلِـهِ[1]

ويَـمْـشِـي أَبِـي فـيَـغُضُّ الـجَـبِـيـنَ ... ويَـنْـظُرُ فـي الأَرْضِ مِـن ذُلِّـهِ

يُـدَارِي لأَجْلِي فُـضُـولَ الـشُّيُـوخ ... ويَـقْـتُـلُـنِـي الـغَـمُّ مِـنْ أَجْـلِهِ

يَـمِـيـنـاً لَـقِـيـتُ الأمَـرَّيْـنِ مِـنْ ... حَـمَـاقَـة قَـيْسٍ ومِـنْ جَـهْـلِهِ

فُضِحْتُ بِـهِ في شِعَـابِ الحِجَـازِ ... وفي حَـزْنِ نَـجْـدٍ وفـي سَـهْـلِهِ

فَخُـذْ قَيسُ يـا سَيِّـدِي في حِمَـاكَ

[في حياء وإباء]

وأَلْـقِ الأَمـانَ عَـلَى رَحْـلِهِ

---

(١) السدل: الإرخاء.

ولا يَفْتَكِرْ ساعَةً بالزَّوَاجِ ولَوْ كانَ مَرْوَانُ مِنْ رُسْلِهِ[1]

ابن عوف :

إذَنْ لَنْ تَقْبَلِي قَيْساً ولَنْ تَرضَيْ بِهِ بَعْلا
إذَنْ أخْفَقَ مَسْعَايَ وخَابَ القَصْدُ يا لَيْلَى

ليلى :

عَلَى أنَّكَ مَشْكُورٌ ولا أنْسَى لَكَ الفَضْلا
وأُوصِيكَ بِقَيْسَ الخَيْـ ـرَ لا زِلْتَ لَهُ أهْلا
لَقَدَ يُعْوِزُهُ حامٍ فَكُنْهُ أيُّها المَوْلَى

[تلتفت إلى أبيها وكأنما تحاول
أن تحبس في عينها دموعاً]

أبي كانَ وَرْدُ هَهُنَا مُنْذُ ساعَةٍ فَفِيمَ أتَى؟ ما يَبْتَغِي؟

المهدي : جَاءَ يَخْطُبُ

ابن عوف : ومَنْ وَرْدُ يا لَيْلَى وَهَلْ تَعْرِفِينَهُ؟

ليلى :

فَتًى مِنْ ثَقيفٍ خالِصُ القَلْبِ طَيِّبُ
أَتَى خاطِباً بَعْدَ افْتِضَاحِي بِغَيْرِهِ وعارِي، أهذا يابْنَ عَوْفٍ يُخَيَّبُ؟
أبِي: أيْنَ وَرْدُ الآنَ؟

المهدي :

عِنْدَ قَرَابَةٍ مِن الحَيِّ ضَمُّوهُ إلَيْهِمْ ورَحَّبُوا
فإنْ شِئْتِ أرْسَلْنَا إلَيْهِ

ليلى :

آبْعَثِ آدْعُهُ وجِئْنَا بِقَاضِي نَجْدٍ اليَوْمَ يَكْتُبُ

---

(١) مروان: هو ابن الحكم، وقد مرّ التعريف به.

ابن عوف :

تَجاوَزْتِ لَيْلَى غايَةَ السُّخْطِ فاذْكُرِي عَـواقِب رَأْيٍ قَـدْ رَأَيتِ سَـخِيفِ

ليلى [متهكمة]:

أكُنْتُ ابْنَ عَـوْفٍ غَيْـرَ أُنْثَى ضَعِيفَـةٍ
تَنَـاهَتْ لِـرَأْيٍ فـي الأُمُـورِ ضَعِيفِ

ابن عوف :

أَرَى وَقْفَتِي يـا لَيْـلَ كَـانَتْ شَرِيفَـةً ولَكِنْ جَـزَائِي كـانَ غَيْـرَ شَـرِيفِ

ليلى :

أَنَـظِّفُ ثَوْبِي يـا أَمِيـرُ فَـطَالَمَـا ظَهَـرْتُ بِـهِ في الحَيِّ غَيْـرَ نَـظِيفِ

ابن عوف :

لَئِنْ كُنْتِ يـا لَيْـلَى بِـوَرْدٍ قَـرِيـرَةً فَـإِنِّي عَلَى قَيْسٍ لَـجِـدُّ أَسِيـفِ

[ثم يخاطب أباها]

أَلآنَ بِـحَـفْظُ الله يـا سَـيِّـدَ الـحِـمَـى
لَـقَـدْ طَـالَ لُبْثِي عِـنْـدَكُـم وَوُقُـوفِـي

ووُفِّقْتِ يا لَيْلَى

ليلى :

لَـقَـدْ كُـنْـتَ سَـيِّـدِي حَلِيفاً لِقَيْسٍ ، هَـلْ تَكُـونُ حَلِيفِي!

ابن عوف :

سـأَلْتِ مُحَـالاً إنَّمـا جِئْتُ خـاطِبـاً لِـوَرْدِ القَـوَافِي لا لِـوَرْدِ ثَـقِيـفِ!

[يخرج من باب الخباء ويشيعه المهدي إلى ما وراء شجر البان]

ليلى :

رَبّـاهُ مـاذا قُـلْتُ! مـاذا كَـانَ مِنْ شَـأْنِ الأَمِيـرِ الأَرْيَحِيِّ وشَـانِي؟
في مَـوْقفٍ كـانَ آبنُ عَـوْفٍ مُحْسِناً فِـيـهِ وكُـنْـتُ قَـلِيـلَةَ الإِحْـسَـانِ

فَــزَعَمْتُ قَيْســاً نَــالَنِي بـمَســاءَةٍ ورَمَـى حِجَــابـي أو أَذَالَ صِيَــانِي[1]

والـنَّفسُ تَـعْلَمُ أنَّ قَـيْســاً قَــدْ بَـنَى مَجْــدِي وقَيْسٌ لـلمَكَــارِمِ بــانـي

لَــوْلاَ قَصَــائِــدُهُ الَّتـي نَــوَّهْنَ بِـي في البِيـدِ مـا عَلِمَ الـزَّمَـانُ مَكَــانِي

نَـجْـدٌ غَــداً يُـطْوَى ويَفْـنَى أَهْـلُهُ وقَـصِيـدُ قَـيْسٍ فـيَّ لَـيْسَ بِفَــانـي

مالي غَضِبْتُ فَضَاعَ أَمْـرِي مِنْ يَدِي والأَمْــرُ يَخْــرُجُ مِنْ يَــدِ الغَضْبَــانِ

قــالُوا آنْــظُرِي مـا تَحْكُمِينَ فَلَيْتَنِي أَبْصَــرْتُ رُشْـدِي أَو مَلَكْتُ عِنَــانِي

مـا زِلْتُ أَهْذِي بـالوَسَـاوِسِ ساعَـةً حَـتَّى قَـتَلْتُ اثْـنَيْـنِ بــالـهَــذَيَــانِ

وكَــأَنَّــنِــي مَــأْمُــورةٌ وكَــأَنَّــمَــا قَــدْ كَــانَ شَيْـطَانٌ يَقُــودُ لِسَــانِي

قَــدَّرْتُ أَشْــيــاءً وقَــدَّرَ غَـيْــرَهَــا حَظٌّ يــخُطُّ مَــصَــايِــرَ الإِنْــسَــانِ

ســتــار

(١) أذال: أهان وابتذل.

الفصل الرابع

المنظر الأول

«حول ديار بني ثقيف، في قرية من قرى الجن، حيث اجتمعت طائفة منهم للحفاوة بقيس وهو يهيم على وجهه ضالاً في الفلوات، وبينهم شابٌّ منهم في شكل إنسيّ جميل الثياب يتردى الحرير من فرعه إلى قدمه، وعلى رأسه عقالان من الحرير المحلّى بالذهب، هو الأموي شيطان قيس ـ الجميع ينشدون ويرقصون»

نشيد الجن

هـذا الأَصِيـلُ كـالـذَّهَبْ يَسِيـلُ بـالمَـرْأى العَجَبْ
على الوِهَادِ والكُثُبْ

الـرَّقْصُ يَـبْعَـثُ الـطَّرَبْ هَـلُمَّ يـا جِـنَّ الـعَـرَبْ
هَـلُمَّ رَقْـصَـةَ الـلَّهَـبْ إذا مَـشَـى عَـلَى الـحَـطَبْ
نَـحْـنُ بَـنُـو جَـهـنَّـمـا نَـغْـلِي كَـمَـا تَـغْـلِي دَمَـا
نَـثُـورُ فـي الأَرْضِ كَـمَـا ثـارَ أَبُـونَـا فـي الـسَّـمَـا
نَـحْـنُ بَـنُـو الـجَـبَّـارِ الـعَـلَـمِ الـمُـنَـارِ
إبْـلِيسَ بِـكْـرِ الـنَّـارِ يـا عِـزَّ مَـنْ لَـهُ انْـتَـمَـى
نَحْنُ الـرُّعُـودُ الـقـاصِفَـهْ نَـحْنُ الـرِّيَـاحُ الـعَـاصِفَـهْ
والـظُّلُمَـاتُ الـزَّاحِـفَـهْ عَـرَمْـرَمـاً عَـرَمْـرَمَـا

لَـنَـا ومـا لَـنَـا صُـوَرْ　　نَـرَى ونَـسْـمَـعُ الـبَـشَـرْ
ولا يَـرَوْنَ مَـنْ حَـضَـرَ　　مِـنَّـا ومَـنْ تَـكَـلَّمَـا
نَـقُـولُ حِـيـنَ نَـصْـطَدِمْ　　بِـسَـادَةٍ أو بِـخَـدَمْ
صَـمَمْ صَـمَمْ صَـمَمْ صَـمَمْ　　عَـمًى عَـمًى عَـمًى عَـمَى

هبيد :

فِـيمَ ٱجْـتَـمـعْـنَـا هَـهُـنَـا؟　　يـا عَضْـرَفُـوتُ مـا الخَبَـرْ؟

عضرفوت :

لَا أَدْرِ.. تِـلْكَ ضَـجَّـةٌ　　حَـضَـرْتُهـا فِـيمَـنْ حَـضَـرْ
فَـسَـلْ أخَـاكَ عَـسَـراً

هبيد :　　مـاذا هُـنَـاكَ يـا عَـسَـرُ؟

عسر :

نَـحْـنُ مَـسُـوقُـونَ إلـى　　مَـا لَـيْسَ نَـدْرِي كـالبَـقَـرْ

الأموي :

بَـنِي الـجِـنِّ في أَرْضِـكُمْ عـابِـرٌ　　مِـنَ الإنْسِ يَـرْسُـفُ فـي ضُـرِّهِ
فَـغَـالُـوا بِـهِ وٱعْـلَـمُـوا أنَّـهُ　　فَـتًـى نـبَّـه الـشِّـعْـرُ مِـنْ قَـدْرِه

هبيد : وأينَ تُرَى هُوَ؟

آخر : ماذا يَكُونُ

الأموي :　　وماذا يَهُمُّكَ مِن أَمْرِهِ؟
أَلَـمْ تَـعْـلَـمُـوا أنَّ لِـي صـاحِـبـاً　　مِـن الإنْسِ أحْـكُـمُ في شِـعْـرِهِ

هبيد :

أجَـلْ أنْتَ تُـوحِـي لـه مـا يَقُـولُ　　وتَـقْـذِفُ مـا شِـئتَ فـي فِـكْـرِهِ

الأموي :

إذنْ فـاعْـلَـمُـوا أَنَّـه عـاشِـقٌ　　تَـمَـلَّأتِ الـبِـيـدُ مِـنْ ذِكْـرِهِ

عاصف :

وأعْـلَـمُ أنَّ الـهَـوَى واجِـدٌ حَـوَى الـمُسْتَهـامِينَ فـي أسْـرِهِ
وأنَّ الَّـتـي سَـحَـرَتْ قَـلْبَـهُ مُـدَلَّـهـةُ القَـلْبِ مِـنْ سِـحْـرِهِ

الأموي :

وإنِّـي لأكْـفُـلُ لَـيْـلَى لَـهُ وأصْـرِفُـهَـا عَـنْ هَـوَى غَـيْـرِهِ
سَهِـرْتُ عَلَى طُهْـرِ لَيْلَى الـزَّمَـانَ ولـم أغْمِض الـعَـيْـنَ عـن طُـهْـرِهِ
صَـرَفْتُ عن الحُبِّ حَتَّى الـزَّواجَ ومـا قَـدَّسَ اللهُ مِـنْ سِـرِّهِ
ولـو أنَّ عَـيْـنِي تَـشُـقُّ الـقُـبُـورَ سَهِـرْتُ على الـحُـبِّ فـي قَـبْـرِهِ

عضرفوت : ومَنْ يَكُونُ

الأموي : قَيْسُ

عضرفوت : مَنْ قَيْسُ

عاصف :

وهَـلْ يَـخْـفَـى الـقَـمَـرْ!
الـشَّـاعِـرُ الَّـذِي سَـحَـرْ والـسَّـاحِـرُ الَّـذِي شَـعَـرْ
حَـنْـجَـرةٌ لَـنَـا وَتَـرْ مِـنْـهَـا ولـلإنْسِ وَتَـرْ

هبيد :

ومـا لَـنَـا يـا عَضْـرَفُـوتُ ولِـفْـتَـيَـانِ الـبَـشَـرْ؟
ومـا لَـقِـيـنـا مِـنْـهُـمُ ومِـنْ أبِـيـهِمْ غَـيْـرَ شَـرّ؟

عضرفوت : بَنِي الجِنِّ اسْمَعُوا أبِكُمْ زُكَامٌ

جني : ولِمْ؟

عضرفوت : نَتِنَتْ لَعَمْرُكُمُ الجِوَاءُ

آخر : وما في الجَوِّ؟

عضرفوت : رِيحٌ آدِمِيٌّ

فَـفِـيـهِ نتانـةٌ ولَـهُ ذَكَـاءُ[1]

إذا الـبَـشَــريُّ مَــرَّ عَــلَيّ يَــوْمــاً　　فَـقَـدْ مَــرّتَ عَـلَيّ الـخُـنْـفَـســاءُ

جني :

أَجَـلْ بِـعَـدَاوةِ البَـشَــرِ ابْـتُـلِينَــا　　وطَــالَ بِـهَــا الـتَّـبَـرُّمُ والـعَـنَــاءُ

مَـضَـى بــالـكِـبْـرِ إبْلِيسٌ أبُــونَــا　　وكُــلُّ تُــرَاثِ آدَمَ كِـبْـرِيَــاءُ

يَعِيبُ رِجَــالُهُـم فَـيُـقَــالُ عِـبْـنَــا　　وتَــدْفِـنُ عــارَهَــا فِينَــا الـنِّـسَــاءُ

وإنْ عَــجِــزَ الـمـطَـبِّـبُ قــالَ دَاءٌ　　مِــنَ الـجِـنِّـي لَـيْـسَ لـه دَوَاءُ

وإنْ قَـفَــزَتْ صِـغَــارُهُــمُ فَـزَلَّـتْ　　فِـمِـنَّــا مَـعْـشَــرَ الـجِـنِّ الـبَــلاَءُ

وخِـفْـنَــا مِـنْ أَذَاهُـمْ فــاَحْـتَـجَـبْـنَــا　　فَـمَــا عَـصَمَ الحِجَــابُ ولا الخَفَــاءُ

وكــم مُــتَــعَــوِّذٍ بــالله مِــنَّــا　　تَــعُــوذُ الأرْضُ منــه والـسَّـمَــاءُ

عضرفوت :

وقــد نَـشْـكُــو من الـنَّــاسِ الـتَّـجَـنِّي　　ونَــنْـسَــى مــا جَـنَــاهُ الأنْــبِـيَــاءَ

جني :

أَرُسْــلُ الله أيــضــاً مِـنْ عِــدَانَــا؟

عضرفوت : أَجَــلْ هُــمْ فـي عَــدَاوَتِـنَــا سَــوَاءُ

بَـنَى فَـخْـمــاً سُـلَيْمَــانٌ وضَـخْـمــاً　　ولَــولا الـجِـنُّ مــا نَـهَضَ البِـنَــاءُ[2]

بَـنَـيْـنَــا تَــدْمُــرَ الـكُـبْـرَى بــأَيْــدٍ　　فَهَــلْ تَـدْرُونَ مــا كــانَ الجَــزَاء[3]

جني : وما كانَ الجَزَاءُ؟

آخرون : أَبِنْ!

---

(١) ذكت الريح ذكاء: سطعت وفاحت.

(٢) سليمان النبي عليه السلام، وقد سخرت له الجن.

(٣) تدمر: مدينة قديمة في برية الشام بُنيت على عمد من الرخام، ويقال أنها مما بنته الجن لسليمان عليه السلام.

عضرفوت : عَذابٌ

وسِجْنٌ ما لِمُدَّتِهِ ٱنْقِضَاءُ!

فَتَحْتَ الماءِ

جني : تَحْتَ الماءِ؟

عضرفوت : عانٍ

عَلَيْهِ طَلاَسِمٌ وعَلَيْهِ ماءُ

وفي جَــوْفِ القَمَــاقِمِ لَــوْ عَلِمْتُـمْ

آخرون : وماذا في القَمَاقِمِ ؟

عضرفوت : أَبْرِيَاءُ

جني : ومَنْ ذا زجَّهُم فِيهَا؟

عضرفوت : أَمِيرٌ

عَلَيْنَا لا يُرَدُّ لَهُ قَضَاءُ

نَــبِيٌّ فَــهُــوَ عَــدْلٌ حَيْــثُ يَقْــضِي

ومَــلْكٌ فَــهْــوَ يَــفْــعَــلُ مــا يَــشَــاءُ

عاصف :

قَــيْسُ يــا قَــومُ مِــنْــكُــمُ لَــيْسَ قَيْسٌ مِــن الـبَــشَــرْ

جني :

قَــيْسُ مِــنَّــا وإنَّــمَــا فــي بَنِــي عــامِــرٍ ظَــهَــرْ

آخر :

إنَّــنِــي قَــدْ رَأَيْــتُــهُ يَــتَــفَــلَّى عَلَى الــشَّــجَــرْ

ثالث :

وسَــمِــعْــنَــاهُ قَــدْ عَــوَى عَــوَّةَ الــجِــنِّ وآسْــتَــتَــرْ

رابع :

أنَــا أيــضــاً رَأَيْــتُــهُ رَكِــبَ الــظَّبْيَ فــي الــسَّــفَــرْ

عاصف [متطلعاً]: تَعَــالَــوْا فانْظُرُوا

[يتطلع الجميع إلى حيث ينظر]

جني : ماذا؟

آخر : عَجِيبٌ

عضرفوت: نَرَى شَبَحاً يُدَحْرِجُهُ الفَضَاءُ
أَقَيْسٌ ذا؟

عاصف :

نَعَمْ هُوَ فاسْتَعِدُّوا فَقَدْ وَجَبَ التَّحَفُّزُ واللِّقَاءُ

هبيد لجني آخر:

تأمّلْ قَيْساً المُضْنَى تَجِدْهُ مِن الذَّوَبَانِ أصْبَحَ كالخَيَالِ

الآخر :

لَقَدْ ضَلَّ الطَّرِيقَ أَمَا تَرَاهُ يُصَفِّقُ باليَمِينِ وبالشِّمَالِ؟
وقَدْ قَلَبَ الثِّيابَ عَلَيْهِ نَهْجاً عَلَى عَادَاتِهِمْ عِنْدَ الضَّلَالِ

[يظهر قيس فيلتفون حوله وينشدون]

سَلَامٌ مَلِكَ الحُبِّ وسُلْطَانَ المُحِبِّينَا
وأَهْلاً وعَلَى الرَّحْبِ لَقَدْ شُرِّفَ وادِيْنَا
أَتَى الجِنُّ مِنَ الوَادِي يُحَيُّونَكَ بالوَرْدِ
حَدَا رَكْبَهُم الحَادِي إلى نَادِيكَ مِنْ بُعْدِ

[يتلفت قيس ذات اليمين وذات الشمال]

رَبِّ إلَى أَيْنَ انْتَهَتْ بِيَ السُّرَى وأيَّ وادٍ أَنْزَلَتْنِي يا تُرَى
عَسَايَ في الشَّامِ ، لَعَلِّي جُزْتُهُ أَوْ أَنَا بالطَّائِفِ أَوَ أَيْنَ أَنَا؟
وهَذِه المُسُوخُ حَوْلِي جِنَّةٌ أَمْ عَمَلُ الوَهْمِ وتَهْوِيلُ الكَرَى
لا، أنا صَاحٍ

[يتحسس جسمه]

هَذِه رِجْلِي وذِي يَدِي وتِلْكَ مُقْلَتِي يَقْظَى تَرَى

ولِـمَ لاَ أُومِـنُ بـالـجِـنّ وأَنْ   تَكُـونَ لِلجنّـةِ كـالنَّـاسِ قُـرَى؟
لا أدّعِـي مَـعْـرِفَـةً بِـعَـالَـمٍ   ظَـاهِـرُهُ أكْثَـرُ مِنْـهُ مـا اخْـتَفَى

[يمسح جبينه ويعيد النظر والتطلع]

تِلْكَ مِنَ الجِنِّ لَعَمْـرِي شِـرْذِمَـهْ   وهَـذِهِ خَـيْـلُهُـمُ الـمُـسَـوَّمَـهْ
نَعَـامَـةٌ كـالفَرَسِ المُـطَهَّمَـهْ   وأَرْنَـبٌ مُـسْـرَجَـةٌ ومُـلْجَـمَـهْ
وقُنْفُذٌ وظَبْيَةٌ وشَيْهَمَهْ(1)

يـا عَـجباً كُـلَّ الـعَجَبْ   الـجِـنُّ مِـنِّي عَـنْ كَـثَـبْ
سُـودٌ دِقَـاقٌ فـي الـعُـيُـونِ   كـالـدُّخَـانِ في الحَـطَبْ
يَـخْـرُجُ مِـنْ أَفْـوَاهِـهَـا   ومِـنْ عُـيُـونِـهَـا اللَّـهَـبْ
مِنْ كُـلِّ مَنْ جـالَ بِـقَـرْ   نَـيْـهِ وصَـالَ بـالـذَّنَـبْ

الجان :

نَـبِـيَّ الـحُـبِّ لا تَـخْشَ   أَذًى أَوْ شِـرَّةً مِـنَّـا
عَـطفْتَ الـطَّيْـرَ والـوَحْشَـا   فَـلِمْ لا تَـعْـطِفُ الـجِـنَّـا؟
وسَـلْ حَـسَّـانَ والأَعْـشَـى   وشَـيْـطَانَـيْـهِـمَـا عَـنَّـا(2)

الأموي :

تَـرَكْتُ وَرَائِي الشَّـامَ لَمْ أَنْتَفِـعْ بِـهِ   ولاَ هُـوَ مِنْ شَوْقِي القَـدِيمِ شَفَـانِي
وعُـدْتُ إلى نَجْـدٍ أُقَـاسِي صَبَـابَتِي   ووَجْـدِي كـأَنِّي ما بَـرِحْتُ مَكَـانِي
تَـرَكْتُـكِ لَيْلَى فـانْفَجَـرْت لَيَـالِيـاً   مُـؤَلَّفَـةَ الأَشْكَـالِ جِـدَّ حِسَـانِ
فَلَمْ يَخْـلُ سَيْري مِنْـكِ يَـوْمـاً ولاَ السُّـرَى
ولَـمْ يَخْـلُ مِـنْ تِمْثَـالِـكِ الـقَـمَـرَانِ
عَـلَى كُـلِّ أَرْضٍ مِـنْ هَـوَاكِ سَـوَارِحٌ
مَـلأْنَ سَـبِـيلِي أَوْ مَـلَكْـنَ عِـنَـانِـي(3)

---

(1) الشيهمة: واحدة الشيهم، وهو حيوان من القوارض له شوك.
(2) حسان والأعشى: شاعران. وكان يُقال أنَّه لكل شاعر شيطان يملي عليه الشعر.
(3) السوارح: ما يسرح.

وأجْهَشْتُ للتَّـوْبَـادِ حِينَ رَأَيْتُـهُ   وكَـبَّـرَ لـلرَّحْـمَـنِ حِـينَ رآنِـي
وأذْرَيْتُ دَمْـعَ العَينِ لمَّـا عَـرَفْتُـه   ونـادَى بـأَعْلَى صَوْتِـهِ فَـدَعَـانِي[1]

[يدنو منه قيس ويتأمله]

قيس [لنفسه]:

يـا وَيْـحَ عَيْنِي مـا تَـرَى؟   وَوَيْـحَ أُذْنِـي مـا تَـعِـي!
وأَيْـنَ عَـقْـلِي؟ غـابَ عَـنِّي   الـيَـوْمَ أو عَـقْـلِي مَعِـي؟
الـشِّـعْـرُ لِـي مُـذْ قُـلْتُـهُ   مِنْ شفَتِي لَـمْ يُـسْـمَـع
مَـنْ ذَا الَّـذِي أَوْحَـى بِـهِ   لِـذَا الـغُـلَامِ الـمُـدَّعِي؟

[يقترب من الشاب ويأخذ في انتقاده]

عِـقَـالاَنِ يَـمَـانِيَّـانِ مِـنْ وَشْـيٍ وعِـقْـيَـانِ
يُـضِـيئَـانِ كَـلْمـحِ الـشَّـمْسِ فـي جِـلْدَةِ ثُعْبَانِ
وأَيْـنَ الشَّـفَـقُ الأَحْـمَـرُ مِـنْ مِـطْرَفِـكَ الـقـانِـي؟
وقَـدْ تَـقْـرُبُ فـي الـرَّوْعَـةِ مِـنْ أَمْـلَاكِ غَـسَّانِ[2]
وقَـدْ تَـبـلُغُ فـي الـشِّـعْـرِ إلـى رِقَّـةِ حَـسَّانِ
فَـمَـا شَـأْنُـكَ يـا هَـذَا؟

الأموي : وما يَعْنِيكَ مِنْ شَانِي؟

قيس :

أَرَى سـارِقَ أَشْـعَـارٍ   جَـرِيئـاً مـا لَـهُ ثَـانـي
فَـقَـدْ يُـسْـطَى عَـلَى بَـيْـتٍ   وقَـدْ يُـسْـرَقُ بَـيْـتَـانِ
ولَا يَـنْـتَـحِـلُ الإنْـسَـانُ   أَبْـيَـاتـاً لإِنْـسَـانِ
ومـا أنـشَـدْتَ مِـنْ شِـعْـرٍ   فَـمِـنْ صـنْـعِـي وإحْـسَـانِـي
ولـم أَهْـتِـفْ بِـهِ بَـعْـدُ   وَلَـمْ تَـسْـمَـعْـه أُذْنَـانِ

---

(١) هذا البيت والذي قبله للمجنون.
(٢) غسان: يعني الغساسنة ملوك الشام.

فَمَنْ أَنْتَ ومِنْ أَيْنَ أَتَتْ أُذْنَيْكَ أَلْحانِي؟

الأموي :

أنَا المُلْقِي عَلَيْكَ الشِّعْرَ مِنْ آنٍ إلَى آنِ
أنَا الهاجِسُ والشَّيْطَانُ

قيس : لاَ، لاَ، لَسْتَ شَيْطَانِي

[ثم يناجي نفسه]:

أجَلْ سَمِعْتُ بآسْم شَيْطَانِي ولَكِنْ لَمْ أرَهْ
أبِي وأُمِّي حَدَّثَا نِي في اللَّيَالِي خَبَرَهْ

[يعود إلى خطاب الأموي متردداً]

أَلَسْتَ أنْتَ الأُمَوِيَّ؟

الأموي : لا تَخَفْ أَنْ تَذْكُرَهْ

قيس :

ما أَنْتَ إلاّ صُورَةٌ في عَصَبِي مُصَوَّرَهْ
وعَبَثٌ لَوْ كَانَ عَقْلِي حاضِراً لأَنْكَرَهْ

قيس [وهو ينكت الأرض بعود]:

وَيْحِي أَقَيْسٌ واحِدٌ أَمْ نَحْنُ قَيْسَانِ هُنَا؟
وأيُّنَا الشَّاعِرُ هَذَا الأَمَوِيُّ أمْ أنَا؟
أمْ الَّذِي بي وبِهِ مِنْ عَبَثِ السِّحْرِ بِنَا؟
أَمْ أنَا مَجْنُونٌ عَلَيّ حُبُّ لَيْلَى قَدْ جَنَى

الأموي : قَيْسُ

قيس : لَبَّيْكَ قَيْسُ

الأموي : ما أَنَا قَيْسٌ

قيس : مَنْ إذَنْ؟

الأموي : قُلْتُ إنَّني شَيْطَانُهْ

قيس : قَيْسُ مِنْ آدَمٍ فَمَا أَنْتَ مِنْهُ

الأموي : أنَا مِنْ قَيْسِ عامِرٍ وُجْدَانُهْ

قيس :

أَنْتَ وِجْدَانِيَ؟ آسْتَعَذْتُ بِرَبِّي مِنْكَ

الأموي : لا تَسْتَعِذْ بِهِ جَلَّ شَانُهْ!

هَكَـذَا شَـاءَ: كُـلُّ شـاعِـرِ قَـوْمٍ عَـبْقَـرِيُّ الـلِّسَـانِ نَحْـنُ لِسَـانُـهْ

قيس [مشيحاً بوجهه ومطرقاً]:

يـا عَـجَـبَـا أُصْـبَـحَ بـالـجِـنِّ لِـسَـانِـي يَـعْـمُـرُ!
وصِـرْتُ يَـنْـهَـى مـارِدٌ عَـلَى فَـمِـي ويَـأْمُـرُ
مـا لِـلِسَـانِـي لا يَـطُولُ؟ مـا لَـهُ لا يَـقْـصُـرُ؟
يـا لَـيْتَ شِـعْـرِي كَيْفَ لَا يَـخْـرُجُ مِـنْـهُ الـشَّـرَرُ؟

الأموي [واضعاً يده على كتف قيس]:

عَـلَامَ قَـيْسٍ فِـيـمَ أَنْـتَ مُـطْرِقُ مُـفَـكِّـرُ؟

في خَبَرِي؟

قيس :

أجَـلْ ومَـا صَـدَقْتَ فِـيـمَـا تُـخْـبِـرُ
لَـيْسَ لِـسَـانِـي مـارِداً إنَّ لِـسَـانِـي بَـشَـرُ

الأموي : قُلْ وَحْدَكَ الشِّعْرَ إذنْ!

قيس : تَظُنُنِي لا أَقْدِرُ؟

الأموي :

جَـرِّبْ إذَنْ قُـلْ أرِنَـا يـا قَيْسُ كَـيْـفَ تَـشْـعُـرُ!

قيس : وما تُحِبُّ؟

الأموي :

قَــرْيَــةُ الــجِــنِّ وهَــذَا الــمَــنْــظَرُ
أَلَــيْسَ فِــيــمَــا أَنْــتَ راءٍ قَــيْسُ مــا يُــؤَثِّــرُ؟

قيس : إسْمَعْ إذَنْ يا أُمَوِيُّ!

الأموي : إنَّنِي أَنْتَظِرُ

قيس :

وُجُــوهٌ تَصَــوَّرُ، وفَضَــاءٌ يَــزْهَــرُ، ورِمَــالٌ في مَــطَارِحِ البَـصَــرِ تَــزْخَــرُ،
وقَــرْيَــةٌ تَــمُــوجُ بــالجِــنِّ كــأَنَّــهــا عَــبْقَــرْ!

الأموي [ضاحكاً]: قَهْ قَهْ! تعالَوْا واضْحَكُوا!

[تضحك جماعة من الجن]

قيس في غضب:

قَهْ قَهْ.. أمِنِّي تَسْخَرُ؟

الأموي :

مــا هَــكَــذَا يــا شــاعِــرَ الــبِــيــدِ الــبُــيُــوتُ تُــكْــسَــرُ

جني آخر :

إنَّــكَ لا تَــنْــظِــمُ يــا قَــيْسُ ولَــكِــنْ تَــنْــثُــرُ!

الأموي :

مـا لَــكَ قَــيْسُ مُــفْــحَــمــاً هَــذَا لَــعَــمْــرِي الــحَــسَــرُ!
لا يُــفْحَــمُ الــشَّــاعِــرُ لَكِــنْ يُــفْــحَــمُ الــشُّــوَيْــعِــرُ
مـا لَــكَ كــالــعُــودِ الَّــذِي أَدْبَــرَ عَــنْــهُ الــوَتَــرُ؟
مــا لِــلْقَــوَافِــي الآنِــسَــاتِ مِــنْــكَ قَــيْسُ تَــنْــفُــرُ؟
كَــيْفَ تَــرَى لِــسَــانَــكَ الْــ آنَ

قيس : عَلَيْهِ حَجَرُ!

أنْـتَ عَــلَى مَـشَـاعِـرِي وشِــعْــرِيَ الـمُـسَـيْـطِرُ!
إنْ غِـبْـتَ غـابَ خـاطِـرِي وإنْ حَـضَــرْتَ يَــحْـضُــرُ

الأموي :

الآنَ لا تُـنْـكِـرُنِـي قَـيْسُ وكُـنْـتَ تُـنْـكِـرُ!
عَجِبْتَ كَيْفَ تَخْتَفِي الجِنُّ وكَـيْـفَ تَـظْهَـرُ
يـا قَـيْسُ هَـذَا عـالَـمٌ طِـيـنَـتُـهُ الـتَّـجَـبُّـرُ
تَـطْغَـى عَـلَى رَائِـدِهَـا صَـحْـرَاؤهُ وتَـغْـمُـرُ
وغَـايَـةُ الـمُـمْـعِـنِ فـي نِـظَامِـهِ الـتَّـحَـيُّـرُ
مَـهْـمَـا عَـلِمْـتَ عَـنْـهُ فـالَّـذِي جَـهِـلْتَ أَكْـثَـرُ

قيس :

يـا أخَـا الـجِـنِّ لَئِـنْ كُـنْـتَ أخـاً لِـي وخَـلِيـلا
أنَـا فـي أَعْـمَـاءِ أَرْضٍ لا أَرَى فِـيـهَـا الـسَّـبِـيـلا[1]

الأموي : أَيْنَ تَبْغِي قَيْسُ؟

قيس :

لَيْلَى كُـنْ إلَـى لَـيْـلَى الـدَّلِـيـلا

الأموي :

مِـلْ يَـمِـيـنـاً يـا أَبَـا الـمَـهْـدِيِّ ثُـمَّ امْشِ قَـلِيـلا
تَـجِـدَ الـمَـنْـزِلَ والـمَـا ءَ الَّـذي يَـشْـفِي الـعَلِيـلا

[ينطلق قيس آخذاً يمينه مهرولاً]

---

(١) أعماء الأرض: المجاهل التي لا أثر للعمارة فيها.

المنظر الثاني

«في حي بني ثقيف بـالطائف حيث تـرى دار ورد على بعد قليـل ـ ورد مضطجع على الرمل وبجانبه يجلس رفيق من رفـاقه ـ يقتـرب قيس من الخباء مناجياً نفسه»

قيس :

إنَّ قَـلْبِـي لَـمُـخْـبِـري   أنَّ هـاتِـيـكَ دَارُهَـا
أنَـا بـالـطَّائِـفِ الَّـذِي   قَـرَّ فِـيـهِ قَـرَارُهَـا
فـي ثَـقِـيفٍ تَـنَـقُّـلِي   وثَـقِـيـفٌ دِيَـارُهَـا
مـا لِـسَـاقِـي جَـرَرْتُـهَـا   فَـتَـعَـايَـى انْـجِـرَارُهَـا
ولِـقَـلْبِـي يَـقُـولُ لِـي   قَـدْ تَـدَانَـى مَـزَارُهَـا
كَـيْـفَ لا أَهْـتَـدِي لِـلَيْـلَى وفِـي الـقَـلْبِ نَـارُهَـا
لَـيْـتَ لَـيْـلاَيَ نُـبِّـئَـتْ   أَنَّـنـي الـيَـوْمَ جـارُهَـا

[يتبين ورداً وصاحبه]

عَجَبٌ! هُـدِيتَ الدَّارَ بَعْـدَ ضَـلاَلَـةِ   مـا كَـانَ شَيْـطَانِي عَلَيَّ كَـذُوبَـا
هَــذِي مَـنَـازِلُهـا وذَلِـكَ بَـعْلُهـا   بَـعثَـتْ إلَيَّ دِيَـارُ لَـيْـلَى الـطِّيبَـا
هَـذَا غَـرِيمي وَرْدُ أَشْقَـرُ كـاْسْمِـهِ   أَتُـرَاهُ أُلْـبِسَ جِـلْدَهُ مَـقْـلُوبَـا!
مـا بَـالُـهُ ٱفْتَرَشَ الأدِيمَ كـأَنَّـهُ   بَغْـلٌ يُعفِّـر في التُّـرَاب جُنُـوبَـا!

رفيق ورد :

وَرْدُ أَرَى مِـنَ الـمَـدَى الـقَـريـبِ   شَخْصـاً يَـدِبُّ نَحْـوَنَـا كـالـذِّيبِ
عَـلَى خُـطَاهُ خَـشْيَـةُ الـمُـرِيـبِ

ورد :

لِمْ لا تَقُولُ حَيْرَةُ الغَرِيبِ

لَعَلَّهُ ابْنُ سَبِيلِ يَمُرُّ بالحَيِّ مَرًّا
إنِّي أَرَاهُ سَقِيماً يَجُرُّ ساقَيْهِ جَرًّا

[ينهض من رقدته قلقاً]

الرفيق : عَرَفْتَ مَنْ هُوَ؟

ورد : قَيْسٌ بِهِ الغَرَامُ أضَرًّا

الرفيق : قَيْسٌ؟

ورد : أَجَلْ

الرفيق :

كَيْفَ أَفْضَى إِلَيْكَ؟ كَيْفَ تَجَرًّا

ورد :

دَعْنِي وقَيْساً وشَأْنِي لَعَلَّ فِي الأَمْرِ سِرًّا

[ينصرف الرجل ويتلاقى ورد وقيس]

قيس : أَهَذَا أَنْتَ وَرْدُ بَنِي ثَقِيفٍ؟

ورد : نَعَمْ والوَرْدُ يَنْبُتُ في رُبَاهَا

قيس :

وَلِمْ سُمِّيتَ وَرْداً لَمْ تُلَقَّبْ بِقُلَّامِ العَشِيرةِ أو غَضَاهَا!

ورد [في سكون وحلم]:

وما ضَرَّ الوُرُودَ وَمَا عَلَيْهَا؟
إذا المَزْكُومُ لَمْ يَطْعَمْ شَذَاهَا

---

(١) القُلَّام: ضرب من الحمص. والغضى: شجر.

قيس :

بِـرَبِّـكَ هَـلْ ضَمَمْتَ إلَيْـكَ لَيْلَى
قُبَيْـلَ الصُّبْـحِ أو قَـبَّلْتَ فـاهَـا؟
وهَـلْ رَفّـتْ عَـلَيْـكَ قُـرُونُ لَـيْـلَى
رَفِـيـفَ الأُقْـحُـوانَـةِ في نَـدَاهَـا؟[1]

ورد [بعد فترة سكون]: نَعَمْ ولَا يا قَيْسُ

قيس :

بَلَ لَا بُـدَّ مِـنْ لَا أو نَـعَـمْ

وِرد :

هَبْهَـا نَعَمْ يـا قَيْسُ هَـلْ مَـعَ الحَـلَالِ مِنْ تُـهَـمْ؟
الـمَـرْءُ لا يُـسْـأَلُ: هَـلْ قَـبَّـلَ أَهْـلَهُ؟ وكَـمْ؟
أَجَـلْ لَـقَـدْ قَـبَّـلْتُـهَـا مِـنْ رَأْسِـهَـا إلَـى القَـدَمْ

قيس [غاضباً]:

تِلْكَ لَعَـمْـرِي قُبْلَةُ الحُمَّى بَـلَاءٌ وسَـقَـمْ!
أو قُـبْـلَةُ الـذِّئْـبِ إذا الـذِّئْبُ على الـشَّـاةِ جَثَـمْ

[يتراجع قليلاً وكأنما يحدث نفسه]

قَـلْبِـي يَـقُـولُ لِـيَ: لَا! يـا صِـدْقَـهُ فِـيمَـا زَعَمْ!

ورد :

إذَنْ تَـعَـالَ قَـيْسُ واسْـمَـعْ فـي أَنَـاةٍ وكَـرَمْ
لا تَـجْـعَـلَنَّ الـغَـضَـبَ الـجَـائِـرَ بَـيْـنَـنَـا الـحَـكَـمْ
إسْـمَـعْ حَـدِيـثِـي إنَّـهُ مـا خَطَّ مِـثْـلَهُ الـقَـلَمْ
وسِـرُّهُ لا الأَهْـلُ يَـدْرُونَ بِـهِ ولَا الـخَـدَمْ

---

(١) هذا البيت والذي قبله للمجنون.

أنَـا الَّـذِي ظُـلِمْـتُ قَـيْسُ مـا أنَـا الَّـذِي ظَـلَمْ
أَلِـيَّـةً ومـا عَـلَـيَّ لَـكَ يـا قَـيْسُ قَـسَـمْ
كَـمْ مَـرَّتِ الـلَّيْـلَةُ بِـي والـلَّيْـلَتَـانِ لَـمْ أَنَـمْ
مُـنْـذُ حَـوَتْ داريَ لَـيْـلَى مـا خَـلَوْتُ مِـنْ نَـدَمْ
كـانَـتْ إطَـافَـتِـي بِـهَـا كـالـوَثَـنِيِّ بـالـصَّـنَـمْ
ورُبَّـمَـا جِئْـتُ فِـرا شَـهَـا فَخَـانَـتْنِـي الـقَـدَمْ
كـأنَّـهـا لِـي مَـحْـرَمٌ ولَـيْسَ بَـيْـنَنَـا رَحِـمْ
شِـعْـرُكَ يـا قَـيْسُ جَـنَـى عَـلَـيَّ هَـذَا واجْـتَـرَمْ
هَـيَّبَـهَـا فـامْـتَـنْـعَـتْ كـأنَّـهَـا صَـيْـدُ الـحَـرَمْ
وَهَـبْـتُـهـا لِـلْـحُـبِّ والـشِّـعْـرِ وقَـيْسٍ والأَلَـمْ

قيس :

ولَـكِـنْ تَـعَـالَ سَـرِيَّ ثَـقِـيـفٍ أَبِـنْ لِيَ مـا لَـمْ تُـبـيِّنْ تَـعَـالاَ
تَـقُـولُ لَقِيتَ بِـشِعْـرِي الشَّـقَـاءَ وجَـرَّ عَـلَـيْـكَ بَـيَـانِـي الـوَبَـالاَ
لَـقَـدْ قُـلْتَ قَـوْلاً فـأوْجَـزْتَـهُ فَـبِـاللهِ إلاَّ شَـرَحْـتَ الـمَـقَـالاَ

ورد : إذَنْ. أَصْغِ قَيْسُ

قيس : قُلِ الصِّدْقَ وَرْدُ

ورد :

وهَـلْ كـانَ لِي الصِّـدْقُ إلاّ خِـلاَلاَ
فَـلَوْلاَكَ مـا اخْـتَـرْتُ إلاَّ ثَـقِـيـفـاً ولَـمْ أُلْـقِ لـلعـامِـرِيّـاتِ بَـالاَ
ذَهَـبْـتُ بِـشِعْـرِكَ مُـنْـذُ الـشَّـبَـابِ أُغـنِّي الـقِـصَـارَ وأَرْوِي الـطِّوَالاَ
أَرَى بَـيْـنَ أَلْـفَـاظِـهِ ظِـلَّ لَـيْـلَى وأَلْـمَـحُ بَيْـنَ القَـوَافِي الـخَـيَـالاَ
فَـلَمَّـا رُدِدْتَ، وقِـيـلُ(١) الـقَـصَـائـ ـدِ والعِشْقُ بَيْـنَ الـمُحِبَّيْن حَـالاَ
خَـرَجْـتُ إلَـى حَـيِّـهـا خـاطِـبـاً ولـم أَدَّخِـرْ دُونَ مَـسْـعَـايَ مَـالاَ
بَـنَيْـتُ بِـهَـا فَـتـهَـيَّـبْـتُـهـا وأيُّ آمْـرِئٍ هـابَ قَبْلِي الحَـلاَلاَ

---

(١) قِيلُ: قَوْلُ.

فَشِعْـرُكَ يـا قَـيْسُ أَصْـلُ البَـلاءِ   لَـقِـيـتُ بِـهِ وبـلَيْـلَى الـضَّـلالاَ
كَـسَـاهَـا جَـمَـالاً فـعُـلِّقْـتُـهـا   فَـلَمَّـا ٱلْتَـقَيـنـا كَسَـاهَـا جَـلالاَ
إذا جِئْـتُـهـا لأَنَـالَ الـحُـقُـوقَ   نَـهـتْـنِي قَـدَاسَـتُـهـا أنّ أَنَـالاَ
أَمْسِكْ أبا المَهْدِيِّ!

[يستحيل كلامه إلى همس، إذ تبدو ليلى على باب الخباء]

أُنظُرْ هَذِهِ   لَـيْلَى عَـلَيْنَـا طَـلَعَتْ مِـن الـخِبَـا

[ثم ينادي بصوت متهدج]

لَيْلَى تَعَـالَيْ أَسْـرِعِي، قَيْسٌ أَتَـى   لَـيْلَى هَـنَـاكِ، مَنْ تُـحِبِّـينَ هُـنَـا

قيس :

أَمَـازِحٌ يـا وَرْدُ قُـلْ لِـي أَنْتَ أَمْ   تَسْخَـرُ مِنِّي أَمْ تُـرَى تَـهـزَا بِنَـا؟

ورد :

بَـلْ قُلْتُ جِـدّاً لَمْ أَقُـلْ مُـهـازِلاً

قيس [هامًا بالذهاب إلـيهـا]:

إذَنْ فَـدَعْهَـا لا تُجَشِّمْهـا الخُطَى

ورد [وليلى تقترب]:

إسْمَـعْ أبا المَهْـدِيّ هَمْسَ خَـطْوِهَـا   كـأَنَّـه وَطْءُ الغَـرال في الـحَصَـى
دَعَـوْتُ فـاهْتَمَّـتْ ولَـوْ لَمْ أدْعُـهـا   لـوَجَـدَتْ رِيحَـكَ مِنْ أَقْصَى مَدَى
قَـيْسُ تَثَبَّـتْ وٱسـتَعِـدَّ، هِـيَ ذِي   أَتَتْ، فَـلاَ يَـذْهَبْ بِـلُبِّـك اللِّقَـا
الآنَ أَمْضِي لِسَبِيلي

قيس : بَلْ أَقِمْ   إلْبَثْ أعـنِيِّ، وَهَـنَتْ مِـنِّي الـقِـوَى

ورد :

قَيْسُ أَرَى المَـوْقِـفَ لا يَجْـمَعُـنَـا   أَنْتَ حَـبِيبُ الـقَلْبِ، والـزَّوْجُ أَنَـا
يـالَكُـمـا مِنِّي ويـا لِي مِنْكُـمَـا!   نَحْنُ الـثَّـلاثَـةُ ٱرْتَـطَمْنَا بـالقَضَا

[ينصرف وتقبل ليلى على قيس]

قيس : لَيْلاَي، لَيْلَى القَلْبِ

ليلى :

قَيْسُ مالِي دَارَتْ بِيَ الأَرضُ وَسَاءَ حَالِي؟

قيس :

فِدَاكِ لَيْلَى مُهْجَتِي ومَالِي مِنْ السَّقَامِ ومِن الهُزَالِ
تَعَالَي اشْكِي لِي النَّوَى تَعَالِي أَلْقِي ذِرَاعَيْكِ عَلَى خَيَالِ

[تصافحه بشوق]

ليلى :

أحَقٌّ حَبِيبَ القَلْبِ أَنْتَ بِجَانِبي أحُلْمٌ سَرَى أَمْ نَحْنُ مُنْتَبِهَانِ؟
أَبَعْدَ تُرَاب المَهْدِ مِنْ أَرْضِ عامِرٍ بأَرْضِ ثَقِيفٍ نَحْنُ مُغْتَرِبَانِ؟

قيس :

حَنَانَيْكِ لَيْلَى، ما لِخِلٍّ وخِلَّةٍ مِن الأَرْضِ إلَّا حَيْثُ يَجْتَمِعَانِ
فكُلُّ بِلَادٍ قَرَّبَتْ مِنْكَ مَنْزِلِي وكُلُّ مَكَانٍ أَنْتِ فيهِ مَكَانِي

ليلى :

فما لِي أَرَى خَدَّيْكَ بالدَّمْعِ بُلَّلَا أمِنْ فَرَحٍ عَيْنَاكَ تَبْتَدِرَانِ

قيس :

فِدَاؤكِ لَيْلَى الرُّوحُ مِنْ شَرِّ حَادِثٍ رَمَاكِ بِهَذَا السُّقْمِ والذَّوَبانِ

ليلى :

تَرَانِي إذَنْ مَهْزُولَةً قَيْسُ؟ حَبَذَّا هُزَالِي ومَن كَانَ الهُزالَ كَسَانِي

قيس : هُوَ الفِكْرُ لَيْلَى، فِيمَن الفِكْرُ؟

ليلى :

في الذي تَجَنَّى

قيس : كَفَانِي ما لَقِيتُ كَفَانِي

ليلى :

أأَدْرَكْتَ أنَّ السَّهْمَ يَـا قَيْسُ واحِـدٌ وأنّـا كِلَيْنَـا لِلْهَـوَى هَـدَفَـانِ؟

كِـلانَـا قَـيْسُ مَـذْبُـوحٌ قَـتِـيـلُ الأَبِ والأُمِّ

طَـعِـيـنَـانِ بِـسِـكِّـيـنٍ مِـنَ الـعَـادَةِ والـوَهْـمِ

لَـقَـدْ زُوِّجْتُ مِـمَّـنْ لَـمْ يَـكُـنْ ذَوْقِـي ولا طَـعْـمِـي

ومَـنْ يَـكْـبُـرُ عَـنْ سِـنِّـي ومَـنْ يَـصْـغُـرُ عَـنْ عِـلْمِـي

غَـرِيـبٌ لا مِـنَ الـحَـيِّ ولاَ مِـنْ وَلَـدِ الـعَـمِّ

ولاَ ثَـرْوَتُـهُ تُـرْبِـي عَـلَى مـالِ أبِـي الـجَـمِّ

فَـنَـحْنُ الـيَـوْمَ فِي بَـيْـتٍ عَـلَى ضِـدَّيْـنِ مُـنْـضَـمِّ

هُـوَ الـسِّـجْـنُ وقَـدْ لاَ يَـنْـطَوِي الـسِّـجْـنُ عَـلَى ظُـلْمِ

هُـوَ الـقَـبْـرُ حَـوَى مَـيْـتَـيْـنِ جـارَيْـنِ عَـلَى الـرَّغْـمِ

شَـتِـيـتَـيْـنِ وإنْ لَـمْ يَـبْـعُـدِ الـعَـظْمُ مِـنَ الـعَـظْمِ

فـإنَّ الـقُـرْبَ بـالـرُّوحِ ولَـيْسَ القُـرْبُ بـالـجِـسْـمِ

قيس :

تَعَـالَيْ نَعِشْ يـا لَيْـلَ في ظِـلِّ قَفْـرَةٍ مِن البِيـدِ لم تُنْقَـلْ بِهَـا قَـدَمَـانِ

تَـعَـالَيْ إلَـى وادٍ خَـلِيٍّ وجَـدْوَلٍ ورَنَّـةِ عُـصْـفُـورٍ وأيْـكَـةِ بَـانِ

تَعَـالَيْ إلَى ذِكْـرَى الصِّبَا وجُنُـونِـهِ وأَحْـلاَمِ عَـيْشٍ مِنْ دَدٍ وأَمَـانِ[1]

فَكَمْ قُبْلَةٍ يَـا لَيْـلَ في مَيْعَـةِ الصِّبَا وقَبْـلَ الهَـوَى لَيْسَتْ بِـذَاتِ مَعَـانِي

أَخَـذْنَـا وأَعْـطَيْنَا إذِ البَهْمُ تَـرْتَعِي وإذ نَحْنُ خَـلْفَ البَـهْمِ مُسْتَتِـرَانِ

ولَمْ نَـكُ نَدْرِي يَـوْمَ ذَلِكَ مـا الْهَوَى ولا مـا يَعُـودُ القَـلْبَ مِنْ خَـفَقَـانِ

مُنَى النَّفْسِ لَيْلَى قَرِّبي فاكِ مِنْ فَمِي كَـمَـا لَفَّ مِـنْقَـارَيْـهِـمَـا غَـرِدَانِ

نَـذُقْ قُبْلَةً لا يَعْرِفُ البُـؤْسَ بَعْـدَهَـا ولا السُّقْمَ رُوحَـانَـا ولا الجَسَـدَانِ

فكُـلُّ نَعِيمٍ فـي الحَيَـاةِ وغِبْـطَةٍ عَـلَى شَفَـتَيْـنَـا حِيـنَ تَـلْتَقِيَـانِ

---

(١) الدد: اللهو واللعب.

ويخفُقُ صَـدْرَانَا خُفُـوقاً كـأنَّما   مَعَ القَلْبِ قَلْبٌ في الجَوَانِحِ ثاني

[تنفر ليلى]

ليلى : وكَيْفَ؟

قيس : ولِمْ لاَ؟

ليلى :

لَسْتَ يـا قَـيْسُ فـاعِـلاً   ولاَ لِي بِمَـا تَـدْعُـو إلَـيْـهِ يَـدَانِ

قيس : أَتَعْصَينَنِي يا لَيْلَ؟

ليلى :

لَـمْ أَعْـصِ آمِـرِي   ولَكِنَّ صَـوْتـاً في الضَّمِيـرِ نَهَـانِي

وَوَرْدُ يـا قَـيْسُ؟ وَرْدٌ مـا حَـفَـلْتَ بِـهِ

لَـقَـدْ ذَهِلْتَ فَلَمْ تَـجْـعَـلْ لَـه شَـانَـا

قيس [غاضباً]: تَعْنِينَ زَوْجَكِ يا لَيْلَى

ليلى [منكسة رأسها]: نَعَمْ

قيس : ومَتَى   أَحْبَبْتِ وَرْداً؟ تُـرَى أَحْبَبْتِهِ الآنَـا!

ليلى : فِيمَ آنْفِجَارُكَ؟

قيس : مِنْ كَيْدٍ فُجِئْتُ بِهِ

ليلى : إنِّي أَرَاكَ أبَا المَهْدِيِّ غَيْرَانا

وَرْدٌ هُـوَ الـزَّوْجُ، فَـاعْلَمْ قَيْسُ أنَّ لَـهُ

حَـقّـاً عَـلَـيَّ أُؤَدِّيـهِ وسُـلْطَانَـا

قيس : إذَنْ تَحابَبْتُمَا؟

ليلى :

بَـلْ أَنْـتَ تَـظْلِمُـنِي   فَمَـا أُحَبَّ سِـوَاكَ القَلْبُ إنْسَـانَـا

ولَســْــتُ بــارِحَــةً مِــنْ دَارِهِ أَبَــداً
حَتَّى يُــسَــرِّحَنِي فَـضْــلاً وإحْسَــانَــا
نَحْنُ الحَــرَائِــرَ إنْ مــالَ الــزَّمَــانُ بِنَــا
لَــمْ نَشْــكُ إلاَّ إلَـى الــرَّحْـمَـنِ بَـلْوَانَــا

قيس : بَلْ تَذْهَبِينَ مَعِي!

ليلى :
لاَ، لاَ أَخُــونُ لَــهُ عَهْداً، فَمَا حَادَ عَنْ عَهْدِي ولا خَانَا
فَتًى كَنَبْــعِ الصَّفَــا لَــمْ يَخْتَلِفْ خُـلُقــاً
ولاَ تَــلَوَّنَ كــالـفِــتْـيَــانِ أَلْــوَانَــا

قيس [متهكماً]:
أَرَاكِ فــي حُــبِّ وَرْدٍ جِــدَّ صَــادِقَــةٍ
وكــانَ حُــبُّــكِ لِــي زُوراً وبُــهْــتَــانَــا

ليلى : قَيْسُ!

قيس [صارخاً]:
آتْــرُكِــيــنِــي بِــلاَدُ الله واسِــعَــةٌ غَــداً أُبَــدِّلُ أَحْــبَــابــاً وأَوْطَــانَــا

[يحاول أن يتركها فتمسك به ليلى]

ليلى : العَقْلَ يا قَيْسُ!

قيس : لا. خَلِّي الرِّدَاءَ دَعِي

[ثم يفلت منها ويندفع إلى سبيله تاركاً
إياها باكية في هيئة استعطاف]

ليلى : وآرْحْمَتَاهُ لِقَيْسٍ عادَ ما كانَا!
واهــاً لِقَيْسٍ وآهِ مـا صَنَعَــا؟ أَكْثَــرَ قَيْسٌ بَلْوَايَ والـوَجَعَــا

[تدخل عفراء]

عَفْرَاءُ عِنْدِي

عفراء :

لَـبَّيْـكِ سَـيِّـدَتِـي الصَّبْـرَ وآسْتَـدْفِعِي بِـهِ الجَـزَعَـا

ليلى :

لَـقَـدْ سَـمِـعْـتِ الـحَـدِيـثَ كَـيْـفَ إِذَنْ

صَبْـرِي عَلَى مـا جَـرَى ومَـا وَقَـعَـا؟

قُلْتُ لِقَيْسٍ مَقَـالَ مُشْفِـقَـةٍ لَمْ يُلْقِ بـالاً لَـهُ ولاَ سَمِعَـا

وقَيْسُ ذو جِنَّـةٍ وإنْ زَعَـمُـوا جُنُـونَـهُ مُـدَّعًى ومُصْـطَنَعَـا

تَحَيَّـرَ النَّـاسُ في جُنُـونِ فَتًى لا عَقْـلَ إلّا بِشِـعْـرِهِ وَلِعَـا

والله لَــو جـاءَ في مُحَـاسَنَـةٍ يَسْـأَلُ وَرْدَ الـطَّلاَقَ مَـا مُنِعَـا

فَـوَرْدُ يـا عَفْـرَ لا كِفَـاءَ لَـهُ مُـرُوءَةً في الرِّجَـالِ أَوْ وَرَعَا

آهِ من السُّقِمْ

عفراء : أَلْفَ عافِيَةٍ

ليلى : آهِ مِن الحَادِثَاتِ

عفراء : أَلْفَ لَعَا[1]

ليلى :

أنَـا عُـذْرِيَّـةُ الـهَـوَى أَحْمِـلُ الـعِـبْءَ وإنْ نَـاءَ بـالـصَّبَـابَـةِ جَـهْـدِي

الـمُحِـبَّـاتُ مـا بَكَيْنَ كَـدَمْعِي فـي اللَّيَـالِـي ولا أَرِقْنَ كَسُـهْـدِي

وَيْـحَ قَـيْسٍ ووَيْـحَ لـي أيَّ ثَـأْرٍ لِلْمَقَـادِيـرِ عِـنْـدَ قَيْسٍ وعِـنْـدِي

أَتْـعَـبَ الـحَـيَّ داءُ قَـيْسٍ ودَائِـي وتَـعَـايَـا الـدَّوَاءُ كُهَّـانَ نَـجْـدِ[2]

لا الحَـوَامِيمُ تَصْـرِفُ الجِنَّ عَـنَّـا حِينَ تُتْلَى ولا رُقَى السِّحْـرِ تُجْدِي[3]

---

(١) لعا: صوت معناه الدعاء للعاثر.

(٢) تعايا: أعجز.

(٣) الحواميم: السورة القرآنية التي أولها: حم.

أبِقَيسٍ وبِي هَوًى عَبْقَرِيٌّ يَسْلُبُ العَقْلَ مِنْ ذَوِيهِ ويُرْدِي
علَّةُ البِيدِ مِنْ قَدِيمٍ وَدَاءٌ ضاعَ فيه الرُّقَى وحَارَ المُفَدِّي
ما سِلاَحَاهُ حِينَ يَقْتُلُ إلاّ مِنْ عَفَافٍ ومِنْ وَفَاءٍ بِعَهْدِ
لم تُعَذَّبْ بالحُبِّ عَذْرَاءُ قَبْلِي كَعَذَابِي ولَنْ تُعذَّبَ بَعْدِي

عفراء : هِيَ عَذْرَاءُ؟ رَبِّيَ اشْهَدْ!

ليلى :

أجَلْ عَذْ رَاءُ حَتَّى يَضُمَّنِي رُكْنُ لَحْدِي

عفراء : والَّذِي أَنْتِ تَحْتَهُ؟

ليلى :

تَحْتَ بَعْلٍ غَيْرِ ذِي جَفْوَةٍ ولا مُسْتَبِدِّ
رَاعَنِي اللَّوْمُ مِنْ جميعِ النَّوَاحِي فَتَوَارَيْتُ في مُرُوءَةِ وَرْدِ

[يقبل ورد وقد سمع آخر ما كانت تقول]

رَبِّ ماذَا سَمِعْتُ؟ لَيْلَى شَكُورٌ لَكِ نَفْسِي الفِدَاءُ يا بِنْتَ مَهْدِي

ليلى : وَرْدُ

ورد : لَيْلَى

ليلى : رُحْمَاكَ وَرْدُ وعَفْواً
كُنْتُ أُخْفِي الجَوَى فأَصْبَحْتُ أُبْدِي

ورد :

ما بِلَيْلَى؟ ماذا أَثَارَكِ لَيْلَى؟ هَدِّئِي رَوْعَكِ المُفَزَّعَ هَدِّي

ليلى :

الدَّاءُ يا وَرْدُ فِيّ مُجْتَهِدُ مُلْتَهِمٌ هَيْكَلِي وما شَبِعَا
أَصْبَحْتُ لا أَشْتَهِي الطَّعَامَ ولاَ
يَحْمَدُ جَنْبِي إليَّ مُضْطَجَعَا

أُحِسُّ يـا وَرْدُ أَنَّـهُ انْـصَـدَعَـا قَلْبِي مـن اليَـأْسِ حِينَ حَـلَّ بِـهِ
كـانَ بِـمَـا حَـمَّـلُوهُ مُـضْـطَلِعَـا لَمْ يَحْمِـلِ اليَـأْسَ سَـاعـةً ولَقَـدْ
ولَـنْ تَـرَى يـائِـسـاً بِهِ انْـتَـفَـعَـا الْـمُـتَـمـنِّي بـالـعَـيْشِ مُـنْـتَـفِـعُ
الـقَـدَرُ الـيَـوْمَ والـقَـضَـاءُ عَـلَى
حَـرْبِـكَ قَـيْسٌ وحَـرْبِـيَ آجْـتَـمَـعَـا

ستـار

الفصل الخامس

«مقابر على سفح جبل التَّوباد في طريق عام على مقربة من حي بني عامر يبدو من بينها قبر جديد ما زال أشخاص من الحي يَهيلون عليه التراب ويضعون الأحجار، ومن حوله كثير من رجال الحي وفتيانه وصغاره يرى بينهم المهدي وورد وكلهم باك أو حزين - يبدأ المشيِّعون في الانصراف وهم يعزون المهدي ويصافحونه واحداً بعد واحد ويمرُّون على ورد مروراً»

معز : إنَّا لله أبا لَيْلَى

آخر : صَبْرٌ أبا لَيْلَى جَمِيل

[في أثناء انصرافهم يمرُّ رجل في الطريق
فيسأل صبياً من صبيان الحي في ناحية]

المار : قَبْرُ مَنْ يا صَبِي؟

الصبي : قَبْرُها يا أَبِي

المار : إمْرَأَةٌ؟

الصبي : نَعَمْ

المار : ومَن تَكُونُ؟

[الصبي مشيراً إلى المهدي]

بِنْتُ ذا الرَّجُلْ

لَــيْـلَى آبْــنَــةُ الــمَــهْــدِي أَلَــسْــتَ مِــنْ نَــجْــدِ؟

صبي آخر :

أَجَــلْ قَــد دُفِــنَــتْ لَــيْــلَى ومَــا جَــفَّ لَــهَــا لَــحْــدُ
وذا الــشَّــيْــخُ أبــو لَــيْــلَى وذا صَــاحِــبُــهَــا وَرْدُ
هُــنــا الــوَالِــدُ والــزَّوْجُ

المار : وقَيْسٌ!

الصبي : لَمْ يَجِئْ بَعْدُ

[يقترب الرجل من المهدي فيعزيه]

المار : مَهْدِيُّ أَجْمِلْ جَزَعَا

معز : يا أَبَا لَيْلَى جَمَالَكْ[1]

آخر : عَزَاءً أبا لَيْلَى

آخر : عَزَاءً أبَا لَيْلَى

آخر : صَبْرٌ أَبَا لَيْلَى جَمِيل

[صديق من أصدقاء ورد هامساً إليه]

لَــقَــدْ أَحْــسَــنْــتَ يَــا وَرْدُ وَمَــا لِــلنَّــاسِ إِحْــسَــانُ
يُــعَــزُّونَ أبَــا لَــيْــلَى وَمَــا عَــزَّاكَ إِنْــسَــانُ
بَــلِ انْــظُرْ تَــرَهُــمْ أَقْــسَــى عَــلَيْــكَ الــيَــوْمَ مــا كــانُــوا
عَــلَى الأَوْجُــهِ بَــغْــضَــاءٌ وفِــي الأَعْــيُــنِ عُــدْوَانُ

ورد :

مَــهْــلاً أخِــي وانْــظُرْ إلــى الــنَّــاسِ بِــعَــيْــنِ مُــنْــصِــفِ

---

(١) جمالك: اصبر وتجمل.

هُـمُ يَـأْخُـذُونَ مـا بَـدَا وَيَـتْـرُكُـونَ مـا خَـفِـي
ظَنُّ الجَمَـاعَـاتِ فِيَّ سُـوءٌ ورَأيُـهُـمْ فِـيّ مـا أَصَـابَـا
يَـرَوْنَ أنِّـي عَـدُوُّ قَـيْسٍ أَخَـذْتُ أنـا آغْـتِـصَـابَـا
وزِدْتُ نَـفْسَـيْـهُـمَـا شَـقَـاءً وزِدْتُ قَـلْبَـيْـهِـمـا عَـذَابَـا
لِيَسْـألِ الـنـاسُ قَبْـرَ لَـيْلَى فَـإنّ في قَبْـرِهـا الجَـوَابَـا

[يلتفت إلى المهدي بعد أن يعزيه آخر معز]

تَجَمّلْ أبَا لَيْلَى

المهدي [مصافحاً إياه]:

تَـجَـمَّـلْتُ طـاقَـتِـي ولَـسْـتُ بِـخَـوَّارٍ قَـلِيـلَ الـتَّـجَـلُّدِ
حَمَلْتُ فُضُـولَ النَّاسِ يـا وَرْدُ حِقْبَةً إذا قُمْتُ مِنْ بـاغٍ عَثَرْتُ بِمُعْتَـدِي
يَعِيشُونَ في عِرْضِي فَمِنْ كُـلِّ مِعْوَلٍ ومِنْ كُـلِّ مِقْـرَاضٍ ومِنْ كُـلِّ مِبْـرَدِ
وهَـذا يُحَيِّـيني ويَقْـطَعُ فَـرْوَتِـي وهَـذا يُفَـدِّيني ويَهْـدِمُ سُـؤْدَدِي
ويا وَرْدُ لَوْ لَم تُـرْخِ سِتْراً على آبْنَتِي لَـظَلَّتْ بِعَـرْضٍ في البَـوَادِي مُبَدَّدِ
حَفِـظْتَ آبْنَتِي حِفْظَ الشَّـقِيـقِ ومُـرِّضَتْ
بِبَيْـتِـكَ تَمْـرِيضَ الـصَّغِـيـرِ المُـمَهَّـدِ
وصَيَّـرْتَ لَيْلَى في حِمَاكَ وخِـدْرِهَـا كَعَـذْرَاءِ دَيْـرٍ أو كـدُمْيَـةِ مَـعْبَـدِ
لَقَـدْ صُنْتَها يـا وَرْدُ فآذْهَبْ فَمَـا أنَـا بِنَاسٍ لَكَ المَعْـرُوفَ أو جاحِـدَ اليَدِ
ولَـيْـلَى فَـتَـاةٌ حُـرَّةٌ بِـنْـتُ حُـرَّةٍ أَحَبَّتْ غُـلاَمـاً سَيِّـداً وابْنَ سَـيِّـدِ
وأَعْلَمُ أنِّي كُنْتُ حَـرْبَ هَـوَاهُمَـا وكُنْتُ مَـع الـواشِي وعَـوْنَ المُفَنِّـدِ

[يلتفت إلى القبر باكياً]

بِظلّ الله يا لَيْلَى

ورد : وفي بُحْبُوحَةِ الخُلْدِ
وهَـذَا نَـجْـدُ يـا لَـيْـلَى فَـنَـامِي فـي ثَـرَى نَـجْـدِ

[يدخل دائرة المسرح من جانب الطريق الآخر
الغريض المغني والشاعر ابن سعيد وأمية وسعد]

الغريض : دَنَا الحَيُّ يابْنَ سَعِيدٍ وثَمَّ

ابن سعيد : ومَا ثَمَّ؟

الغريض : أُنْظُرْ يُجِبْكَ النَّظَرْ

ابن سعيد : قُبُورٌ؟

الغريض :

أجَـلْ عـارَضَـتْنـا الـقُبُـورُ وعَمَّـا قَلِيـلٍ نُجِيـزُ الحُفَـرْ

ابن سعيد :

وهَـلْ نَـحْـنُ إلاَّ عَـلَى حُـفْـرَةٍ هِيَ الأَرْضُ أَوْ هِيَ قَبْـرُ البَـشَـرْ

مُـحَـجَّـبَـةٌ بِـغُـرُورِ الـحَـيَـاةِ يَـرَاهَـا إذا غَـرْغَـرَ الـمُـحْـتَـضَـرْ

غَـرِيضُ بَـصُـرْتَ بِـقَـبْـرٍ جَـدِيـدٍ

الغريض : ومَاذا سِـوَى الـمَـوْتِ فـي ذا العَفَـرْ؟

ابن سعيد :

أَخٌ كـانَ يَـمْـلأُ أَمْسِ الـهَـوَاءَ ويَحْيَـا الحَيَـاةَ ويَـجْـرِي العُـمُـرْ

نَـزِيـلُ لَـعَـمْـرِي غَـرِيـبُ الـغِـطَاءِ

غَـرِيـبُ الـوِطَـاءِ غَـرِيـبُ الـحُـجَـرْ

لَـدَى مَـنْـزِلٍ كـبُـيُـوتِ الـكِـرَاءِ مِـرَاراً خَـلاَ ومِـرَاراً عَـمَـرْ

يُـزَارُ كَـثِـيـراً فَـدُونَ الـكَـثِـيـرِ فَـغِبّـاً فـيُـنْـسَـى كـأنْ لَـمْ يُـزَرْ[1]

ولَـيْسَ بِـنَـافِـعِـهِ الـواصِـلُونَ ولَـيْس بِـضَـائِـرِهِ مَـنْ هَـجَـرْ

فـيـا مَـيْـتَ أَمْسِ عَـدَتْـكَ الـرِّيَـاحُ

وحَـيَّـاكَ فـي الـفَـتَـراتِ الـمَـطَـرْ[2]

وأَمْسِ كَـعَـادٍ وإنْ كـانَ مِـنْـكَ

مُـطِـيـفَ الـخَـيَـالِ قَـرِيـبَ الـصُّـوَرْ

---

(١) غبّاً: أي يوماً بعد يوم.

(٢) عدتك: تجاوزتك، جملة دعائية.

لَقَدْ نَفَضَ اللَّيْلُ مِنْكَ اليَدَيْنِ
وأَدْرَكَ فِيكَ النَّهارُ الوَطَرْ
وأَمْسَيْتَ تَحْتَ لِوَاءِ التُّرَابِ
قَهَرْتَ القَضَاءَ ودِنْتَ القَدَرْ
تَلَفَّتْ وَرَاءَكَ أَيْنَ الغُرُورُ وأَيْنَ السُّرُورُ وأَيْنَ الأَشَرْ
وأَيْنَ مَعَالِمُ عُرْسِ الحَيَاةِ وأَيْنَ سَنَا لَيْلِهِ المُزْدَهِرْ
وأَيْنَ شَبَابٌ كَحُلْمِ العَرُوسِ
ضَحُوكُ العَشِيَّاتِ طَلْقُ البُكَرْ
وأَيْنَ العَدَاوَاتُ مِنْ سَافِرٍ مُبِينٍ ومِنْ كَاشِحٍ مُسْتَتِرْ
وأَيْنَ المَوَدَّاتُ مِنْ صُحْبَةٍ كَنَحْلٍ يَحُمْنَ وأَنْتَ الزَّهَرْ
قَلِيلُونَ عِنْدَ آمْتِنَاعِ القِطَافِ كَثِيرُونَ عِنْدَ رَجَاءِ الثَّمَرْ
وكَم مَن سَقَيْتَ بِشَهْدِ الوِدَادِ فَلَمْ يَجْزِ إلَّا بِصَابِ الإِبَرْ
فَذُقْ سِنَةً لا كَكُلِّ السِّنَاتِ
ونَمْ لَيْلَةً ما لَهَا مِنْ سَحَرْ
وقُلْ للصَّدِيقِ طَوَيْنَا الحَدِيثَ
وقُلْ للعَدُوِّ دَفَنَّا الخَبَرْ
وهَيِّيء مَكَانَيْهِمَا في التُّرَابِ فَإِنَّ رِكَابَهُمَا مُنْتَظِرْ

سعد :

أُمَيَّةُ ماذا تَرَى في الغَرِيضِ ؟

أمية :

ومـاذا أَرَى فـي أَمِيـرِ الطَّرَبْ؟

سعد :

لَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ الغَرِيضَ
مُغَنِّي الحِجَازِ وشَادِي العَرَبْ
ولَكِنْ. . .

أمية :

ومــاذا وَرَاءَ «ولــكــن؟» فَمِنْ شَــأْنِهــا أَنْ تُثِيــرَ الــرِّيَــبْ

سعد :

أَمَـيَّ اخْـفِض الـصَّـوْتَ لا يَـسْـمَـعَـنَّ

فَـيَـغْـضَـبَ فَـهْـوَ قَـرِيـبُ الـغَـضَــبْ

وأُذْنُ الــمُـغَــنِّي تُــحِسُّ الــنَّـسِيــمَ

وتَـسْـمَــعُ فـي الكَــأْسِ رَقْصَ الـحَـبَـبْ

أُمَــيّــةُ إنِّــي أخَــافُ الــغَــرِيضَ وإنَّ الــتَّــطَيُّــرَ بِــي قَــدْ ذَهَــبْ

أمية :

وأَيْنَ تَـرَى الشُّـؤْمَ حَــوْلَ الغَرِيضِ وكَيْفَ؟

سعد : رُوَيْدَكَ تَدْرِ السَّبَبْ

أَلَــيْسَ الــغَــرِيضُ يَــهِــيجُ الــبُــكَــاءَ

فَـلَوْ رامَ دَمْــعَ الـعَــرُوسِ آنْـسَـكَـبْ

تَــرَعْــرَعَ في بِيئَــةِ الـنَّـائِـحَــاتِ وعَــلَّمْــنَــهُ الـنَّـدْبَ حَــتَّى نَــدَبْ

يَــنُــوحُ بِــيَــثْــرِبَ آلَ الــرَّسُــولِ

ويُــذْكِــي مــآتِــمَ أَهْــلِ الحَــسَــبْ

أمية :

وأَيْــنَ يَــدُ الــشُّــؤْمِ مِمَّــا ذَكَــرْتَ

وأيَّ بَــلاءٍ عَــلَيْــنَــا جَــلَبْ

ومــا هُــوَ إلَّا مُــغَــنِّي الحَــيَــاةِ بِنَــاحِيَــتَــيْــهَــا الأَسَى والــطَّرَبْ

سعد :

ولَــكِــنَّــنَــا قــاصِــدُو عــامِــرٍ لِــنَقْضِيَ حَــقّــاً لِقَــيْسٍ وَجَــبْ

ونَــسْــأَلَ عَــنْ عــاشِــقٍ في الــدِّيَــارِ

طَــويــلِ الــبَــلاءِ ثَــقِــيــلِ الــوَصَــبْ

ومَــنْ زارَ بــالــنَّــائِـحَــاتِ المَـرِيضَ
وأَهْــلَ الـمَـريضِ أَضَــاعَ الأَدَبْ

[يتهيأ الغريض للغناء]

هُــوَ ذا هَــاجَ شَـجْـوُهُ هُــوَ ذا يُـرْسِـلُ الـنَّـغَـمْ
هــاتِــفٌ مِــنْ نُــواحِـهِ رَنَّ في الـقَــاعِ والأَكَـمْ
هُــوَ في كُــلِّ خــاطِــرٍ وفُــؤادٍ صَــدَى الأَلَمْ

أنشودة الغريض

وادِيَ المَــوْتِ سَــلامُ وسَـقَـي الـقَــاعَ الـغَـمَـامُ
الـسَّـمــاءُ الـقُــدْسُ مِـحْـرَابُـكَ والأَرْضُ الـحَـرَامُ
أَنْـتَ في الـصَّـمْـتِ مُـبِـينٌ ومِــنْ الـصَّـمْـتِ كَـلامُ
لَمْ يَمُـتْ أَهْـلُكَ لَـكِـنْ غَشِيَ الـلَّيْـلُ فـنَـامُـوا
غُــيَّــبٌ لَمْ نَــدْرِ مَــا صــارُوا ولا أَيْــنَ أقــامُــوا

[يخرجون إلى ناحية الحي من حيث يسمع آخر الأنشودة ثم يدخل من الجانب الآخر على أثر اختفائهم، قيس وزياد]

قيس :

جَبَـلَ الـتَّـوْبَـادِ حَـيَّـاكَ الحَـيَـا وسَـقَـى اللهُ صِـبَـانَـا ورَعَـى
فِيـكَ نــاغَيْـنـا الهَـوَى في مَهْـدِهِ وَرَضِـعْـنــاهُ فكُـنْـتَ المُـرْضِعَـا
وحَــدَوْنا الـشَّمْسَ في مَـغْـرِبِهـا وبَـكَـرْنَـا فَـسَـبَـقْـنَـا المَـطْلَعَـا
وعَــلَى سَــفْـحِـكَ عِشْـنَـا زَمـنـاً ورَعَــيْـنَـا غَـنَـمَ الأَهْــلِ مَـعَـا
هَــذِهِ الــرَّبْــوةُ كــانَــتْ مَلْعـبـاً لِشَـبَـابَـيْـنَـا وكــانَــتْ مَـرْتَـعَـا
كم بَنَيْنَـا مِـنْ حَصَـاهَـا أَرْبُـعـاً وانْـثَـنَـيْـنَـا فَـمَـحَـوْنَـا الأَرْبُـعَـا
وخَــطَطْنـا في نَـقَـا الـرَّمْـلِ فَلَمْ تَحْـفَظِ الـرِّيـحُ ولا الـرَّمْـلُ وَعَى
لم تَــزَلْ لَـيْـلَى بِـعَـيْـنِي طِـفْـلَةً لم تَــزِدْ عَــنْ أَمْسِ إلّا إِصْـبَـعَـا
مــا لأَحْـجَـارِكَ صُـمّاً كُـلَّمَا هــاجَ بِي الشَّـوْقُ أَبَتْ أَنْ تَسْمَعَا
كُلَّمَا جِئْـتُـكَ راجَـعْـتُ الـصِّـبَـا فــأَبَـتْ أَيَّـامُـهُ أنْ تَـرْجِـعَـا

قَـدْ يَهُـونُ الـعُـمْـرُ إلَّا سـاعَـةً   وتَهُـونُ الأَرْضُ إلاّ مَـوْضِـعَـا

[يظهر بشر قادماً إلى المقبرة من ناحية الحي]

بشر : عَزَاءً قَيْسُ!

قيس : مَنْ؟ بِشْرُ؟

بشر : أَجَلْ

قيس : فِيمنْ تُعزِّيني؟

أنَـا المَـيِّـتُ يـا بِشْرُ   وإنْ أُخِّـرَ تَـكْـفِـيـنِي

[يضطرب بشر وقد أدرك جهل قيس

وحرج الموقف ثم يميل هامساً إلى زياد]

بشر :

يَجْـهَـلُ قَـيْسٌ مَـوْتَهَـا   ولَمْ أخَـلْ أَنْ يَجْـهَـلَهْ

ويْـحَ لَـهُ ووَيْـحَ لِي!   مـاذا عَسَى أَقُـولُ لَـهْ

إنَّ الحَـبِـيـبَ نَـعْـيُـهُ   إلى المُـحِـبِّ مُـعْـضِـلَهْ

إنِّي أخـافُ إنْ أنَـا   خَـبَّـرْتُـهُ أنْ أَقْـتُـلَهْ

قيس : بِشْرُ

بشر : لَبَّيكَ قَيْسُ

قيس : مِنْ أَيْنَ يا بِشْرُ؟

بشر : مِن الحَيِّ

قيس : ما حَوَادِثُ عامِرْ؟

كَيْفَ أُمِّي يا بِشْرُ؟

بشر : بَرَّحُها الشَّوْقُ

قيس : وأَهْلِي...

بشر : حَنِينُهُمْ مُتَكَاثِرْ

قيس : ولِدَاتي مِنْ فِتْيَةٍ وعَذَارَى؟

بشر : كُلُّهُمْ شَيِّقٌ لِعَهْدِكَ ذاكِرْ

قيس :

كَـيْـفَ بَـيْـتٌ لَـنَـا بِمَـدْرَجَـةِ الـرِّيـحِ
ونَـادٍ عَـلَى الـنُّـجُـومِ وسَـامِـرْ؟
والـنُّـخَـيْـلَاتُ كَـيْـف خَـلّفـتَـهـا بِشْرُ؟

بشر : كَما هُنَّ باسِقَاتٌ نَوَاضِرْ

قيس : ومِهَارِي الَّتِي تَرَكْتُ صِغَاراً؟

بشر : كَبِرَتْ، قَيْسُ، فَهْيِ جُرْدٌ ضَوَامِرْ

قيس :

عَـزّتِ البِـيـدُ، تُـنْـبِـتُ الـسَّـابِـقَ الـفَـذَّ
وتَـأْتِي بِفَـارِسٍ وبِشَـاعِـرْ!

[يضطرب بشر]

وَيْحُ بِشْرٍ ماذا بِهِ؟

بشر : قَيْسُ!

قيس : بِشْرُ!

أَنْـتَ فـي نَـفْـسِـكَ الـخَـفِـيّـةِ ثـائِـرْ
تُـشْـبِـهُ الـحُـزْنَ والـبُـكَـى نَـبَـراتٌ
لَـكَ كـانَـتْ كضَـاحِكَـاتِ المَـزَاهِـرْ[1]

---

(١) المزاهر: الأعواد يُضرب عليها، هي من آلات الطرب.

بشر [إلى نفسه ثم إلى قيس]:

رَبِّ مــاذا أُجِيـبُ؟ لا شَيءَ يــا قَيْسُ . .

قيس :

بَـلِ الـحُـزْنُ في مُـحْيَّـاكَ ظـاهِـرْ

وَلَـقَـدْ رَاعَـنِـي لَـكَ الـيَـوْمَ جِـدٌّ

مِنْ خَلِيـعِ الـعِـذَارِ بـالأَمْسِ سـادِرْ[1]

[تغرورق عينا بشر بالدموع]

مـا جَـرَى؟ مـا الَّـذِي أَثَـارَكَ يـابْنَ العَمِّ؟

مـا هَـذِهِ الـدُّمُـوعُ الـبَـوَادِرْ؟

بشر : قَيْسُ لا شَيْءَ

قيس :

بَـلْ كَـتَـمْـتَ خَـلِيـلاً

هَـذِهِ وَجـمْـةُ النَّـعِيِّ الـمُحَـاذِرْ!

بشر : قَيْسُ . .

قيس :

لَا، لا تَـجِـمْ ولا تُـخْـفِ شَـيْئـاً

أنـا يـا بِـشْـرُ بـالفَـجِـيعَـةِ شـاعِـرْ

خَـلَجَتْ قَـبْـلَ أن نَلْتَـقِي عَـيْنـيَ اليُسْـ

ـرَى ورِيـعَ الـفُـؤَادُ رَوْعَـةَ طـائِـرْ

بشر :

أَعْـفِـنِـي! أَعْـفِـنِـي! بِـرَبِّـكَ مـا أَنْـ

ـتَ عَـلَى مـا أَقُـولُـهُ لَـكَ قـادِرْ

---

(١) الخليع: المخلوع، والعذار: ما سال من اللجام على خد الفرس. ويقال: خلع فلان عذاره، إذا انهمك في الفسق ولم يستح. والسادر: الذاهب لا يثنيه شيء.

قيس : أَوَماتَتْ؟

بشر : أَجَلْ قَضَتْ أَمْسِ . . .

قيس [وهو يغمى عليه]: والَيْلاَهُ!

بشر : لله! ما أَشَدَّ المَقَادِرْ!

[يمضي بشر في سبيله]

زياد [مقترباً من قيس]:

هُــوَ مُغْمًــى عَلَيْــهِ رَبِّ أَيَـصْحُــو؟ هَـلْ لِهَـذَا العَـذَابِ يـا رَبُّ آخِــرْ؟

[يصحو قيس]

زياد :

تَبَــارَكْـتَ يــا رَبِّ قَــيْسٌ أَفَــاقَ؟ صَحَتْ عَيْنُــهُ وَصَحَــا المِـسْمَــعُ!

رَجَعْتَ لَنَا قَيْسُ

قيس : هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ!

مَـنْ كـانَ في الـنَّـزْعِ لا يَـرْجِـعُ

لَـقَـدْ بَقِيَتْ خَـفْـقَـةٌ فـي الـسِّـرَا ج سَـيَـلْفِـظُهَـا ثُـمَّ لا يَـسْـطَعُ

زِيَــادُ غَــداً يَـلْتَـقِـي الـمُــوجَـعَــو نَ ومَــوْعِــدُنَــا ذِلـكَ الـبَــلْقَــعُ

[يشير إلى المقابر]

عَــرَفْتُ القُبُـورَ بعَــرْفِ الـرِّيَــاحِ ودَلَّ عَــلَى نَـفْــسِـهِ الـمَــوْضِــعُ

كَـثَـكْــلَى تَـلمَّسُ قَــبْــرَ آبْـنِــهَــا إِلَـى القَـبْــرِ مِنْ نَـفْسِـهَــا تُــدْفَــعُ

هَــدَاهَا خِيَــالُ آبْنِهَــا فــآهْتَــدتْ ولَـيْـلَى الــخَـيَــالُ الَّــذِي أَتْـبَــعُ

لَــنَــا الله يــا قَــلْبُ! لَـيْــلاَكَ لاَ تُــجِـيــبُ ولَـيْــلاَيَ لا تَـسْـمَــعُ

فُـجِعْـنَــا بِلَيْـلَى ولَـمْ نَــكُ نَـحْـسَــ ــبُ يــا قَـلْبُ أَنَّــا بِهَــا نُـفْـجَــعُ

[يقترب إلى القبر باكياً فيكب بوجهه على حجر من أحجاره]

أَعَـيْـنَـيَّ هَــذَا مَكَــانُ الـبُـكَــاءِ وهَــذَا مَــسِــيلُكِ يــا أَدْمُــعُ

هُنَـا جِسْـمُ لَيْلَى هُنَـا رَسْـمُـهَـا   هُـنَـا رَمَقِـي في الـثَّـرَى الـمُـودَعُ
هُـنَـا فَمُ لَـيْلَى الـزَّكِـيُّ الضَّـحُـو   كُ يَـكَـادُ وَرَاءَ الْـبِـلَى يَـلْـمَـعُ
هُنَـا سِحْـرُ جَفنٍ عَـفَـاهُ التُّـرَابُ   وكَـانَ الـرُّقَـى فِـيـهِ لا تَـنْـفَـعُ
هُـنَـا مِنْ شَـبَـابِـي كِـتَـابٌ طَـوَاهُ   ولَـيْسَ بِـنَـاشِـرِهِ الـبَـلْقَـعُ
هُـنَـا الـحـادِثَـاتُ، هُـنَـا الأَمَـلَ الـحُـلْوُ يـا لَـيْـلَ، والأَلـمُ الـمُـمْـتِـعُ
طَـرِيـدَ المَقَـادِيـر هَـلْ مَنْ يُجِيـرُ   كَ مِنْهَـا سِـوَى المَـوْتِ أوْ يَمْنَعُ؟
تَـذِلُّ الـحَـيَـاةُ لـسُـلْطَانِـهَـا   ولِـلمَـوْتِ سُلْطَانُـهَـا يَـخْـضَـعُ
طَـرِيـدَ الـحَـيَـاةِ ألاَ تَـسْـتَـقِـرُّ   ألاَ تَـسْـتَـرِيـحُ؟ ألا تَـهْـجَـعُ؟
بَـلَى قَـدْ بَـلَغْـتَ إلَـى مَـفْـزَعِ   وهَـذَا الـتُّـرَابُ هُـوَ الـمَـفْـزَعُ

[يظهر الأموي شيطانه من بعيد ويناديه]

الأموي : قَيْسُ

قيس :

مَـن الـهـاتِـفُ مَـنْ   نـادَى الـشَّـرِيـدَ المُـطَّرَحْ

الأموي :

أنـا الَّـذِي أوْحَـى إلَـيْـ   ـكَ حُبَّ لَيْـلَى واقْـتَـرَحْ

قيس :

إذْهَـبْ وإنْ لَـمْ أدْرِ رُوحٌ أَنْـتَ أَمْ أَنْـتَ شَـبَـحْ
إذْهَـبْ فَـلَسْـتَ صَـالِـحـاً   وأيُّ شَـيْـطَانٍ صَـلَحْ
كُـنْـتَ قَـرِيـنَ الـسُّـوْءِ لِـي   وكُـنْـتَ شَـرَّ مَـنْ نَـصَـحْ
لَـوْلاَكَ مـا بُـحْـتُ بِـمَـا   خَـدَّشَ لَـيْـلَى وجَـرَحْ
كَـأنَّـه فـي عِـرْضِـهَـا   زَيْـتٌ على الـثَّـوْبِ سَـرَحْ

الأموي : أفِقْ قَيْسُ

قيس :

سِـرْ خَـلِّنِـي يـا خَـيَـالُ   ومَنْ بـالخَيَـالِ لِمَنْ لَمْ يَنَمْ

الأموي :

حَنَانَيْك قَيْسُ أقِلَّ العِتَابَ ... ولَا تَسْكُبَنَّ دُمُوعَ النَّدَمْ
تَفَرَّدْتَ بالألَم العَبْقَرِيِّ ... وأنْبَغُ ما فِي الحَيَاةِ الألَمْ
مُرِيبُكَ يا قَيْسُ فَوْقَ التُّرَابِ ... وأنْتَ مَعَ النَّجْمِ فَوْقَ التُّهَمْ
أخَذْتَ سَبِيلَكَ نَحْوَ الخُلُودِ ... ولَيْسَ الخُلُودُ سَبِيلَ الأُمَمْ
قُمِ اهْتِفْ بِلَيْلَى وشَبِّبْ بِهَا ... وخَلِّ التَقَالِيدَ وآنْسَ الحُرَمْ
وطِرْ في الهَوَاءِ طَلِيقَ الجَنَاحِ ... وسِرْ في الأدِيمِ طَلِيقَ القَدَمْ
فَلَوْ أنْصَفَ النَّاسُ خَلَّوْكُمَا ... كَتَرْكِ الوُفُودِ حمَامِ الحَرَمْ
قُمِ ابْسُطْ جَنَاحَكَ فَوْقَ القِفَارِ ... وطِرْ في الوِهَادِ، وقَعْ في الأكَمْ
وأترِعْ مِن الوَتَرِ العَبْقَرِيِّ ... سَمَاءَ القُصُورِ وأرْضَ الخِيَمْ[1]
وألِّفْ على الحُبِّ شَتَّى القُلُوب ... وأرْسِلْ بِسِرِّ الجَمَالِ النَّغَمْ
تَغَنَّ بِلَيْلَى وبُحْ بالغَرَامِ ... وبُثَّ الصَّبَابَةَ واشْكُ السَّقَمْ
فَلَا خَيْرَ في الحُبِّ حَتَّى يَذِيعَ ... ولا خَيْرَ في الزَّهْرِ حَتَّى يَنِمّ

قيس :

أقُومُ؟....... هاتِ قَدَمَا
أقُولُ؟....... أعْطِنِي فَمَا
أمَا تَرَانِي هَيْكَلاً مُحَطَّمَا مُهَدَّمَا

[يختفي الشيطان ويستمر قيس]

يا رَبَّ قَيْسٍ هَلْ نُعِيتُ وهَلْ جَرَتْ ... كأسٌ تَدُورُ على النُّفُوسِ مَشَاعُ
أوْ لَا فَمَا بالِي أنُوءُ بِهَيْكَلٍ ... لِلْمَوْتِ فِيهِ ولِلْحَيَاةِ صِرَاعُ؟
اليَوْمَ آذَنَنَا القَضَاءُ بِحُكْمِهِ ... ما لِي ولا لَكِ يا حَيَاةُ دِفَاعُ
راجَعْتُ في المَوْتِ الحَيَاةَ وعادَنِي ... في النَّزْعِ يا لَيْلَى إلَيْكِ نِزَاعُ
كَيْفَ الوَدَاعُ مِن الحَيَاةِ ولم يُتَحْ ... لِيَ مِنْكِ يا لَيْلَى الغَدَاةَ وَدَاعُ

---

(١) أترع: املأ.

هَيْهَاتَ لَمْ تَعْدَمْ شَذَاكِ قَرَارَةٌ حَوْلِي ولَمْ يَعْدَمْ سَنَاكِ يَفَاعُ
وعَلَى سَمَاءِ البِيدِ مِنْكِ بَشَاشَةٌ وعَلَى رِمَالِ البِيدِ مِنْكِ شُعَاعُ
وكأَنَّ كُلَّ ضَبَابَةٍ دُونَ الضُّحَى قَسَمَاتُ وَجْهِكِ دُونَهُنَّ قِنَاعُ

[يمر به ظبي سارح فيتأمله قليلاً ويناجيه]

يا ظَبْيُ بكَ مَنْ آفْتَدَاكَ بِمَالِهِ
إِذْ أَنْتَ عَانٍ تُشْتَرَى وتُبَاعُ
وأَبَاحَ طِفْلَكَ مَاءَهُ وطَعَامَهُ إِذْ هُنّ عَطْشَى بالفَلاَةِ جِيَاعُ
يا قَاعُ كُنْ نَعْشِي وكُنْ كَفَنِي وكُنْ
قَبْرِي وقُمْ فِي مَأْتَمِي يا قَاعُ
وآجْمَعْ لِتَشْيِيعِي الظِّبَاءَ، ومَنْ رَأَى
مَيْتاً بأَسْرَابِ الظِّبَاءِ يُشَاعُ[1]
أَتُرَى أَمُوتُ كَمَا حَيِيتُ مُشَرَّداً
لا الأَهْلُ مِنْ حَوْلِي ولاَ الأَتْبَاعُ
وأَبِيتُ وَحْدِي لا الوُحُوشُ أَوَانِسٌ
حَوْلِي هُنَاكَ ولاَ الظِّبَاءُ رِتَاعُ

[تتخاذل ساقا قيس فيتلقاه زياد ويظهر
ابن ذريح على مقربة من القبر خاشعاً باكياً]

زياد :
قَيْسُ لاَ بأْسَ عَلَيْكْ أنا ذا بَيْنَ يَدَيْكْ

قيس :
نَفْسِ اطْمَئِنِّي الآنَ لَسْتُ وَحْدِي
قَدْ حَضَرَ الَّذِي يَخُطُّ لَحْدِي
ويُرْشِدُ الحَيَّ إليّ بَعْدِي زِيَادُ أنْتَ المُشْفِقُ المُفَدِّي

---

(١) يشاع : أي يُشَيّع ويُوَدَّع.

لَـمْ أَنْفَـرِدْ إلاَّ رُثِـيـتَ عِـنْـدِي

[يتبين شبح ابن ذريح]

زِيَــادُ مــا ذَاكَ مَــنْ ذَا يَــبْـكِـي وَرَاءَ الـضَّــرِيــحِ
إنِّــي أغــارُ عَــلَى الــقَـبْـ ـــرِ مِـنْ غَــرِيبِ الـجُــرُوحِ

زياد :

لا تَــخْشَ يــا قَــيْسُ مِــنْــهُ فــإنَّــهُ ابْــنُ ذَرِيــحِ

ابن ذريح :

يــا لَــيْــلَ قَـبْـرُكِ رَبْـوَةُ الـخُـلْدِ نَفَــحَ النَّعِيمُ بِـهَـا ثَــرَى نَـجْـدِ
فــي كُــلِّ نــاحِـيَــةٍ أَرَى مَــلَكــا يَــتَــنَــفَــسُّــونَ تَــنَـفُّسَ الــوَرْدِ
لَـبِسُــوا الـجُـمَــانَ الـرَّطْـبِ أَجْـنِـحَـةً
وتَــنَــاثَــرُوا كَــتَــنَــاثُــرِ الـعِـقْـدِ
وتَــقَــابَـلُوا فَــعَـلَى تَــحِـيَّــتِـهِـمْ مِـسْـكُ السَّـلاَمِ وعَنْبَـرُ الـرَّدِّ
وكَــأنَّ نَــجْــوَاهُــمْ وسُــبْــحَــتَــهُــمْ
صَــوْتُ الغَـمَــامَــةِ أو صَــدَى الـرَّعْــدِ[1]
نَـفَـحَــاتُ طِـيـبٍ هَـهُـنَـا وهُــنَــا مــا لِـلرِّيَــاضِ بِـهِـنَّ مِـنْ عَــهْـدِ
يــا قَـيْسُ صَـبْـراً هَــهُـنَــا مَــلَكٌ ذِبْـحُ الصَّبَـابَـةِ مُشْهَــدُ الـوَجْـدِ
أَصْــحُ انْتَبِــهْ واطْـرَحْ بِعَيْنِـكَ فِي بَهَــجِ السَّمَــاءِ وحُسْنِ مــا تُبْـدِي

قيس :

أَيْـنَ الـسَّـمَــاءُ وأَيْـنَ مُـحْـتَـضَـرٌ طَـلَعَـتْ عَـلَيْـهِ الأَرْضُ بــالـلَّحْـدِ
الـسُّـهْــدُ عَــذَّبَـنِـي وذِي سَــنِــةٌ أجِــدُ الـشِّـفَــاءَ بِـهَــا مِن الـسُّهْـدِ
ولَــقَــدْ أَقُــولُ لِـمَــنْ يُـبَـشِّـرُنِـي بــالخُلْدِ مــا أَنَــا داخِـلٌ وَحْـدِي
لَــو أنَّ لَـيْلَى فـي الـنَّـعِـيـمِ مَـعِـي أو فـي الجَحِيـمِ تَسَــاوَيَــا عِـنْـدِي

---

(١) السبحة: الدعاء.

لَـيْلَى الـنَّعِـيمُ وقَــدْ ظَـفِـرْتُ بِهَــا   فــاليَــوْمُ نَــرْقُــدُ في ثَــرَى نَجْــدِ
إنِّــي أُحِــبُّ وإنْ شَــقِـيــتُ بِــهِ وَطَـنـي   وأُوثِــرُهُ عَــلى الــخُــلْدِ

[يسمع صوتاً ضئيلاً كأنما هو خارج من القبر]

الصوت : قَيْسٌ

قيس :

مَــنِ الــصَّــوْتُ   وَيْحِي، أَبِـي سِـحْـرُ؟

الصوت : قَيْسٌ

قيس :

زِيَــادُ اسْـمَـعْ   وأَصْــغِ يَــا بِــشْــرُ

الصوت : قَيْسٌ

قيس :

سَــمِـعْــتُ آسْـمِــيْ   يَــلْفِـظُهُ الــقَــبْــرُ

الصوت : قَيْسٌ

قيس :

تُنَادِيني   مِنْ قَبْــرِهَــا بَــاسْـمِي
لَــبِّــيْــكِ يَــا لَــيْــلَى   بَــالــرُّوحِ والـجِسْـمِ

[يدخل في دور الاحتضار الأخير]

هَــلْ أَسَــا المَــوْتُ جِـرَاحَيْنَــا وهَــلْ   قَــرَّبَ الــدَّارَ وهَــلَّ لَمّ الشَّتَــاتْ؟

أصوات : قَيْسُ، لَيْلَى

قيس :

رَنَّــةٌ فــي أُذُنِــي   رَدَّدَتْ قَــيْسَ ولَــيْــلَى الــفَــلَواتْ
نَحْنُ فــي الــدُّنْيَــا وإنْ لَــمْ تَــرَنَــا   لَمْ تَمُتْ لَيْلَى ولا المَجْنُــونُ مَــاتْ

ستـار الختـام



مَصْرَعُ كليوبَاترا

تَمثيليَّةٌ شِعْرِيَّة



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

لما توفي الإسكندر سنة (٣٢٣ق.م) تقاسم الولاة من بعده هذه الدولة العظيمة التي خلَّفها. فاختار مصرَ بطليموس، الذي سُمِّي بعدُ: بطليموس الأول.

ويُعَدّ بطليموس الأول المؤسِّس لدولة البطالسة في مصر، التي ظلّت تحكم مصر منذ سنة (٣٢٣ق.م) إلى أن استولى الرومان على مصر سنة (٣١ ق.م).

وعند وفاة بطليموس الثالث عشر سنة (٥١ق.م) أوصى بأن تَخْلُفَه في المُلك آبنته كليوباترا.

وحين تولّت كليوباترا الملك كانت في السادسة عشرة من عمرها، فأشركت معها في الملك أخاها بطليموس الرابع عشر، وبهذا كان قد أوصى أبوها. وكان أخوها عندها في العاشرة من عمره.

وما إن بلغ أخوها الرابعة عشرة من عمره حتى استجاب لمن أَلْقَوْا في رَوعه أن يستقلّ بالحكم. وكان مِن وراء هذه شعب يُؤَيِّده. ولما لم تقو كِليوباترا على مُناهضة ثورة الشعب فَرَّت إلى سوريا، وهناك آستطاعت أن تعبِّيء جيشاً، وتعود على رأسه إلى مصر سنة (٤٨ ق.م) لتسترد عرشها.

ويخرج أخوها على رأس جيشه ليلقاها عند الحدود.

ويصل يوليوس قيصر إلى مصر، ولم تكن مصر بمعزل عن روما. فقضى بأن تتزوج الأخت أخاها. بوفق ما كان يعمل قدماء المصريين، وأن يَلبِسَا الحُكْم معاً.

وتثور ثائرة المصريين على قَيصر، وتكون ثمة حرب تنتهي بانتصار قيصر بعد أن جاءه مَدَد.

وترك قيصر مصر بعد أن ترك فيها حاسبه، وجعل عليها أحد قُواده.

وكان بطليموس الرابع عشر قد مات في تلك الحرب غَرقاً، فأشرك قيصر مع كليوباترا أخاها الثاني بطليموس الخامس عشر، بعد أن زوّجه منها.

وكانت كليوباترا قد استحوذت على قلب قيصر بجمالها وثقافتها الواسعة، إذ كان لها إلمام بلغات عِدة، كما كانت على حظ كبير من الآداب.

وحين ترك قيصر مصر إلى روما، خافت كليوباترا أن يُشغل عنها، فَلَحِقت به في روما، وهناك أَعدَّ لها قيصر قصراً لتعيش فيه.

وفي سنة (٤٤ ق.م) مات قيصر مقتولاً. فلم تجد كليوباترا بُدّاً من العودة إلى مصر، وإذا هي تجد أخاها وزوجها قد مات.

ويثور النزاع بين قواد قيصر، ويخرج من هذا النزاع أنطونيو واكتافيوس وقد قبضا على زمام الأمر.

غير أن كليوباترا لم تعش بعيدةً عن هذا النزاع، فكانت تُعين خصوم انطونيو واكتافيوس.

وذكرها لها، أنطونيو حين أصبح الأمر بيديه، فطلب إليها أن تحضر إلى روما ليسألها عمَّا فعلت.

وتدرك كليوباترا أن الأمر جِدُّ خَطير، فتخرج للقاء أنطونيو، فتلقاه في طرسوسي في أبهى زينة، وإذا أنطونيو يقع في غرامها ويولَّه بحبها، وإذا هو

يعود معها إلى الاسكندرية ليعيش معها، مُخلِّياً جانباً ما عليه من واجبات في روما.

وكان أنطونيو زوجاً لأخت أكتافيوس، وإذا قطيعة أنطونيو لزوجته تُثير غضب أخيها. وإذا أكتافيوس يُعلنها حرباً على أنطونيو وكليوباترا . وإذا كليوباترا تُدرك أنها لن تَصْمُد بأسطولها لأسطول اكتافيوس عند اكتيوم، فتعود بأسطولها إلى الإسكندرية مدعيةً أنها الغالبة.

وتُحس كليوباترا، أن نجم أنطونيو قد أفل، فتَسعى جهدها للخلاص منه، بعد أن حاولت أن تستميل إليها قلب اكتافيوس فلم تُفلح.

وتُشيع كليوباترا أنهاانتحرت،وينتهي هذا النبأ إلى أنطونيو فيطعن نفسه بِيده، ثم يعلم أن كليوباترا لا تزال بعدُ حيَّة، فيأمر أن يُحمل إليها، وما إن بلغ مكانها حتى فاضت روحه بين يديها.

وتُحسن كليوباترا الشَّر يُبيِّتَه لها اكتافيوس، وأنها غير قادرة على أن تُفلت، فتقتل نفسها بوضع حية على صدرها. فلدغتها فماتت لساعتها، وكان ذلك سنة (٣١ ق.م).

وبموت كليوباترا كانت نهاية حكم البطالسة في مصر، بعد أن ظل نحواً من (٣٠٠ سنة) وغدت مصر من بعدهم جزءاً من الأمبراطورية الرومانية.

هذا تقديم كان لا بد منه ليقف منه القارىء على تاريخ كليوباترا. كما روته كتب التاريخ. وليكون وسيلته إلى مجاراة الأحداث، موصولاً بها.

وبعد، فلقد تلقَّيت هذه التمَّثيليّة مُهملة الضبط إلاّ في القليل. كما تلقَّيتها ولا شرح لألفاظها الغامضة. فضبطت ألفاظها ضبطاً كاملاً، وشرحت ما غمض منها لتستوي للقارىء منبى ومعنى...

والله ولي التوفيق،،

إبراهيم الأبياري

المحرم ١٤١٣هـ/أغسطس ١٩٩٢ م



تمهيد

زمن الرواية: الأيام الأخيرة في حياة كليوباترا حوالى سنة ٣٠ قبل الميلاد بين وقعة «أكتيوم» البحرية وانتحار كليوباترا.

مكانها: في الإسكندرية وأرباضها.

المشاركون والمشاركات في هذه التمثيلية

أ - الأشخاص التاريخية

كليوباترا.

مارك أنطونيوس.

أكتافيوس قيصر.

قيصرون : ابن كليوباترا من يوليوس قيصر.

ب - الأشخاص الموضوعة:

أنوبيس : الكاهن الأكبر.

زينون : أمين مكتبة قصر كليوباترا.

حابي : مساعد زينون.

ديون : مساعد زينون.

ليسياس : مساعـد زينون.

هيلانة : وصيفة كليوباترا وبينها وبين حابي غرام.

شرميون : وصيفة أخرى.

أوروس : روماني في معية أنطونيوس وهو عبده وتابعه وصفيُّه.

أولمبوس : طبيب روماني في بلاط كليوباترا.

أنشو : مضحك الملكة.

غانميز : ساقيها.

حبرا : عرافها.

أياس : شاديها.

أخيل : قائد الأسطول المصري وربان أنطونياد سفينة كليوباترا.

بولا : شاعر.

أغا القصر

حـ - النكـرات المسرحيـة: جنود وقـوَّاد مصريـون ورومـانيـون. راقصـات. عزاف.

الفصل الأول

المنظر الأول

«في مكتبة قصر كليوباترا ـ حابي وديـون وليسياس جلوس إلى عملهم.
يسمع جماعة من العامة خارج القصر ينشدون هذا النشيد»

يَـوْمُـنَـا فـي أكْـتِـيُـومَـا ذِكْـرُهُ فـي الأَرْضِ سَـارْ
إسْـأَلُـوا أُسْـطُولَ رُومَـا هَـلْ أَذَقْـنَـاهُ الـدَّمَـارْ؟

* * *

أحْـرَزَ الأُسْـطُولُ نَـصْـرَا هَـزَّ أَعْـطَافَ الـدِّيَـارْ
شَـرَفـاً، أُسْـطُولَ مِـصْـرَا حُـزْتَ غـايَـاتِ الـفَـخَـارْ

* * *

صـارَت الإسْـكَـنْـدَرِيَّـهْ هِـيَ في الـبَـحْـرِ الـمَـنَـارْ
ولَـهَـا تـاجُ الـبَـرِيَّـهْ ولَـهَـا عَـرْشُ الـبِـحَـارْ

* * *

حابي:

إسْـمَـعِ الـشَّـعْـبَ (دُيُـونُ) كَـيْـفَ يُـوحُـونَ إلَـيْـهِ
مَـلأَ الـجَـوَّ هُـتَـافـاً بِـحَـيَـاتَـيْ قـاتِـلَيْـهِ
أَثَّـرَ الـبُـهْـتَـانُ فِـيـهِ وانْـطَلَى الـزُّورُ عَـلَيْـهِ

يــا لَــهُ مِــنْ بَــبَّــغــاءٍ عَــقْــلُهُ فــي أُذُنَــيْــهِ

ديون :

حابي، سَمِعْتُ كما سَمِعْتَ وراعني أنَّ الــرَّمِيَّــةَ تَحْتَفِي بــالــرَّامِي

هَتَفُــوا بِمَنْ شَــرِبَ الطِّلَا في تــاجِهِمْ وأَصَــارَ عَــرْشَهُمُ فِــرَاشَ غَــرَام[1]

ومَشَى عَلَى تــارِيخِهِمْ مُسْتَهْــزِئــاً ولَـــو آسْتَــطَاعَ مَشَى على الأَهْــرَامِ

حابي :

أَتَــذْكُــرَ يــا دِيُــونُ إِذِ آنْــطَلَقْنَــا إلى الــمِيْنَــاءِ نَلْتَمِسُ الــهَــوَاءَ

وكــان البَحْــرُ كــالمَيْتِ المُسَجَّى وكــانَ الــلَّيْــلُ لِلْمَــيْــتِ الــرِّدَاءُ

ديون :

نَــعْمْ، وهُــنَــاكَ آنَسْــنَــا سَــحَــابــاً وَرَاءَ الــلَّيْــلِ جَــلَّلَت الــسَّــمَــاءَ

فَقُلْتَ انْــظُرْ دِيُــونُ تَــرَ الجَــوَارِي يَــطَأْنَ الــمَــاءَ هَمْســاً والفَــضَــاءَ

وأَقْبَــلَتِ الــبَــوَارِجُ بَــعْــدَ حِــيــنٍ سَــوَائِــبَ لا دَلِــيــلَ ولا حُــدَاءُ

رَجَعْنَ رُجُــوعَ فُــرْصَــانٍ أَصَــابُــوا مِن الغَــزْوِ الــهَــزِيــمَــةَ والبَــلَاءَ

فــلم نَــسْــمَــعْ لِــمَــلَّاحٍ هُــتَــافــاً يُــبَــشِّــرُ بــالــقُــدُومِ ولا نِــدَاءَ

ولَمْ نَــرَ فَــوْقَ ســارِيَــةٍ سِــرَاجــاً ولا مِــنْ ثَــقْــبِ نــافِــذَةٍ ضِــيَــاءَ

حابي : فماذا قُلْتَ؟

ديون :

قُــلْتَ دِيُــونُ إِنِّــي أَرَى الأُسْــطُولَ بالــوَيْلات جــاءَ

دُخُولُ الظَّافِرِينَ يَكُونُ صُبْحــاً ولا تُــزْجَــى مَــوَاكِــبُــهــم مَــسَــاءَ

فَــلَمَّــا أَصْبَــحَ الــصُّبْــحُ آنْــتَبَــهْــنَــا نَــرَى الأُسْــطُولَ أَزْيَنَ مــا تَــراءَى

تَــبَــرَّجَت الــبَــوَارِجُ بَــعْــدَ عُــطْلٍ وهَــزَّتْ فــي ذَوَائِــبِــهَــا الــلِّوَاءَ

ورُدِّدَ فــي الــمَــدِيــنَــةِ أَنَّ رُومــا عَــفَــا أُسْــطُولُهَــا ومَــضَــى هَــبَــاءَ

فَضَــجَّ النَّــاسُ بــالبُشْــرَى وكَــدُّوا حَــنَــاجِــرَهُــمْ هُــتَــافــاً أو دُعَــاءَ

---

(١) الطلا: الطلاء. وهو عصير العنب المطبوخ.

هَـدَاكَ اللهُ مِـنْ شَـعْـبٍ بَـرِيءٍ يُـصَـرِّفُـهُ المُـضَـلِّلُ كَـيْـفَ شـاءَ

[تدخل هيلانة]

ليسياس [هامساً لحابي]:
حـابي، صَـهٍ قَـدْ ظَهَـرَتْ هِيـلاَنَـهْ وأَقْـبَـلَـتْ بـالـطَّلْعَـةِ الـفَـتّـانَـهْ
تَنفحُ كالزَّنْبَقةِ الغَيْسَانَهْ[1]

حابي :
لِيسْيَـاسُ، أَنْهَـاكَ عن المَجَـانَـهْ هيـلاَنـةُ في القَصْـرِ قَهْـرَمَـانَـهْ[2]
لَهَا وَقَارٌ ولَهَا مَكَانَهْ

هيلانه : سَلاَمٌ لَكَ يا حابِي

حابي : سَلاَمٌ لَـكِ هِيلاَنَهْ

هيلانه :
أَمَـرْتُ أَنْ أَقُـولَ لِـلأَمِيـنِ سَتَحْضُـرُ المَـلْكَـةُ بَعْـدَ حِيـنِ
فَبلِّغ الأَمْرَ إلى زَينُونِ

حابي :
سَـيِّـدَتِـي سَـأَفْـعَـلُ أمـرُكُـمَـا مُـمْـتَـثَـلُ

هيلانه :
تَقْـرِنُـنِي بِـرَبَّـتِـي! ذَلِـكَ مـا لاَ أَقْـبَـلُ

حابي :
هِـيـلاَنَ، أَنْـتِ مَـلْكَـتِـي وأَنْـتِ وَحْـدَكِ الـمَـلَكْ

هيلانه :
بَـلْ كِـيلُبَـتْـرَا وَحْـدَهَـا لَـمْ يَحْـوِ شَمْسَيْنِ الـفَـلَكْ

---

(١) الغيسانة: أي النضرة.
(٢) القهرمانة: ربة البيت.

إنْ أنْـتَ لـم تُـؤْمِـنْ بِـهَـا   فَـلَسْـتَ لِـي ولَـسْـتُ لَـكْ

[تخرج هيلانه ويدخل زينون من باب آخر في هيئة تفكير واضطراب]

حابي :

ذاتُ الـجَـلاَلَـةِ، سَـيِّـدِي   قَـدْ آذَنَـتْـنَـا بـالـزِّيَـارَهْ

زينون :

هَـذِهِ حُـجْـرَتُـهَـا لا عَـدِمَـتْ   طِيبَ رَيَّـاهَـا ولا ضَـوْءَ حُـلاَهَـا
كُـلَّ يَـوْمٍ تَـتَـجَـلَّى سـاعَـةً   هـا هُنَـا كـالشَّمْسِ في عِزِّ ضُحَاهَا
تَـدْخُـلُ الـدَّارَ فَـتَنْسَى مُـلْكَـهَـا   بِلِقَـاءِ الكُـتْبِ أو تَـنْسَـى هَـوَاهَـا

[محدثاً نفسه في ركن قصي من أركان المكتبة]

أمَّـا الـشَّـبَـابُ فَـقَـدْ بَـعُـدْ   ذَهَـبَ الـشَّـبَـابُ فَـلَمْ يَـعُـدْ
وَيْـحِـي أمِـنْ بَـعْـدِ الـسِّـنِـيـ   ـنَ وقَـدْ مَـرَرْنَ بِـلاَ عَـدَدْ
أوْ بَـعْـدَ طُـولِ تَـجَـارِبِـي   ومَـكَـانِ عِـلْمِـي فـي الـبَـلَدْ
تَـجْـنِـي الـحِـسَـانُ عَـلَيَّ مـا   لـم تَـجْـنِ قَـبْـلُ عَـلَى أحَـدْ؟

ديون [هامساً إلى زميليه]:

حـاب، لِيْسَيـاسُ، أُقْسِمُ   أنَّ زيـنُـونَ مُـغْـرَمُ
فَـضَـحَ الـشَّـيْـخَ حُـبُّـهُ   والـهَـوَى لَـيْسَ يُـكْـتَـمُ

ليسياس :

بِـمَـنِ الـشَّـيْـخُ مُـولَـعٌ   لَـيْتَ شِـعْرِي، مُتَـيَّـمُ؟

ديون : وبِمَنْ جُنَّ يا تُرَى؟

حابي [ضاحكاً] : كُلُّ خافٍ سَيُعْلَمُ

زينون [مستمراً في حديث نفسه]:

ما لِـي جُـنِـنْـتُ فَـصِـرْتُ أتَّـهِـمُ الـشَّـبَـابَ وأضْـطَهِـدْ
لَـمْ ألْـقَ رَأْسـاً فـاحِـمـاً   إلاَّ حَـمَـلْتُ لـه الـحَـسَـدْ

وَوَجَـدْتُ لاعِـجَ غَـيْـرَةٍ   بَيْنَ الجَـوَانِـحِ يَـتَّـقِـدْ
فَـكَـأَنَّ ظُـلْمَـةَ شَـعْـرِهِ   في مُقْلَتيَّ هِـيَ الـرَّمَـدْ
وكـأَنَّـمَـا سَـرَقَـتْ ذَوَا   ئِبُـهُ شَبَـابِي الـمُـفْتَـقَـدْ
ولَـو انَّ لـي وَلَـداً فَـمَـا   تَ لَمَـا بَكَيْتُ عَلَى الـوَلَـدْ
حَـذَراً وخَـوْفـاً أنْ يَكُـو   نَ بِـهَـا تَـعَـلَّقَ أو وَجَـدْ[1]
شَـكٌّ يُـعَـذِّبُ مُـهْـجَـتِـي   إنَّ الـمُـشَـكِّـكَ في كَـبَـدْ

[يلتفت إلى حابي ويطيل إليه النظر ثم يناديه]

حابي، بُنَيَّ

[يأتي إليه حابي]

قُلْ ولاَ   تُـخْفِ عَـلَيّ، هَـلْ تُحِـبْ؟

حابي : أُحِبُّ! مَنْ قالَ؟

زينون : سَمِعْتُ

حابي : مَنْ رَوَى لَكَ الكَذِبْ؟

زينون :

بُـنَـيَّ، لَـيْسَ بـالـفَـتَـى   إذا أَحَـبَّ مِـنْ عَـجَـبْ
مَـنْ لَـمْ يُـحِـبَّ لـم يُـؤَ   دِّ لـلشَّـبَـابِ مـا وَجَـبْ

حابي [متهكماً]:

لَـكِـنْ أَأَدَّعِـي الـهَـوَى   ولَـيْسَ لِـي مِـنْـهُ سَـبَـبْ؟

زينون :

حـابـي، بُـنَـيّ لا تَـرُغْ   مِـنَ الـسُّـؤَالِ بَـلْ أَجِـبْ
لَـوْلَا الـهَـوَى لم تَـكُ فِي   ظِـلِّ الـشَّـبَـابِ تَـكْـتَـئِـبْ
مـا بـالُ بِـشْـرِكَ امحَـى   ولَـوْنُـكَ الـغَضُّ شَـحَـبْ؟

---

(١) وجد: أحَبَّ.

ولـلدُّمُـوعِ مِـنْ مـآ قِيـكَ تَـكَـادُ تَـنْسَـكِبُ؟

حابي [ساخراً]:

أَفِقْ زينُـونُ واصْـحُ من الغَـوَانِـي أَبْعَـدَ الشَّيْبِ تَخْدَعُـكَ النِّسَـاءُ؟

زينون [غاضباً]:

أَتَـعْلَمُ يـا غُـلاَمُ عَـلَيّ عِشْـقـاً؟

حابي : دَع الإنْكَارَ قَدْ بَرِحَ الخَفَاءُ

زينون : ومَنْ أَنْبَاكَ؟

حابي : أَنْتَ!

زينون : وكَيْفَ؟

حابي :

تَهْذِي فَتَفْضَحُـكَ الـوَسَـاوِسُ والـهُـذَاءُ

كَمَحْـمُـومٍ يَبُـوحُ ولَـيْسَ يَـدْرِي تَـكَـشَّـفَ عَـنْ سَـرَائِـرِهِ الـغِـطَاءُ

أَبَعْـدَ العَـطْفِ والإشْفَـاقِ يَشْقَى بِصُحْـبَتِـكَ الـشَّبَـابُ الأَبْـرِيَـاءُ؟

فـكُـلّ فَتًـى رَأَيْتَ زَعَـمْـتَ صَبّـاً يُـخَـامِـرُهُ مِـن الـرَّقْـطَاء دَاءُ؟[1]

ومـا كعَمَـى الشُّـيُـوخِ إذا أَحَبُّـوا ولَـيْسَ وَرَاءَ غَـيْـرَتِـهِـمْ بَـلاَءُ

زينون [لنفسه]:

إلَهِي قَـدْ فُضِحْـتُ وضَـلَّ شَيْـبِي وضَـاعَتْ حِكْمَتِي وخَبَا الـذَّكَـاءُ

[لحابي]:

صَـدَقْـتَ بُـنـيَّ بِي دَاءٌ دَخِـيـلٌ ولَـيْس إلى الـدَّوَاءِ لِـيَ اهْـتِـدَاءُ

عَـلَيّ تَـلوَّتِ الأَفْـعَـى، فَـهَـلْ لِـي مِن الأَفْعَـى ونَكْـزَتِـهـا نَـجَـاءُ؟

أرى ولَـهـاً وأَحْـسَـبُـهُ جُـنُـونـاً كَسَـانِيـهِ عَـلَى الكِبَـرِ القَـضَـاءُ

---

(١) الرقطاء: ضرب من الحيات، وبها تشبّه المرأة.

حابي

وتُعْطَى حِينَ تَلْقَاهَا ٱبْتِسَاماً   وأنْطُنْيُوسُ يُعْطَى ما يَشَاءُ
صَبَاحُهُمَا مُغَازَلَةٌ وصَيْدٌ   ولِلأَقْدَاحِ والقُبَلِ المَسَاءُ
أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ سَرِيرُ مِصْرٍ   قَوَائِمُهُ الدَّعَارَةُ والبَغَاءُ؟
أَتَهْدِمُ أُمَّةً لِتَشِيدَ فَرْداً   عَلَى أَنْقَاضِهَا؟ بِئْسَ البِنَاءُ!

أَبِي، شَيْخِي، ٱجْتَرَأْتُ عَلَيْكَ فَاصْفَحْ
فَلَمْ أَكُ أَجْتَرِي لَوْلاَ الوَفَاءُ

لَقَدْ آنَ التَّكَاشُفُ والتَوَاصِي   بِمَا تُوحِي الكَرَامَةُ والإِبَاءُ
تَعَالَ إلى جَمَاعَتِنَا، فَإنَّا   جُنُودُ الحَقِّ يَجْمَعُنَا لِوَاءُ
شَبَابٌ نَحْنُ يُعْوِزُنَا شُيُوخٌ   بِهِمْ في المُدْلَهِمَّةِ يُسْتَضَاءُ

زينون:

كَفَى، إنِّي نَفَضْتُ يَدَيَّ مِنْهَا   ومُزِّقَ عَنْ بَصِيرَتِيَ الغِشَاءُ

حابي:

أَبِي زَيْنُونُ قَدْ بُحْتُ   مِنَ السِّرِّ بِمَكْنُونِي
ومَا غَيْرُكَ، زِينُونِ   على السِّرِّ بِمَأْمُونِ

[يشير إلى ديون وليسياس]:

أَخِي، هَذَا أَثِينِيٌّ   وخِلِّي ذاكَ مَقْدُونِي
كِلاَ الخِلَّيْنِ لِلْحَقِّ   كَمَا أَدْعُوهُ يَدْعُونِي
كِلاَ الخِلَّيْنِ ذُو جَدٍّ   بأَرْضِ النِّيلِ مَدْفُونِ
فَلَيْسَا في هَوَى مِصْرٍ   وفِي طَاعَتِهَا دُونِي
فَدَيْنَا الوَطَنَ الغَالِيَ   بالجِنْسِ وبالدِّينِ
ولَمْ نَصْبِرْ على حُكْمٍ   لِرُومِيَّةَ مَلْعُونِ
ولَسْنَا حِزْبَ أَكْتَافٍ   ولَسْنَا حِزْبَ أنطُونِ
ولا نَخْضَعُ لِلْبَأْسِ   ولاَ نُخْدَعُ بالِلِّينِ
ولَم يَبْقَ على الوُدِّ   لِرُومَا غَيْرُ زِينُونِ

زينون :

مَـعَـاذَ اللهُ، عُـدُّونِـي ... مِـن الـعُـصْـبَـةِ عُـدُّونِـي
كَـسَـاكِ اللهُ يَـا رُومَـا ... لِـبَـاسَ الـذُّلِّ والـهُـونِ

حابي :

أبِي، أَنْتَ الطَّبِيبُ وكُـلُّ داءٍ ... لَـهُ في صَيْدَلِيَّتِـكَ الـدَّوَاءُ
فَهَيِّ لَهَـا ابنَ ساعَتِـهِ وعَجِّـلْ ... يُعَجِّلْ في السَّمَاءِ لَكَ الجَزَاءُ
لَعَل سُمُومَكَ الزُّعْفَ المَوَاضِي ... مِن الأَفْعَى وفِتْنَتِهَـا شِفَـاءُ[1]

[يدخل جندي من حرس الملكة معلناً قدومها]

الحارس : المَلِكَة!

زينون [كأنما يفيق من حلم]:

المَلِكَةْ! لاَ بَـرِحَـتْ مُـمَـلَّـكَـةْ!
ودَامَ مَجْدُ المَمْلَكَةْ!

[تدخل كليوباتـرا ومن ورائها ابنهـا قيصرون بين وصيفتيهـا شرميـون وهيلانـه ومن ورائهن أنشو مضحك الملكة وأغا القيصر]

الملكة :

تَـحِـيَّـتِـي لأُمَـنَـاءِ الـمَـكْـتَـبَـةْ ... وشَيْخِهِمْ أَعْلَى الشُّـيُـوخِ مَـرْتَبَـةْ

زينون :

سَـلاَمُ الـسَّمَـٰوَاتِ فـي مَجْـدِهَـا ... عَـلَى رَبَّـةِ التَّـاجِ ذاتِ الـجَـلاَلْ
تَـمَـنَّـيْـتُ رَأْسَـيْـنِ لا وَاحِـداً ... إذا مَـسَّت الأَرْضَ هـامُ الـرِّجَـالْ
أُطَـأطِئُ رَأْسـاً لِمَجْـدِ النُّبُـوغِ ... وأَخْفِضُ رَأْسـاً لِمَـجْـدِ الجَـمَـالْ

حابي. ديون. ليسياس [يتلفت بعضهم إلى بعض أسفاً]:

أنشو [للوصيفتين وقيصرون]:

أَمـا يُـغْـنِـيـهِ عَـنْ رَأْسَـيْـ ... ـنِ رَأْسٌ فِـيـهِ وَجْـهَـانِ؟

---

(١) الزعف: السريعة القتل.

فَـجِـيـنـاً هُـوَ مِـصْـرِيٌّ وجِـيـنـاً هُـوَ يُـونَـانِـي
وفـي مَـجْـلِسِ يُـولْـيُـوس وأَنْـطُونْـيُـوسَ رُومَـانِـي
وإنْ لاقَـى أغَـا الْـقَـصْـرِ فَـنُـوبِـيٌّ وسُـودَانِـي

[يدخل الكاهن أنوبيس من باب مقابل]

الملكة :

كـاهِـنَ الـمُـلْكِ سَـلاَمٌ لا عَـدِمْـنَـا بَـرَكَـاتِـكْ
صَـلِّ مِـنْ أَجْـلِي ولاَ تَـنْـ ـسَ صِـغَـارِي فـي صَـلاَتِـكْ

أنوبيس :

رَبَّـةَ الـنِّـيـلِ الـتَّـحِـيَّـا تُ الـزَّكِـيَّـاتُ لِـذَاتِـكْ
حَـرَسَـتْ تَـاجَـكِ إيـزِيـ ـسُ ومَـدَّتْ فـي حَـيَـاتِـكْ

الملكة :

هُـوذا آبْـنِـي قَـيْـصَـرُونُ يَـتَـلَقّـى نَـفَـحَـاتِـكْ

الكاهن [لنفسه]:

إيـزِيسُ كَـيْـفَ أُصَـلِّي عـلى آبْـنِ يُـولْـيُـوسَ قَـيْـصَـرْ؟
أَبُـوهُ عَـالٍ ولَـكِـنْ فِـرْعَـوْنُ أَعْـلَى وأَكْـبَـرْ

[يسمع هتاف من خارج القصر وجماعة ترتل نشيد النصر
السالف في أكتيوم]

الملكة [عابسة] :

كاهِنَ المُلْكِ، سَادَتِي، هَـلْ سَمِعْتُمْ رَنَّـةَ الصَّـوْتِ في جَـوَانِبِ قَصْـرِي؟

أنوبيس : هُمْ رَعَايَا مَلِيكَتِي

الملكة : لَيْتَ شِعْرِي
أَلِخَيْرٍ تَجَمَّعُوا أَمْ لِشَرٍّ؟

شرميون :

الـجَـمَـاهِـيـرُ يـا مَلِيـكَـةُ بـالـشَّطِّ يَـمُـوجُـونَ فـي حُـبُـورٍ وبِـشْـرِ

سَــرَّهُــمْ مــا لَقِيتِ فــي أَكْتُيُــومٍ مِنْ ظُهُــورٍ عــلى العَــدُوِّ ونَـصْــرِ[1]
لا يَــقُــولُــونَ أو يُــعِــيــدُونَ إلَّا نَبَــأً بـاتَ في المَــدِينَــةِ يَسْــرِي[2]

الملكة :

يَـا لإفْـكِ الــرِّجَـالِ ! مــاذا أَذَاعُـوا كَـذِبٌ مــا رَوَوْا صُـرَاحٌ. لَعَمْـري
أيَّ نَـصْــرٍ لَقِيتُ حَـتَّـى أَقَـامُــوا أَلْسُنَ النَّاسِ في مَدِيحِي وشُكْـرِي؟
ظَـفَــرٌ في فَــمِ الأَمَــانـيِّ حُــلْوٌ لَـيْـتَ مِـنْـهُ لَـنَــا قُــلامَــةَ ظُـفْــرِ
وغَــداً يَـعْلَمُ الـحَـقِـيـقَــةَ قَــوْمِي لَـيْسَ شَيْءٌ عــلى الشُّـعُــوبِ بِسِــرِّ

شرميون :

رَبَّــةَ التَّــاجِ ذَلِــكَ الصُّـنْــعُ صُنْعِي أَنَـا وَحْـدِي وذَلِـكَ المَكْـرُ مَكْـرِي
كَثُـرَتْ أَمْسِ في الإيَـابِ الأَقَــاوِيــلُ وظَنَّ الـظُّنُـونَ مَنْ لَيْسَ يَـدْرِي
فَــأَذَعْتُ الَّــذِي أَذَعْتُ عَن النَّصْــرِ وأَسْمَعْـتُ كُــلَّ كُــوخٍ وقَصْـرِ
خِفْتُ في خَاطِرِي عَلَيْـكِ الجَمَاهِيــرَ وأَشْفَقْتُ مِنْ عِــدًى لَــكِ كُثْـرِ
فــاغْفِري جُـرْأتِي ، فيــا رُبَّ ذَنْبٍ يَتْعَبُ العُــذْرُ فِيـهِ مهَّــدْتِ عُـذْرِي

الملكة :

شَــرْمِيُــونُ، اهْــدَئِي فَمَــا أَنْتِ إلَّا مَــلَكٌ صِيــغَ مِــنْ حَـنَــانٍ وبِــرّ
أَنْــتِ لـي خَــادِمٌ ولَـكِــنْ كــأَنَّــا في المُلِمَّــاتِ أَهْلُ قُــرْبَى وصِهْـرِ
إنَّــمــا الخــادِمُ الــوَفِـيُّ مِن الأَهْــلِ وأَدْنَى في حــالِ عُسْـرٍ ويُسْــرِ
إسْمَعِي الآنَ كَيْـفَ كــانَ بَــلائِي وانْـظُرِي كَيْفَ في الشَّدَائِـدِ صَبْـرِي
أَيُّهَــا السَّادَةُ اسْمَعُــوا خَبَـرَ الحَــرْبِ وأَمْــرَ الـقِـتَــالِ فـيـهَــا وأَمْــرِي
وآقْتِحَـامِي العُبَابَ، والبَحْــرُ يَـطْغَى والجَــوَارِي بِـهِ عَلَى الــدَّمِ تَجْـرِي
بَــيْـنَ أَنْــطُونْـيُــو وأُكْـتَـافَ يَــوْمٌ عَــبْقَــرِيٌّ يَـسِيــرُ فــي كُــلِّ عَصْــرِ
آخَـذَتْ فــيــهِ كُــلُّ ذاتِ شِــرَاعٍ أُهْبَــةَ الـحَــرْبِ وآسْتَعَــدَّتْ لِـشَــرِّ

---

(١) أكتيوم: بلدة إلى الغرب من بلاد اليونان، وكانت بها وقعة بين كليوباترا ومعها أنطونيوس وبين أكتافيوس سنة (٣١ ق.م) رجعت فيها كليوباترا بأسطولها إلى الإسكندرية وأذيع أنها المنتصرة.

(٢) المدينة: يعني الإسكندرية.

لا تَرَى في المَجَالِ غَيْرَ سَبُوحٍ ... مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مِكَرٍّ مِفَرٍّ
وتَرَى الفُلْكَ في مُطارَدَةِ الفُلْـ ... ـكِ كَنَسْرٍ أَرادَ شَرّاً بِنَسْرِ
وتَخَال الدُّخَانَ في جَنَبات الْـ ... ـجَوِّ جُنْحاً مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَسْرِي
ودَوِيَّ الرِّيَاح في كُلِّ لُجٍّ ... هَزَجَ الرَّعْدِ أو صِيَاحَ الهَزِبْرِ
وتَرَى المَاءَ. مِنْه عودُ سَرِيرٍ ... لِغَرِيقٍ، ومِنهُ أحْنَاءُ قَبْرِ
يَغسِلُ الجُرْحَ شَرَّ مَنْ غَسَلَ الجُرْ ... حَ ويَأْسُو مِنَ الحَيَاةِ ويُبْرِي(١)
كُنْتُ في مَرْكَبِي وبَيْنَ جُنُودِي ... أَزِنُ الحَرْبَ والأُمُورَ بِفِكْرِي
قُلْتُ رُومَا تَصَدَّعَتْ فَتَرَى شَطْـ ... ـراً مِنَ القَوْمِ في عَدَاوَةِ شَطْرِ
بَطَلاَهَا تَقَاسَمَا الفُلْكَ والجَيْـ ... ـشَ وشَبَّا الوَغَى بِبَحْرٍ وبَرِّ
وإذا فَرّقَ الرُّعَاةَ اَخْتِلاَفٌ ... عَلَّمُوا هارِبَ الذِّئَابِ التَّجَرِّي
فَتَأَمَّلْتُ حالَتيَّ مَلِيَّاً ... وتَدَبَّرْتُ أَمْرَ صَحْوِي وسُكْرِي
وتَبَيَّنْتُ أنَّ رُومَا إذا زا ... لَتْ عن البَحْرِ لم يَسُدْ فيه غَيْرِي
كُنْتُ في عاصِفٍ سَلَلتُ شِرَاعِي ... مِنْهُ فَاَنْسَلَّتْ البَوَارِجُ إثْرِي
خلَصَتْ مِنْ رَحى القِتَالِ ومِمّا ... يَلْحَقُ السُّفْنَ مِنْ دَمَارٍ وأَسْرِ
فَنَسِيتُ الهَوَى ونُصْرَةَ أَنْطُنْـ ... ـيُوسَ حَتَّى غَدَرْتُهُ شَرَّ غَدْرِ(٢)
عَلِمَ اللَّهُ قَدْ خَذَلْتُ حَبِيبي ... وأبَا صِبْيَتِي وعَوْنِي وذُخْرِي
والَّذِي ضَيَّعَ العُرُوشَ وضَحّى ... في سَبِيلي بِأَلْفِ قُطْرٍ وقُطْرِ
مَوْقِفٌ يُعْجِبُ العُلَى كُنْتُ فِيهِ ... بِنْتَ مِصْرٍ وكُنْتُ مَلْكَةَ مِصْرِ

[ملتفتة إلى زينون]:

زِينُونُ، فَصَّلْتُ الخَبَرْ ... عَنِ القِتَالِ والسَّفَرْ
وقُلْتُ عَنْ إيَابِي ... وخُطَّةِ اَنْسِحَابِي
ما لَيْسَ يَعْلَمُ البَلَدْ ... ولاَ دَرَى بِهِ أَحَدْ

---

(١) يُبري: أي يُبرىء.
(٢) يشير إلى ما احتالت به كليوباترا للخلاص من أنطونيوس حين أدركت أن نجمه قد أفل، فأشاعت أنها انتحرت، فقتل أنطونيوس نفسه.

فَهَلْ لَدَيْكَ الآنَا	ما يَجْلِبُ السُّلْوَانَا
مِن الأمَالِي المُسْلِيَهْ	والصُّحُفِ المُلَهِّيَهْ

زينون :

عِنْدِيَ يا مَوْلاَتِي	رَوَائِعُ الآيَاتِ
تِسْعُونَ أَلْفَ سِفْرِ	قَدْ كُتِبتْ بالتِّبْرِ
مِنْ كُلِّ رَقٍّ عَجَبِ	في العِلْمِ أو في الأَدَبِ
قَيْصرُ أَنْطُونْيُو وَهَبْ	لَنَا مَنَاجِمَ الذَّهَبْ
وكُلَّ غالٍ مُدَّخَرْ	مِن الجَوَاهِرِ الأُخَرْ
أَسْلاَبُهُ مِنْ حَرْبِهِ	وطَعْنِهِ وضَرْبِهِ
هَدِيَّةٌ مِنْ قَيْصَرِ	لِبَلْدَةِ الإسْكَنْدَرِ

أنشو :

إذا كَانَتِ الكُتْبُ فيشَرْعِكُمْ	نَظِيرَ الجَوَاهِرِ كُفْءَ النُّضَارْ
فإنِّي الغَنِيُّ بدُرِّ القَوَاقِـ	ـعِ حِينَ يُرصِّعُ تِبْرَ العُقَارْ[1]
وما الكُتْبُ قُوتِي ولا مَنْزِلِي	فَما أنا سُوسٌ ولا أنا فَارْ

الملكة :

حَكِيمٌ لَعَمْرِي على جَهْلِهِ	ظَرِيفُ الحَدِيثِ لَطِيفُ الحِوَارْ

زينون [مغيظاً]:

ولَكِنَّهَا حِكْمَةُ السَّائِمَاتِ	وفَلْسَفةٌ غَيْرُ بِنْتِ آخْتِبَارْ
وكِلْتَاهُمَا لا تَعَدَّى الشُّعُورَ	بِحُبِّ البَقَاءِ وخَوْفِ الدَّمَارِ

أنشو :

رُوَيْدَكَ مَوْلاَيَ بَعْضَ السِّبَابِ	فَلَيْسَ السِّبَابُ سَبِيلَ الكِبَارِ
هَبِ اللَّيْلَ طَالَ فَقَطَّعْتَهُ	بدَرْسٍ وأَصْبَحْتَ تُفْنِي النَّهَارْ

---

(١) دُرّ القواقع: اللؤلؤ المستخرج من أصدافه. والتبر: الذهب. والعقار: الخمر. شبّه الفقاقيع تعلو الخمر بالدُرّ.

وأَقْبَلْتَ بالكُتْبِ تَطْوِي الطِّوَالَ وتَنْشُر في إثْرِهِنَّ القِصَارْ
وَزِدْتَ عَلَى الأَرْضِ عِلْمَ السَّمَاءِ كِبَارَ كَوَاكِبِهَا والصِّغَارْ
إذا ما نَفَقْتَ ومَاتَ الحِمَارُ أَبَيْنَكَ فَرْقٌ وبَيْنَ الحِمَارْ؟

زينون [غاضباً] : ماذا تَقُولُ السَّيِّدَهْ؟

الملكة [ضاحكة] : واحِدَةٌ بِوَاحِدَهْ
أبي أنُوبِيسُ، أَرْجُو

أنوبيس : بَلْ تَأمُرِينَ مُطَاعَهْ

الملكة [مشيرة إلى باب محراب مفتوح ومتجهة إليه]:
هَذَا مُقَامُ صَلاَتِي وهَيْكَلِي للضَّرَاعَهْ
ولِي خَطَايَا كَثِيرٌ لا تَبْرَحُ البَالَ سَاعَهْ
فادْخُلْ وصَلِّ لأَجْلِي فَمِنْكَ تُرْجَى الشَّفَاعَهْ

[يدخلان المحراب ويتبعهم الحاضرون ما عدا
حابي وديون وليسياس]

ديون [متهكماً] :
إسكَنْدَرِيَّةُ صِرْتِ رَفْرَفَ مَعْبَدٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ عَلَيْهِ سِتَارُ
إخْتَصَّ آلِهَةُ الجَلَالِ بِسِرِّهِ وتَفَرَّدَ الكُهَّانُ والأَحْبَارُ
ما خَطْبُهُمْ حَابِي، وماذا بَيَّتُوا

ليسياس : ما هَذِهِ الأَلْغَازُ والأَسْرَارُ؟

حابي :
أَرَأَيْتَ وَقْعَةَ أكْتِيُومَ ومَا جَرَى فِيهَا وكَيْفَ تَصَرَّفَ المِقْدَارُ!
لِيسْيَاسُ، إنَّكَ قَدْ سَمِعْتُ حَدِيثَهَا كالسِّحْرِ في الآذَانِ حِينَ يُدَارُ
تَبْدُو الخِيَانَةُ فِيهِ وهِيَ أَمَانَةٌ ويُرَى الثَّبَاتُ عَلَيْهِ وهُوَ فِرَارُ
وعَلِمْتَ كَيْفَ نَجَتْ وكَيْفَ آنْفَضَّ عَنْ أَنْطُونِيُو أَسْطُولُهَا الغَدَّارُ

ليسياس :

واليَوْمَ حابي، أيْنَ أنْطُونْيُو ومَا فَعَلَتْ بِفَلِّ جُيُوشِهِ الأَقْدَارُ؟
قُلْ لِي: أحَيٌّ في البِلَادِ مُشَرَّدٌ هُوَ أمْ لَهُ قَبْرٌ بِمِصْرِ يُزَارُ؟

حابي : لِيْسَياسُ، تَسأَلُني تَجاهُلَ عَارِفٍ

ليسياس : بَلْ جاهِلٍ لَمْ تَأْتِهِ الأَخْبَارُ

حابي :

لَمْ تَأْتِ حَتَّى جاءَ في آثَارِهَا لِلْحُبِّ أَجْنِحَةٌ بِهِنَّ يُطَارُ
ويُقَالُ بَلْ أَخَذَتْهُ تَحْتَ شِرَاعِهَا ونَجا بِهِ فُلْكٌ لَهَا مِحْضَارُ[1]
تَجْرِي الرِّيَاحُ بما تَشَاءُ قُلُوعُهُ ويَسِيرُ في طَاعَاتِهِ التَّيَّارُ
ويُقَالُ غَضْبَانٌ عَلَيْهَا عاتِبٌ ويُقَالُ بَلْ حَنِقُ الفُؤَادِ مُثَارُ
وعَلَى صَفَاءِ العاشِقَيْنِ سَحَابَةٌ وعَلَى سَلَامِ الصاحِبَيْنِ غُبَارُ
آلَى وأَقْسَمَ لا يُرَى في قَصْرِهَا حَتَّى يُقَوَّمَ مَجدُه المُنْهَارُ
إنَّ البَلَاءَ أجَلُّ مِنْ ألَّا يُرَى

ديون : عَجْبٌ أَتَخْفَى في الهَشِيمِ النَّارُ؟

حابي :

أَنْطُونْيُو مِنَّا بأَقْرَبِ ثُكْنَةٍ يَدْعُو مِن الرُّومَانِ مَنْ يَخْتَارُ
ويُعِدُّ أُهْبَتَهُ لِيَوْمٍ حاسِمٍ في البَرِّ يُغْسَلُ عَنْهُ فِيهِ العَارُ
ويَكُونُ مَيْدَانَ الرَّحَى ومَدَارَهَا تِلْكَ التِّلَالُ وهَذِه الأَسْوَارُ
فَهُنَاكَ خاتِمَةُ الصِّرَاعِ ومَوْقِفٌ إمَّا الدَّمَارُ بِهِ وإمَّا الغَارُ

[يسمع صوت أنوبيس من داخل المحراب مرتلاً هذا النشيد]

إيزِيسُ ذاتَ الحِجَابْ مالِكَةَ العالَمِينْ
شَعْبُكِ لاقَى العَذَابْ مِنْ عَبَث الظَّالِمِينْ

* * *

---

(١) المحضار: سرعة العدو.

يـا مَـنْ خَفَـضْنَـا الـجِبَـاهْ لِـعِـزِّهـا سـاجِـدِيـنْ
صُـغْـنَـا إلَـيْـكِ الـصَّـلاَهْ مِـنْ أدْمُـعِ الـنَّـادِمِـيـنْ

ستار

المنظر الثاني

«في إحدى غرف القصر الملكي ورحى الحرب دائرة بين أكتافيوس وأنطنيوس على أسوار الإسكندرية ـ حابي في الغرفة حيث تدخل عليه هيلانه»

هيلانة :

أتـدْخُـلُ حـابي مَقـاصِيـرَهَـا؟ بَـلَغْـتَ مِـن الـجُـرْأةِ الـمُـنْـتَهَـى
سَـتَـعْـلَمُ أمْـرَكَ ذَاتُ الـجَـلاَلَـ ـةِ

حابي : بَلْ أَمَرَتْ أَنْ تَرَانِي هُنَا

هيلانة :

عَـجِبْـتُ لَهَـا ولِـتَـدْبِـيـرِهَـا كَـذلِـكَ قَـدْ أَمَـرَتْـنِـي أنَـا
إذَنْ هِـيَ تَـجْـمَـعُـنَـا، يا جَـحُـودُ وتَجْـزِيـكَ عَن سَخَطٍ بـالـرِضَـا

حابي :

هِـلانَـهُ، خَلِّيـكِ مِـنْ ذِكْـرِهَـا حَدِيثُ الأَفَاعِي طَـوِيـلُ المَـدَى

هيلانة :

رُوَيْـدَكَ حـابِي لَـقَـدْ أحْـسَـنَـتْ فـما لِـي أراكَ أَسَـأْتَ الـجَـزَا؟

حابي :

هِـلاَنَـةُ، يـا طِـيـبَـهـا خَـلْوةً وإنْ قَـلَّ فـي ظِـلِّهـا الـمُـلْتَـقَى

تَـعَـالَـيْ هِـلاَنَـةُ نُـعْطِ الـغَـرَامَ عِنَـانَ الحَـدِيثِ ونَشْـكُ الجَـوَى
أَنَـيْلِي يَـدَيَّ يَـدْيـكِ الـلَّتَـيْـنِ نَـعِيمِـيَ بَـيْنَـهُـمَـا والـشَّـقَـا
هَلُمَّ هِلاَنَةُ

هيلانة :

حابِي أَرَاكَ بِـكُـنْـهِ الأُمُـورِ قَـلِيلَ الـهُـدَى
مِـنَ الـقَـصْـرِ لا تَـلْتَـمِسْ خَـلْوَةً وإنْ هُـوَ مِـنْ كُـلِّ حِسٍّ خَـلاَ
سَـمَـاءُ الـقُـصُـورِ لَـهَـا أُذُنَـانِ وأَرْضُ الـقُـصُـورِ بِـعَـيْـنٍ تَـرَى

حابي :

هِـلاَنَـةُ لا تَـقْـطَعِي نَـشْـوَتِي بِـقُـرْبِـكِ أَوْ حُـلُمِـي بـالـلِّقَـا
أَمَـهْمَـا تَـخَيَّـلتُ صَفْـوَ الـحَـيَـاةِ خَـلَقْتِ عَـلَى جـانِبَيْـهِ الـقَـذَى؟

هيلانة :

حَـنَـانَـكَ حـابِـيُّ لا تَـتَّـهِـمْ ولا تَـرْمِـنِـي بِـعُـقُـوقِ الـهَـوَى
ولُـذْ بـالأَنَـاةِ فَـإِنَّ الأَنَـاةَ صَـدِيقُ الصَّـوَابِ عَـدُوُّ الـخَـطَا
فَلَوْ كُنْتَ وَحْـدَكَ شُـغْـلَ الـفُـؤَادِ لَـهَـانَ الـبَـلاَءُ وقَـلَّ الـعَـنَـا
ولَـكِـنْ حُـقُـوقُ كِـلُوبـاتْـرَةَ

حابي : وأيُّ حُقُوقٍ لَهَا تُدَّعَى

[تدخل كليوباترة]

كليوباترا :

حُـقُـوقُ الـوِلاَيَـةِ يَـا ذَا الغُـلاَمِ حُـقُـوقُ الـرِّعَـايَـةِ يَـا ذَا الفَتَى
وصَبْـرِي عَلَيْـكَ لأَجْـلِ الـفَتَـاةِ

حابي [مأخوذاً] : إِلَهِي لَقَدْ سَمِعَتْ ما جَرَى

الملكة :

وسَـدِّي الـمَسَـامِـعَ حُـبّـاً بِـهَـا وأَنْـتَ تُـعِـيـنُ عَـلَيَّ الـعِـدَى
وتُـرْسِلُ في الـعَـرْشِ هُجْرَ الكَـلاَمِ وتُـخْفِـي الـحَـفِـيـظَةَ لِـي والـقِـلَى

ولَكِنْ لِنَنْسَ الَّذِي قَدْ مَضَى	فَمِثْلُكَ تابَ ومِثْلِي عَفَا
دَعْ الذَّوْدَ عَنْ مِصْرَ لي إنَّنِي	أنَا السَّيْفُ والآخَرُونَ العَصَا
ولاَ تُطِعِ الفِتْيَةَ العابِثِينَ	أسُودَ الكَلاَمِ نَعَامَ الوَغَى

[يدخل أنوبيس]

[إلى أنوبيس] : أبِي : قَدْ أَتَيْتَ

أنوبيس : سَلاَمٌ عَلَيْكِ شُعَاعَ المَدَائِنِ، نُورَ القُرَى

الملكة :

أَبِي قَدْ تَلاَقَى هُنَا العاشِقَانِ	وكَانَ بِتَدْبِيرِيَ المُلْتَقَى
فَبارِكْ فَتَاتِي وبارِكْ فَتَاكَ	وكَفْكِفْ هَوَاهُ إذا ما غَلاَ

أنوبيس :

حَيَاتَكَ حابِي كَنِيسيَّةٌ	يُشَاكِلُ أَوَّلُها المُنْتَهَى
مُقَيَّدَةٌ باليَقِينِ القَنُوعِ	وما أَمرَ القَلْبُ أو مَا نَهَى

الملكة :

كزَهْرِ المَقَاصِيرِ لَمْ يَنْتَفِعْ	بِطُولِ الأَدِيمِ وعَرْضِ الثَّرَى

أنوبيس :

وتَحْسَبُ في الكُتْبِ عِلْمَ الحَيَاةِ	ومَا مِنْهُ في الكُتْبِ إلاَّ شَذَا

حابي :

لَعَلِّي كَذِي الشَّكِّ في حِرْصِهِ	يَقِيسُ الطَّرِيقَ ويُحْصِي الخُطَى
أَرَى راكِبَ الشَّكِّ مِلْءَ المَجَالِ	طَوِيلَ العِنَانِ بَعِيدَ المَدَى
ولو شكَّكتْ في السِّرَاجِ الفَرَاشُ	لَكَانَ سَلاَماً عَلَيْهَا السَّنَا

أنوبيس :

ولَكِنْ تَمُرُّ عَلَى ما تَرَاهُ	تُجَاوِزُه نَحْوَ ما لا يُرَى
وهَذَا المَلاَكُ

[مشيراً إلى هيلانة]

كَمَوْلاَتِه طَلِيقُ الإرَادَةِ حُرُّ الحِجَى
تَمَشَّى على جَنَبَاتِ الحَيَاةِ كَمَا يَتَمَشَّى شُعَاعُ الضُّحَى
يَخُوضُ الوُحُولَ ويَغْشَى الحُلِيَّ ويَأْوِي الحَضِيضَ ويَعْلُو الذُّرَى
ويَخْتَرِقُ العَرَصَاتِ الفِسَاحَ ويَنْفُذُ مِنْ ضَيِّقَاتِ الكُوَى
ويَرْتَعُ بَيْنَ أُنُوفِ الأُسُودِ ويَلْعَبُ بَيْنَ عُيُونِ الظِّبَا

الملكة :

ولَكِنَّهُ طاهِرٌ حَيْثُ طافَ نَقِيُّ الذُّيُولِ عَفِيفُ الخُطَى
أبِي قَدْ نَسِينَا حَدِيثَ القِتَالِ فَمُنْذُ الصَّبَاحِ تَدُورُ الرَّحَى
وجَيْشُ الحَلِيفِ وجَيْشُ العَدُوِّ بِظَهْرِ المَدِينَةِ رَهْنُ الوَغَى
هُنَالِكَ يُقْضَى مَصِيرُ البِلاَدِ فَإمَّا البَقَاءُ وإمَّا الفَنَا[1]
ومِنْ عَجَبٍ كادَ يَمْضِي النَّهَارُ ومَا مِنْ رَسُولٍ ولاَ مِنْ نَبَا

[يدخل جندي من جنود أنطونيو منهوكاً يعلوه الغبار]

الجندي :

سَيِّدَتِي جِئْتُكَ بالأَخْبَارِ لَقَدْ جَرَتْ بِسَعْدِكِ الجَوَارِي
إنْتَصَرَتْ جُنُودُنَا الضَّوَارِي تَحْتَ لِوَاءِ البَطَلِ المِغْوَارِ
قَيْصَرُ أنْطُونْيُو عَلَى آثَارِي

الملكة :

يا فَرَحاً ما أعْظَمَ البِشَارَةْ! حَلَّتْ عَلَى أُكْتَافِيُو الخَسَارَةْ
«وأكْتُيُومُ» قَدْ أَخَذْنَا ثَارَهْ خُذْ، يا رَسُولُ، هَذِهِ البِشَارَةْ

[تمنحه بدرة من الذهب فيخرج من باب وتدخل شرميون من باب]

شرميون :

سَيِّدَتِي يا طَرَبَا سَيِّدَتِي يا فَرَحَا!
دَارَتْ عَلَى أُكْتَافْيُو وجَيْشِ أُكْتَافْيُو، الرَّحَى

---

(١) الفنا: أي الفناء.

هيلانة : مَلْكَتِي هَلْ تَسْمَعِينَ

[يسمع صوت بوق وهتاف من بعيد]

الملكة [منصتة] : صَوْتُ بُوقٍ وهُتَافْ

[تقوم الملكة إلى النافذة وترهف أذنيها وعينيها]

هُـوَ واللّهِ نَـشِـيـدِي والـمُـغَـنُّـونَ جُـنُـودِي
والـمَـخَـارِيـقُ الَّـتِـي تَـخْـ ـفُـقُ مِنْ بُـعْـدٍ بُـنُـودِي[1]
ولَـدَيْـهَـا فـارِسٌ مُـلْـ ـتَـثِـمٌ شـاكِـي الـحَـدِيـدِ
يَـتَـراءَى فـي عِـنَـانِ الـ ـجَـوِّ كـالْـبُـرْجِ المَـشِـيـدِ
هُـو أنْـطُـنْـيُـوسُ ذُخْـرِي وطَـرِيـفِـي وتَـلِـيـدِي

[إلى شرميون وهيلانه]:

أيُّـهَـا الـبِـنْـتَـانِ هَـٰـذِي لَـيْـلَـةُ الـعِـيـدِ الـسَّـعِـيـدِ
صَـلِّـيَـا مِـثْـلَ صَـلاَتِـي واسْـجُـدَا مِثْـلَ سُـجُـودِي

[يسجد الثلاثة لحظة.. ثم تنهض الملكة أولاً وتتجه نحو النافذة]

هُـوَ ذا أنْـطُـونْـيُـو مِـنْ جـانِـبِ الـمِـيـنَـاءِ أقْـبَـلْ
هَـيْـكَـلٌ يَـحْـمِـلُـهُ مِـنْ صـافِـنَـاتِ الخَـيْـلِ هَيْكَـلْ
الـرِّدَاءُ الأرْجُـوَانِـيُّ عَـلَـى عِـطْـفَـيْـهِ مُـسْـبَـلْ
مَـبْـسِـمٌ يَضْـحَـكُ مِنْ تَـحْـ ـتِ جَـبِـيـنٍ يَـتَـهَـلَّـلْ
هُـوَ ذا يَـدْنُـو

شرميون : أتَى واللّهِ

هيلانة : مَوْلاَتِي تَرَجَّل

الملكة [تبتدر الباب]:

أيُّـهَـا الـبِـنْـتَـانِ هَـٰـذِي لَـيْـلَـةُ الـعِـيـدِ الـسَّـعِـيـدِ

---

(١) المخاريق: السيوف.

[أنوبيس هامساً لحابي]:

حــابي، أُحِيطَ القَصْـرُ بــالـذِّئــابِ وبِـي مِنْ الـسُّخْطِ عَـلَيْـهِمْ مـا بِـي

[للملكة] :

سَيِّــدَتِي تــأذَنُ في انْـسِحَــابِي؟ وتَــأْذَنِــيـنَ مَــلْكَـتِـي لِــحَــابِـي

الملكة [ضاحكة] : إلى الأَفَاعِي؟

أنوبيس : لا إلى المِحْرَابِ

الملكة : رَأْيُكُمَا في المَكْثِ والذَّهَابِ

[يخرجان ويدخل أنطونيو وحاشيته وقواده وتابعه أوروس. أنطونيو يقبل على الملكة مادّاً يديه]

أنطونيو : إلٰهَتي!

الملكة : قَيْصَرِي!

أنطونيو : سُلْطَانَتِي!

الملكة : مَلِكِي!

أنطونيو : عِنْدِي لَـكِ اليَوْمَ يا دُنْيَايَ أَخْبَارُ

الملكة : عَجِّلْ فَدَيْتُكَ

أنطونيو : لا، لا بُدَّ مِنْ ثَمَنٍ

الملكة : كَرَائِمُ المَالِ؟

أنطونيو : ما لِلْمَالِ مِقْدَارُ

[يمد إليها جبينه في ضراعة]

رُدِّي عَلَى هَامَتِي الغَارَ الَّـذِي سُلِبَتْ فَـقُـبـلَـةٌ مِنْـكِ تَـعلوهـا هـي الغــارُ

[تقبله]

كليوباترا :

اليومَ تَعْلمُ رُومَا أنَّ ضَرَّتَها ... تُقلِّدُ الغارَ مَنْ تَهْوَى وتَخْتارُ
واليَوْمَ تَعْلمُ رُومَا أنَّ فارِسَها ... جَيْشٌ بِمُفْرَدِهِ في الرَّوْعِ جَرَّارُ
أَنْطُونْيُو سَيِّدِي. هَلْ نَحْنُ في حُلُمٍ؟ ... أَسالِمٌ أَنْتَ؟ لا أَسْرٌ ولا عَارُ

أنطونيو :

أَسْرٌ؟ وَهِمْتِ كِلْوَباتَرا أتَظْفَرُ بِي ... أَيْدِي الكُمَاة وفِي كَفِّيَ أَظْفَارُ
لَوْ قُلْتِ قَتْلٌ لَكَانَ القَوْلُ أشْبَه بِي ... كَأسُ المَنَايا عَلَى الأَبْطَالِ دَوَّارُ
الحَرْبُ تَعْلمُ والأَيَّامُ تَشْهَدُ لِي ... أنِّي شَدِيدٌ على الأَقْرَانِ جَبَّارُ
لو كُنْتِ شاهِدَتي، والحَرْبُ جارِفَةٌ ... والصَّفُّ تَحْتِيَ بَعْدَ الصَّفِّ يَنْهَارُ
قد جُنَّ تَحْتِي جَوادِي فَهْوَ عاصِفَةٌ ... وجُنَّ نَصْلِي بِكَفِّي فَهُوَ إعْصَارُ
رَأَيْتِ حَمْلَةَ صِدْقٍ غَيْرَ كاذِبَةٍ ... لا السَّيْلُ يَحْمِلُها يَوْماً ولا النَّارُ
لَمَّا صَدَمْتُ جَنَاحَيْهِمْ وقَلْبَهُمُ ... عَنْ الخِيَامِ ومِنْ أَوْكَارِهِمْ طَارُوا
وما وَجَدْتُ لأكْتافْيُو وقَادَتِهِ ... رِيحاً، ولَمْ أَتبيَّنْ أيَّةً سارُوا
ومالت الشَّمْسُ أو كادتْ فَساوَرَني ... شَوْقٌ إليكَ قَدِيمُ الدَّاءِ سَوَّارُ[1]
حَتَّى رَجَعْتُ ولَوْ أنِّي طَرَدْتُهُمْ ... لباتَ أُكْتافُ عِنْدِي وانْقَضَى الثَّارُ

كليوباترا :

تَرَكْتَهُمْ لِغَدٍ! هَذِي مُجَازَفَةٌ ... غَدٌ غُيُوبٌ وأَسْرَارٌ وأَقْدَارُ

[مخاطبة أوروس]:

أَوْرُوسُ، أَنْتَ بِفَنِّ الْـ ... ـقِتَالِ أَعْلَمُ مِنِّي
الحَرْبُ فَنُّكَ أُورُو ... سُ والسِّيَاسَةُ فَنِّي
إنْ كانَ «مَرْكُ» إلَهاً ... فأَنْتَ في الحَرْبِ جِنِّي
فكُنْ بِحَقِّكَ عَوْني ... وقُلْ لِقَيْصَرَ عَنِّي
إنَّ المُنَى لَمْ تُقَصِّرْ ... بَلْ قَصَّرَ المُتَمَنِّي

---

(١) سوّار: كثير الثورة.

فَلَوْ صَبَرْتُمْ قَلِيلاً وسِرْتُمُ فِي تَأَنِّي
أَرَحْتُمُونِي ورُومَا مِن الخِصَامِ المُعَنِّي

أوروس :

سَيِّدتِي لم تَقْصِدِي لَمَّا عَذَلْتِ سَيِّدِي[1]
عَجَّلْتِ في الحُكْمِ عَلَى ما لم تَرَيْ وتَشْهَدِي
لقد حَمَلْنَا حَمْلَةً كَمِثْلِهَا لم يُعْهَدِ
إسْتَنْفَدَتْ بَأْسَ القَنَا وقُوَّةَ المُهَنَّدِ
فَكَانَ لا بُدَّ لَنَا نُرْجِي القِتَالَ لِلْغَدِ[2]

أنطونيو :

كِلُوبَاتْرَا دَعِينَا مِنْ تَجَنِّيكِ كِلُوبَاتْرَا
أَتَبْكِينَ على الصَّبْرِ وقَوْمٍ حُرِمُوا الصَّبْرَا؟
وبِي مِن صَبْرِكِ الوَاهِي جِراحُ الأَمْسِ لَمْ تَبْرَا[3]
لَقَدْ مَنَّيْتُ أُسْطُولِي لَدى أُسْطُولِكِ النَّصْرَا
حَلِيفٌ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ سأَشْتَدُّ بِهِ أَزْرَا
فَعَبًّا تَحْتَ أَعْلاَمِـ ـكِ حَتَّى زَحَمَا البَحْرَا[4]
وقَدْ كانَا الجَنَاحَيْنِ وقَدْ كُنْتُ أنَا النَّسْرَا
وأَجْرَى الفُلْكَ أَكْتَافُيُو فَأَجْرَيْتُ كَمَا أَجْرَى
صَفَفْنَاهَا وأَرْسَلْنَا بِهَا تَقْتَحِمُ الجَمْرَا
كِلاَنَا مارَسَ الحَرْبَ وعانَى الكَرَّ والفَرَّا
فَلَمَّا آذانَتنا الحَرْ بُ بالْمَعْرَكَةِ الكُبْرَى
تَسَلَّلْتِ بأُسْطُولِكِ مِنْ غَمْرَتِهَا الحَرَّى

(١) لم تقصدي : لم تعدلي.
(٢) نرجي : أي نرجيء.
(٣) لم تبرا : أي لم تبرأ.
(٤) فعبّا : أي فعبأ.

فَقُلْتُ آنْسَحَبْتَ ضَعْفاً وقال النَّاسُ بَلْ غَدْرَا
ولَوْ كانَ لَهُمْ قَلْبٌ كَقَلْبِي الْتَمَسُوا العُذْرَا

كليوباترا :

أَنْطُونْيُوسُ مَلِكِي أَنْطُونْيُوسُ سَيِّدِي
لَيْسَ العُبُوسُ سُنَّةً لِوَجْهِكَ الطَّلْقِ النَّدِي
ولَسْتَ مَنْ يَغْضَبُ فِي لَيْلِ الشَّرَابِ والدَّدِ[1]
ولَسْتَ لِلْكَأْسِ عَلَى شَارِبِهَا بِالْمُفْسِدِ
قَلْبُكَ كَنزُ الحُبِّ والـ ـرَّحْمَةِ والتَّوَدُّدِ
وكَمْ حَقَدْتَ ثُمَّ أَصْـ ـبَحْتَ كَأَنْ لَمْ تَحْقِدِ
أَلَسْتَ بالأَمْسِ، وأَمْـ ـسِ، لَفْتَةٌ لم تَبْعُدِ
وَهَبْتَ لِي جَرِيرَتِي والصَّفْحُ نِصْفُ السُّؤدَدِ
فَاطْوِ مَعِي حَوَادِثَ الْـ ـأَمْسِ ولَا تُجَدِّدِ
وآمْضِ مَعِي في لَذَّةِ الْـ ـيَوْمِ ودَعْ هَمَّ الغَدِ

أنطونيو :

كِلُوبَاتْرا بِحُبِّيكِ مِنَ التَّأْنِيبِ خَلِّينَا
لَقَدْ سُقْتُ وقُوَّادِي إِلَيْكِ النَّصْرَ فَآجْزِينَا
مُرِي بالكَاسِ والطَّاسِ وبالنُّدْمَانِ يَسْقِينَا[2]
وبالقَصْفِ بالعَزْفِ وحُذَّاقِ المُغَنِّينَا
وما طُيِّبَ أَلْوَاناً وما طَابَ رَيَاحِينَا
وقُولِي الشِّعْرَ عُلْوِيّاً كَمَا كُنْتِ تَقُولِينَا
وأَوْحِيهِ إلى شَادِيـ ـكِ يُلْقِيهِ فيُشْجِينَا
غَداً نَسْتَأْنِفُ الحَرْبَ ونَطْوِيهَا مَيَادِينَا

---

(١) الدَّدِ: اللهو واللعب.
(٢) النَدمان: الذي يُشاربك.

أنشو :

وَنَـغْـشَـاهَـا مَـخَـامِـيـرَ ... وَنَـلْقَـاهَـا مَـجَـانِـيـنَـا

كليوباترا :

مُـرْ بِـمَـا شِئْتَ قَـيْـصَـرُ ... وأَشِـرْ كَـيْـفَ تَـأْمُـرُ

لَـكَ قَصْرِي ومَا حَوَى الْـ ... ـقَـصْـرُ، كُلٌّ مُـسَـخَّـرُ

لَـيْسَ شَـيْءٌ وإنْ غَـلَا ... عَـنْ حَـبِـيـبِ يُـؤَخَّـرُ

لِـتَـكُـونَـنَّ لَـيْـلَـةً ... آخِـرَ الـدَّهْـرِ تُـذْكَـرُ

لا نُـبَـالِـي إذا صَـفَـتْ ... بَـعْـدَهَـا مـا يُـكَـدِّرُ

تَـحْـلُـمُ الـحُـلْـمَ لَـسْـتَ تَـدْ ... رِي بِـمَـاذَا يُـفَـسَّـرُ

[لوصفائها ووصيفاتها]:

الـبِـدَارَ الـبِـدَارَ يـا وُصَـفَـائِـي ... ووَصِـيـفَـاتِـيَ الـبِـدَارَ الـبِـدَارَا

قَـيْـصَـرٌ قَـيْـصَـرٌ هُـوَ الآمِـرُ الـنَّـا ... هِي على القَصْـرِ فَلْيَكُنْ ما أَشَـارَا

هُـوَ يَبْغِي وَلِيمَـةً فـاصْنَعُـوهَـا ... وانْسُقُـوهَـا كَمَـا اشْتَهَى واخْتَـارَا

أَطْلِعُـوا هَـذِهِ الشُّمُـوعَ شُمُـوساً ... تَـذَرُ الـلَّـيْـلَ بـالعَشِـيِّ نَـهَـارَا

وأعِـدُّوا الخِوَانَ قـد حُمِّـلَ الأَلْـ ... ـوَانَ شَـتَّـى وجُـلِّـلَ الأَزْهَـارَا

وآجْمَعُـوا بـالمُـدَامِ شَمْـلَ النَّدامَى ... وأَدِيـرُوا الـكُـؤُوسَ والأَوْتَـارَا

وآجْعَـلُوهَـا وَلِـيمَـةً، وبِـسَـاطـاً ... يَـتَـبَـارَى خَـلاَعَـةً ووَقَـارَا

مِصْـرُ إنْ أَوْلَمَتْ سَمَتْ بـالأَغَـانِي ... دَرَجَـاتٍ وأَسْـمَـتِ الأَشْـعَـارَا

لا تَـسِـيـرُوا عَـلى وَلاَئِـمِ رُومَـا ... سَـرَفـاً في الفُـسُـوقِ وآسْتِـهْتَـارَا

كُلَّمَـا أَوْلَمَـتْ أَسَـاءَتْ إلى الْعَقْـ ... ـلِ وجَـرَّتْ عَلَى الحَضَارَةِ عَـارَا

ولَـقَـدْ تَجْـعَـلُ الـنِّـمَـارَ نَـدامَـا ... هَـا وأُسْـدَ الـعَـرِينَـةِ الـسُّـمَّـارَا

قائد روماني [لزميله غاضباً]:

أَتَـسْمَـعُ مَـا تَـقُـولُ عَـدُوُّ رُومَـا ... قَـدِ آجْتَـرَأَتْ على رُومَـا الـبَغِيُّ

أَتَـحْـتَ لِـوَائِـهَـا وبِـجَـانِـبَـهْـا ... يَخُـوضُ الحَـرْبَ مِنْ رُومَـا كَمِيٌّ؟

الآخر :

غَـداً تَـلْقَـى وإنَّ غَـداً قَـرِيـبٌ عِـقَـابـاً في الـبِـلَادِ لَـهُ دَوِيُّ

الأول [لأنطونيوس في عتب وغضب]:

أَمِيـرِيَ أَنْـطُونْيُـو أَفِي الحَقِّ أَنَّنَـا نَـبِيـتُ سُكَـارَى والـعَـدُوُّ مُبَيِّـتُ؟

[ينظر إليه أنطونيو نظرة طويلة ثم ينصرف

عنه إلى كليوباترا فيهمس القائد]

أَلَا إنَّـهُ لَـيْـلٌ لَـهُ مـا وَرَاءَهُ غَـرَامُـكَ حَيٌّ فِيـهِ والمَجْـدُ مَيِّتُ

ستـار

الفصل الثاني

«في حجرة الولائم بالقصر الملكي، حيث تُرى كليوباترا ووصيفتاها هيلانة وشرميون، وأنطنيوس، وأوروس، وبضعة من القواد الرومان، وأولمبوس طبيب الملكة، وأنشو مضحكها، وغانميز ساقيها، وحاجب يعلن أسماء القادمين»

أنطونيو :

قِيَاماً نَشْرَبُ الخَمْرَا عَلَى حُبِّ كِلُوبَاتْرَا

كليوباترا :

عَلَى حُبِّكَ أَنْطُونْيُو عَلَى الجَيْشِ عَلَى مِصْرَا

قائد روماني : على رُومَا

كليوباترا :

دَعُوا رُومَا ولا تُجْرُوا لَهَا ذِكْرَا
فَمَا أَنْطُونْيُو مِنْهَا وإِنْ كَانَ آبْنَهَا البِكْرَا
ولَكِنْ تَحْتَ أَعْلَامِي يَقُودُ البَرَّ والبَحْرَا

القائد :

أَحَقٌّ مَارْكُ أَنْطُونْيُو سَ مِنْ رُومِيَّةٍ تَبْرَا؟[1]

---

(١) تبرا: أي تبرأ.

[تنظر إليه كليوباترا فيقرأ في عينيها ما تريد]

أنطونيو :

أَجَــلْ أَتْــبَــعُ مَــوْلَاتِــي ولَا أَعْــصِــي لَــهَــا أَمْــرَا

كليوباترا : عَلَى حُبِّكَ أَنْطُونْيُو

أنطونيو : ثَلَاثاً أَرْبَعاً عَشْرَا

أنشو :

وإنْ شِئْـتَ فَـعِـشْـرِيـنَ إلَـى مَـا فَـوْقَـهَـا سُـكْـرَا

وإنْ شِئْـتَ مِـن الـدُّنْـيَـا وصَلْنَـا السُّكْـرَ لـلأُخْـرَى

قائد روماني [لزملائه همساً]:

دَعُـوا أَنْـطونْـيُـو إنِّـي أَرَى الـسُّـكْـرَ بِـهِ أَزْرَى

لَـقَـدْ كـانَ الفَتَى الـفَـطْنَ فَـصَـارَ الـحَـدَثَ الـغِـرَّا

قائد آخر [همساً]:

سَنَلْبَثُ سـاعَـةً نَـحْـتَـالُ حتَّـى إذا سُلَّتْ عُـقُـولُـهُـم انْـسَـلَلْـنَـا

فَمَـا المُـتَـدَلِّـه السِّـكِّـيـرُ أَهْـلاً لِـتَنـصُـرَهُ السُّـيُـوفُ إذا اسْتُـلِلْنَـا

الحاجب :

أيَـاسُ الـمُـغَـنِّـي وجَـوْقَـةُ الـعُـزَّافِ

ورَاقِصَاتُ القَصْرِ

[يدخلون]

كليوباترا :

أَهْـلاً بِـوَفْـدِ الآلِـهَـهْ أَهْـلِ الـفُنُـونِ الـنَّـابِـهَـهْ

الحاجب : الشَّيْخُ زَيْنُونُ

رُبَّانُ أَنْطونْيَاد

[يدخلان]

أنطونيو :

مـاذا عَـن الأُسْـطُول مِـنْـ ـكَ يـا أَخِـيـلُ نَـعْـلَمُ؟

هَلْ خَمَدتْ فِتْنَتُه أو لَمْ تَزَلْ تَضَرَّمُ؟

أخيل :

مَولاَيَ إنَّ البَحْرَ يُخْـ ـفِي سِرَّهُ ويَكْتُمُ
ومَا نَواهُ فِي غَدٍ مِثْلُ غَدٍ مُسْتَبْهَمُ
فَلاَ أقُولُ مُقْدِمٌ ولاَ أقولُ مُحْجِمُ
ولاَ أقُولُ يَنْبَرِي لِلْحَرْبِ أو يَسْتَسْلِمُ

كليوباترا :

أخِيلُ، دَعْنَا مِنْ غَدٍ إنَّ غَداً تَوَهُّمُ
أخِيلُ، ما العَيْشُ سِوَى سَاعَةِ صَفْوٍ تُغْنَمُ
فَلاَ تَكُنْ كَداخِلٍ عَلَى النَّدَامَى يَلْطِمُ
أتَيْتَهُمْ مُنَادِماً لَمْ تَأْتِهِمْ لِيَنْدَمُوا
اليَوْمَ شُرْبٌ

زينون :

وغَداً حَرْبٌ

غانميز : كَلاَمٌ مُحْكَمُ!

الحاجب :

بُولاَ الشَّاعِرْ حَبْرَا السَّاحِرْ

كليوباترا [ضاحكة]:

حَبْرَا، أعِنْدَكَ سِحْرٌ يَسُلُّ طاغُوتَ رُومَا؟
ويجْعَلُ النَّاسَ فِيهَا حِجَارةً ورُسُومَا؟

[القواد الرومانيون يدمدمون]

أنطونيو :

سَيِّدَتِي لا تَجْرَحِي فُؤَادِي ولا تَنَالِي بالأذى أجْنَادِي
وقَلِّلي السُّخْطَ على بِلاَدِي

كليوباترا :

أَنْـطُونـيُـو مـا أَنْـتَ رُومَـانـيٌّ أَلَـمْ تَـقُـلْ إِنَّـكَ لِـي جُـنْـدِيٌّ؟

أنطونيو :

بَـلَى، وَدِدْتُ أَنَّـنِـي مِـصْـرِيٌّ وأَنَّـنِـي تـابِـعُـكِ الـوَفِـيٌّ
ما فِي سِوَى رِضَاكِ لي مُضِيٌّ

أنشو :

تِـلْكَ، واللهِ، قَـضِـيَّـهْ أَصْـبَـحَ الـرَّاعِـي رَعِـيَّـهْ
حَـكَـمْ الـحُـبُّ عَـلَى قَـيْـصَـرَ، والـحُـبُّ بَـلِيَّـهْ
صَـارَ كـالـشَّـعْـبِ وسَـاوَى هَـمَـجَ الإسْـكَـنْـدَرِيـهْ!

أنطونيو :

حَبْـرَا، تَكَـلمْ ألاَ عَجِـيبَـهْ؟ مِنْ سِحْرِ مَنْفٍ أو سِحْرِ طِيبَهْ

حبرا :

إلَـه الـحَـرْبِ سـامِحْنِي فـإنِّـي غُـلِبْتُ على أَبَـالِسَتِي الـغِضَـابِ
هَـمُ لاَ يَـجْـلِسُـونَ عَـلَى غِـنَـاءٍ ولا يَـتَـحَـدَّثُـونَ عَـلَى شَـرَابِ!

كليوباترا :

ولَـكِـنْ قَـيْصَـرُ يَـدْعُـوكَ حَـبْـرَا وقَـيْـصَـرُ لا يُـرَدُّ بِـلاَ جَـوَابِ
وأَنْتَ الكـاهِـنُ العَـرَّافُ فـانْـظُرْ أَغَيْـرُ السِّحْـرِ شَيْءٌ في الجِـرَابِ

حبرا :

إذا مـا شِئْـتِ مَـوْلاَتِـي فـإنِّـي أُطَـالِعُ في الكُفُـوفِ وفي الكِتَـابِ

كليوباترا :

أُدْنُ مِـنْ قَـيْـصَـرَ حَـبْـرَا وانْـظُرِ الـكَـفَّـيْـنِ واقْـرَ

أنطونيو :

تَـعَـالَ حَـبْـرَا وقَـلِّبْ يَـدَيَّ يُـمْـنَـى لِـيُـسْـرَى

لَـعَـلَّ أَسْـرَارَ كَـفِّـي كَـوَاشِـفُ لَـكَ سِـرًّا

[يتقدم حبرا ويمعن في كف أنطونيوس]

ألا تَـرَى لِـي بَـقَـاءً؟ ألاَ تَـرَى لِـيَ عُـمْـرًا؟

حبرا :

يـا عَـجَـبَ الـفَـالِ! مَـوْلاَ يَ أَعْـجَـبُ الـنـاسِ أَمْـرَا
حَـيَـاتُـهُ بِـيَـدَيْـهِ والـنَـاسُ يَـحيَـوْن قَـسْـرَا
إنْ شِـئْـتَ عِـشْـتَ نَـهَـاراً أوْ شِـئْـتَ عُـمِّـرْتَ دَهْـرَا

[قائد روماني إلى زملائه همساً]:

لَـوْ كُـنْـتُ مِـنْـهُ قَـرِيـبـاً لَـقُـلْـتُ فـي أُذْنِ حَـبْـرَا
حَـيَـاتُـهُ فِـي يَـدَيْـهِ أَمْ فـي يَـدِيْ كِـيلُوبَـاتَـرَا!

كليوباترا :

تَـعَـالَ الآنَ سَـلْ كَـفِّـي وبَـيِّـن مـا الَّـذِي تُـخْـفِـي

[يتقدم حبرا إليها ويمسك يدها بعناية وشغف]

حبرا :

يـا لَـكِ كَـفّـاً كَـنَـقِـيِّ الـعَـاجِ نـاعِـمَـةً كـخَـمَـلَ الـدِّيـبَـاجِ
لامِـسُهَا مِن الجَحِيم ناجِي

[ضحك]:

تَـفْـدِي الأَكُـفُّ كُـلُّـهـا يَـمِـيـنـا بَـيْـضَـاءَ حَـمْـراءَ تَـرِفُ لِـيـنَـا
كَما أَظَلّ الشَّفَقُ النَّسْرِينَا[1]

أنطونيو [ضاحكاً]:

سَمِعْتِ حَبْرَا، مَلْكَتِي، كَيْفَ آبْتَكَـرْ كُـلِّفَ أَنْ يَصْـنَـعَ سِحْـراً فَـشَعَـرْ

بولا الشاعر : السِّحْرُ والشِّعْرُ سَوَاءٌ في الأَثَرْ

---

(١) النسرين: ورد أبيض.

كليوباترا :

لَقَدْ أَعْجَبَكَ الشِّعْرُ   ورَاقَتْكَ مَعَانِيهِ
ومَا سَرَّكَ أَنْطُونْيُو   سُرُورِي كُلُّهُ فِيهِ
فَمَا تَأْمُرُ في حَبْرَا   بأيِّ البِرِّ أَجْزِيهِ؟

حبرا [لأنطونيو] :

جائِزَتِي يا سَيِّدِي   تَقْبِيلُ هَذِه اليَدِ

أنطونيو [ضاحكاً] : قَبِّل ولا تَرَدَّدِ

[يقبل يديها بين إقدام وإحجام]:

حبرا :

عَجَبٌ عَيْنَنِيَ لا تَقْـ   ـوَى عَلَى هَذَا الضِّيَاءْ
هَذِهِ كَفُّ إِلَهٍ   جَاءَ في زِيِّ النِّسَاءْ

كليوباترا :

خَلِّنِي مِنْ زُخْرُفِ المَدْ   ح ومِنْ وُزرِ الثَّنَاءْ
ما وَرَاءَ اليَدِ يا عَرَّ   افُ مِنْ غَيْبِ القَضَاءْ؟
أحَضِيضٌ يَوْمِيَ الآ   خِرُ - قُلْ لِي - أَمْ سَمَاءْ؟
خاتَمُ الأَيَّامِ أَوْلَى   باهْتِمَامِ العُظَمَاءْ

حبرا :

مَلْكَتِي يَومُكِ في الأَيَّـ   ـامِ مَنْشُورُ اللِّوَاءْ
نَابِهُ الصُّبْحِ كَيَوْمِ الشَّمْـ   ـسِ عُلْوِيُّ المَسَاءْ
خَطَرَ العِزُّ عَلَيْهِ   ومَشَى فِيهِ الإِبَاءْ
ثُمَّ يَتْلُوهُ بَقَاءٌ   لَمْ يُطَاوِلْهُ بَقَاءْ

أنشو [لزينون]:

رَأَيْتَ الشِّعْرَ قَدْ أَجْدَى   فَمَاذَا قُلْتَ يا فَارْ

زينون :

إلهتي وملاكي كُفّي المُهرِّج عنّي
قَدْ نالَ مِنّي ولَوْلاَ نادِيكِ ما نالَ مِنّي

أنشو :

سَيِّدَتِي عَبْدُكِ أَنْشُو قَدْ صَدَقْ
الفَارُ في مَكْتَبَةِ القَصْرِ نَطَقْ
يَقُولُ إنْ أَسْرِقْ فَزِينُونُ سَرَقْ
هَمِّيَ في الجِلْدِ وهَمُّهُ الوَرَقْ
يَسْطُو عَلَى آثَارِ كُلِّ مَنْ سَبَقْ!

أنطونيو :

إنِّي أَرَى أَنْشُو وأَمْثَالَهُ زَادُوا عَلَى زِينُونَ في الجُرْأَهْ
يا وَيْحَ لِلشَّيْخِ عَلَى فَضْلِهِ أَصْبَحَ في مَجْلِسِهِمْ هُزْأَهْ

أنشو :

هَبُوهُ في الدَّرْسِ بَحْراً هَبُوهُ في العِلْمِ أُمَّهْ
لا يَخْلُقُ العِلْمُ نَفْساً ولاَ يُنَبِّهُ هِمَّهْ
كَمْ عالِمٍ في يَدِ الجاهلين مُلْقَى الأَزِمَّهْ

كليوباترا :

أَقِلَّ المَزْحَ يا أَنْشُو وأَرْسِلْهُ بِمِقْدَارِ
فَلَوْلاَ الجَهْلُ ما رُحْتَ تَقِيسُ اللَّيْثَ بالفَارِ

زينون : يا سَمَاءُ احْفَظِي ويا أَرْضُ صُونِي
أَظْهَرتْ عَطْفَها عَلَى زِينُونِ!

كليوباترا :

يا غانَمِيزْ هاتِ النَّبِيذْ

هـاتِ اسْـقِنِـي واسْقِ الحَـبِيـبْ
وآسْقِ المَلاَ

بولا الشاعر :

بِـنْتُ الـدِّنَـانْ أُمُّ الـزَّمَـانْ
خَبَّأَهَا فــي قَــبْــوِهِ
ساقِي «مِنَا»
لَـوْنُ الـفَـرَحْ حِنَّـا القَـدَحْ[1]
سِـرُّ الـسُّـرورْ صَفْـوُ الحَـيَـاهْ
قُوتُ المُنَى

كليوباترا :

قَيْصَـرُ، ذِي سُـلاَفَـةُ الـفَيُّـومِ[2]
تُـنْمَى إلـى عَـقَـائِـلِ الـكُـرُومِ
مَـخْبُـوءَةٌ مِنْ عَهْـدِ مِصْـرَائِيـمِ
قَـدْ عُـمِّـرْتَ كعُـمُـرِ الـنُّـجُـومِ
دِنَـانُ مِـصْـرٍ لا دِنَـانُ الـرُّومِ

القواد الروم [يدمدمون ويتهامسون]:

قائد :

قُـولُـوا يـا رُومَـانِـيُّـونَـا تَحْيَا رُومَا

آخر : تَحْيَا

ثالث : تَحْيَا

أنشو [ضاحكاً] :

تَحْيَـا الـخَـمْرُ يَحْيَـا الـسُّكْـرُ

---

(١) حنا: أي حناء، وهو صبغ أحمر.
(٢) الفيوم: ناحية بمصر مشهورة بزراعة الكروم

القواد :

تَـحْـيَـا رُومَـا

جماعة من المصريين :

تَـحْـيَـا مِـصْـرُ

أنطونيو :

أَيُّـهَـا الـشَّـادِي أَيَـاسٌ بَـلَـغَ الـسُّـكْـرُ مَـدَاهْ
غَـنِّـنِـي شِـعْـرَ مَـلاَكِـي غَـنِّـنِـي شِـعْـرَ الإِلَـٰهْ
أَنَـا لا أَطْـرَبُ حَـتَّـى أَسْـمَـعَ، «الحُـبُّ الحَـيَـاهُ»

أياس [مغنياً] :

أَنَـا أَنْـطُـونْـيُـو وأَنْـطُـونْـيُـو أَنَـا مَـا لِـرُوحَـيْـنَـا عَـن الحُـبِّ غِنَـى
غَـنِّـنَـا فِي الـشَّـوْقِ أَوْ غَـنِّ بِـنَـا نَحْنُ فِي الحُـبِّ حَـدِيثٌ بَـعْـدَنَـا

رَجَّعَتْ عن شَجْونَا الرِّيحُ الحَنُونْ وبِعَيْـنَـيْـنَـا بَكَـى المُـزْنُ الـهَتُـونْ
وبَعَثْـنَـا مِنْ نُـفَـاثَـاتِ الشُّـجُـونْ فِي حَـوَاشِي اللَّيْـلِ بَـرْقـاً وسَنَـا

خَبِّـرِي، يا كَـأْسُ، واشْهَدْ، يـا وَتَرْ وآرْوِ، يـا لَيْلُ، وحَـدِّثْ، يـا سَحَـرْ
هَـلْ جَنَيْنَا مِنْ رُبَـى لأُنْسِ السَّمَـرْ ورَشَـفْـنَـا مِـنْ دَوَالِـيـهَـا الـمُـنَـى

الـحَيَـاةُ الـحُبُّ والـحُبُّ الـحَـيَـاهْ هُـوَ مِـنْ سَـرْحَتِـهَـا سِـرُّ الـنَّـوَاهْ
وعَـلَى صَـحْـرَائِـهَـا مَـرَّتْ يَـدَاهْ فَـجَـرَتْ مَـاءً وظِـلاًّ وجَـنَـى

نَـحْـنُ شِـعْـرٌ وأغَـانِيُّ، غَـدَا بِـهَـوَانَـا راكِبُ الـبِـيـدِ حَـدَا
وبِـنَـا الـمـلاَّحُ فِـي الـيَـمِّ شَـدَا وبَـكَـى الـطَّـيْـرُ وغَـنَّـى مَـوْهِـنَـا

مَنْ يَكُنْ فِي الحُبِّ ضَحَّى بالكَرَى أو بِمَسْفُـوحٍ من الـدَّمْـعِ جَـرَى
نَحْنُ قَـرَّبْـنَـا لَـهُ مُلْكَ الـثَّـرَى ولَـقِـيـنَـا الـمَـوْتَ فِـيـهِ هَـيِّـنَـا

فِي الهَـوَى لم نَـأْلُ جُهْـدَ المُؤْثِـرِ وذَهَـبْـنَـا مَـثَـلاً فِي الأَعْـصُـرِ
هُـوَ أَعْـطَى الحُبَّ تَـاجَيْ قَيْصَـرِ لِمَ لا أُعْـطِي الهَـوَى تَـاجَيْ مِنَـا

* * *

صوت

مَـرْحَـى مَـرْحَـى يَـحْـيَـا الـفَـنُّ

آخر :

يَحْيَا الشِّعْرُ

ثالث : يَحيا اللحنُ.

[تقوم كليوباترا إلى شرفة فيتبعها أنطونيوس]

قائد روماني [لزميل من زملائه هامساً]:

هَـلاّ نَـظَرْتَ إلى الأَمِيـرَةِ؟ إنَّهـا سَكْـرَى تَعَثَّرُ في خَلِيعِ عِـذَارِهَـا

آخر :

وَتَـأمّـلِ المَفْتُـونَ كَيْفَ جَرَى عَلَى آثَـارِهَـا وانْـجَـرَّ في تَـيَّـارِهَـا

آخر [لزملائه حيث يسمعه أوروس وألمبوس]:

وانْـظُرْ إلـى أُورُوسَ فـي تَـردُّدِهْ يَـأْبَى الهُـتَـافَ مَعَنَـاً لِمَـوْلِـدِهْ

أولمبوس [ساخراً]:

أُوْروسُ مِـلْءُ يَوْمِـهِ مِـلْءُ غَـدِهْ فَتًى تَضِـجُّ الحَـرْبُ مِنْ مُهَنَّـدِهْ

ويَـشْتَـهِي الأَبْـطَالُ فعـلَ سُؤْدَدِهْ قَـد رَاعَنِـي فَـنَـاؤُهُ فـي سَـيِّـدِهْ

بِـنَـفْـسِـهِ وقَـوْمِـهِ ومَـوْلِـدِهْ يَـغْـلُو غُـلُوَّ الكَـلْبِ فـي تَـوَدُّدِهْ

يُـقَـيَّـدُ الـكَـلْبُ وَرَاءَ مَـرْصَـدِهْ فَـيَـحْـرُسُ الـدَّارَ عَـلَى مُـقَـيِّـدِهْ

أوروس :

تِلْكَ الـدُّعَـابَـةُ يـا طَبِيبُ ثَقِيلَةٌ فَحَـذَارِ ثُمَّ حَـذَارِ مِـنْ تَكْـرَارِهَـا

لَـوْلاَ الـوَلِيمَـةُ والشَّـرَابُ وحُـرْمَـةٌ لأَمِيـرَةِ الـوَادِي السَّعِيـدِ ودَارِهَـا

لنَـزَعْتُ مِنْ أَقْصَى لَهَـاتِـكَ مُضْغَـةً كَثُـرَتْ عَلَى الأَبْطَالِ في اسْتِهْتَـارِهَا

أولمبوس :

أوروسُ :

أولـمـبـوسُ صَـهْ بَـرِحَ الـخَـفَـا ورأيتَ نَفْسَك في مفاضِحِ عارِهـ

مــاذا خبأت مِن السّمــوم لِمَلْكـةٍ غفلت عن الأفعى ولؤم جِوارِهـا؟
إلَّا تَكُنْ عَـلِمَتْ فـإنَّـك عِنْـدَنـا جـاسُـوسُ أُكْتـافِيُـو عَلَى أَسْـرَارِهَـا
مـا زِلْتَ مُنْـذُ وَفَـدْتَ تُـطْلِعُـهُ عَلَى أَخْبَـارِ قَيْصَـرَ أَوْ عَـلـى أَخْبَـارِهَـا
إنَّـا رِجَـالَ الحَـرْبِ لَيْسَ يَفُـوتُنَـا لَحْظُ العُيُـونِ ولاَ خَفِـيُّ حِـوَارِهَـا

[أولمبوس يحاول أن يتكلم فيمسك به قائد روماني ويهمس إليه]:

أقْصِـرْ أخِي إنَّ الجَمَـاعَـةَ عَـرْبَـدَتْ فـإذَا لَجَجْـتَ لَفَـتَّ مِنْ أنْـظَارِهَـا
إسْلَمْ بِنَفْسِـكَ في الظَّلام ولاَ تُثِـرْ رِيَبـاً أخَافُ عَلَيْـكَ غِبَّ مَثَـارِهَـا
إنِّي لأخْشَى الكَـأْسَ أنْ تَجْرِي دَمـاً فَتُصِيبَ شَيْئاً مِنْ رَشَـاسِ عُقَـارِهَـا

أولمبوس [لنفسه وهو ينسل إلى الخارج]:

أُورُوسُ! أنطونيـو! حِسَابُكَمـا غَداً رُومَـا الأَبِيَّـةُ لَمْ تَنَم، عَنْ ثـارِهَـا

[يخرج]

أنطونيو [من أقصى البهو]:

أمَـا لِـلرَّقْصِ هَـيـلاَ نَـةُ في لَيْلَتِنَـا حِصَّـهْ؟
ألاَ نَـجْـمَـعُ بَـيْـنَ الـكَـا سِ والـنَّـغْـمَـةِ والـرَّقْصَـهْ؟
فَـهَـذِي فُـرْصَـةُ الأُنْسِ وقَـدْ لا تَـرْجِـعُ الفُـرْصَـهْ

هيلانة :

الـرَّاقِـصَـاتُ يَـقُـمْـنَـا الـرَّاقِـصَـاتُ يَـثِـبْـنَـا
ولاَ يَـدَعْـنَ آفْـتِـنَـانـاً ولا يُـقَـصِّـرْنَ فَـنَّـاً

[تقوم الراقصات، برقصة مصرية]

أنطونيو [قادماً]:

مَـرْحَى مَـرْحَى يَـحْـيَـا الـفَـنُّ

صوت : يَحْيَا الرَّقْصُ

آخر : يَحْيَا الحُسْنُ

أنطونيو :

قـد آنْتَصفَ اللَّيْـلُ أو فـوْقَ ذاكَ ... وآذَنَـنَـا بـالـمُـضِـيِّ الـدُّجَـى
ودُونَ الـخـيـامِ سُـرَى سَـاعَـةٍ ... وعِـنْـدَ الصَّبَـاح تَـدُورُ الـرَّحَى
فَـهَـلْ تَـأْذَنِيـنَ لَنَـا، يـا مَـلاَكُ ... فَـلاَ بُـدَّ مِـنْ سِنَـةٍ مِـنْ كَـرَى
ولَـسْـتُ أقْـولَ، مَـلاَكـي، الـوَدَاعَ ... ولَـكِـنْ أقُـولُ إلـى الـمُـلْتَقَـى

كليوباترا :

مَـكَـانَـكَ قَـيْـصَـرُ لا تَـذْهَـبَـنّ ... ولا تَـبْـرَحِ الـقَـصْـرَ أهْـلِكْ أسَـى

أنطونيو :

ذَريـنـي أُعبِّىءْ لِلْقِتَـالِ كَتَـائِبـي ... فَلِي في غَـدٍ شَأْنَـانِ في البَرِّ والبَحْـرِ
ذَرِيني أُهَيِّىءْ لـلأَحَـادِيثِ في غَـدٍ ... فـإنَّ غَـداً يَـوْمٌ سَيَبْقَى على الـدَّهْـرِ
ذَرِيني أَزِدْ تَـاجَيْـكِ غـارَ وَقَـائِعِي ... وأَقْـرِنْ بِشُعْبَـانِي جَـلاَلِهَـمـا نَـسْـري
ولَسْتُ أَخَـافُ الـدَّارِعِينَ وإنَّـمَـا ... أَخَـافُ فُجـاءَاتِ الخِيَـانَـةِ والغَـدْرِ
ولَـيْـسَ كَمِينَ الحَرْبِ ما أَنَا هائِبٌ ... ولَكِنْ كَمِينَ الغَدْرِ في ظُلْمَةِ الصَّـدْرِ

[لأخيل] :

فَيَـا قائِـدَ الأُسْطُولِ هَـلْ مِنْ مَكِيدَةٍ ... تُـدَبَّرُ لِي خَلْفَ الشِّـرَاعِ وما أَدْرِي؟

كليوباترا :

إمْضِ إلـى الـهَـيْـجَـاءِ أنْـ ... ـطُونْيُـو كَمَـا يَـمْـضِي الأَسَـدْ
إنَّ الأُسُـودَ فـي الـلُّبَـدْ ... دُونَـكَ فـي هَـذَا الـزَّرَدْ

إمْضِ إلـى الـمَـجْـدِ ولاَ ... يُـقْـعِـدْكَ شُـغْـلٌ فـي الـبَـلَـدْ
الـمَـجْـدُ لا يَـسْـأَلُ عَـنْ ... صَـاحِـبَـةٍ ولاَ وَلَـدْ
أنْـتَ لِـرُومَـا فـي غَـدٍ ... وقَـيْـصَـرُونُ بَـعْـدَ غَـدْ
والـشَّـرْقُ سُـلْطَانِـي الَّـذِي ... إكْـلِيـلُهُ لِـيَ انْـعَـقَـدْ
يـا لَـيْـثُ، سِـرْ، يـا نَـسْـرُ، طِـرْ ... عُـدْ ظَـافِـراً أوْ لاَ تَـعُـدْ

ستار

الفصل الثالث

«معبد في الإسكندرية، يقسم جداره المسرح إلى قسمين القسم الأصغر خارج المعبد وتنهض فيه شجرة باسقة، والقسم الأكبر داخله وتظهر فيه حجرة الكاهن الأكبر أنوبيس وعلى جدرانها رفوف نسقت عليها حقاق وقوارير؛ وهنا وهناك صرر وصناديق يشف بعضها عما فيه من أفاع وحيات ـ باب خلفي يؤدي إلى المعبد ونافذة جانبية تطل على الفضاء»

[في حجرة الكاهن أنوبيس]

أنوبيس [يناجي نفسه]:

يَقُولُونَ أُنُوبِيسُ وَلُوعٌ بِأَفَاعِيهِ
ومَشْغُوفٌ بِثُعْبَانٍ مِنَ الوادي يُربّيهِ
وفي نادِيه حَيَّاتٌ مِنَ الجِنِّ تُناجِيهِ
ولَوْ ذاقُوا هَوَى العِلْمِ كَمَا ذُقْتُ فَنُوا فِيهِ
ألاَ يا رُبَّ خَدَّاعٍ مِنَ النَّاسِ تُلاَقِيهِ
يَعِيبُ السُّمَّ في الأَفْعَى وكُلُّ السُّمِّ في فِيهِ

[يخرج من الباب الخلفيّ]

* * *

[خارج الهيكل ـ تحت الشجرة ـ أنطونيوس وأوروس]

أنطونيوس :

أُورُوسُ إنِّــي جَــهِــدْتُ مَــشْــيــاً ومَــسَّــنِــي الــضُّــرُّ والــكَــلَالُ
فَــمِــلْ بِــنَــا نَــسْــتَــرِحْ قَــلِــيــلاً مِــنْ قَــبْــلِ أنْ يَــدهَــمَ الــرِّجَــالُ

[يجلس أنطونيوس منهوكاً على حجر فتأخذه الذكرى]

أورُوسُ، مــاذا دَهَــانِــي؟ حَــتَّــى نَــسِــيــتُ مَــكَــانِــي
أَتَــيْــتُ مــا هَــدّ مَــجْــدِي وحَطَّ رِفْــعَــةَ شــانِــي
جَــلَّلْتُ نَــفْــسِــي بِــعَــارٍ يَــبْــقَــى بَــقَــاءَ الــزَّمَــانِ
لَــمَّــا حَــمَــلْــتُ جَــوَادِي عــلى الــفِــرَارِ ازْدَرَانِــي
وضَــجَّ مِــنِّــي سَــيْــفِــي وضَــجَّ مِــنِّــي سِــنَــانِــي
ووَدَّت الأَرْضُ تَــحْــتِــي لَــوْ طُــهِّــرَتْ مِــنْ عِــيَــانِــي
أَنَــا الَّــذِي كــانَ أَمْــضَــى مِــنَ الــحَــدِيــدِ جَــنَــانِــي
الــشَّــرْقُ يَــدْرِي نِــزَالِــي والــغَــرْبُ يَــدْرِي طِــعَــانِــي
كــانَ الــمُــلُــوكُ عَــبِــيــدِي فَــصِــرْتُ عَــبْــدَ الــحِــسَــانِ
ولَــسْــتُ أوّلَ حُــرٍّ اسْــتَــعْــبَــدَتْــهُ الــغَــوَانِــي

[يسكت لحظة ثم يستمر]:

ولَمْ أرَ كــالحَرْبِ آسْتَــرَاحَ قَتِيلُهَــا وأفْضَى إلى القَيْــدِ الأَسِيرُ المُقَيَّــدُ
ولَكِنْ شَقِيُّ الحَــرْبِ والمُصْــطَلِي بِهَــا
إذا انْفَضَّت الحَرْبُ الــطَّــرِيــدُ المُشَــرَّدُ
ولَــوْلَا اخْتِلَافُ الحَــرْبِ بالنَّــاسِ لَمْ يَهُنْ
عَــزِيــزٌ ولَمْ يَنْــزِلْ عَــلَى القَيْــدِ سَيِّــدُ

أوروس :

وقَــارَكَ، قَــيْــصَــرُ، لا تَــجْــزَعَــنَّ وخَــلِّ المَقَــادِيــرَ تَجْــرِي المَــدَى
تَــلَقَّ الــهَــزِيــمَــةَ ثَبْــتَ الــجَــنَــانِ كمــا كُنْــتَ تَلْقَى الفُتُــوحَ العُلَــى

فَـمَـا أَنْـتَ أَوَّلَ نَـجْـمٍ أَضَـاءَ ولا أَنْـتَ آخِـرَ نَـجْـمٍ خَـبَـا
وقَـدْ تَنْـزِلُ الشَّمْسُ بَعْـدَ الصُّعُـودِ وتَـسْقَـمُ بَعْـدَ اعْـتِـدَالِ الضُّـحَى
ويَـا رُبَّ غَـارٍ عَـرَاهُ الـجُـفُـوفُ عَلَى هَـامَـةٍ قَـدْ عَـلاَهَـا البِلَى
أَمَا لَـكَ أَنْـطُونْـيُـو أُسْـوَةٌ بِـيُـولْيُـوسَ قَـيْصَـرَ أَيْـنَ آنْتَـهَى؟
رَأَيْـتُكَ، والحَـرْبُ تَبْلُو الكُـمَـاةَ فَـأَشْـهَـدُ كُنـتَ إِلَـهَ الـوَغَـى
وقَـد كَـانَ سَيْفُـك غُـولَ السُّيُـوفِ وكَـانَـتْ قَـنَـاتُـك غُـولَ الـقَـنَـا

وكُـنْتَ إذا الـمَـوْتُ أَفْضَى إِلَيْـكَ تَـحَـدَّيْتَـهُ فَـانْثَنى القَـهْـقَـرَى
وكَـان جُـنُـودُكَ شَـرَّ الـجُـنُـودِ عَـلَيْـكَ وخَـيْـرَهُـمُ لِـلْعِـدَا
فـخَـانَـت أَسَـاطِـيـلُ أَمَّلْتَـهـا وجَيْشٌ عَـقَـدْتَ عَـلَيْـهِ الـرَّجَـا
وخُلِّفْتَ فـي عَسْكَـرٍ كَـالنِّعَـاجِ كَثِيـرِ الثُّغَـاءِ قَلِيـلِ الغَـنَـا
فَمِنْ يَـائسٍ مَـاتَ قَبْـلَ القِتَـالِ ومِـنْ خَـائِـنٍ فَـرَّ قَـبْـلَ الـلِّقَـا

أنطونيو :

إذنْ لَمْ أكُنْ في الـوَغَى بـالجَبَـانِ ولا خُـنْتُ وأُورُوس وعَهـدَ الـهَـوَى
وتَـشْـهَـدُ أَنـي أَنْـطُونِـيُـوس وأَنِّي ابْنِ رُومَـا وأَنِّـي الـفَتَـى
فَـإِنْ عِـشْتُ عِـشْتُ نَـقِيَّ الـجَبِينِ وإنْ مِـتُّ مِـتُّ كَـرِيـمَ الـثَّـنَـا

[يرى أنطونيو شبحاً فيسأل أوروس مبهوتاً]

أنطونيو : أُورُوسُ!

أوروس : مَوْلَايَ

أنطونيو : تَأَمَّلْ مَنْ تَرَى؟

أوروس : هَذَا أُولُمْبوسُ وقَدْ حَثَّ الخُطَى

أنطونيو : تُرَى إلـى أَيْنَ؟ ومِنْ أَيْنَ أَتَى؟

أوروس : ها هُوَ سارٍ نَحْوَنَا ها قَدْ دَنَا

[يظهر أولمبوس]

أولمبوس : تَحِيَّةً، قَيْصَرُ

أنطونيو :

بَـل أَنْـطُونْـيُـو لا غَيْـرَ بَـلْ قُـل الشَّرِيـدُ المُقْتَفى
لا تَخْـدَعُـونِي قـادِراً أو عـاجِـزاً كَـفَى غُـروراً بـالـوِلَايَـاتِ كَـفَى

أولمبوس : مَوْلَايَ

أنطونيو :

لَـسْـتُ الـيَـوْمَ مَـوْلَـى أَحـدٍ أُكْـتـافيـو الـسَّيِّـدُ والـعَـبْـدُ أَنَـا
مَــرَرْتَ بـالـقَـصرِ فكَيْفَ نـاسُـهُ؟ هَـلْ عَن كِلُوبَاتْـرَا، أولْمبُوسُ، نَبَـا؟
صَرِّحْ أَبِنْ، قُلّ غَدَرَتْ، قُلْ جَدَّدتْ بِـقَيْـصَـرَ الثـالِـث دُولـةَ الـهَـوَى
قَـدْ صَنَعَتْ بي عِنْدَ ساحـةِ الـوَغَى مـا لَـمْ يَكُـنْ يَصْـنَعـهُ بِيَ العِـدَى
أَسْـطُولُـهـا إلى مَـرَاسِـيـهِ أَوَى وجَـيْـشُـهـا أَلْقَـى السِّـلَاحَ ونَـجَـا

أولمبوس : مَوْلَاي أعْفِنِي

أنطونيو : تَكَلَّمَ لا تَخفْ

أولمبوس :

إنِّـي أَرَى عَـلَيْـكَ رَوْعَـةَ الأَسَـى
مَـولَايَ مَهْـلاً في الـظُنُـون واتَّئِـدْ إنَّ مِـن الـظَّنِّ اتِّـهَـامـاً وأَذَى
أَنْـتَ عـلى مَـا لَـكَ مِـنْ مُـرُوءَةٍ رَمَيْـتَ بـالـغَـدْرِ أَحَـبَّ مَنْ وَفَى

أنطونيو : ماذا تَقُولُ؟

أولمبوس :

كِـيـلُوبـاتْـرَا آنْـتَـحَـرَتْ بِـطَعْنَـةِ الخِنْجَـرِ في صَـدْرِ الضُّحَى

أنطونيو :

يـا للسَّمـاءِ! انْتَحَـرَتْ! أَيْنَ؟ أَبِنْ ولِـمْ؟ وكَيْـفَ كـان ذَاكَ؟ ومَـتَـى؟

أولمبوس :

مَـرَرْتُ بـالقَصْـرِ ضُحَى اليَـوْمِ فَلَمْ   أَجِـدْ لَـهُ نَـظْماً ولا حُسْنـاً يُـرَى
بَــدَا لِـعَـيْـنَـيَّ خَـلاءً مُـوحِـشـاً   غَيْـرَ عَـوِيـلٍ ها هُنَـا، وها هُنَـا

أنطونيو :

إنْـتَـحَـرَتْ! يـا لـلـخَـبَـرْ!   ويـا لِـقَـسْـوَةِ الـقَـدَرْ!
إنَّ الأُمُـورَ آنْـتَـقَـلَـتْ   مِـنْ خَـطَـرٍ إلـى خَـطَـرْ
مـا غَـدَرَتْ وإنَّـمَـا   أنـا الَّـذِي بِـهَـا غَـدَرْ
واخَـجْـلَـتَـا مِـنْ قَـوْلِـهِـمْ   إنْـتَـحَـرَتْ ومَـا آنْـتَـحَـرْ
إذْهَـبْ أولُـمْـبُـوسُ ودَعْـنِـي   والـهُـمُـومَ والـكَـدَرْ
مـا بِـجِـرَاحَـاتِ الـقُـلُـو   بِ لـلأَطِـبّـاءِ بَـصَـرْ

[يذهب أولمبوس]

[لروما] :

رُومَـا حَنَـانَـكِ واغْفِـرِي لِفَتَـاكِ   أَوَّاهُ مِـنْـكِ وآهِ مـا أَقْـسَـاكِ!
رُومَـا سَـلاَمٌ مِنْ طَـرِيـدٍ شـارِدٍ   فـي الأَرْضِ وَطَّنَ نَفْسَـهُ لِـهَـلاَكِ
اليَـوْمَ يَلْقَى المَـوْتَ لم يَهتِفْ بِـهِ   نَـاعٍ ولا ضَجَّتْ عَـلَيْـهِ بَـوَاكِي
إنَّ الَّـذِي أَعْـطَاكِ سُلْطَانَ الثَّـرَى   لَـمْ تُـنْـعِـمـي لِـرُفَـاتِـهِ بِثَـراكِ
إنَّ الَّـذِي بـالأَمْسِ زِنْتِ جَبِينَـهُ   بـالغَـارِ عَقَّـك جُهْـدَهُ وعَصَـاكِ
يـا رُبَّ تـاجٍ فِي جَبِينِـكِ زاهِـرٍ   عَـطَّلْتُ مِـنْـه مَفَـارِقَ الأَمْـلاَكِ
الأُمَّـهـاتُ قُلُوبُـهـنَّ رَقِـيـقَـةٌ   مـا بَـالُ قَلْبِـكِ لم يَلِنْ لِفَتَـاكِ!
أَعْرَضْتِ غَضْبَى في الحَياةِ فَرَحْمَةً   لا تَحْـرِمِينِي في المَمَـاتِ رِضَـاكِ
إنْ كَـانَ مَـوْتِي كُـلَّ مـا تَبْغِينَـهُ   فَهَنَـاكِ! هـأَنَـذَا أَمُـوتُ، هَنَـاكِ!
يَـا أُمُّ، عُـذْرُكِ في اتِّهَـامِ بُنُـوَّتِي   بَـادٍ وعُـذْرِيَ في العُقُـوقِ كَـذَاكِ
لَـوْلاَ الجَمَـالُ وفِتْنَـةٌ مِنْ سِحْـرِهِ   مَـا حَـلَّ في قَلْبِي هَـوًى لِسِـوَاكِ
صَفْحَـاً كِلُوبـاتْـرا فـرُبَّتَ زَلَّـةٍ   قَـدْ كُنْت تَـغْتَـفِـرِينَ حِينَ أَرَاكِ
لَمَّـا لَقِيتُـكِ في الجَمَـالِ وعِـزِّهِ   قَهَـرَتْ قِوَايَ الـظَّافِـرَاتِ قِـوَاكِ

فَنَسِيتُ في نَادِيكِ ذِكْرَ وَقَائِعِي … وسَلَوْتُ أيَّامِي بِيَوم لِقَاكِ
سَجَدَتْ لأَعْلامِي الصَّوَارِمُ والقَنَا … وأَبَى مُهَنَّدُ لَحْظِكِ الفَتَّاكِ
قُدْتُ الجَحَافِلَ والبَوَارِجَ قادِراً … ما لِي ضَعُفْتُ فَقَادَنِي جَفْنَاكِ؟
أَخْرَجْتِ أَمْرِيَ واخْتِيَارِيَ مِنْ يَدِي … وتَرَكْتِنِي نَفْساً بِغَيْرِ مِلاَكِ
خِلْتُ السَّلاَمَةَ في نَوَاكِ فَذُقْتُهَا … فإذا الكَوَارِثُ كُلُّهُنَّ نَوَاكِ
عادَيْتُ قَوْمِي في هَوَاكِ وأضْرَمَتْ … رُومَا عَلَيَّ الحَرْبَ مِنْ جَرَّاكِ
وشَرَدْتُ في شَرْقِ البِلاَدِ وجَدَّ في … طَلَبِي عِدَايَ بِغَرْبِهَا وعِدَاكِ
أَغْدُو عَلَى سَيْفِ العَدُوِّ ونارِهِ … وأَرُوحُ بَيْنَ مَكَامِنٍ وشِبَاكِ
وتَلَمَّسَتْ نَفْسِي السُّيُوفُ وَرَامَنِي … في البَرِّ والبَحْرِ الكَمِيُّ الشَّاكِي
كَانَتْ حَيَاتِي للرِّجَالِ أَلِيَّةً … واليَوْمَ هُنْتُ فأَقْسَمُوا بِهَلاَكِي
ولَقَدْ ذَهَبْتُ مِنَ الظُّنُونِ مَذَاهِباً … فَذَمَمْتُ عَهْدَكِ واتَّهَمْت وَفَاكِ
حَتَّى إذا حُمَّ القَضَاءُ وراعَنِي … عُطْلُ المَقَاصِرِ مِنْ بَهَاءِ حُلاَكِ
ضَحَّيتُ بالدُّنْيَا وقُلْتُ رَخِيصَةٌ … وبَذَلْتُ أيَّامِي وقُلْتُ فِدَاكِ
أَمَاناً إلَه الحَرْبِ ما أَنْتَ صانِعٌ … بِهَذَا الحُطَامِ المُسْتَبَاحِ المُبَعْثَرِ؟
لَقَدْ ذَلَّ مِنْ بَعْدِ امْتِنَاعٍ كَأنَّهُ … بَقِيَّةُ نَصْلٍ أَوْ رُفَاتُ غَضَنْفَرِ
صَدَعْتَ أكَالِيلي وحَطَّمْتَ صارِمِي … وجَرَّدْتَنِي مِنْ أُرْجُوَانِي المُظَفَّرِ
ولَمْ تَأْلُنِي هَدْماً وكُنْتَ بَنَيْتَنِي … بِنَاءَ الصَّنَاعِ القَادِرِ المُتَجَبِّرِ
مَلأْتَ سَبِيلِي بالهَوَى وصُرُوفِهِ … ومَنْ يَمْشِ في أَرْضِ الهَوَى يَتَعَثَّرِ
تَنَكَّرْتَ حَتَّى آخْتَرْتَ لِي مِعْوَلَ الهَوَى … فَلَيْتَكَ لَمْ تَغْضَبْ ولَمْ تَتَخَيَّرِ
أُرُوسُ غُلاَمِي، إنَّ في النَّفْسِ حاجَةً

أوروس :
وعِنْدِيَ أَقْصَى طاعَةِ العَبْدِ فأْمُرِ

أنطونيو :
أُرُوسُ أرى الدُّنْيَا بِعَيْنَيَّ أَظْلَمَتْ … وكانَتْ قَدِيماً كالصَّبَاحِ المُنَوَّرِ
وضَاقَتْ بِيَ الأَرْضُ الفَضَاءُ فَكُلُّها … سَبِيلُ طَرِيدٍ ضائِعِ الدَّمِ مُهْدَرِ
غَوَيْتُ وأوْفَى بي عَلَى الحُفْرَةِ الهَوَى … فَخِفْتُ، ومَنْ يَرْكَبْ شَفَا الجُرْفِ يُذْعَرِ

قُشَعْرِيرَةُ الخَوْفِ اعْتَرَتْنِي ولَمْ تَكُنْ	إذا ما اقْشَعَرّتْ تَحْتِيَ الأَرْضُ تَعْتَرِي
مُلِئتُ مِنَ الأَحْدَاثِ رُعْباً فضُمَّنِي	إلَيْكَ وقَرِّبْ مِنْ إزَارِكَ مِئْزَرِي
أَرَى المَوْتَ مَمْدودَ اليَدَيْنِ كَمنْقِذٍ	لِمثْلِيَ مِنْ غَرْقَى الحَيَاةِ مُسَخَّرِ
دَعَانِي، ولَوْ أنِّي على النَّفْسِ مُشْفِقٌ	مَدَدْتُ إلَيْهِ الكَفَّ لم أتأَخَّرِ
أُروسُ، أَرَى الماضِي يُطِيفُ خَيالُهُ	وتَعْرِضُ لي أَحْلامُهُ في التذَكُّرِ
ذَكَرْتُ بِرُومَا أرْبُعِي ومَلاَعِبي	وأَيْنَ ضِفَافُ النِّيلِ مِنْ شَط تِيْبِرِ؟[1]
وأَيَّامَ يَدْعُونِي الهَوَى فأُجِيبُه	ويَنْفَخُ في البُوقِ المُنَادِي فأنْبَرِي
فَتنْتُ الغَوَانِي بُرْهَةً وَفتنَّنِي	ولَكِنَّنِي عَنْ سُؤْدَدٍ لم أُقصِّرِ
فَهِمَّةُ قَلْبِي في شَرَابٍ وصَبْوَةٍ	وهِمَّةُ نَفْسِي في عَلاَءٍ ومَفْخَرِ
أُرُوسُ تَوَاقَفْنا على كُلِّ غَمْرَةٍ	وكُلِّ مَجَالٍ ثائِرِ النَّقْعَ أَكْدَرِ
وفي مِهْرَجانِ الفاتِحين وعُرْسِهِمْ	وتَحْتَ لِوَاءٍ أو عَلَى عُودِ مِنْبَرِ
فَمَالَتْ بِنَا الدُّنْيَا فصِرْنَا بِمَوْقِفٍ	شَدِيدٍ على الأَبْطَالِ بالذُّلِّ مُشْعِرِ
نَرَى الأَرْضَ فيه والسَّمَاءَ تَنَاهَتَا	إلى فَلَكٍ نَحْسِ الجِهَاتِ مُسَمَّرِ
فَكَيْفَ مُقَامِي يا أُرُوسُ على الأَذَى	وصَبْرِي على العَيْشِ الذَّلِيلِ المُكَدَّرِ!

أروس :

أَجَلْ، قَيْصَرُ، آعْتَضْنَامِن العِزّ ذِلَّةً	ومِنْ حِلْيَةَ الأَعْلاَمِ عُطْلَ التَنَكُّرِ
فهُنَّا كأَنْقَاضِ الحُصُونِ على الثَّرَى	وضِعْنَا عَلَيْهِ كالقَنَا المُتَكَسِّرِ
نَهِيمُ كأَبْنَاءِ السَّبِيلِ وطالَمَا	أخَفْنَا سَبِيلَ العَاهِلِ المُتَكَبِّرِ
ومَا مَنْزِلُ الأَبْطَالِ إلاَّ رَحَى الوَغَى	إذا هِيَ دَارَتْ أو رُوَاقُ المُعَسْكَرِ

أنطونيو : فماذا تَرَى أُورُوسُ؟

أروس :

رَأيُكَ أوَّلٌ	وعِنْدَكَ تُرْجَى نَظْرَةُ الصِّدْقِ فانْظُرِ
لَقَدْ عِشْتُ ظِلاًّ لا أَرَى غَيْرَ ما تَرى	ولا خَيْرَ في الرأْيِ التَّبِيعِ المُسَيَّرِ

---

(١) التيبر: نهر بإيطاليا.

أنطونيو :

أُروسُ، أنا الأَعْمَى وأَنْتَ لِي العَصَا فَخُـذْ بِـزِمَـامِ الـعَـاجِـزِ المُتَحيِّـرِ

أروس :

أَرى مـا يَـراه العـاجِـزُونَ إذا جَـرى على النَّفْسِ مَحْتُومُ القَضَاءِ المُقـدَّرِ

أنطونيو :

ومـاذا يَقُـولُ العـاجِـزُونَ إذا ابْتُلُوا؟

أروس : يَقُولُونَ حُكْمُ الله، يـا نَـفْسُ، فاصْبِرِي

أنطونيو :

أُروسُ، يَقُــومُ العــاثِــرُونَ وقَلّمــا يُقَــالُ عِثَــارُ الكَــوْكَبِ الـمُتـغـوِّرِ

أُروسُ، أَلَم تَفْهَمْ؟ هو الذُّلُّ فاشْفِنِي بِضَــرْبَــة سَيْفٍ أو بِــطَعْنَةِ خِنْجَـرِ

فــإنَّــكَ حُــرٌّ إنْ فَــعَـلْتَ وفــائــزٌ بِسَيْفِي وأَثْــوَابِي ودِرْعِي ومِغْفَــرِي

أوروس :

مَعـاذَ خِـلاَلِ البِـرِّ مَـوْلاَيَ! أَعْفِنِي فَلَيْسَ يَدِي تَقْوَى ولا السَّيْفُ يَجْتَرِي

وأَنْتَ الَّـذِي لَـوْ بِيـعَ بـالـرُّوحِ وُدُّهُ وما لِي سِوَى رُوحِي تَقَدَّمْتُ أَشْتَرِي

لآلهـة الـرُّومــان أَشْكُوكَ، قَيْصَــرِي ظَلَمْتَ فَـلَمْ تُنْـصِفْ وَلاَئِـي وتَقْــدُرِ

أَتَجْعَـلُ في المِيـزانِ حُبِّي وطَـاعَتِي وشَتَّى عُـرُوضٍ مِنْ ثِيَابٍ وجَـوْهَـرِ؟

لَقد جاد لِيَ بالسَّيْفِ والدِّرْعِ قَيْصَـرٌ

[يطعن نفسه بخنجره]

وجُــدْتُ بـأيَّــامِ الحَيـاةِ لِقَيْصَــرِ

أنطونيو :

أُورُوسُ عَفْــواً قــد ذَهَبْتَ ضحِيَّــةً وجَنَى عَلَيْـكَ تَـردُّدِي المَـمْقُــوتُ

فَعَلِمْـتَ مِنـي كَيْـفَ يَجْبُنُ قَـيْصَــرٌ وعَلِمْتُ مِنْــكَ العَبْـدُ كَيْفَ يَمُــوتُ

[يطعن أنطونيو نفسه فيخر على الأرض جريحاً]

[ينتقل المشهد إلى داخل المعبد حيث يدخل أنوبيس إلى حجرته ويناجي أفاعيه]

أنوبيس :

هَلُمَّ لَكُنَّ بَنَاتِ التِّلاَلْ وجِنَّ الخَرَائِبِ مِنْ صالْحَجْر
تَبدَّلَ مِنْ حَوْلِكُنَّ المَكَانُ وأَيْنَ القِفَارُ وأَيْنَ الحُجَرْ
يَدُ العِلْمِ وهِيَ حَدِيدِيةٌ حَوَتْكُنَّ مِنْ جَنَباتِ الحُفَرْ
وجاءَتْ بِكُنَّ إلى حُجْرَتي أَسَارَى القَوَارِيرِ رَهْنَ الصُّوَرْ
أرابَني النَّاسُ في أَمْرِكُنّ وصِرْتُ حَدِيثَهُمُ والسَّمَرْ
وقِيلَ أَنُوبِيسُ حاوٍ تَسِيلُ إلَيْهِ الأفَاعِي إذا ما صَفَرْ
وما فِتْنَتِي بِجُلُودٍ لَكُنَّ مُرَقَّشَةٍ كإهَابِ النَّمِرْ
ولا بِهَيَاكِلَ مِثْلِ العِصِيّ مِن اللَّحْمِ لا مِنْ فُرُوعِ الشَّجَرْ
ولا بِرُؤوسٍ كَدِقِّ الحَصَى ولا بِعُيُونٍ كَوَقْدِ الشَّرَرْ
ولَكِنْ أُزاوِلُ عِلْمَ السُّمُومِ وعِلْمُ السُّمُومِ جَلِيلُ الخَطَرْ
لَقَدْ كَانَ لِي في مُعَانَاتِهِ تَجَارِيبُ أَنْفَقْتُ فيها العُمُرْ
إلى أَن نَجَحْتُ، نَعَمْ قَدْ نَجَحْتُ وعاقِبَةُ الصَّابِرِينَ الظَّفَرْ
فَكَمْ قَد شَفَيْتُ بِطبِّي اللَّدِيغ وأَيْقَظْتُ مِنْ نَزْعِه المُحْتَضَرْ
فَقِيلَ إلهٌ أَعَادَ الحَيَاةَ إلى المَيْتِ أو خِدْنُ جِنٍّ سَحَرْ
صَنَعْتُ مِن السُّمِّ تِرْيَاقَهُ وقَدْ يَخْتَفِي النَّفْعُ تَحْتَ الضَّرَرْ
وأنتُنَّ والنَّاسُ قد تَلْتَقُونَ فَفِيكُنّ شَرٌّ وفي النَّاسِ شَرّ

[يدخل حابي خلسة]

أنوبيس [مستمراً] :

وتَقْتُلْنَ عُمْيَ عُيونِ السِّلاَحِ ويَقْتُلُ قاتِلُهُمْ عَنْ بَصَرْ
لِسَانُ ٱبْنِ آدَمَ أو نابُكُنّ كِلاَ السَّائِلَيْنِ لُعَابُ القَدَرْ

حابي : سَلاَمٌ أَبَتِ

أنوبيس :

حابي؟ سَلاَمٌ لَكَ يا حابِي

حابي

أَمَشْغُولٌ أبِي، اليَوْمَ بِذاتِ القَرْنِ والنَّابِ
وأنْطُونْيُوسُ مَهْزُومٌ وأكْتَافيُو على البَابِ؟

أنوبيس [باستخفاف وهو يشير إلى أفعى]:

حابِي، تَقَهْقَرْ ناحِيَهْ تِلْكَ الخَبِيثَةُ داهِيَهْ

[يتقهقر حابي قليلاً بينما يلهو الكاهن أنوبيس بالحِقاق والقوارير]

تِلْكَ القَوَارِيرُ وذِي الحِقَاقُ غَوْثٌ إلى مُسْتَنْجِدٍ يُسَاقُ
لِكُلِّ سُمٍّ عِنْدَها تِرْيَاقُ

حابي :

أَبَتِي، مَنْ لِلرَّعِيَّهْ مَنْ لأوْطَانِي الشَّقِيَّهْ؟
خَلِّ حَيَّاتِكَ في الأسْفَاطِ واشْعُرْ بالرَّزِيَّهْ
بَعْدَ حِينٍ تَمْلأُ الوَا دِيَ الأفَاعِي البَشَرِيَّهْ
أَبَتِي نَحْنُ مِنَ اليَوْ مِ عَبِيدُ القَيْصَرِيَّهْ
أَدْنِ أُذْنَيْكَ عَلَى قَدْ سِهِمَا مِنْ أُذُنَيَّهْ
واسْمَعِ البُوقَ تَجِدْ مِنْ أَحْرُفِ الرِّقِّ دَوِيَّهْ

أنوبيس :

حابِي، تقَبَّلْ هَذِهِ القِنِّينَهْ واقْبِضْ عَلَيْهَا بِيَدٍ ضَنِينَهْ
فإنَّها ذَخِيرَةٌ ثَمِينَهْ

حابي [لنفسه] :

يا لِلسَّمَاءِ لأَبِي! تُراهُ يَسْتَهْزِئُ بِي؟
وَيْحٌ لَهُ، عَسَاهُ جُـ نَّ أوْ لَعَلَّهُ نَبِي
أَوْحَتْ لَه السَّمَاءُ عِلْـ مَ غَيْبِها المُحَجَّبِ
يَعْلَمُ مَنْ يُلْدَغُ مِنْ رَقْطَاءَ أوْ مِنْ عَقْرَبِ
لأَحْمِلَنَّ حُقَّهُ مِثْلَ تَمِيمَةِ الصَّبِي

يـا لَـكَ شَـيْخـاً طَـيِّبـاً يَـأْتِـي بِـكُـلِّ طَـيِّـبِ

[مخاطباً أنوبيس الكاهن]:

رِيـعَ الـحِمَـى أَبِـي فَكَيْـ ـفَ لِلْحِمَى لَمْ تَغْضَبِ؟
دَعِ الأَفَـاعِـي واشْتَـغِـلْ بـالأُفْـعُـوَانِ الأَجْـنَـبِ
الـوَطَـنُ الـمَـلْدُوغُ أَوْ لَـىَ الـيَـوْمَ بـالـمُـطَبِّـبِ

أنوبيس :

وأَيْـنَ كُـنْـتَ يـا فَـتَـى وأَيْـنَ فِتْـيَـانَ الـحِـمَـى؟
وأَيْـنَ فُـرْسَـانُ الـمَـقَـا لِ هَـلْ مَضَـوْا إلى الـوَغَى؟
أَدَرْتُـمُ وُجُـوهَـكُـمْ سـاعَـةَ دارت الـرَّحـى
تـركـتـمُ أَنـطونـيـو سَ وَحْـدَه يَـلْقَـى الـعِـدَى
مِـنْ أَجْلِكُـمْ سَـلَّ الـحُسَـا مَ وإلَـى الـحَـرْبِ مَـشَـى
مـا كـانَ ضَـرَّكُـمْ لـو الْـ ـتَـفَـفْـتُـمْ عَـلَى الـلِّوَا؟
أَبَـعْـدَ أَنْ حَـلَّ على الـنِّـ ـيـلِ وَوَادِيـهِ الـقَـضَـا
ولَـمْ يَـجِـدْ مِـنْ شِـيـبِـهِ ولا شَـبَـابِـهِ فِـدَا
أَتَـيْـتَ تَـدْعُـونِـي كَـمَـا تَـدْعُـو العَجَـائِـزَ الـسَّمَـا
الـرَّأْيُ لَـيْـسَ نـافِـعـاً إذا أَوَانُـهُ مَـضَـى

[يدخل جند من حرس الملكة]

الجندي : مَوْلَايَ، ذاتُ الجَلَالَةْ

أنوبيس : المَلْكَةُ الآنَ عِنْدِي؟

[تدخل كليوباترا في حاشيتها]

كليوباترا : تَحِيَّةً يا أَبَتِ

أنوبيس : سَيِّدتي في حُجْرَتِي

مُـرِي بِـمَـا شِئْـتِ يَـكُـنْ وإنْ تَـحَـدَّى قُـدْرَتِـي

كليوباترا :

أَبي، أَعَلِمْتَ أَنَّ الجَيْشَ وَلَّى وأَنَّ بَـوَارِجِي أبَتِ المُضِيَّـا

أنوبيس :

عَلِمْتُ وكانَ ذَلِكَ في حِسَابِي ... وذا حـابِي بِـهِ أَفْضَـى أَلَيَّـا

كليوباترا :

وهَـلْ نَبَّـاكَ عن أَنْـطُونيُـوس ... وكَيْفَ جَـرَتْ هَـزِيمَتُـه عَلَيَّـا

ومـا أَدْرِي أأَرْدَوْهُ قَـتِـيـلاً ... صَبَـاحَ اليَوْمِ أو أَخَـذُوهُ حَيًّا؟

أَبِي ذَهَبَ الحَلِيفُ فكُنْ حَلِيفِي ... فَقَـدْ أَصْبَحْتُ لا أَجِدُ الـوَلِيّـا

أَبِي خِفْـتُ الحَـوَادِثَ

أنوبيس :

لا تُرَاعِي ... لَبَـاةُ النِّيلِ لَيْسَ تَخَـافُ شَيّـا

كليوباترا :

أَبِي لا الْعَـزْلَ خِفْتُ ولاَ المَنَـايَـا ... ولَـكِـنْ أن يَـسِـيـرُوا بِـي سَـبِـيّـا

أَيُـوطَـأُ بـالمَنَـاسِمِ تـاجُ مِصْـرٍ ... وثَـمَّـةَ شَـعْـرَةٌ فـي مَـفْـرِقَـيّـا؟

أنوبيس [باستخفاف]

لِـتَـأْتِ الـمَـقَـادِيـرُ أو فَـلْتَـذَرْ ... تَـعَـالَيْ كِلُوبَـتْـرَا أَلْـقِي الـنَّـظَرْ

كليوباترا :

أَفَـاعٍ ؟ أَبِـي، نَحِّـهـا، أَخْـفِـهَـا؟ ... أَعُـوذُ بـإيـزِيسَ مِـنْ كُـلِّ شَـرّ

فَـمَـاذا تُـريـدُ بـإحْـرَازِهِـنَّ ... وهَـلْ يَقْتَنِي عـاقِـلٌ مـا يَـضُـرّ؟

أنوبيس :

أَتَـيْتُ بِـهِـنّ لِـدَرْسِ الـسُّـمُـومِ ... ولَـمْ أَخْـلُ في عِـلْمِهَـا مِـنْ نَـظَرْ

أُدَاوِي بِـهَـا أو بِـتِـرْيَـاقِـهَـا ... مُـحِـبَّ الـحَـيَـاةِ أو الـمُـنْـتَـحِـرْ

كليوباترا [كأنما تحدث نفسها]:

مُحِبَّ الحَيَاةِ أو المُنْتَحِرْ!

كَفَى أَيُّهَـا الشَّيْخُ! بَـلْ هـاتِ زِدْ ... فَـمَـا بِيَ خَـوْفٌ ولاَ بِـي خَـوَرْ

وإنْ تَـكُ بِي خَشْـيَـةٌ في الـنِّـسَـاءِ ... فَـلِي جُـرْأَةُ الـمَـلِكَـاتِ الـكُـبَـرْ

تَكَلَّمْ فَلَيْسَتْ سُمُومُ الأَرَاقِمِ في الخُبْث دُونَ سُمُومِ البَشَرْ
فَيَا رُبَّ صَفْوٍ سَقَيْتُ الرِّجَالَ فَلَمَّا تَرَوَّوْا سَقَوْنِي الكَدَرْ

أنوبيس :

قِصارٌ وهُنَّ سِهَامُ المَنُونِ ولَيْسَ يَعِيبُ السِّهَامَ القِصَرْ
تَمَسُّ الفَرِيسَةَ مَسَّ السِّنَانِ وتَمْضِي مَضَاءَ الحُسَامِ الذَّكَرْ
وكُلُّ الَّذِي لَمَسَتْ مَقْتَلٌ ولَوْ أَنْشَبَتْ نَابَها في ظُفُرْ
إذا جَرَحَتْ لم تَقُمْ عَنْ دمٍ كَذَلِكَ يَجرُحُ سَهْمُ القَدَرْ
ومائِتُهَا لا يُحِسُّ المَنُونَ كَمَنْ ماتَ في النَّوْمِ لا يُحْتَضَرْ

كليوباترا [مرددة قوله في صوت خافت]:

ومَائِتُهَا لا يُحِسُّ المَنُونَ كَمَنْ ماتَ في النَّوْمِ لا يُحْتَضَرْ!
ولَكِنْ أبِي هَلْ يُصَانُ الجَمَالُ؟

أنوبيس : نَعَمْ لا يَحُولُ ولاَ يَنْدَثِرْ

كليوباترا : وهَلْ يَطفَأُ اللَّوْنُ؟

أنوبيس :

لا بَلْ يُضِيءُ كَمَا رَفَّ بَعْدَ القِطَافِ الزَّهَرْ

كليوباترا :

وهَلْ يُبْطِلُ المَوْتُ سِحْرَ الجُفُونِ ويُبْلِي الفُتُورَ ويُفْنِي الحَوَرْ

أنوبيس :

كَعَهْدِ العُيُونِ بِطَيْفِ الكَرَى إذا الجَفْنُ ناءَ به فانْكَسَرْ

كليوباترا : أبِي، والشِّفَاهُ؟

أنوبيس :

لَوَاقِي الذُّبُولِ كما آحْتُضِرَ الأُقْحُوانُ النَّضِرْ
وما المَوْتُ أَقْسَى عَلَيْهَا فَماً ولا قُبْلَةً مِنْ عَوَادِي الكِبَرْ

كليوباترا : وما عَضّةُ النَّابِ؟

أنوبيس :

وَخْـزٌ أَخَـفُّ وأهْـوَنُ مِـنْ وخَـزَاتِ الإبَـرْ

كليوباترا : وما شَبَحُ المَوْتِ؟

أنوبيس : ماذا أقُولُ؟

كليوباترا : تُمَثِّلُهُ لِي كأنْ قَدْ حَضَرْ

أنوبيس :

زَعَمْتِ ابْنَتِي المَوْتَ شَخْصاً يُحَسُّ . وعَـظَّمْتِ مِنْ خَـطْبِـهِ مـا صَغُـرْ
ومـا هُـوَ إلاَّ انْـطِفَـاءُ الـحَـيَـاةِ وعَـصْفُ الـرَّدَى بِسِـرَاجِ العُـمُـرْ
ولَـيْسَ لَـهُ صُـورَةٌ فـي الـعُـيُـونِ على قُبْـحٍ صُـورَتِـهِ في الفِـكَـرْ
إذا جـاء كـانَ بَـغِيضَ الـوُجُـوهِ وإنْ جِيءَ كـانَ حَبِيـبَ الـصُّـوَرْ

كليوباترا :

إذَنْ هـذِهِ الـرُّقْطُ فـي ذِمَّـتِـي فَصُنْهَـا وأَحْسِنْ عَلَيْهَـا السَّهَـرْ
وأقْـسِـمْ لَـتَـأْتِ إلـيَّ بِـهِـنَّ ولَـوْ أنَّ دُونِـي الـظُّبَـى والـسُّـمُـرْ

أنوبيس :

يَـمِـيـنـاً بـإيـزِيسَ أَحْمِـلُهُـنَّ إلَيْـكَ ولَـوْ في سِـلَالِ الـخُضَـرْ
إذا بـاتَ فـي خَـطَرٍ تـاجُ مِصْـرَ سَـبَـقْـتُ إلَـيْـكَ بِـهِـنّ الـخَـطَرْ

كليوباترا :

أَتَـجْـعَـلُ لـي يـا أَبِـي آيَـةً أَمِيـزُ الـرّسُـولَ بهـا إن حَضَـرْ؟

أنوبيس :

هـو الـتِّـيْـنُ أَبْعَـثُ حـابِي بِـهِ وبـالـرُّقْطِ بَيْنَ غُـضُـونِ الـثَّمَـرْ

* * *

إبْـنَـتِـي ذَلِـكَ مِـحْـرَا بِـي ادْخُـلِيـهِ لـلصَّـلاةْ

واسْـكُـبِـي الـدَّمْـعَ عَـسَـى أنْ يَـقْـبَـلَ الـدَّمْـعَ الإلَـٰهْ
هُـوَ ذو الـمُـلْكِ الَّـذِي يَـبْـقَـى ويَـفْـنَـى مـا سِـوَاهْ

[خارج الهيكل ـ ثلاثة جنود رومانية]

الجندي الأول :

تَحْيَـا رُومَـا يَحْيَـا قَيْصَـرْ

الجندي الثاني :

رُومَا العُظْمَى أبَـداً تُنْصَـرْ

الجندي الثالث : ما ذاكَ؟ ما فَوْقَ الطَّرِيق؟ ما أَرَى؟
مِـيـلاَ رَفِـيـقَّـي مَـعِـي
لِنَنْظُرا

الأول : هُنَـاكَ مَقْتُـولاَنِ ضَـرَّجَـاً الثَّـرَى

الثاني : نَـعَـمْ أَرَى ثَـمَّ دمـاً وخِـنْـجَـرَا
وهَـيْـكَـلَيْـنِ مِـنْ حَـيَـاةٍ
أَقْفَرَا

الثالث :
جُـبْـتَـارُ يـا مُـصَـرِّفَ الـحُـرُوبِ بـارِكْ لَـنَـا في هَـذِهِ الـجُـيُـوبِ!
وآبْعَثْ لَنَا بالذَّهَبِ المَحْبُوبِ

الأول : يا عَجَبَ الأَقْدَارِ! أَنْطُونْيُوسُ؟

الثاني : أَنْطُونِيُو! أجَلْ وذا أُورُوسُ!
وأَحْسَـبُ الـسَّـيِّـدَ مـاتَ بِـيَـدِهْ ثُـمَّ حَـذَا الـعَـبْـدُ مِـثَـالَ سَـيِّـدِهْ
لَهْفِي عَلَى أَنْطُونيُو في مَرْقَدِهْ

[يئن أنطونيو ثم يحرك رأسه ويتبين الجنود]

أنطونيو :
وَيْحِي أَحَيٌّ أنـا جَـرِيـحٌ؟ مـاذا يُـريـدُ القَضَـاءُ مـاذَا

جُنُودُ أُكْتَافَ أَدْرِكُونِي يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا

جندي :

لا بَلْ جُنُودُكَ لَكِنْ خانُوكَ حُبّاً لِرُومَا

آخر :

ومَا نَسُوكَ عَلَيْهِمْ تَحْتَ اللِّوَاءِ زَعِيمَا
تَرْمِي بِهِمْ مَطْلَعَ الشَّمْسِ أَوْ تَؤُمُّ النُّجُومَا

أنطونيو :

يَا جُنُودِي وصِحَابِي لَيْسَ ذا وَقْتَ العِتَابِ
أتْرُكُونِي وعَذَابِي

[يغمى عليه]

جندي :

لَهْفِي عَلَيْهِ عادَهُ الإغْمَاءُ وأَوْشَكَتْ تَنْزِفُه الدِّمَاءُ
ولَيْسَ إسْعَافٌ ولَيْسَ مَاءُ

آخر :

هَلُمَّا احْمِلاَهُ هَلُمَّا احْمِلاَ وجِيئَا بِمَوْلاَكُمَا الهَيْكَلاَ
وأَمْضِي فأُبْلِغُ أكْتَافيُو الْحَدِيثَ أُعَرِّفُه المَنْزِلاَ

[في حجرة الكاهن ـ كليوباترا والكاهن والحاشية عائدين من المحراب]

كليوباترا :

أبِي دَخَلْتُ ونَفْسِي حَيْرَى الزِّمَامِ حَزِينَهْ
وقَدْ تَرَكْتُ المُصَلَّى ومِلْءُ قَلْبِي سَكِينَهْ
إن الصَّلاَةَ على شِدَّةِ الزَّمَانِ مُعِينَهْ

[يسمع صوت الجند من الخارج]

كليوباترا :

ما تَسْمَعُونَ أَصِيخُوا شَرٌّ وهٰذَا بَرِيدُهْ
كَانَ الضَّجِيجُ بَعِيداً والآنَ يَدْنُو بَعِيدُهْ

حابي :

أَسَمِعْتُمْ! ضَجَةٌ صاخِبَةٌ   وجَرِيحٌ وجُنُودٌ في الطَّرِيقْ
ها هُمُ قد دَخَلُوا الدَّارَ بِهِ

أنوبيس : دارُنا الشَّاطِيءُ لا يَأْبَى الغَرِيقْ

حابي : ها هُمْ قَدْ حَضَرُوا

أنوبيس :

يا مَرْحَباً   أَعَدُوّاً كان أَمْ كانَ الصَّدِيقْ

[يدخل الجنديان اللذان يحملان أنطونيوس]

كليوباترا :

وَيْحَ عَيْنِي ماذا تَرَى؟ ومَن المَحْـ   ـمُولُ كالسَّيْفِ في الأَكُفِّ خَضِيبَا؟
أيُّها الجُنْدُ ما بِأَيْدِيكُمُ اليَوْ   مَ؟

جندي : جَرِيحٌ على الطَّرِيق أُصِيبَا

كليوباترا : أَفَتَدْرُونَ مَن حَمَلْتُمْ؟

جندي :

حَمَلْنَا   هَيْكَلاً عَزَّ في الرِّجَالِ ضَرِيبَا
قَدْ عَرَفْنَاهُ خَيْرَ مَنْ هَزَّ رُمْحاً   ونَضَا صارِماً ولاقَى الحُرُوبَا

[تتأمل كليوباترا في وجه الجريح]

كليوباترا :

آهِ أَنْطُونْيُو حَبِيبِي   أَدْرِكُونِي بِطَبِيبِ
ما تَرَوْنَ الأَرْضَ تَرْوَى   مِنْ دَمِ اللَّيْثِ الصَّبِيبِ
أَبَتِي، أَيْنَ قِوَى طِبِّكَ   والسِّحْرِ العَجِيبِ
هُوَ في إغْمَاءَةِ الجُرْ   حِ فنَبِّهْهُ بِطِيبِ
هُوَ ذا يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ   ويُصْغِي لِنَحِيبِي

أنوبيس [محاولاً إسعاد الجريح]:

تِـلْكَ أَنْـفَـاسُـهُ تَـوَالَـى وهٰـذَا جِسْمُـهُ لا يـزَالُ غَـضّـاً رَطِيبَـا
هُـوَ ذا قَـدْ تَـخَلَّجَـتْ شفَـتَـاهُ وتَـهـيّـا لِـسَـانُـهُ لِـيَـثُـوبَـا
أَيُّـهَـا المَـلْـكَـةُ ارْفُقِي بِجَـرِيـح بـاتَ تَحْتَ الـرِّدَاءِ جُـرْحـاً صَبِيباَ
لا تُـنَـادِيـهِ بِـالـدُّمُـوعِ مِـرَاراً رُبَـمَـا ضَـرَّ جُـرحَـهُ أنْ يُجِيبَـا

أنطونيو :

كِـيـلُبَتْـرا! عَـجَـبٌ! أَنْـتِ هُـنَـا! لَمْ تَمُـوتِي.. هُمْ إذنْ قَـدْ كَـذَبُـونْ

كليوباترا :

سَيِّـدِي، رُوحِي حَيَـاتِي، قَيْصَـرِي أَنْتَ حَيٌّ؟

أنطونيو : بَعْدَ حِينٍ لا أَكُونْ

كليوباترا :

مَنْ نَعَـانِـي كَـذِبـاً! مَنْ قـالَـهـا لَكَ!

أنطونيو : أُولُمبُوسُ النَّذْلُ الخَؤُونْ

مَـرَّ فـاسْـتَـوْقَـفْـتُـهُ أَسْـأَلُـهُ قـال مـاتَتْ فَتَجَـرَّعْتُ الـمَنُـونْ

كِـيـلوبـاتَـرْا زَوِّدِيـنِـي قُـبْـلَةً مِنْ ثَنَـايَـاكِ العِـذَابِ الشَّبِمَاتْ[1]
وأَضِـيئِـي بِـسَـنَـاهَـا مُـقْـلَـةً يُسْدِلُ المَوْتُ عَلَيْهَـا الظُّلُمـاتْ
سَيَقُـولُ النَّـاسُ عَنِّي في غَـدٍ مِنْ أُولِي الـرَّحْمَةِ أو أَهْلِ الشَّمات
بَـطَلٌ لَـم تَـظْفَـرْ الـحَـرْبُ بِـهِ في الهَـوَى تَحْتَ لِوَاءِ الحُبِّ مـاتْ

[يسلم الروح]

كليوباترا :

قَـدْ تَـدَاعَـى مِـحْـوَرُ الأَرْ ضِ ومِـيـزَانُ الـشُّـعُـوبِ
مـالَ كـالـشَّمْسِ جَـمَـالاً وجَـلالاً فـي الـغُـرُوبِ

---

(١) الشَّبِمات: البارِدات.

أيُّها المَجْرُوحُ لَوْ تَدْ ... رِي جُرُوحِي ونُدُوبِي
أيُّهَا الذَّاهِبُ قَدْ آ ... نَ عَن الدُّنْيَا ذُهُوبِي
أيُّها الخالِصُ وُدّاً ... لَيْسَ وُدِّي بالمَشُوبِ
أيُّها الصادِقُ وَعْداً ... لَيْسَ وَعْدِي بالكَذُوبِ
عَنْ قَرِيبٍ يَنْطَوِي القَبْـ ... ـرُ عَلَيْنَا عَنْ قَرِيبِ
كَلِّلوهُ بالرَّيَاحِينِ ... وبالغَارِ الرَّطِيبِ
واهْتِفُوا في أُذُنَيْهِ ... بأَنَاشِيدِ الحُرُوبِ

* * *

واحَبِيَبَاهُ، جاءه الموتُ فاَسْتَسْلَمْ لا يَسْتَطِيعُ إلاَّ ذُهُوبَا
كان ما خِفتُ أنْ يَكُونَ وحَلّتْ ... نَكْبَةٌ لم تُفاجِئ المَنْكُوبَا

[تستوي قائمة]

أيُّها الجُنْدُ ماتَ قَيْصَرُ فابْكُوا ... مَعِيَ السَّيِّدَ الجَسُورَ الوَهُوبَا
شَبِّكُوا ساعِدَيْهِ مِنْ فَوْقِ صَدْرٍ ... كانَ في الرَّوْعِ بالمَنَايَا رَحِيبَا
واعْرِضُوا سَيْفَهُ على رَاحَتَيْهِ ... وارْكُزُوا الرُّمْحَ مِنْ يَدَيْهِ قَرِيبَا
لا بَلِ امْضُوا لِشَأْنِكُمْ، جُنْدَ رُومَا ... ودَعُونِي وسَيْفَ رُومَا السَّلِيبَا
أنَا وَحْدِي لَهُ دِيَارٌ وأَهْلٌ ... إنْ دَعَا دَارَهُ ونَادَى النَّسِيبَا

[ينسحب الجنود]

وَيْحَ لي قَدْ طَلَبْتُ عِنْدَ طِبَاعِ النَّاسِ ما عَزّ عِنْدَهُمْ مَطْلُوبَا
خَلَقَ النَّاسُ لِلقَوِيِّ المَزَايَا ... وتَجَنَّوْا على الضَّعِيفِ الذُّنُوبَا
واحْتَفُوْا في الحَيَاةِ والمَوْتِ بالْغَا ... لِبِ فانْظُرْ هَلْ عَظَّمُوا مَغْلُوبَا
شَيَّعُوا الشَّاةَ جِيْفَةً بِمُدَاهُمْ ... واتَّقَوْا وهْوَ في الرِّمَامِ الذِّيبَا

أنوبيس :

الوَقَارَ الوَقَارَ يا لَبْأَة النِّيلِ ولاَ تَجْعَلِي الزَّئِيرَ النَّحِيبَا
وقِفِي للخُطُوبِ في عِزَّةِ المُلْكِ وفي كِبْرِهِ تُذِلِّي الخُطُوبَا

[يدخل جندي من جنود أكتافيوس]

الجندي :

قَـيْـصَـرُ أكْـتَـافِـيُـوسُ آتٍ يَـعُـودُ أنُـطُونِـيُـوسَ قَـيْـصَـرْ

كليوباترا :

قَـيْـصَـرُ! فَـرَّ الأسِـيـرُ مِـنْـهُ مَنْ في حِمَى المَوْتِ لَيْسَ يُؤْسَـرْ

[يدخل أكتافيوس ومعه جنود]

أكتافيوس :

سَـلَامٌ مَـلْكَـةَ الـوَادِي سَـلَامٌ كـاهِـنَ الـمُـلْكِ
يَـقُـولُ الـنـاسُ أنْـطُونْـيُـو هُـنَـا لـم يَـبْـتَـعِـدْ عَـنْـكِ

كليوباترا :

نَـعَـمْ لـم نَـفْـتَـرِقْ بَـعْـدُ وإنْ أمْـعَـنَ فـي تَـرْكِـي
وهَـذَا الـجَـسَـدُ الـفـانِـي جَـلاءُ الـرِّيْـبِ والـشَّـكِّ

أكتافيوس :

إذَنْ قَـدْ قُـضِـيَ الأَمْـرُ وصَـارَ الـلَّيْـثُ للهُـلْكِ
كِـلُوبـاتَـرَةُ لا تَـخْـشَـيْ فَـلَنْ آخُـذَه مِـنْـكِ!

كليوباترا :

أَبِـي تَـهْـزَأُ أَمْ بـالـمَـيْـتِ أَمْ بـالـمَـوْقِـفِ الـضَّـنْـكِ
إنْ اسْـطَعْـتَ عـلى مَا لَـكَ مِـن بَـطْشٍ ومِـنْ فَـتْـكِ
ومـا حَـوْلَـك مِنْ خَـيْـلٍ ومـا تَـحْـتَـكَ مِـنْ فُـلْكِ
فـخُـذْهُ مِنْ يَـدِ الـمَـوْتِ ومِـنْ عـاجِـزَةٍ تَـبْـكِـي!

[يدنو جندي من جنود اكتافيوس ليتحقق موت أنطونيوس]

كليوباترا :

مَكَـانَـكَ، يـا عَبْـدُ، لا تَـهْتِـكَنَّ عـلى سيِّـد الـهـالِكِينَ الـقِـنَـاعْ
تُـريـدُ لِتَكْشِفَ عَنْـهُ الـغِـطَاءَ عَسَـى تَـحْـتَـهُ حِـيـلَةٌ أو خِـدَاعْ
عَـبِـثْـتَ بـه وهْـوَ تَـحْـتَ الـطَّيَـالِسِ مُـلْقَى الـسِّـلَاحِ قَـلِيـلُ الـدِّفَـاعْ

وَلَمْ تَـحْـتَـرِمْ بُقَـعـاً مِن دَمٍ عَـلَيْهِنَّ تَحْسُـدُ مِصْـرَ البِقَـاعْ
رُوَيْـدَك، مـا المَـوْتُ مُسْتَبعَـدٌ ولا هُـوَ مُسْتَغـرَبٌ مِنْ شُجَـاعْ
وإنَّ التَّمَـاوُتَ فِعْـلُ الثَّعَـالِبِ لَـيْسَ التَّمَـاوُتَ فِعْـلَ السِّبَـاعْ

أكتافيو :

أَنَـاتَـكِ، سَـيِّـدتِـي، إنَّـهُ فَتًى طـاهِرُ القَلْبِ حُـرُّ الطِّبَـاعْ
أراد لِـيَحْـتَـاطَ لِـي جُـهْـدَهُ ويُخْلِصَ في خِـدْمَتِي ما اسْتَـطَاعْ
تَـنـحَّ أخَـا الجُنْـدِ مـا أَنْتَ والـمَيْـتَ! لا يَقْـرَبُ الشَّـمْسَ إلاَّ شُـعَـاعْ!
أتـأذَنُ سَـيِّـدَتِـي أنْ أُطِـيـفَ بِـخِـدْنِ الـصِّـدَامِ رَفِـيـقِ الـصِّـرَاعْ؟
ومَـنْ كُـنْـتُ تَـحْـتَ الـقَـنَـا ظِـلَّهُ ومَـنْ كـانَ ظِلِّي تَـحْـتَ الشِّـرَاعْ
وكُـنَّـا نَشِـيـدُ لِـرُومَـا الـفَـخَـارَ ونَجْنِي لهـا الـغـارَ مِنْ كُـلِّ قـاعْ
ونَـأْتِـي الـقِـلاعَ فَـنَـحْـتَـلُّهَـا وإنْ بَعُـدَتْ كـالنُّجُـومِ القِـلاعْ
ونَـرْكُـزُ في السَّهْـلِ أرْماحَ رُومَـا ونُـطْلِعُ أعْـلامَهَـا في الـيَفَـاعْ؟
بإذنِك؟

كليوباترا :

قَـيْـصَـرُ، لا إذْنَ لِـي أَيَـنْـهَـى ويَـأْمُـرُ مَـنْ لا يُطاعْ؟
تَـصَـرَّفْ بِـجُـثْـمَـانِـهِ كَـيْـفَ شِئْـتَ فَـلَيْس لـه الـيَـوْمَ مِـنْـكَ امْـتِـنَـاعْ
ومـا جُـثَّـةُ الـلَّيْـثِ إلاَّ لَـقًـى إذا النَّـابُ طـاحَتْ أو الـظُّفْـرُ ضَـاعْ

[يتقدم أكتافيوس فيرفع القناع عن وجه أنطونيو]

أكتافيوس :

لَـقَـدْ حَسَـمَ المَـوْتُ مـا بَـيْـنَـنَـا وغَضَّ الـلَّجَـاجَ وفَضَّ الـنِّـزَاعْ
فَـمِـنْ حَـقِّـيَ الـيَـوْمَ بَـلْ واجِـبٌ عَـلَيَّ أُقَـدِّسُـهُ أنْ يُـضَـاعْ
أُقَـبِّـلُ مـا قَـبَّـلَ الـغَـارُ مِـنْـكَ وأَهْـتِـفُ: أَنْـطُونِـيُـوسُ الـوَدَاعْ

سـتـار

الفصل الرابع

«في القصر الملكي، في غرفة العرش، غرفة مطلة على البحر. كليوباترا متكئة على حافة الشرفة، شرميون وهيلانة في أقصى الحجرة تنهمر من عينيهما الدموع»

كليوباترا [كأنما تناجي نفسها]:

نـام «مَـرْكُـو» ولـم أَنَـمْ   وتَـفَـرَّدْتُ بـالأَلَـمْ
لَـيْتَ جُـرْحِي كـجُـرْحِـهِ   لَـقِيَ الـمَـوْتَ فـالـتَـأَمْ
قـاتَـل الله مـاضِـيـاً   قَـتَـلَ الـمُـفْـرَدَ الـعَـلَمْ
أَنْـطُوَانُ انـفُضِ الـكَـرَى   سـاعـةً وانـقُـلْ الـقَـدَمْ
قُـمْ كـأَمْسِ أغنَـم الـهَـوَى   واشْـرَب الـرَّاحَ بـالـنَّغَـمْ
وتَـخَـيَّـرْ عـلى الـمُـنَـى   وتَـمَـتَّـعْ مِـن الـنِّـعَـمْ
واغْـمُـرِ الأَرْضَ بـالـقَـنَـا   وتَـغَـلَّبْ عـلى الأَمَـمْ
وقُـدِ الـخَيْـلَ في الـوِهَـا   دِ ووَثْـبـاً إلـى الـقِـمَـمْ
أيُّـهـا الـعَـيْـنُ أَبْـصِـري   إنَّـمـا كُـنْـتُ في حُـلُمْ!

[ملتفتة إلى شرميون]

يـا شَـرْمَيُـونُ بَلَغْنَـا مَـوْقِفاً حَـرِجاً   لا الـرَّأْيُ يَنْفَعْنَـا فِيـهِ ولا الـبـاسُ
لم يَبْقَ ثُقْبُ رَجَـاءٍ كُنْتُ أَلْمَـحُـهُ   إلَّا تَـعَـرَّضَ حتَّـى سَـدَّهُ الـيَـأْسُ

[تلقي نظرة على الإسكندرية من الشرفة]

نَجْمِي يُحــدِّثُني بِـوَشْــكِ أُفُــولِــهِ   إسْكَنْــدَرِيَـةُ، هَــلْ أَقُـولُ وداعَــا؟
وَشَّيْـتُ بَـرِّكِ جَـدْوَلًا وخَـمِـيـلَةً   وكَسَــوْتُ بَحْرَكِ عُـدَّةً وشِـرَاعَـا
وأنــا اللَّبَـاةُ وقَـدْ مَـلأْتُــكِ غـابَـةً   وأنـا المَهَـاةُ وقَـدْ مَـلأْتُــكِ قـاعَـا
قَـدْ خِفْتُ مِنْ بَعْدِي عَلَيْـكِ مَمالِكـاً   يُــطْلِقْنَ فِيكِ الفـاتِحِينَ سِبَـاعَـا
يَـأْتِينَ زَرْعَـكِ بـالـرِّيَـاحِ عَـواصِفـاً   وَيَجِئْـنَ ضَـرْعَكِ بـالذِّئَـابِ جِيَـاعَـا
فـإذا الحَضَـارَةُ بَعْـدَ طُـولِ بِنَـائِهَـا   قَــدْ دُكَّ رُكْـنُ بِنَـائِـهَـا وتَـدَاعَـى

شرميون :

بـإيـزيسَ سَـيِّـدَتِـي بـالـوَلاَءِ   بِـطُولِ التَّعَـاشُـرِ والمُصْـطَحَـبْ
بِمَـا لِـي بِبَـابِـكِ مِـنْ خِـدْمَـةٍ   ومِـنْ صُحْبَـةٍ تُشْبِـهَـانِ النَّسَبْ
عَـلَى أيِّ وَجْـهٍ أدَرْتِ الـمَـصِيـرَ   وقَـلَّبْـتِ رَأْيَـكِ فـي الـمُـنْـقَـلبْ؟
فَهَــذَا السُّكُــونُ يُثِيـرُ الشُّكُــوكَ   وهَــذَا الـهُـدُوءُ يُـثِـيـرُ الـرِّيَـبْ
ومــاذا آعْتَـزَمْتِ؟ ومــاذا كَتَمْتِ؟   أبِـينِـي فَمَـا بَيْنَـنَـا مِـنْ حُـجُـبْ
ولـي فـي حَـيَـاتِـكِ رَأْيٌ يُسَــاقُ   ولَـيْسَ عَـلَيَّ إذَا لَـمْ يُـصِـبْ

كليوباترا :

إذَنْ فــاذْكُــرِي أَنَّ خَصْمِي العَتِيـدَ   يَخَــافُ انْتِحَـارِي ويَخْشَى الهَـرَبْ
ولَيْسَ الَّـذِي يَشْتَهِـي لِي الـحَيَـاةَ   وَلَـكِـنْ لَـهُ فـي حَـيَـاتِـيْ أرَبْ
لَـهُ فـي غَـدٍ مَـوْكِبُ الـفَـاتِـحِـيـنَ إذا أَقْـبَلُوا فـي جَـلاَلِ الـغَـلَبْ
يَـجُـرونَ فـي رُومَـةَ الأُرْجُـوَانَ   وقَـدْ بَـرَزَتْ في الثِّيَـابِ القُشُبْ
وتَـزْدَانُ بـالـغَـارِ هَـامَـاتُـهُـمْ   إذا آرْتَفَعَتْ في الـخَمِيسِ اللَّجِبْ
يُحَـاوِلُ قَيْصَـرُ مِنِّي الـمُحَـالَ   ويَـذْهَبُ في غَيْـرِ وَجْـهِ الـطَّلَبْ
يُـرِيـدُ لِيَـعْـرِضَـنِـي فـي غَـدٍ   عَـلَى شَعْـبِ رُومَـا كـأنِّي سَلَبْ
ويَـفْـضَـحُ مِـصْـرَ وسُلْطَانَــهـا   وتَـاجَ العُصُـورِ وعَـرْشَ الـحِقَبْ
لقَـد سـاءَ تَـدْبِيـرُ أُكْتَـافِيُـوسَ   ولَمْ يَلْقَ مِنْ خُـدْعَتِي مـا أحَبْ!

[تسمع وطء أقدام]

ماذا وراءَ البَابِ؟

شرميون : حِسٌّ قادِمِ

هيلانة : أَجَلْ دَبِيبُ حارِسٍ أو خادِمِ

كليوباترا :

بَـلْ حـارِسٌ جـافٍ مِـنْ حَـرَسَ الـقَـصْـرِ
مُـعَـرْبِـدُ الـخَـطْوِ مِـنْ نَـشْـوَةِ الـنَّـصْـرِ
لا تَـسَـعُ الأَرْضُ رِجْـلَـيْـهِ مِـنْ كِـبْـرِ

شرميون :

مَـلْكَـتِـي دَعِـي هَـذِهِ الـفِـكَـرْ
جُـنْـدُ رُومَـةٍ يَـعْـبُـدُ الـبِـدَرْ
فـي سَـبِـيـلِهَـا يَـرْكَـبُ الـغَـرَرْ

كليوباترا :

شَـرْمِـيُـونَ صَـهْ إِنَّـهُ حَـضَـرْ

[يدخل الحارس]

الملكة : ماذا وَرَاءَ الجُنْدِي؟

الحارس : رِسَالَةٌ مِنْ عَبْدِ
هَلْ تَأْذَنِينَ؟

الملكة : أَدِّ

الحارس :

أَيُّـهـا الـمَـلْكَـةُ قَـدْ جـا ءَ إلـى الـقَـصْـرِ غُـلَامْ
فـي ثِـيَـابِ الـحَـقْـلِ حُـلْوُ الـشَّـكْـلِ مَـمْـشُـوقُ القَـوَامْ
جَـادَلَ الـحُـرَّاسَ في حِـذْ قٍ ورِفْـقٍ بـالـكَـلَامْ
يَـدَّعِـي أَنَّ أَبَـاهُ كَـانَ عَـبْـداً لـلـمَـقَـامْ

نـالَـهُ بُـسْـتَـانُ تِـيـنٍ   مِـنْ أَيَـادِيـكِ الـجِـسَـامْ
فَـهْـوَ يُهْـدِي لَـكَ بـاكُـو   رَتَـهُ فـي كُـلِّ عَـامْ

الملكة [هامسة]:

شَـرْمِـيُـونُ ذاكَ حـابِـي   وجَـنَـاهُ فـي يَـمِـيـنِـهْ
جـاءَ في المِيقَـاتِ يَـهْـدِي   لِـيَ بـاكُـورَةَ تِـيـنِـهْ

[للحارس]:

ألَا تَـقْـبَـلُ يـا حَـارِ   سُ مِـنِّـي هَـذِهِ الـبَـذْرَهْ؟

الحارس :

بِـشُـكْـرَانٍ وهَـيْـهَـاتَ   على الشُّكْـرَانِ لِي قُـدْرَهْ

الملكة :

والآنَ لـو تُـحْضِـرُ لي الفَـلَّاحَـا   لَـعَـلَّهُ يُـحْـدِثُ لِي آنْـشِـرَاحَـا
إنِّي نَسِيتُ البَسْطَ والمُزَاحَا

الحارس :

عَـلَيَّ الـسَّـمْـعُ والـطَّاعَـهْ   سـآتِـيـكَ بِـهِ الـسَّـاعَـهْ

[يخرج الحارس]

الملكة :

يـا شَـرْمِيُـونُ تَعلَّمي الـدُّنْيَـا ويَـا   هِـيلَانَـةُ اخْتَبِري الـزَّمَـانَ القَـاسِي
إنَّ الَّتِي حُـرِسَتْ بـأَبْـطَالِ الـوَغَى   بـاتَتْ تُصَـانِـعُ سِفْلَةَ الـحُـرَّاسِ

[يدخل حابي في ثياب فلاح ومعه الحارس]

هيلانه [همساً] :

حـابِي، نَعَمْ حـابِي وتِلْكَ نَـظْرَتُـهْ   وهَـذِهِ مِـشْـيَـتُـهُ وخَـطْرَتُـهْ
يا لَيْتَ شِعْرِي ما تَكُونُ سَلَّتُهْ؟

حابي :

تَـحِـيَّـةٌ لِـلْـمَـلِـكَـهْ   ونِـعْـمَـةٌ وبَـرَكَـهْ

ونَــفْسُ عَــبْـدِهـا لــهَـا وكَــلّ مـا قَــدْ مَــلَكَــهْ
سَــيِّـدَتِـي جِئْــتُ إلَــى بَــحْـرِكِ أُهْــدِي سَـمَــكَـهْ
أَحْــمِــلُ تِـيـنـاً ولَــو آسْـطَـعْـتُ حَــمَــلْتُ مَــمْــلَكَــهْ

حابي : سيدتي

الملكة :

أُدْنُ فـإنَّـهُ آبْـتَـعَـدْ وقُــلْ فَمَــا يَسْمَــعُ غَيْــرُنَــا أَحَــدْ

حابي : سَيِّدَتي

الملكة :

حــابِــي، أُنُــوبِـيسُ اجْــتَــهَــدْ لَــنَـا وأَنْـجَـزَ الـغَـدَاةُ مــا وَعَــدْ
يُــريــدُ أنْ يَـشْفِـيَنـي مـمَّـا أَجِــدْ وأنْ يَـقِـي مَـمْـلَكَـتِـي عــارَ الأَبَــدْ
جِئْتَ كَمَا يأْتِي لِوَقْتِهِ المَدَدْ
وَفَـيْتَ لِـي حــابي ولَـمْ تَكُـنْ تَفِـي ضَـعِ السِّـلاَلَ وآنْصَـرِفْ لا بَـلْ قِفِ
حَتَّى تَرَىْ كَيْفَ يَكُونُ مَوْقِفِي

[تلقي نظرة على السلال]

مــا لِي مُلِئْتُ مِن الـمَنِـيَّــةِ رَهْبَــةً إنَّ الـمَنِـيَّــةَ فـي رِقَــابِ الـنَّــاسِ
آسِي الجِـرَاحِ جَـزِعْتُ عِنْـدَ لِقَـائِــهِ والـنَّفْسُ تَـجْــزَعُ مِنْ لِـقَــاءِ الآسِي
إنِّي طَــوَيْتُ بِسَـاطَ كُــلِّ مُــدَامَــةٍ لَمْ يَبْقَ إلاَّ شُــرْبُ هٰـذِي الكَــاسِ
يــا خــادِمـيّ بَــلْ ابْنَـتـيّ تَـلَطَّفَـا في البَحْثِ حَتَّى تَــأْتِيَـا بــأَيَــاسِ
فَعَسَى يُغنيـنِي نَـشِيـدَ الـمَـوْتِ أَوْ نَغمــاً أُجُــودُ عَـلَيْــهِ بــالأَنْفَــاسِ

شرميون :

مَــلْكَـتِـي نَــادِي أَيَــاسَــاً إنَّــهُ بــالـقُــرْبِ مِــنْــكِ
هُــوَ فـي الـمَــقْـصُــورَةِ الأُخْــرَى مَــع الـبــاكِـيــنَ يَـبْـكِـي
فِــكْــرُهُ فِــيـكِ ولا يَــجْــسُــرُ أنْ يَــسْــأَلَ عَــنْــكِ

الملكة :

يا وَيْحَ صَحْبِي بَعْدَ طُولِ سُرُورِهِمْ قَعَدُوا إلى أحزانهم يَبْكُونَا
جِيئِي بِهِمْ يا شَرْمِيُونُ لِيَنْظُرُوا جَلَدِي فَيهدأ بَعْضُ ما يَجِدُونَا

[تخرج شرميون]

كليوباترا [تنحني على زنبقة في أصيص]:

زَنْبَقَةٌ في الآنِيَهْ ضَحِيَّةُ الأَنَانِيَهْ
جَنَتْ عَلَيْها غُرْبَةَ الأَسْرِ الأَكُفُّ الجَانِيَهْ
وبُدِّلَتْ مِنْ سَعَةِ الرَّبْوَةِ ضِيقَ الباطِيَهْ
يَسْقُونَهَا مِنْ جَرَّةٍ بَعْدَ العُيُونِ الجارِيَهْ
يا جارَتَا شَأْنُكِ لَا يُشْبِهُهُ إلّا شانِيَهْ
لَمْ يَبْقَ مِن مُلْكِي العَرِيضِ غَيْرُ دارٍ خاوِيَهْ
وكُلُّنَا ذابِلَةٌ عَمَّا قَلِيلٍ ذَاوِيَهْ
زالَ النَّعِيمُ وفَرَغْنَا مِنْ حَيَاةٍ فانِيَهْ

[ترجع شرميون ومعها أياس وأنِشو وغيرهم]

الملكة [إلى أنشو]:

أَنْشُو يَعِزُّ عَلَيَّ أَنَّكَ ساهِمٌ يَبْدُو عَلَيْكَ الهَمُّ والتَّفْكِيرُ
أَنْشُو ألا قَوْلٌ يَسُرُّ وضِحْكَةٌ إنَّ السَّعِيدَ الضَّاحِكُ المَسْرُورُ
قد كانَ أَيْسَرُ ما صَنَعْتَ يَسُرُّنِي أعَلَى سُرُورِي اليَوْمَ أَنْتَ قَدِيرُ؟

أنشو :

سَيِّدَتِي جَرَى بِمَا فِيهِ سُرُورُك القَدَرْ
مَنْ لا تَسُرُّهُ السَّمَا ءُ لا يَسُرُّهُ البَشَرْ

الملكة :

أَياسُ، هَلْ مِنْ صَوْتِ؟ غَنِّ نَشِيدَ المَوْتِ

[أياس يغني هذا النشيد]

يـا طِـيـبَ وادِي الـعَـدَمْ مِـنْ مَـنْـزِلٍ مِـنْ مَـنْـزِلِ
لَـمْ تَـمْشِ فِـيـهِ قَـدَمْ لِـلعُـذَّلِ وادٍ خَـلِ
أنَـا فِـيـهِ لِـحَـبِـيـبـي وحَـبِـيـبِـي فِـيـهِ لِـي

* * *

يـا مَـوْتُ مِـلْ بِـالـشِّـرَاعْ واحْـمِـلْ جَـرِيـحَ الحَـيَـاةْ
سِـرْ بِـالـقُـلُوعِ الـسِّـرَاعْ إلـى شُـطُوطِ الـنَّـجَـاةْ

* * *

شِـرَاعُـكَ الـفَـضِّـي فـي لُـجِّـهِ الـتّـبْـرِي
كَـالحُـلْمِ فـي الغَـمْضِ يَـجْـرِي ولاَ يَـجْـرِي

* * *

فـي ظِـلِّ لَـيْـلٍ سـاجْ أَقْـسَـمَ لا يَـسْـرِي
مُـغَـلَّلِ الـدِّيـبَـاجْ مُـطَـيَّـبِ الـسِّـتْـرِ

* * *

فـي يَـقْـظَةٍ يَـظْـهَـرْ لِـي أَمْ أرَى حُـلْمَـا
فُـلْكٌ مِـنَ الـجَـوْهَـرْ يَـخْـتَـرِقُ الـظَّلْمَـا

* * *

عَـلَى الـدُّجَـى لَـمَّـاحْ تَـحْـسَـبُـهُ نَـجْـمَـا
لَـيْسَ بِـهِ مَـلاّحْ يَـسْـلُكُـهُ الـيَـمَّـا

* * *

أَضْـوَى مِـنَ الـفَـجْـرِ فـي ظُـلْمَـةِ الأَسْـدَافْ
مِـنْ نَـفْـسِـهِ يَـجْـرِي لَـمْ يُـجْـرِهِ مِـجْـدَافْ

* * *

مَـدّ شِـراعَ الـنُّـورْ يـا حُـسْـنَ مـا مَـدَّا
كـالـلُّؤْلُـؤ الـمَـنْـثُـورْ لَـوْ يَـنْـفَـحُ الـنَّـدَّا

* * *

يـا لَـكَ مِـن زَوْرَقْ مَـلاَّحُـهُ الأَقْـدَارْ
يَـنْـجُـو بِـهِ الـمُـغْـرَقْ مِـنْ لُـجَّـةِ الأَكْـدَارْ

[يدخل الحارس]

الملكة : ما وَرَاءَ الحارِس؟

الحارس :

الطَّا عَـةُ يـا ذَاتَ الـجَـلاَلَـهْ
قـائِـدٌ يَـحْـمِـلُ مِـنْ قَـيْـصَـرَ أَكْـتَـافُـو رِسَـالَـهْ

الملكة :

أَدْخِـلْهُ، أَدْخِـلْ رَسُـولَ قَـيْـصَـرْ

[يخرج الحارس ويدخل القائد]

القائد :

قَـيْـصـرُ الـعَـالِـي إلـى سَـيِّـدَتِـي يُـهْـدِي الـتَّـحِـيَّـهْ
هُـوَ فـي الـتُّـكْـنَـةِ بـالْـقُـرْ بِ مِـنْ الـدَّارِ الـسَّـنِـيَّـهْ
يُـظْـهِـرُ الـعَـطْـفَ عَـلَيْـهَـا وهْـيَ بـالـعَـطْـفِ حَـرِيَّـهْ
ويَـقُـولُ الأَمْـرُ مـا تَـأْ مُـرُ فـي الإسْـكَـنْـدَرِيَّـهْ
ولَـهَـا الـوَادِي ومَـا يَـحْـمِـلُ مُـلْـكـاً ورَعِـيّـهْ
وبَـنُـوهَـا يَـرِثُـونَ الـمُـلكَ مِـنْ رُومَـا الـوَصِـيَّـهْ
وإذا حَـلَّـتْ بِـرُومَـا وَجَـدْت رُومـا حَـفِـيَّـهْ
تَـتَـلـقَّـاهـا كـأَغْـلَـى دُرَّةٍ فـي الـقَـيْـصَـرِيَّـهْ
مـا الَّـذِي تَـقْـتَـرِحُ الـمَـلْـكَـةَ مـا تُـمْـلِي عَـلَيّـهِ
لِـتَـقُـلْ سَـيِّـدَتِـي حـا جَـتَـهـا، تُـقْضَ الـعَـشِـيَّـهْ

كليوباترا [كأنما تناجي نفسها]:

وإذا حلّت بروما وَجَدَتْ روما حَفِيَّة
تَتَلقَّاهَا كأغْلَى دُرَّةٍ في القَيْصَرِيَّهْ!

[تضحك في تهكم وألم]

أيُّهَا القَائِدُ أدّيْـ ـتَ فأحْسَنْتَ الأَدَاءْ
بَلّغَنْ قَيْصَرَ عَنِّي كُلَّ شُكْرٍ ودُعَاءْ
ثُمَّ زِدْ أُمْنِيَّةً قَدْ بَقِيتْ لِي وَرَجَاءْ
أنا لا أَكْتُمُه ما سَرَّ مِنْ أَمْرِي وَسَاءْ
لِيَ سِرٌّ كادَ عَنْ نَفْـ ـسِيَ يَزْوِيهِ الخَفَاءْ
صُنْتُهُ عَنْ صاحِبَاتِي وصِحَابِي الأُمَنَاءْ
حَبَّذَا لَوْ زارَني قَيْـ ـصَرُ في هذا المَسَاءْ
وله الشُّكْرُ إذا لَمْ يَأْتِ أو إنْ هُوَ جَاءْ

القائد :

سَأَذْكُرُ مَوْلاَتِي لَمَوْلاَيَ قَيْصَرٍ وأَنْقُلُ ما أَبْدَيْتِ مِنْ رَغَبَاتِ
ولِمْ لاَ يُلبِّي دَعوةَ الحُسْنِ طائِعاً ويَسْعَى لَهُ مُسْتَعْجِلَ الخُطُوَاتِ؟
وقد كان يُولْيُوسٌ يَقُومُ بِبَابِهِ ويَمْثُلُ أَنْطُونْيُوسُ في العَتَباتِ!

كليوباترا [بعظمة]: أَسَأتَ أَخَا الرُّومَانِ فَهْمَ إشَارَتِي

القائد : إذن فَهَبِي لي تِلْكَ مِنْ هَفَوَاتِي

[يخرج القائد]

كليوباترا :

أراني لم يُحسنْ إليّ مُعاصري ولم أجدِ الإنصافَ عند لِداتي
فكيف إذا ما غيَّبَ الموتُ ذَادتي وبَدَّد أنصَاري وفَضَّ حُماتي!
كأنِّي بعدي بالأحاديث سُلِّطت على سيرتي أو وُكِّلْت بحياتي
وبالجيل بعد الجيل يَروي زخارفاً فمن زور أخبار وإفْك رُواة

يقولون أُنثى أفْنت العمرَ بالهوى بهيميَّةُ اللذَّات والشَّهواتِ
فِداً لغرامي بالرجال وحُسنهم غرامُ الغواني أو هوى الملكاتِ
فليس الغلامُ البارعُ الحسن فتنتي ولا الرائعُ الأجلاد والعضَلاتِ
ولم يَسْتَثِرْ وَجدي من الروم فتيةٌ جُنونُ العذارى فتنةُ الخَفِرات
ولا كلُّ غصن من بني مصرَ مائل يَطير إليه قلبُ كلِّ فتاةِ
يموتون بي عشقاً ويَشقَون بالهوى فكم من حياة في يدي ومماتِ
ولكن عشقتُ العبقريَّةَ طفلةً وفي الغافلات البُلْهِ من سنواتي
كَلِفتُ بكهل أحرز الأرضَ سيفُه وحيزتْ له الدنيا من الجنَبات
إذا هبّ من غرب البلاد تَلفَّتتْ بلادُ بأقصى الشرق مُنذعراتِ
تَعثَّرَ حظِّي بعد طول سلامة وأقلع نجمي بعد طول ثبات
ومن يَمش في وَرد الأمور وشَوكها يَعُدّ الخُطَى أو يحسب العثرات

[تنظر إلى السلال]

يا مرحباً بالسَّلَّهْ والرُّقُب المُطلَّهْ
الكافياني الذِّلَّهْ

[ينسحب الجميع مطرقين ما عدا الملكة ووصيفتها وحابي]

كليوباترا :

أدخلي بي يا شرميون على طفلي أُودِّعْهمُ الوداعَ الرَّهيبا
فعساهم إذا تحجّب صدري وجدوا صَدركِ الحَفيَّ الرَّحيبا

[لحابي وهيلانة]:

ولديَّ اهجرا القصورَ فإني قد وجدتُ النعيمَ فيها غريبا
ولها ضجَّةٌ وفيها فُضولٌ يُرهقُ الحبّ واشياً ورقيبا
خلّيا عنكما المدائنَ يا ابْنيَّ فضوْضاؤها تُميت القلوبا
إن لي في سهول طيَبةَ حقلاً طيِّبَ الماء والهواء خصيبا
غَرستْه يد الشباب فأضحى وارفاً كالشباب حُسناً وطيبا
ألّف الحبُّ من نواحيه أيْكاً جمع الطير هاتفاً ومُجيبا

يُسمعُ البُلْبُلُ العشيقةَ فيه وتُغنّى الأليفةُ العَنْدليبا
أفُقٌ لا يُظلُّ إلا مُحبّاً وثرًى لا يُقلُّ إلا حبيبا
إشربا من كرومه واسقياها صافيَ الحُبِّ والهوى المسكوبا
والعبا عند كلّ ماء غدير تَريا الماءَ للحبَاب لعيبا
وسَلا الوَرْدَ هَلْ تنفَّسَ في الوَرْدِ وهَلْ نَاسَم البَعِيدُ القَرِيبَا
أدْرِكَا لَذَّةَ الشُّرُوقِ ولَمَّا تَبْلُغِ الشَّمْسُ بالحَيَاةِ الغُرُوبَا

[تخرج كليوباترا وشرميون]

حابي :

هِيلَانُ، هَذَا مَقَالُ النُّصْحِ مِنْ مَلِكٍ فَمَا تَرَيْنَ ومَا تَنْوِينَ هِيلَانَا
هَلُمّ طِيبَةَ تَنْزِلْ فِي خَمَائِلَها ونَبْنِ مِثْلَ بِنَاءِ الطَّيْرِ دُنْيَانَا
كطائِرَيْنِ عَلَى بَحْرٍ وعاصِفَةٍ قَدْ آنَسَا مِنْ وَرَاءِ الشَّطِّ بُسْتَانَا
تَدَارَكَتْنَا أَبَرُّ المَالِكَاتِ بِهِ وأَشْرَفُ النَاسِ إحْسَاساً ووجْدَانَا

هيلانة :

حابي، عَرَفْتَ الخِلَالَ الطيِّباتِ لَهَا وكُنْتَ أَمْسِ أَقَلَّ النَّاسِ عِرْفَانَا

حابي :

خَلِّي الجَفَاءَ حَيَاتِي إنَّ ساعَتَه مَضَتْ وهَذَا أوانُ السِّلْمِ قد آنَا
الله يَشْهدُ أنِّي قَدْ سَدَلْتُ عَلَى ما كَانَ مِنْ نَزَعاتِ الرَّأْيِ نِسْيَانا
وأَنَّنِي اليَوْمَ أَبْكِيهَا وأَندُبُها ولَا أَقِيسُ بِهَا في الطُّهْرِ إنْسَانَا
اليومَ ضَحّتْ وزَكّاها الفِدَاءُ كَمَا زَكّى المُقرِّبُ بٱسْمِ الله قُرْبَانَا

هيلانة :

إنَّ الَّتِي شَبَّ في نَعْمائِهَا صِغَرِي ونَبَّهتْ لِيَ في سُلْطَانِها شَانَا
إن لم أمُتْ دُونَهَا أو لم أمُتْ مَعَهَا فما جَزَيْتُ عن الإحْسَانِ إحْسَانَا

حابي : والحُبُّ هِيلَانَ؟ ماذا تَصْنَعِينَ به

هيلانة : إنَّ الصَّدَاقَةَ فَوْقَ الحُبِّ أَحْيَانَا

حـــابِـي أراهَـــا أزْمَـعـــتْ   وأَرَى الـفَـجِـيعَـــةَ واقِـعَـــهْ
فـاذْهَبْ فَجِئْ بـأُنُــوبِسٍ   فَعَسَــى يَــرُدُّ الفــاجِـعَــهْ

حابي :

وسَـــوَاءٌ   أَرَدَّهَـــا   أَمْ أَبَـــى ذلِـــكَ الــقَـــدَرْ
فـي غَـدٍ أيُّـهَـــا الـمَـــلا   كُ إلـى طِـيبَــةَ الـسَّـفَـــرْ

[يخرج حابي]

هيلانة :

وَيْـحَ حــابِــي آعْـتِـقَــادُهُ   أَنْ ســأُحْـيَــا فَـنَـلْتَـقِــي
لَـيْـتَـنِــي نِــلْتَ قُـبْــلَةً   مِــنْــهُ قَــبْــلَ الــتَّـفَــرُّقِ

[تدخل كليوباترا وفي أثرها شرميون]

كليوباترا :

بِــرُوحِـي وإنْ لَمْ تَبْقَ مِـنِّي بَقِيَّـةٌ   صِـغَــارٌ وَرَائِي ذُوِّقُ الـيُـتْـمِ نُــوَّحُ
أُذُوبُ لِـبَـلْوَاهُــمْ وأَعْـلَـمُ أَنَّـنِــي   حَمَلْتُ عَلَيْهِمْ مــا يَجِــلُّ ويَـفْـدَحُ
وقـد أَشْتَهِي عَيْشَ الـذَّلِيـلِ لأَجْلِهِمْ   فَلاَ المَجْدُ يَرْضَى لِي ولا النُّبلُ يَسْمَحُ
فَصَفْحاً صِغَارِي إنْ شَقِيتُم بِمَصْرَعِي   وإنِّي لأَرْجُـو أَنْ تَغِضُّـوا وتَصْفَحُــوا
وَداعــاً صِغَـارِي صَيَّرَ الله يُتْمَكُمْ   إلى خَيْـرِ مـا يَكْفِي اليَتَـامَى ويُصْلِحُ
أطَفْتُ بِكُم والنَّــوْمُ تَسْـرِي سِنَــاتُهُ   عَلى صَـفَـحـاتٍ كــالأَهِلَّةِ تَـلْمَـحُ
ومــا مِنْكُمُ في الخَزِّ إلاّ حَمَـامَـةٌ   عَلَيْهـا طَلِيـلٌ نــاعِمُ الفَرْعِ أفْيَـحُ
تَنَامُ ومـا تَـدْرِي الكَـرَى مــا وَرَاءَهُ   ولا الصُّبْحُ في ظِلِّ الرُّبَى كَيْفَ يُصبحُ
أَتَغْـدُو على الـدُّنْيـا كــأَمْسِ طَلِيقَـةً   ضُحَى اليَوْمِ أَمْ يُغدَى عَلَيْهَا فتُذْبَحُ؟

[ملتفتة إلى هيلانة وشرميون]:

فِــيــمَ هيــلانــةُ تَـبْـكِــيــنَ وأنْــتِ شَــرْسِــيُــونْ
كَــفْـكِـفَــا الــدَّمْــعَ فَــلاَ شِــدَّةَ إلَّا وتَــهُــونْ
واعْـلَمَــا بِـنْـتَـيَّ أنَّ الْـــ   ـبُـؤْسَ والنُّعْمَى دُيُــونْ

[ترجع أمام تمثال إيزيس]

اليَـوْمَ أَقْصَـرَ بـاطِلي وضَـلاَلِي وخَلَت كـأحْلاَمِ الكَـرَى آمـالِي
وصَحَـوْتُ مِن لَعِبِ الحَياةِ ولَهْـوِهَـا فَـوَجَـدْتُ لـلدُّنْيـا خُـمَـارَ زَوَالِ
وتَـلَّفَتـتْ عَيْـنِي فَـلا بِـمَـوَاكِـبي بَـصُـرَتْ ولاَ بِكَـتَـائِبي ورِجَـالِي
وطِئَتْ بِسَـاطِي الحادِثَـاتُ وأَهْـرَقَتْ كَـأْسِي وفَضَّتْ سامِـرِي ونِقَـالِي
إيـزيسُ، يَنْبُـوعَ الحَنَـانِ، تَعَـطَّفي وتَـلَفَّـتي لِـضَـرَاعَـتي وسُـؤالِـي
أَنْتِ الَّتِي بَكَت الأَحِبَّـةَ واشْتَكَـتْ قَبْـلَ الأَرَامِـلِ، لَـوْعَـةَ الإِرْمَـالِ
إِنِّي وَقَعْتُ على رِحَـابِـكِ فـارْحَمِي ذُلَّ الـمُلُوكِ لِـمَجْـدِكِ الـمُتَـعَـالِي
هَـلْ تَـأْذَنِينَ بـأَنْ أُعجِّـلَ نُقْلتِي وأُحُـثَّ عَنْ دارِ الـشَّـقَـاءِ رِحَـالِي
وعُـلاَكِ مـا أَدَعُ الحَيَـاةَ جَبَـانَـةً أو ضِيقَ ذَرْعٍ أو قَـطِيعَـةَ قـالِي
إِنِّي آنْتَفَعْـتُ بِعَبْقِـرِيِّ جَـمَـالِهَـا وتَـمَتَّـعَتْ مِـنْ عَبْـقَـرِيِّ جَمَـالِي
وجَمعْتُ بَيْنَ شُعُـورِهَـا وعَـوَاطِفِي وقَـرَنْتُ رَحْبَ خَيَـالِهَـا بِخَيَـالِي
ووَجَـدْتُها قَـدْ خلّدَتْ أَبْـطَالَهـا فَبَسَـطْتُ سُلْطَانِي عـلى الأَبْـطَالِ
بِنْتُ الحَيَـاةِ أنـا وتَشْهَـدُ سِيـرَتِي مـا كُنْتُ مِـنْ أُمِّي سِـوَى تِـمْثَـالِ
مِـنْهَـا تَـنَـاوَلْـتُ الـرِّيَـاءَ وِرَاثَـةً وأَخَـذْتُ كُـلَّ خَـدِيعَـةٍ ومُحَـالِ
وقَسَـوْتُ قَسْـوَتَهـا ولِنْتُ كَلِينِهَـا واقْتَسْتُ في صَـدِّي بها ووِصَـالِي
ولَـرُبَّمـا رَشَـدَتْ فَسِـرْتُ بِـرُشْـدِهَـا وغَـوَت فأَغْـوَتْنِي وضَـلَّ ضَـلاَلِي
ووَجَـدْتُـهـا حُبّـاً يَـفِيضُ ولَـذَّةً فَجَعَلْتُ لَـذَّاتِ الهَـوَى أَشْغَـالِي
يَـوْمِي بـأَيَّـامٍ لِكَثْـرَةِ مـا مَشَتْ فِيـهِ الحَـيَـاةُ ولَـيْـلَتي بِـلَيَـالِي
ولَقَـدْ لَقِيتُ مِـن الحَيَـاةِ صَبِـيَّـةً مـا جَـلَّ مِنْ بُـؤْسٍ ورِقَّـةِ حـالِ
فَخُلِعْتُ مُلْكِي، طُفْلَةً، وشَرَدْتُ في صَـدْرِ الصِّبَـا ورَأَى المَكَـارِهَ آلِي
شَـرَعَتْ عَلَيَّ السَّوْطَ في كُتَّـابِهَـا والـيَـوْمَ تَضْـرِبُنِي بِـدَرْسٍ غـالِي
يـا مَـوْتُ هَـلْ حَـرَجٌ عَلَى مُسْتَنْجِـدٍ بِـكَ أَنَّ يُسَـابِقَ واقِـعَ الآجَـالِ
يَـوْمِي أُعَجِّـلُه ولَـوْ لَـمْ أَنْتَـحِـرْ لَلَقِيـتُ يَـوْمـاً مـا لَـهُ مِـنْ تـالِي
يا مَوْتُ، أَنْتَ أَحَبُّ أَسْـراً، فَآسْبِنِي لا تُعْطِ رُومَـا والشُّيُـوخَ عِقَـالِي
يا مَوْتُ، لا تُـطْفِىءْ بَشَـاشَـةَ هَيْكَلِي واحْفَظْ ظَـوَاهِـرَ لَمْحَتِي وجَـلاَلِي

يا مَوْتُ، طُفْ بالرُّوحِ واسْرِقْها كما ... سَرَقَ الكَرَى عَيْنَ الخَلِيّ السَّالِي
حَتَّى أمُوتَ كما حَيِيتُ كأنَّني ... بِنْتُ الخَيالِ ودُمْيَةُ المَثَّالِ
وكأنَّ إغْمَاضَ الجُفُونِ تَنَاعُسٌ ... وكأنَّ رَقْدَتِيَ اضْطِجَاعُ دَلَالِ
سِرْ بِي إلى أنْطُونِيُو في نَضْرَتِي ... ورُوَاءِ جِلْبَابِي وزِينَةِ حالِي

[تقوم إلى إحدى السلال فتكشف التين عن أفعى]

هَلُمِّي الآنَ مُنْقِذَتِي هَلُمِّي ... وأَهْلاً بالخَلَاص وقَدْ سَعَى لِي
شَرَيْتُ السُّمَّ مِن فِيكَ المُفَدَّى ... بسُلْطَانِي وزِدْتُ عَلَيْهِ مالِي
على نابَيْكِ مِن زُرْقِ المَنَايَا ... شِفَاءُ النَّفْسِ مِنْ سُودِ اللَّيَالِي
وبَعْضُ السُّمِّ تِرْيَاقٌ لِبَعْضٍ ... وقَدْ يَشْفِي العُضَالُ مِن العُضَالِ
دَعَوْتُ الرَّاحَةَ الكُبْرَى فَلَبَّتْ ... فَبُعْداً لِلْحَيَاةِ ولِلنِّضَالِ
هَلُمِّي عانِقِي أفْعَى قُصُورٍ ... بها شَوْقٌ إلى أفْعَى التِّلَالِ
سَطَتْ رُومَا على مُلْكِي ولَصَّتْ ... جَوَاهِرَ أُسْرَتِي وحُلِيَّ آلِي
فرُمْتُ المَوْتَ لم أجْبُنْ ولَكِنْ ... لَعَلَّ جَلَالَهُ يَحْمِي جَلَالِي
فلا تَمْشِي على تاجِي ولَكِنْ ... على جَسَدٍ بِبَطْنِ الأرْضِ بالِي
وقد عَلِمَ البَرِيَّةُ أنَّ تاجِي ... نَمَتْهُ الشَّمْسُ والأُسَرُ العَوَالِي
يُطَالِبُنِي بِهِ وطَنٌ عَزِيزٌ ... وآباءٌ وَدَائِعُهم غَوَالِي
أأُدْخَلُ في ثِيَابِ الذُّلِّ رُومَا ... وأُعْرَضُ كالسَّبِيِّ على الرِّجَالِ؟
وأُحْدَجُ بالشَّمَاتَةِ عَنْ يَمِينِي ... ويَعْرِضُ لي التَّهَكُّمُ عَنْ شِمَالِي؟
وأَلْقَى في النَّدِيِّ شُيُوخَ رُومَا ... مَكَانُ التَّاجِ مِنْ فَرْقِيَّ خالِي؟
وأغْشَى السِّجْنَ تارِكَةً وَرَائِي ... قُصُورَ العِزِّ والغُرَفَ الحَوَالِي؟
وتَحْكُم فِيَّ رُومَا، وهيَ خَصْمِي ... وتُسْرِفُ في العُقُوبَةِ والنَّكَالِ
يَرَانِي في الحَبَائِلِ مُتْرَفُوهَا ... وقَدْ كانَ القَيَاصِرُ في حِبَالِي
إذَنْ غَيْرُ المُلُوكِ أبِي وجَدِّي ... وغَيْرُ طِرَازِهِمْ عَمِّي وخَالِي
سأَنْزِلُ غَيْرَ هائِبَةٍ إذا ما ... تَلَمَّظَت المَنِيَّةُ لِلنِّزَالِ
أمُوتُ كما حَيِيتُ لِعَرْشِ مِصْرٍ ... وأبْذُلُ دُونَه عَرْشَ الجَمَالِ
حَيَاةُ الذُّلِّ تُدفَعُ بالمَنَايَا ... تَعَالَيْ حَيَّةَ الوَادِي تَعَالِي

[تتناول الأفعى وتمهد لها من صدرها فتلدغها ثم ترميها إلى السلة]

يـا ابنَتيْ وُدِّي... هَلُمَّا... زَيِّنـانِي... .... لِلْمَنيَّـهْ
غَـلِّلانِي... طَيِّبـانِـي... بالأفـاويـهِ... الـزَّكِيَّـهْ
أَلْـبِـسَـانِـي حُـلَّةً... تُـعْـجِبُ أنـطونيُـو.. سَنِيَّـهْ
مِـنْ ثِيَـابٍ.. كُنْتُ فِيهَـا أَتَـلَقَّـاهُ..... صَبِـيَّـهْ
ناوِلاَنِي التَّاجَ... تاجَ الشَّمْـسِ... في مُلْكِ... البَرِيَّهْ
وانْـثُـرَا بَـيْـنَ يَـدَيْ عَـرْشِي... الـرَّيَـاحِينَ البَهِيَّـهْ

[تموت بين وصيفتيها]

شرميون [تتناول من إحدى السلال أفعى]:

كِلـوبتـرا ويـا لَـهْـفِـي عَـلَيْـكِ يـا كِـلُوبَـتْـرَا
وصِـيفـاتُـك فـي الـدنـيـا وصـيفـاتُـك فـي الأخـرى

[وتمهد لها من صدرها فتلدغها وتموت]

هيلانة [تفعل ما فعلته شرميون]:

كـلوبتـرا ذهـبـت الـيـوم بـالـدنـيـا كـلوبـتـرا
تـعـاليْ أيُّـهـا الأفـعَـى أريـحـيـنـي أنـا الأخـرى

[يدخل أنوبيس وحابي]

أنوبيس :

إنسلَّت المُهـرةُ من قَيْـدهـا وأفلت الـطيرُ من الصـائـد!

حابي :

هيـلانَ، يا لهفـا على الحبيبهْ على الجمـال وعلى الشبيبـهْ
على الفتاة الحُرَّة النجيبه

[يتحسس جسمها]

يـا للحَيـاة مـا تـني دبيبـا أبي، تَـأمَّلْ جسمَهـا الـرطيبـا
واسمعْ تَجدْ لقلبها وجيبا

أنوبيس : حابي، نسيتَ حُقَّةَ النجاة

حابي : هيهاتِ أعصيك أبي هيهاتِ

إن أنسَ أشياءَك أنسَ ذاتي!

[يخرج الحقة من جيبه]

خُذْها

أنوبيس :

بل اسكبْ في فم الفتاةِ لعلها تصحو من السُّباتِ

[يشتغل حابي بإيقاظ هيلانة]

أنوبيس [على جثة كليوباترا]:

بنتي رجوتُك للضحية والفدا فوجدتُ عندك فوقَ ما أنا راجي

إن تُصبحي جسداً فنفسُك حرةٌ وعُلاك سالمةٌ وعِرضُك ناجي

سيقولُ بعدك كلُّ جيل مُنصف ذهبتْ ولكن في سبيل التَّاجِ

[ثم يلتفت إلى جثة شرميون]:

وأنت أيضاً شرميونُ جيفهْ مُتِّ ولكنْ ميتةً شريفهْ

ما أعظمَ الملْكة والوصيفهْ!

حابي :

أُدنُ أبي ألقِ النظرْ يا لَعجائب القدرْ!

أنوبيس : أحدث ترياقي الأثرْ؟

حابي :

أنظرْ أبي ترياقَك المحسن ماذا منحا؟

أنظرْ فهذا مَلَكي من رقدة الموت صحا

قد فتحَ العينيْن بعد اليأس من أن تُفتَحا

وهذه أنفاسُه رَيْحانُها قد نَفَحا

مـولاي قــد قــرَّبْــت مــن سـعــادتــي مــا نــزحــا
أنــت الــذي رَددتَــهــا رُوحــاً وكــانــت شَـبَـحــا
يــا قــلـبُ كـيـف لـم تَـطرْ عــن الــضــلـوع فــرحــا

هيلانة :

يــا ويــح لــي! وَيــحَ لـيَــهْ هــل صَــدَقــتْني عَـيـنـيَــهْ؟
حــابي أفي الــدنيــا أنــا؟

حابي : بل أنت دنياي هنا

هيلانة :

مَــنْ ذَا جَـنَــى عَــلـيّهْ حَــتَّــى بُـعِــثْــتُ حَـيّــهْ؟

حابي : أبي الذي شَفَاكِ يا مَلاَكِي

أنوبيس : لا بَلْ مَلاَكُ الحُبِّ قَدْ شَفَاكِ
وأَدْمُعُ الإخلاصِ مِنْ فتَاكِ

هيلانة :

أبِــي لَـقَــدْ مَــرّ عَــلـيّ الــمَــوْتُ وكُــنْــتُ مِــنْ عَــذَابِــهِ نــجَــوْتُ
عَــلاَمَ حُــلْتَ بَـيْــنَــهُ وبَـيْــنِــي؟ الــمَــوْتُ لا يُــذاقُ مَــرّتَــيْــن

[ترى جثة الملكة وهي تتلفت]

رُحْمَــاكِ آلِهــةَ الــوَادِي ذُهِلْتُ فَلَمْ أذكــرْ مَلاكــاً وراء العَرْشِ مُضْطَجِعَا
بالأَمْسِ ، لا ، لا بلِ اليَوْمَ ٱلْتَحقْتُ به صُرِعْتُ بالنَّاقِعِ السَّارِي كما صُرِعَا
لقـد رَحَلْنَا عن الـدُّنْيـا الغَـرُورِ مَعـاً ما لِي رَجَعْتُ إلى الدُّنْيَا وما رَجَعا
لَيْتَ الـطَّبِيبَ الذي دَاوَى فـأَخْرَجَنِي إلى الحَيَـاةِ على الـدُّنيَـا بـه طَلَعَـا
مَلِيكَتِي ، ربَّتِي ، صَفْحــاً ومَـغْفِـرَةً إنَّ المُـروءةَ كـانت أنْ نَمُـوتَ مَعَـا

الكاهن : بُنيّتي . . .

هيلانة : صَهْ أبِي ،

الكاهن : لا أَنْتِ واهِمَةٌ

فَلَسْتُما في مُلاقَاةِ الرَّدى شَرَعا

وَقَفْتُما مَوْقِفاً في الخَطْب مُخْتَلِفاً   لو جَرَّبَتْ فيه غَيْر المَوْتِ ما نَفعَا

حابي :

تَعالَيْ نَحْيَ في الحَقْلِ   مَعَ الطَّيْرِ كما تَحْيَا

هَلُمِّي الحُبَّ، هِيلاَ   نَةُ، فالحُبُّ هو الدُّنْيَا

أبِي دُونَكَ بارِكْنَا   وإنْ شِئْتَ فَشَارِكْنَا

أنوبيس :

إذا فارقْتُ مِحْرَابِي   فَمَنْ يَبْكِي على مِصْرَا؟

سأَبْقَى ها هُنَا ابْنَيَّ   إلى أَنْ أَقْضِيَ العُمْرَا

هَلُمَّا ابنَيَّ بِٱسْمِ الله سِيرَا وابْنِيَا الوكْرَا

هَلُمَّا جَنَّةَ الوَادِي   هَلُمَّا طِيبَةَ الغَرَّا

لَئِنْ فَرَّقَنَا الدَّهْرُ   فَقَدْ تَجْمعُنا الذِّكْرَى

[يخرجان]

[يسمع صوت بوق]

أنوبيس :

البُوقُ دَوَّى قَيْصَرُ أَقْبِلْ

[يدخل حارس]

الحارس : مولاَيَ قَيْصَر

[يتنحى عن الباب ويدخل قيصر وفي معيته الطبيب أولمبوس]:

أنوبيس :

ما يَبْتَغِي قَيْصَرُ من أَسِيرَتِهْ؟   إنَّ الَّتِي أَعَدَّها لِزِينَتِهْ

يَدْخُلُ رُومَا وهْيَ في كَتِيبَتِهْ   تَزِيدُ في مَوْكِبِهِ وقِيمَتِهْ

ماتَتْ ولم تَنْزِلْ على مَشِيئَتِهْ   بُورِكَ في النِّيلِ وَفي عَقِيلَتِهْ

قيصر :

آلِـهَـةَ الـرُّومَـانِ، مـاذا أَرَى؟ إمْـرَأَةٌ تَـسْـخَـرُ مِـنْ قـائِـدِ
قـد أبـطَلتْ كَيْـدِي على ضَعْفِهَـا ولـم تَـزَلْ تَـسْـخَـرُ بـالـكَـائِـدِ
فـي الجَـسَـدِ الـحَيّ تَـمنَّيْتُـهـا لم أَبْغِـهَـا في الـجَسَـدِ البـائِـدِ

[يركع قيصر عند جثة كليوباترا]

أنوبيس [لنفسه]:

الـحـادِثُ العَـجِـيـبُ قَـيْـصَـرُ والـطَّـبِـيـبُ
يَـغـدُرُهـا وعَـهْـدُهُ بـبـابِـهـا قَـرِيـبُ

أكتافيو :

عَـجِيبٌ يـا طَـبِـيـبُ أَرَى قَـتِـيـلاً ولَـكِـنْ لا أَرَى أثَـرَ الـجِـرَاحِ!
أَلَـيْسَـتْ فـي الـفَـنَـاءِ أَرفَّ لَـوْنـاً وأَنْـدَى مِـنْ رَيَـاحِـيـنِ الـصَّـبَـاحِ
فَهَـلْ تَـدْنُـو فَتَكْشِفُ كَيْفَ مـاتَتْ أبِـالسُّمِّ الـزُّعَـافِ أم الـسِّـلَاحِ؟

[يقترب أولمبوس وينحني على صدر الملكة من الناحية التي رميت فيها الأفعى]

أولمبوس

جَـبِـيـنٌ مُـشْـرِقُ الـغُـرَّهْ وَوَجْـهٌ ضـاحِـكٌ نَـضْـرَهْ
وعَـيْـنَـانِ كـأَنَّ الـمَـوْ تَ فـي جَفـنَيْـهِـمـا كَـسْـرَهْ
وهَـذا فَـمُـهـا تَـبْـدُو الـمَـنَـايَـا عِـنْـه مُـفْـتَـرَّهْ
ولَـكِـنْ قَـيْـصَـرُ آدْنُ انْـظُرْ هُـنَـا السِّـرُّ هُـنَـا الـعِـبْـرَهْ
فَبَـيْـنَ الـسَّـحْـرِ والـنَّـحْـرِ كَمِـثْـلِ الخَـدْشِ من إبْـرَهْ
مَـكَـانُ الـنَّـابِ مِـنْ صَـلٍّ شَـدِيـدِ الـبَـأْسِ والـشِّـرَّه

[تلدغه الأفعى]

إلَـهِـي، قَـيْـصَـرِي، آه لـقـد مَسّـتْ يَـدِي جَـمْـرَهْ
سَـرَى الـسُّمُّ بـأَعْـضَـائِـي وعَـمّـتْ جَـسَـدِي فَـتْـرة
وجـاءَتْ سَـكْـرَةُ الـمَـوْتِ فـلا صَـحْـوَ. من الـسَّـكْـرَهْ

[ثم يسقط ميتاً]

أكتافيوس :

وَيْـلَ النُّفُوس مِنْ فُجـاءاتِ القَـدَرْ!
وَوَيْـحَ أَلمبـوسَ بـالأَفْـعَى عَـثَـرْ

أنوبيس [لنفسه]:

قـد وَقَعَ الحـافِرُ فيمـا قَـدْ حَفَـرْ

قيصر :

وَداعـاً كِلُوبَتْـرا إلـى يَـوْمِ نَلْتَـقِي ... وتَنفُضُ عَنْهَـا الهـامِـدين المَقَـابِـرُ
مَحَـا المَـوْتُ أَسْبـابَ العَـدَاوَةِ بَيْنَنـا ... فـلا الثَّـأرُ مِلْحَـاحٌ ولا الحِقْـدُ ثـائِـرُ
ومـا آسْتَحْدَثَتْ عِنْـد الكِرَامِ شَمـاتةً ... صُـرُوفُ المَنَـايَا والجُـدودُ العَـوَاثِـرُ
ودَاعـاً وإن نَحْنُ اقْتَتَلْنَـا وجَـرَّدتْ ... حُسَـامَيْهمـا أوطَـانُنـا والعشَـائِـرُ
تَحـدِّيتِني بـالمَـوْتِ حَتَّى قَهَـرْتِنِي ... وما لِيَ سُلْطانٌ على المَـوْتِ قـاهِـرُ
تـرفَّعْتِ عن قَيْـدي ومُتِّ عَـزِيـزةً ... وأَيْـدِي المَنَـايـا للقُيُـودِ كَـوَاسِـرُ
وأنْتِ التي نـازَعْتِ رُومَا مكـانَها ... وجَـرَّتْ بنـاديـك القُيـودَ القَيَـاصِـرُ
لَعِبْتِ بـأَنْطُونيـو ويُـوليـوسَ حِقْبـةً ... كمـا جاء بـالمَسْحُورِ أو رَاحَ سـاحِـرُ
ومـا أنـا إلّا سَـيْفُ رُومـةَ بـاتِـراً ... أُصِـيـب بـه سَيفُ لِـرومَـةَ بـاتِـرُ
زَجَـرْتُ فلم أُسْمَعْ فقـاتَلتُ مُكـرَهـاً ... وفي الحَرْب إن لم تَرْدَع السِّلْمُ زاجِرُ
وأَنْـطونيـو صِهْـرِي الكَـريمُ بِمِثْلِهِ ... يُـطَاوِلُ أَنْسَـابَ المُلوكِ المُصَـاهِـرُ
ودَاعـاً عَـرُوسَ الشَّـرْقِ كُلٌّ، وِلاَيَـةٍ ... وإن هَـزَّت الدُّنْيَـا لها المَـوْتُ آخِـرُ

[يخرج أكتافيوس وحاشيته وتزف التحايا له من الأبواق والحناجر خارج القصر]

أنوبيس :

أَكْـثِـرِي أيُّهـا الـذِّئَـابُ عُـوَاءً ... وادَّعِـي فـي البِـلَادِ عِـزّاً وقَـهْـرَا
أَنْشِـدِي واهْتِفِي وغَـنِّي وضِجِّي ... وآسْبَحِي في الـدِّمَـاءِ نـابـاً وظُفْـرَا
لا، وَإيزيسَ، مـا تـمـلَّكْـتِ إلاّ ... وادِيـاً مِن ضَيَـاغِم الغـابِ قَفْـرَا
قَـسَمـاً مـا فَتَحْتُمُ مِصْـرَ لَكِـنْ ... قَـد فَتَحْتُمْ بِـهَـا لِـرُومـةَ قَبْـرَا

ستـار الختـام



دلوتيمان

أو

آخِرُ الفَراعِنَة

رِوَايَة



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذه الرواية كتبها المؤلف كما يقول في كلمته بعد روايتين سبقتا له، هما:

١ - عذراء البصرة.

٢ - لادياس.

أما عذراء الهند فقد نشرت في الأهرام تباعاً منذ (١٨٩٧/٧/٢٠) إلى (١٨٩٧/١٠/٦).

وأما ثانيتهما، وهي لادياس فقد نشرت تِباعاً في مجلة الموسوعات، ثم ضم بعضها إلى بعض وخرجت في جلدة واحدة سنة (١٨٩٩).

وروايتنا هذه (دل وتيمان) نشرت تِباعاً في مجلة الموسوعات، منذ (١٨٩٩/٤/٢٦) إلى (١٩٠٠/١٠/٩).

وكما سَبقت هذه الروايةُ روايتين أخريين لشوقي، هما: عذراء الهند، ولادياس، كما ذكرتُ، كذلك سُبقت برواية على نمطها لكاتب ألماني، لم يذكر لنا شوقي اسمه، كما لم يذكر اسم من ترجمها.

ويبدو أن شوقياً حذا حذو المؤلف الألماني في الكثير، أو على الأصح ساير هذا المترجم في أسلوبه ومسمّياته.

فأسلوب الرواية هنا دون الأسلوب الذي أَلِفْناه لشوقي، والمسمّيات ليس فيها التحرِّي الذي عَوَّدنا إياه شوقي، فكما ذكرها المترجم ذكرها شوقي، وعِلْمُ شوقي الذي نعرفه له بتاريخ مصر القديم يَكْفُل له ردَّ الكثير من تلك المسمَّيات إلى أصولها الصحيحة.

وثَمة غير الأسماء الحقَّة أسماء موضوعة، ومثل هذا كثير في الميدان الروائي. ولكن الذي نعرفه لأيّ روائيّ، حين يتناول حِقبة تاريخية بعينها، ويضطر في تناوله هذا إلى أن يذكر أسماء لم يكن لها وجود، أن يشير إلى هذا في مقدّمة يقدِّم بها لروايته، وهذا ما لم يفعله شوقي هنا.

والذي يقال: إن شوقياً استدرك الكثير مما فاته هنا وردَّه إلى صورته الحقَّة في روايته (قمبيز).

وبعد، فهذه رواية (دل وتيمان) تنشر في كتاب للمرة الأولى، وأرجو أن أكون قد وفِّقت، على الصورة التي تُرضي القارىء، ويَراح لها.

والله ولي التوفيق.

ابراهيم الأبياري
ذو القعدة ١٤١٢ هـ
يونيه ١٩٩٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

ألقيتُ أساسَ هذه الرِّواية، وأنا لا أعلم أنّ كاتباً مُجيداً من أفاضل الألمانيّين عَتَب قَبلي هذا البابَ[1] من تاريخ قومي القديم، حتى قرأتُ روايته «أميرة مصرية»، مُعَرَّبة بقلم أديب فاضل من إخواننا السوريّين، فما رَجَعْتُ الوراء، ولا نَفَضْتُ يدي من البِناء، لعِلْمِي من جهة أنّ التاريخ ليس إلا مقابر وخرائب ـ كلمة الفيلسوف الفرنساوي تين ـ وأنّ أولى الأقلام بأن يَزُورَ مقابر الوطن، ويَقِفَ على خرائبه، قَلَمٌ عربيّ، تُمسكه يدُ مِصْرِيّ. ومِن جهة ثانية لأني أحاول أن أجعل ما هَمَّ وجَلَّ من حوادث وادي النيل، ماضيها وحاضرها، وما بينهما من الفترات، في عِقدٍ من الروايات، واسطتُه الحقيقة[2]. ونِظَامُه الخَلْق والتَّخْييل. والزمن الذي سَبقني الكاتبُ الألمانيّ إلى الكلام عنه حافلٌ بالعجائب، مملوء من الخُطوب والنَّوائب، فجاءت نُحُوسُه مِصْرَ، وهي عند ذِرْوة السَّعد، وَأَوْج الكمال، فكان موتُها فيه بموت آخِر الفراعنة لا يمكن أن يُسَمَّى إلا «فُجائياً»، فهو إذن زمنٌ ليس لي عنه غِنًى فيما أَتَوَخّى من تخليص التاريخ وتَلْخيصه، خُصوصاً بعد روايتي «عذراء الهند»،

(١) عتب الباب: وطيء عتبته.
(٢) واسطة العقد: الجوهرة التي في وسطه، وهي أجوده.

و«لادياس» . وثالثاً لأن التاريخ لِمُنْشِىء الرِّوايات كالبحر للغوّاصين، لا يَضِيق المَوْضِعُ الغزير منه بالخَلْق الكثير، فإذا رُزِقُوا فعلى قدر الاجتهاد والتَّيْسير، وهذا ما أسأل الله أن يُبَلِّغني إياه، إنه سبحانه مُنْجح الآمال، وعليه وحده الاتِّكال.

الفصل الأول

الزهر العجيب

أُحُــومُ عـلى حُسْنِكُـم مـا أُحُــومْ ... وأذْكُــرُكُــمْ بـطُلُوعِ الــنُّـجُــومْ
وأَصْبُــو إلَيْــكُـمْ وأَشْــتَـاقُكُــمْ ... كمــا آشْتَـاقَ طِيبَ الشِّفَّــاء السَّقِيمْ
ومــا بَيْنَنَــا غَيْــرُ هَــذَا الفِنَــاءِ ... وهَــذا الجِــدَارِ وهَــذِي الحَــرِيــمْ
وهَـذِي الـرِّيَـاضُ وهَـذِي الحِيَـاضُ ... وهَــذَا النَّخِيــلُ وهَــذِي الكُــرُومْ
ونَـحْـنُ كـمَـنْ فَـرَّقـتْ بَيْـنَـهُـمْ ... مَمَالِكُ في الحَـرْبِ تَحْمِي التُّخُومْ[1]
إذا شِئْتُ لُقْيَـاكِ خُنْتُ المَلِيـكَ ... وإنْ لم أَشَــأ خُنْتُ قَلْبِي الكَـلِيمْ[2]
ويــا لَيْـلُ طُلْتَ وطَــالَ الأَسَــى ... فَــمــا لَــكَ حَــدٌّ ولاَ لِــلْهُــمُــومْ
فَـمــاذا تُــرِيــدُ بهــذا الـسُّكُــونِ ... ومــاذا تُــرِيــدُ بهــذا الــوُجُــومْ[3]
ويــا مَــاءُ مــا تَبْتَغِي بــالـخَـرِيــرِ ... ويــا نجْمُ بــالـخَفْـقِ مــاذا تَــرُومْ
ويــا زَهْــرُ لا حَسَــدَتْــكَ القُـلُوبُ ... فشَمْلُكَ في العــاشِقِينَ الـنَّـظِيم[4]
ويــا طيــر يهنيــك طيب الـكـرى ... وطــول الـعنــاق وفــرط الـنعيـمْ
سَـمَــا بِــكَ غُـصْـنٌ عَـلَى كَـثْـرَةٍ ... وضَــاقَ عـن آثْنَيْن قَـصْــرٌ عَــظِيمْ

---

(١) التخوم: الحدود الفاصلة بين الأراضي.
(٢) الكليم: الجريح.
(٣) الوجوم: السكوت.
(٤) شملك: أي مجتمعك. والنظيم، أي ما ينظم ويجمع بينه.

بهذي الألفاظ أو بمعانيها، كان الجنديّ «تيمان» رئيس حامية القصر القديم في سايس يَسْتَحِثُّ سامِرَ الهَوَى[1] تحت سماء الليل، ويُحدِّث النفس خالياً في مَقصورته، من مَخْفَرِ القصر[2]. ويُنَاجِي كُلَّ ما في الدار وجنباتها[3] بسرَائر نَفْسه المُشَوقة وحَوَائج فُؤاده الولهان، وهو يتمشَّى في غُرفة نَومه، لا بساً حُلَّةً بيضاء، تَكْسُوه إلى ما تحت الرُّكبتين، مُحَلَّاة الحَواشي بالحرير المُذْهَب. دلالةً على الانتظام في سِلْك الجُنْد العِظام، وعليه دِرْعٌ من نُحاس. يتقلَّد في نهايتها سَيْفاً شديد اللَّمعان. قصيراً لا يُجاوز الرُّكبة، وهو في هذا اللباس البَهِيّ طويلُ القامة بآعتدال، مَهْزوزها[4] من الرَّشاقة، مُشِيرٌ بالوجه نحو السماء مُنْكَشِف الجَبِين بفَرق مُبين[5]، أبيض الوجه باخضرار، حُلْو أوائل العِذار[6]، ملآن العَينين من دلائل الحياة العالية، والوِجْدان الكبير، من رآه لا يزيده على العشرين.

وكان كلما ضاق به المكانُ جَيْئة وذهاباً عَمَد إلى كرسيّ عالٍ لَدَى نافذة مَفتوحة، فجلس ينظُر منها إلى معالم القَصر، وهي مُحتجبة في الظلام، مُسَوَّرة بالدَّوح[7] من كل جانب، ويَستقبل نَسِيمَ ساكنِ القصر فيزيده مَسْرَاه[8] جمراً على جَمر.

فبينما هو جالس على هذه الصُّورة، وكان الفَجر قد طلع أو كاد، بَصُرَ بِشَبَح إنسان يتقدّم نحو النافذة، وهو مُستعجل الخَطْو، يُواريه الشَّجر، ويَنِمُّ به ضَوْء الفجر، فوثب تيمان عن كرسيّه. وآستعد للقاء هذا المفاجىء، حتى إذا

---

(١) السامر: السَّاهِر.
(٢) المخفر: مكان الخفارة، والحراسة.
(٣) الجنبات: النواحي.
(٤) مهزوزها: أي لدنة تتثنى.
(٥) الفرق: الفاصل بين صفين من الشعر.
(٦) العذار: جانب اللحية.
(٧) مسوّرة: يحيط بها سور من الدوح، وهو الشجر العظيم.
(٨) مسراه: أي سيره، يعني سير النسيم.

صار من النافذة على خُطًى قلائل، حَقَّقه فعرفه لأول وَهْلة، وعندئـذٍ صاح بـه يقول:

أهلاً بك وسهلاً، يا والدي «إحياء». من هـذه المَنافـذ لا من الباب فهي طريق إليّ مُختصر.

فتقدّم بستانيّ القصر، وهو شَيخ يناهـز السَّبعين، ولا يزيـده الرَّائي على الخمسين. نظراً لقوة بِنْيته، ونَضارة شيخـوخته، وهـو عاري الـرأس حتى من الشَّعـر، طويـل اللِّحية بِشَيب كـامل، ليس عليـه من اللبـاس سـوى شيء من القُماش يَسْتُر عَورته، فانحنى بين يدي «تيمان» يحمل عُوداً كما الريحان، في أطرافه زهرتان، ما رأت قط مثلهما عينان، فقدمهما إليه وقال:

إن الزهر، يا سيدي «تيمان»، فاكهة الملوك والسلاطين، وتحيـة الطبيعـة للعاشقين فهـل تَمَنّ عليَّ بقبول هذا العُود النادر الثمين.

أقبله شـاكراً مسـروراً معجباً بـه، وبالقُـدرة الفائقـة التي صَنعت فأَدَقَّت وأبدعت، ولا أكتُمك، يا والدي «إحيا»، أني منذ مجيئي هذا القصر أُحس من نفسي مَزِيدَ المَيْل إليك، لأن فيـك مَشَابـه من «فقيد الحقيقـة» ميت الجلال، شيخي الموقَّر.

لا ينبغي «للسَّمك النَّتِن» أن يُشْبِه لحم الضحايا الزّكيّ، وإنما هو حُسن حظّي أنالني منك هذا، يا مولاي.

بـل أنا أقـول الحقيقة، يـا «إحيا»، وأني وسِـرِّه الطاهـر، لأَراك فأذكـره بطلعتك، وأسمع حديثك فأجد صَدَاه في صَوتك.

إني إذن لسعيد، يا مولاي، والآن أَسترعي نظرك لما ناولتك من الـزهر، وانتظر أن تهنئني عليه، لكونه نتيجةَ تشكيلي وتنويعي، فلا يُوجـد إلا في هذا البستـان، ومن غريب أوصـافه أنـك لا تجده في أغصـانه إلا زَوْجَيْن زَوْجين. كما تُشاهده على هذا العود الآن، ثم هو في هذا اللون الأصفر لَـون السقام، قصيـر العُمر، قليـل المُقام، يتفتّـح قُبيل الفجـر. ويموت لأول شُعـاع يغشى

الوُجود من الشمس، ولهذا دعاه جلالة الملك «بالعشّاق»، وفيه قال شاعره اليونانيّ:

وزَهْـرتَيْن علـى عُـود يُقِلُّهمـا ... كعاشقَيْن آطمأنَّا باللِّقَا الهانِي
لمّـا رأيتُهمـا فـي راحَتي ذَوَتـا ... مِنْ فَوْقِ واهٍ من الأَعْوَادِ خَوَّانِ
أيْقنتُ أنّ مُنَى العُشَّـاق ما جَمَعَتْ ... إلا إلى مِثْل خَيْطِ العَنْكَب الفاني[1]

وكذلك قال فيه الشاعر المِصْريّ لجلالة الملك:

مُتَعاشِقَانِ من الـزُّهُـورِ تَبَـدَّيـا ... ببَدِيـع مَـرْأى في الغُصُون عَجِيب
يَتَنَسَّمـان الـحُبَّ بينـهمـا فـمـاً ... لِفَمٍ على غَضِّ النَّبـات رَطِيـب
عَجِـلَ الـرَّدَى بهمـا ولا عَجَبٌ إذا ... مـا أُودَيـا بيـن الـهَـوَى والـطِّيبِ

وأحسن من هذا وذاك، يا مولاي، قولُ السَّجِينة تصف هذا الزهَر، وقد جئتها بشيء من عهد غير بعيد:

تيمان، مقاطعاً مضطرباً: الأميرة.

البستاني: إحذر، يا ابني، ذِكْرَ هذا اللقب مرّة أُخرى، إني أخاف عليك واشياً ورقيباً، وعَيْناً لِفرعون لا تنام.

تيمان: وأنا يا والدي «إحيا» أرجو منك أن لا تدعوني بعد هذه بيا ابني، فإن ذلك يذكرني شيخي الذي أنت أشبهُ الناس به، والآن قل لي من أين للسَّجينة نَظْم الشِّعر؟

البستاني: من الطَّبْع أولاً، وعِشْق الطَّبيعة ثانياً، فإني لم أرَ أَهْدَى منها لمَحاسن الطبيعة، ولا أولع منها بأسرارها البديعة، ومن الشُّعور الذي يَبعث الشعر ثالثاً.

تيمان: لقد أَدهشتني، يا «إحيا»، فأَنْشِدْني الآن أبياتها في وصف هذا الزهر؛

(١) العنكب: العنكبوت.

فاندفع البستاني ينشد:

فـي زَهْـرَتَـي ذا الـعُـودِ مِـن　　　أَهْـل الـهَـوَى جُـمِـعَـتْ صِـفَـاتْ
كـالـعـاشـقَـيْـن تـقـابـلاً　　　لـكـن عـلـى سُـرُرِ الـنَّـبَـاتْ
* مـتـآنـسَـيْـن يُـلاقـيـا　　　ن الـحُـبَّ مـن كُـلِّ الـجِـهـاتْ
هـذا عـلـى هـذا حَـنَـا　　　ولِـذَا إلـى هـذا الـتِـفَـاتْ
لـكـنّ فـي الـفَـجْـر الـحَـيَـاة　　　وفي الضُّحى لهما الـمَـمَـاتْ
قَـسَـمـاً لـقـد عـاشـا ولَـمّـا　　　يَـأْمُـلا أمـلاً فَـفَـات
مـن لـي بـسُـوقٍ لـلـحَـيـا　　　ة يُـقـال فـيـهـا خُـذْ وهَـاتْ
فـأبـيـعَ عُـمـراً فـي الـهُـمُـو　　　مِ بِـسَـاعَـةٍ فـي الـطَّـيِّـبـاتْ

فما فرغ البُستانيّ من إنشاده، حتى اضطرم جَمر الغيرة بفؤاد الفتى، فالتفت إلى «إحيا» وقال: مثل هـذا الشعر، يا «إحيا»، لا يقوله إلا العُشّاق، وهـذه الخَطرات لا تصدر إلا عن قلوبهم الوالهة، فمتى عرفت السَّجِينة الغرام؟

البستاني: هذه سَرِيرَة لا يعلمها إلا الآلهة، وأنت، يا سيدي «تيمان».

تيمان: أنا؟

البستاني: نعم أنت، لأن هذا الشعر وهذه الخَطرات مما لم يَبْدُ للوجود إلا في هاته السنة والتي قبلها، أي من يوم لا إنسان في القصر سواك، ولا هوى في الحقيقة إلا هواك.

فأشفق الفتى بادىءَ بدء من هـذه التُّهمة الكبيرة بذاتها، الصغيرة بمصدرها، ولم يَرَ بُدّاً من مُغالطة البستاني، فتكلّف آبْتسامة ثم قال: ما أعجلك، يا «إحيا»، إلى سوء الظن، فلقد قلتُ لك من قَبِيل المبالغة في قيمة الشعر الذي أُنشدتنيه، إن العُشّاق أولى بأن يقولوه من السَّجينة قائلته، ولم أقل لك إنها عاشقة، وإني قد أكون معشوقها كما توهمت، ثم عَجِلْت فاتّهمت.

البستاني: عفواً، يا مولاي، فلقـد خَدَعْتَني بكُـل هذا العـطف والتودّد. حتى وضعتُ نفسي موضعَ الخادم القديم، في خطاب السيد.المالك القديـم، فكاشفتُك بزَعْم طالما ضاق صـدري عن كتمانـه، وليشهد الآلهـة أنّي لم أقُل فَنَـداً[1] ولا تَطوَّحْت في القـول سُدًى، ولكني علمتُ أنـك عمّا قـريب تُفـارق القَصر ثم لا تعود إليه، حين فؤادك ضائع في تُرابه، ورُوحك متعلِّقة بأبـوابه، فلا يكون لك في القَصر يومئذ مَن يحمـل عنك من متـاعب الحُب وأشغالـه، ويُغْنِي عنك في مضايق الغرام وأهواله، أما وقد جَحَدْتني ولم تَـرضني خادمـاً لِخَـطير هـواك، فعَليَّ اللِّياذُ بأذيال المَعـاذير، وعليك، يا مولاي، التجـاوز عن هَفوتي، وها أنا ذاهب من حيث جئت.

(١) الفتن: الكذب.

الفصل الثاني

النزهة في حديقة القصر

قال «إحيا» ذلـك وآنحنى مودِّعاً، ثم ذهب من حيث أتى، وقد خلَّـف «تيمان» بين الحَيرة والإشفاق، حتى إذا أفاق، وخرج من الإطراق وقعت عينه مُصادفةً على الـزهرتَين، فـإذا بهما مُحتضـرتَيْن، قد تـردَّتا ثـيابَ الموت، ثم آنْتثرتا ورقةً إثر ورقة، حتى خَلَت منهما الأوراق. وفرَّق الموت بين العُشَـاق، فِـرَاقاً مـا بعده من تَـلاق. فأثَّـرت رؤيـة ذلـك في الفـتى وتطيَّـر منه، فـرمَى بالعُود في الأرض، وهو يلوم في نفسه من كان السبب.

وبعـد ذلك خـرج «تيمان» إلى النُّقط التـابعة للمَخْفـر، يُباشـر تفتيشهـا كالعادة، ويتعهّد العسكر، فزار آثنتين منها، ولَوَى على الثالثـة، وهي الموكَّلة بحراسة الباب الكبير، أو المـدخل العـام للقصر، فـزارها، وبينمـا هو يَعمـل هنـاك بَصِر بفـرَسٍ مُستطار[1] حَثِيث الغُبـار، يَـركُضه فارس، وهـو يَقْصِد إلى القصر، فالتفت يَرْقُبُ وُصوله حتى عَرفه، فبَدَر إليه، فوقف الفارس، وبعد أن تبادلا تحيَّة اللِّقاء قال «لتيمان» وهو يَخفض صوته: لا بد لنا أن نجتمع الليلة، لأن هناك أموراً ذات بال تُهمّ الجمعيةَ معرفتها، ويتحتّم الاحتيـاط بإزائهـا كلَّ الاحتياط.

(١) مستطار: قد أسرع به راكبه فجعله يطير.

تيمان: فليكن ذاك، ولكن كيف السبيل إلى بَرَاح المركـز، وأنت تعلم القُوة التي تتهدّدني إذا تغيّبت عنه.

الفارس: لا تُعْنَ بأمر قد دبّرناه لك، فخذ هـذا الكتاب فـآقرأه، فـأخذ «تيمان» الكتاب وفَضّه، فإذا هو أمرٌ عسكري قد جاء فيه.

إلى خـادم الملك الأمين الجندي العـظيم «تيمان» رئيس مَخْفِـر القصـر القـديم، قد رأينـا أن نَستصحبكم في جولتنـا بالليـل لتعهُّد مـراكز الحـاميـة، فسلِّمـوا مفاتيـح القَصر إلى مسـاعدكم النشيط «فللوس» وانتـظرونا في أول الليــل على البــاب المُستعصي، لتسيــروا منــه صُحبتنــا إلى تفتيش النـقط والمراكز.

التوقيع

منهوت قائد الحماية الشرقية

فلما فرغ «تيمان» من قراءة الأمر طَواه وظلّ مُمْسِكَه، ثم قال للفارس:

إذن فستجدونني في آنتظاركم حوالى الساعة الثانية من الليل، إذ أكـون قد فَرْغت من صَلواتي.

لقد بَغَّضْتَ إلينا الآلهة بصلواتك، يا «تيمان»، كأن ليس لك عنهـا غِنًى في ليلة لا ننالها إلا مرة في الشهر.

تيمان: صلواتي واجب، وما نحن فيـه من العمل واجـب آخـر، ولست يا «خنبو» أول من جمع بين واجبين، فامضِ لشأنـك، ولا تَسخر من صلواتي بعد هذه فأتّهم أدبك وأستقلّ عقلك.

وأخذ «تيمان» الغضب، فخشي «خنبـو» عاقبـة المَزْح في هـذا المَقام، فلم يزده على ما قال؛ بل اعتذر في الحال، ثم ودّع وآنطلق.

فرجع «تيمان» الوراء والورقةُ في يده، وكان «فللوس» اليوناني هو رئيس شِرْذمة الجند الذين على الباب الكبير، فدعا به، ورفع إليـه أمر القـائد ليُحيط بـه عِلْماً، فتنـاوله «فللوس» وقـرأه، ثم ردّه إلى «تيمـان» وأقسم بين يـديـه أن

يكون في الساعات التي يَرْأس فيها المَخْفر بالنّيابة عن خادم الملك الأمين.

ثم بُلِّغت إشارة القائد إلى الجُند وسائر رُؤسائه، فابتهج فريق بذلك وآكتأب آخرون. وسُرَّ اليونان منهم وآستاء المصريّون.

وعاد «تيمان» بعد ذلك، إلى حُجرته، فما زال يستعد للموعد المضروب، حتى كان الأصيل، وهي الساعة التي تنزل فيها السَّجِينة في كُل نهار إلى جَنّة القَصر، فلا تزال تتمشّى فيها في حِراسة رئيس المَخْفِر، حتى يدخل الليل فتنثني آيبَةً إلى مَقاصيرها.

وكان الفتى يَرْتَقب هذه الساعة، كما يَرقُب الصبيان بشائرَ العيد، فخرج من حُجرته يمشي حتى آقترب من مَدخل الحريم، فوقف هناك وجوانحُه تَخْفِق خَفْقاً، وفؤاده يدق دَقّاً، وعندئذ تَبَدَّت شمسُ السجينة تُغِير شمس النهار بحِلاَها، فتغار، وتتهتّك الألباب لرؤيتها، فما بال الأبصار. فحين آلتقت عينها بعين «تيمان» آبْتسمت تُحيِّيه. فضحك إليها قلبُه قَبل فيه؛ وآنحنى في طريقها حتى مَرَّت، فمشى خَلفها في الخِدمة والحِراسة.

أما الفتاة ففي الثامنة عشرة، مهزوزة القوام، لها آعتدال الرُّمح في رَوْنق الحُسام، غضّة شَقِيق الخدَّين[1]. سَوداء العينين، بِقَبل ضيق[2] ممدودة شبَال الهُدْب. صائدة القلوب بالنظرة وضاحة الجبين. شمّاء العِرْنين[3]. كأنها عَرِيقة النَّسب في الفراعنة العالِين.

وعليها رِداء ضافٍ، من الكُتّان الأبيض الشفاف، ليس من زُخْرف يُحلِّيه. سوى أن الحُسن تحته والجمال فيه. وقد جَمعت ذَوائبها السُّود، ثم شكَّلتها بشكْل العُنقود. مكان كُلّ حبة منه حَجر كريم. يضيء كالنجم في الليل البَهيم، وهي تمشي بين صاحبتين، إحداهما مُربِّيتها، وهي آمرأة عجوز

---

(١) شقيق الخدين: يعني حمرتيهما.

(٢) القبل: إقبال سواد العين على الأنف أو الحاجب.

(٣) شماء العرنين: مرتفعته. والعرنين: ما صلب من عظم الأنف حيث يكون الشم.

تَحْبُـو إلى السبعين، والأُخرى من سِنّ الفتـاة أو تـزيـد سنَتَين. أي لا تجـاوز العشـرين. وقـد أُوتيت من الجَمـال مُلْكـاً كبيـراً كـذلـك، فكـانت أحقَّ أنثى بمُصاحبة ذلك المَلَكِ الكريم.

وكانت السَّجينة تمشي الهُـوَيْنَى وهي تُكثر من التلَّفت وراءهـا، وتُسارق «تيمان» اللحظة بعد اللَّحظة، كأنما تحتال على خطابه، فلا تُـوفَّق للكلام ولا تُهْـدَى لأسبابـه، حتى آنَس الفتى ذلـك منهـا للمَـرْة الأولى، وتـذكّـر حـديث البُستـاني، فدفعـه فؤاده إلى الأمام. وحَمَلْتـه النفسُ على الإقدام. فـدنـا من الفتاة وخاطبها بلسان تَعْقِدُه المهابة، فقال:

لعل سيدتي يَهمها أن تعلم أن حراسة المَخْفر تَخْرُج من يدي في هـذه الليلة.

فالتفتت الفتاة مَبْهوتة، وظهرت عليها دلائلُ الاضطراب الشديد للحِين، ورأت العجوزُ ذلك عليها، فزجرَتْها بنظرة خَفِيّة، فازدجرت من فَـوْرها، وكـان جوابها للفتى أن قالت:

وهل آنقضت مُدّتك، بعدُ، أيها الرئيس؟.

تيمان: لا، يا سيدتي، ولكن دُعِيت لأتغيَّب الليلةَ عن القصر، بـأمر من رئيس قائد الحامية الشرقية.

السجينة: إذن فستَعُود إليه غداً؟

تيمـان: بل قبـل غَدٍ، ياسيدتي، فـإن عملي مع القـائد يَنتهي حوالى الثُّلث الثـاني من الليل، ولكني لا أستـردُّ الحِراسـة إلا في الفجـر، كمـا هي الأصول المُتبعة في المخافر السلطانية.

السجينة: ومن يَخْلُفك على حِراستنا الليلة؟

تيمان: مُساعدي «فللوس».

فحين سمعت الفـتاة هذا الاسم عَبَست ونَفرت كالمُشمئزّة، ثم قالت:

إن كـان الأمر مـا ذكرت فـإن الآلهة يتخلّون أيضـاً عن حِـراستنـا، فـلا يعودون حتى تعود.

فاستوجبت الفتـاة بهذا التهـوُّر في الكلام نـظرةً ثانيـة من العجوز أشـدَّ مَضاضة وأزجـر من الأُولى، فلم يسعهـا إلا الامتنـاع عن الكـلام، ومُـواصلة نُزهتها في حديقة القصر بسَلامٍ.

وفي هذه الأثناء كانت «روهيت» وهو آسم الفتـاة قرينـة السَّجينة، تتلوَّن ألواناً، ويجيش وجدانها بأنواع السَّرائر، وتحـاول أن تدخـل في الحديث ولـو مُندفعة، فلا تستطيع لاشتغال المتحـادثين عنها بالكُلِّية، خصـوصاً «تيمـان»، فقد بالغ في الإعراض عنها، حتى خُيِّل لها أنه يتعمّـد إهانتهـا، أو لا يَحْسِب لجمالها النادر حِسَاباً. إلا أنها كتمت غَيـظها، ولم تملك من الانتقام الوَقْتِيّ إلا مقابلةَ الإعراض بالإعراض، فمشت تتلهّى بقَطف الأزهار، والعَبث بـورق الأشجار، ولم يلحظ أحوالَها هذه سـوى العَجوز، وكـانت طالمـا آتّهمتها في نَفسهـا بحب «تيمان». ومُـزاحمة «دلّ» على عشق جمـالـه الفتّـان، لكنهـا لم تَخرج من ظُلمة الشك إلى نور اليقين إلا هذه المرّة، فصمّمت على الاحتياطِ لربَيبتها[1]،والسَّهرعليها، والوُقوف لمُنافستها الطائشة في كُل طريق من الكَيد، تحملها على سلوكه الأضغان والحقائد.

وكـان النهار قـد آنصرم؛ والليـل قد هَجم؛ فـالتفتت العجوز إلى «دل» وقالت: أرى النزهـة قد آمتـدّت بنا، يا أميرتي العـزيزة، فهـل لك في دُخـول القصر. قالت: الأمر لمربيّتي المُـوقَّرة. قـالت: إذن فَلْنَرجـع من حيث جِئنا، ثم انثنى الكُلُّ مُنصرفين. وإلى مدخل الحريم، وهناك انحنى «تيمان» مودِّعـاً فشيّعته الفتاتان كلتاهما بالسَّمع والبصر. والفؤاد مُسْتَعِر.

(١) الربيبة: بنت امرأة الرجل من غيره.

الفصل الثالث

ناحية الهر الهائم

وكان الفَرس قد هُيِّئ لركوب «تيمان» فركب، وأَطلق العِنان يَؤُمُ ناحية الهر الهائم، وكانت شرقيّ البلد، وألصقَ بخارجه منها بداخله، وإنما سمِّيت كذلك لأن سكانها من الأجانب، وعلى الخصوص اليونان، كانوا لا يخرجون من بين البُيوت إلا تعرّضت لهم الهِرَر[1]، كبارها وصغارها، وصحاحها ومرضاها، بحيث لا تَمضي ليلة بدون أن تقوم قيامةِ الناحية، ويشتغل الأهالي، وتهتمّ السلطة الدينية والحكومة معها، بأمر أجنبي أَهان هذا الحيوان المُقدّس، حتى آمتلأت سُجون الهياكل من المُجرمين من هذا الصِّنف، وأصبحت الإقامة بهذا القِسم من المدينة خطراً قَوّاماً على الأجانب، فهجره جميعهم، وبيعت الدُّور فيه بأَبخس الأثمان، فتهافت جماعة الضباط المصريّين على الاستئجار والشِّراء بحيث لم يَمْض إلا الزمنُ القليل حتى صارت الناحية مَعْمُورةً بهم، خاليةَ الجوّ لهم، لا يَصحبهم فيها اليونان بوُجوههم البغيضة إليهم، ولا يَلْقَون فيها أشخاصهم المَمقوتة لديهم.

ثم تولّت الأوهامَ هذه الحادثةُ، فزعم الأهالي أن الناحية يسكنها، هِرٌّ هائم يتعدّد ويتشكل، ويظهر فيما يشاء من الحالات، وأنه يغار عليها أن

---

(١) الهرر: جمع هرة، وأما جمع الهر، فهو هررة.

يُجاوره الأجانب فيها، فهو يعاكسهم ويُحرجهم ويُخرجهم منها ليُطَهّرها منهم. ومن ذلك الحين غَلبت هذه التسمية عليها، فصارت لا تُعرف إلا بها.

فلما وصل «تيمان» الناحية قَصد إلى منزله فيها، وكان في أقصاها بمعزل عن البيوت، يحيط به الفَضاء من كل الجهات، وهو عبارة عن طبقة واحدة مربعة الشكل ـ مُحكمة البناء. وإن كانت خِلْواً من البهجة والرُّواء[1]. ومن رآها ثم نظر إلى مساكن اليُونان وهي ناهضة دونها بالمَنظر البَهج، والمرأى الشائق، علم أنها من بناء المصريّين القدماء، الذين لم يهتّموا بمساكنهم في الحياة الدنيا عُشْرَ مِعشار اهتمامهم بتشييد القبور، لاعتقادهم أن البيت ليس إلا مأوى يَمُرّ به المَرْءُ مَرّاً، وأن القبر هو وحدَه الدار الأبديّة.

فنزل «تيمان» عن جواده، وكان فقيدُ الحقيقة، ميت الجلال، شيخه الموقَّر قد اقترح عليه في جُملة وصاياه أن لا يتخذ في البيت بعدَ موته عَبْداً ولا جارية، إذا أحب أن تبقى الدار عامرة برُوحه الطاهرة، فكان الفَتى يتولَّى جميع أمره بنفسه، تمسُّكاً بهذا المُقترح، حتى صار من النشاط في خِدمة نفسه، وتدبير شؤونه، بحيث يَغْبِطه كل جنديّ حقيقي.

ترك «تيمان» الفرس في مَرْبِطه من البيت، وجاء بابَ الدخول ففَتحه، وكان من عادته أن يضع المِصباح هُناك، فأخذه وأشعله، ثم مشى في ضَوْئه يَطْوِي الحُجرة إلى الحجرة، حتى احتوته رَدهة عظيمة، فاجتازها إلى حُجرتين يُوصل من إحداهما إلى الأخرى، فلبث في الأولى ريثما تجرّد عن ثيابه العسكرية. واشتمل برداء أبيض واسع، مما يُلْبس للعبادة، ثم دخل الحُجرة الثانية مُستجمعاً من الخُشوع والوَقار، وكان في صَدرها سِتار من الجدار، إلى الجدار، فأوقد «تيمان» المصابيح، وأشعل المَباخر، ثم استقبل السِّتر، وفاه بهذه الكلمات:

أيها الروح المُلْهِم، والخيال المتكلِّم، والصوت المُرشد المعلِّم. ها

(١) الرواء: المنظر الحسن.

قد مَثُلْت في سُدّتك[1]، وأَنِسْت بوحدتي في حُجرتك. فأَفِضْ عليَّ من حكمتك، وأَقِمْني فيما تراه لي عَيْنَ بِرِّك ورَحمتك. قال هذا وأطرق برأسه يُصيخ للجواب. فجاءته هذه الكلمات من وَراء الحِجاب:

«لو علم «تيمان» أن الخير في الناس كثير ما نسي «لإحيا» كرامته. ولا أبى عليه في هذا الصباح خِدمته، فإنه نِعم الصاحب والمُعين، والخادم الصادق الأمين. لو علم «تيمان» كم نهار قضى «إحيا». وكم ليلة أُحْيا. حتى توفّق لإيجاد ذلك النبات، زيادة في عدد المخلوقات، ما اشتغل بأحاديث الحَبيب، عن تأمّل مقدرة العَقل عند قوة الطبيعة في الزَّهر العَجيب. لو علم «تيمان» أن الذكاء لم يُخْلَق مقصوراً على أحد، وأنه لا يقف في الناس عند حَدّ ما زُهي ولا آستكبر، ولا غالى ولا آفتخر. بصُورة صُوِّرها ليست بالأولى ولا الأخيرة في الصُّوَر. فيا «تيمان» ثق بالناس إذا شئت أن يَثق الناس بك، واعجب بما في أيدي الناس إذا شئت أن يُعْجَب الناس بما في يديك، وآعلم أن السماء لم تُرفع لأجلك، وأن الأرض لم تُخْلق مَوْطِئاً لنَعلك؛ فلا تُشِرْ بوجهك نحو الأولى من الكبرياء؛ ولا تَمْشِ في الثانية الخُيَلاء؛ وتَواضع في الأرض تَرْفَعْك السماء».

ثم انقطع الصوت، فعلم «تيمان» أن ذلك إِذْنٌ من الرُّوح له في الانصراف، فنَهض من جَثْمته، وأعاد الحُجرة حالتها الأولى من الإظلام، ثم آنقلب إلى الحُجرة الصغرى، فآطرح رداء العُبَّاد، ولَبس لباسه المُعتاد، ودخل بعد ذلك إلى الرَّدهة فأضاءها، وأسرع يُهيِّئها لاستقبال أصحابه، ويرتِّب المقاعد لهم، فَلْنَدَعْه الآن في عَمله هذا. ولننظر أين أصحابه؟

---

(١) مثلت: قمت منتصباً. والسدة: الساحة.

الفصل الرابع

اليوناني أرمنديس

كانت ناحية الهِرّ الهائم إذا تولاها الظلام خَلت من حركة الأقدام، وآستولى عليها السُّكون التام، ولم يبق فيها مفتوحاً من بيوت الصناعة والتجارة إلا خمّارة، يقال لها حانة الطرب الأبديّ، وكان يُديرها فتًى، وقد آستبدّ الضباط المصريون فاستأثروا بهذه الحانة، واتخذوها محلاًّ لاجتماعهم وطَربهم. دون سواهم من سُكّان الناحية.

فلما كانت أوائل الليلة، التي نحن بصدد الكلام عنها، أخذ جماعة الضباط يتوافدون على حانة الطرب الأبدي، فُرادى وأزواجاً، مشاة وركباناً، و«مناح» وهو اسم الخمّار بالباب يَستقبلهم، ويَدخل بهم إلى مأواه الحقير خلف الحانة، حتى آجتمع فيه منهم نحو العشرين، والمارَّة لا تبصر منهم أحداً، وعندئذ أغلق، «مناح» باب الخمارة، ودخل على القوم رَدهة الدار، وكانوا مجتمعين فيها، فلما صار بينهم قاموا إليه يُجاذبونه ثوبه ويمازحونه، فهذا يقول: أين نبيذك الذي يبعث الحماسة يا «مناح»؟ وهذا يقول: أين دم الأعداء القاني نشربه اليوم قبل غد؟ وفريق يصيحون: لا تدعوا نبيذ اليونان يعلو على نبِيذ المصريّين، لا تشتروا نبيذ الأعداء، ولئن شربه أُمراؤكم وسَرَاتُكم فأَمهلوهم فسوف يَقِيئونه دماً صَبيباً. أين فاكهتك اللذيذة يا «مناح»؟. إن كانت من بساتين الأمراء والأعيان فلا نقربها. لأنهم لا

يستخدمون في بساتينهم إلا اليونان فأجابهم «مناح» دونكم هذه القِرَبَ المعلّقة، أنزلوها وآشربوا حتى تَرْوَوا، فإنها من كُروم أبي التي تُضرب بجودتها الأمثال.

«خنبو» مقاطعاً: إن أباك يَعْصِرُ الكروم كما يَعْصِرُ الشعب حال جباية الأموال، ولا يدري أن الذهب المصريّ قد أصبح كُلّه أطواقاً على لَبّات نساء[1] اليونان، ويوشك أن يتخطاها إلى أعناق الخنازير.

«مناح» مغضباً: لا أحتمل لك، يا «خنبو»، أن تسخر من أبي إلى هذا الحد.

القائد «منهوت»: لا عائلة لمن لا وطن له يا «مناح» ولا أب لابن خائن الوطن، فأولى لك أيها الصديق العزيز أن تضرب على ذكر أبيك الشيخ الفاني، وأن تضرع معنا إلى آلهة «سايس» أن يُطَهِّروها منه في أقرب حين.

مناح: وأنت أيضاً، أيها القائد؟

القائد: وهل تكره أن تصبح على ثروة يَغْبِط أغنياء الأرض بها أباك، وأن نشاطرك كرائمها، فنَحُلَّ محلَّ شِرَار اليونان، الذين لا يفتأ أبوك يُولِم لهم الولائم، ويَبْذُل لهم الرِّشى ليكونوا أولياءه وناصريه لدى الملك.

وكان بين القوم ضابط قصير القامة، ممتلىء عظيم البطن، ضيق العينين، عالي كراسي الخُدود، يدعى «مندهور» وكان قد اغتنم فرصة آشتغال أصحابه بسبب والد «مناح» فأنزل قِرْبة نبيذ، وسَلَّة من الفاكهة، وطَفِق يأكل ويشرب حتى امتلأ بطنه، فالتفت إلى القائد وقال:

أما أنا أيها القائد فعندي أنه لو لم يكن من فَضل رئيس الجُباة علينا غير هذا النبيذ لكفى، أما الفاكهة فلا أدري من أين جاءت صديقنا.

مناح: فقد وجدت في هذه السَّلة شيئاً جافّاً مما يُحدث الهِرَر[2].

---

(١) اللبات: جمع لبة، وهي موضع القلادة من العنق.

(٢) يحدث الهرر: أي يجعلها تحدث، أي تسيل بطونها، والمسموع أن الفعل لازم.

الجميع ضاحكين: الهِرَر! وهل أكلت منه شيئاً؟ إنك إذن لمُطَهّر البطن، لعل ذلك يشفيك، يا «مندهور»، من نهمتك القتّالة.

وعندئذ ٱلتفت أحد الضباط إلى «مناح» وسأله:

إني أسمع مُوَاء، يا «مُناح»، فهل في البيت بقيّة من تِلك الهِرَر؟

مناح: بل هي هِرّة واحدة عمياء، وأنا أدّخرها للإيقاع «بأرمنديس».

الجميع مستضحكين: الحق نقول: إنه لم يغلبك على دَهائك إلا ذاك الأعمى يا «مناح».

مناح: سترون كيف أضربه الضربة القاضية، وكيف تقتصُّ لنا هذه العمياء من ذاك الأعمى.

ضجيج: متى؟ متى؟

مناح: الليلة الليلة تسبقونني أنتم إلى منزل صاحبنا «تيمان» وأتخلَّف أنا و«مندهور»، فنعمل عملنا، ثم نلحق بكم بعد ساعة ونحن ظافرون.

مندهور، مقاطعاً: ولم لا تستصحب سواي، إني أخاف أن تغلط العمياء فيّ فأقع في شَرّ أعمالي.

مناح: لأنك أشبه القوم بذلك اليوناني الشحيح، فلا تتمّ الحيلة إلا بك، وقد فكرت في هذا قبل الآن، فلم يَعُدْ التنصُّل منه في الإمكان.

مندهور: إذن، فأنا أشترط أن يؤول نصفُ ماله إليَّ.

مناح: وأنا راضٍ بهذا الشرط.

ثم قصد القوم منزل «تيمان» تاركين «مناح» وصاحبه يُعِدّان المِصيدة، ويستعدّان للمكيدة، فقام «مناح» إلى صناديقه فأخرج منها ثوباً أحمر قصيراً، من نوع ما يألف «أرمنديس» من الثياب ويختار، فدفعه إلى «مندهور» ثم ناوله عصا طويلة مُدبَّبة الطرفين، كالتي آعتاد الأعمى أن يتوكأ عليها[2]. فلبس «مندهور» الثوب، وحمل العصا، ثم أغمض عينيه وقال: انظر الآن يا «مُناح»

هل ترى من شَبه؟ فحين رآه «مناح» في هذه الصورة أغـرق في الضحك، ثم قـال: قد كَمُـل الشَّبه وتمّت الحيلة يـا «مندهـور» فاجعـل هذه العَميـاء تحت إبطك. ولا تخف منها أذًى ولا مُوَاء في الطريق، فـإنها أضعف من الضّعف، ولم أر بين الهِرَر المُبْصِرات، مَن لها بعضُ هذا السَكـون والاستئناس، والآن لم يبق إلا الخروج لنتمّ عملنا.

مندهور: وهـل نسيت أن الأعمى يكتنفه على الـدوام آثنان من القـوم، بحُجـة مرافقتـه وحمايتـه، والحقيقـة أنهمـا يـدخـلان علينـا الحيّ يتجسّـسـان ويتحسّسان، فكيف السبيل إذن إليه؟ وأين نجده بالليل مفرداً؟ الحق أقول لك يا «مناح»، إني غاد على خطر، فلا يبتعد أن يُقْبَض عليّ، حاملاً هـذه العمياء، فيَحْسبونني قد فقأت عينيها، وحينئذ يكون لي وللكَهنة حساب.

مناح: لأنت، يا «مندهور»، جبان. بقدر ما أنت نَهِم مِبْطان، فـاعلم أن لي الإشارة وعليـك الإذعان.

فأذعن «مندهور» وخرج الرجلان من الخمّارة، فانطلقا يسيران قاصـدَيْن منزل «أرمنديس» حتى آقتربا منه.

وهنالك قـال «مناح» لـرفيقه: انـظر إلى المنزل كيف لم يُـوقد بـه نور! فلعلَّ اليونانيّ لم يرجع من المدينة. بعد هذا يصير العمـل أدنى إلى النجاح، فَتقدَّم ،الآن ،ودُقَّ الباب، فإذا فَتح لك غلامُه فآدخل غير متلفّت ولا نابِس ببنت شَفة، فإني أكون خلفك أتكلم عنك، وأصنع كـل شيء. قال: لأظنـك تدعني أدخل وحدي منزل هذاالساحليّ، يا «مناح». قال: خلِّنا الآن من كلمات الجُبن والحُمق، وكُن رجلاً مرة واحدة، يا «مندهور». قال: إذن، فأنا أستودع الآلهـة حياتي الغالية، وأقدم معك ولو على الموت. قال: ها قد وصلنـا، فادنُ، فدُقّ البـاب، قال: ومـا الذي يمنعـك أنت من دقِّه؟ قـال: أعلى هذا عـاهـدتني؟ فورأس «ابسماتيك» لئن خالفتني بعد هذه المـرة، ما دَققت إلا عنقـك، فتقـدَّم «مندهور» ودَق الباب. ففتح لـه الغلام، فـدخل أعمى أخرس، و«مناح» على أثره يضحك من آضطرابه ولا يلومه عليه، كأنما يرى ذلك من متمّمات الحيلة

ولوازم الحالة.

فلما التقت عين «مناح» بعين الغلام ٱبتدر خطابه فقال: لا توقد نوراً أيها الغلام، ولا تحرك ساكناً، ولا ترفع صوتاً، واعلم أن الهلاك يتهدّد مولاك ولا يُنجيه منه سواك، فاذهب من فَوْرك إلى الهيكل الشرقي واطلب المُثول لدى الكاهن الأعظم، ثم قل له: إن سيِّدك بريء، وإنك أنت الذي فقأت عَيني الهِرّة، وسَجنتها في الصندوق انتقاماً لسيّدك من الهِر الهائم، الذي يَزْعُم أنه أفقده الأبصار بسحره، قال الغلام: سمعاً وطاعة، وٱنطلق مُهَرْولاً ،وهو لا يكاد يصدِّق بالنجاة، ولا يعجب لحماقة «مناح» كيف فاته أن السيِّدالبخيل بالدِّرهم، لا يفتديه خادمه بالروح.

وكان الغلام قد دفع مفاتيح الحُجَر إلى «مناح» فعالجها فانفتحت، حتى إذا صار في حُجرة النوم منها، وهي التي يَضع البخلاء في الغالب نُقودهم فيها، فتش الصناديق عن أموال اليوناني، فوجد في أحدها صُرَراً وأكياساً مملوءة من الذهب، سبائك وقلائد، فأخذ جميع ذلك، وجعل مكانه الهِرّة العمياء، ثم أغلق الصندوق،وخرج تاركاً الأبواب، وفيها باب المنزل، مفتوحة لمن أراد الدخول، وكان «مندهور» قد عمل بالإشارة من الأول للآخر، فلم يُبْدِ حَركة ولا فاه بكلمة، حتى إذا خرج «مناح» بذلك الحِمل، تَبعه وهو يكاد يُجَنّ ٱندهاشاً من جَراءة صاحبه مرّة، ومن رُؤية الذهب في الأكياس مرة أخرى، حتى سأله: وإلى أين نذهب الآن، يا «مناح»؟

مناح: إلى أصحابنا بمنزل «تيمان».

مندهور: بهذه الأحمال؟

مناح: ولم لا، وهي من غنائم الجمعية؟ يغنى بها فقيرها، وتستقيم أمورها.

مندهور: وهل قاسمتنا الجمعية هُموم تلك الساعة وأهوالها حتى تشاطرنا الآن كرائم ما نِلْنا بفضل البسالة والإقدام؟

مناح: بذا تَقضي مبادئنا، يا «مندهور»، فعبثاً تجادل، وسُدى تحاول، ويكفينا أننا أرحنا الجمعية من عدو أعمى، لكن لا يقاس به ألف مُبصر، ومُناوىء يزعجنا تارة بسحره وآونة بدهائه ومكره، ولا أَعني سِوى سحر بيانه، وقوة تأثير لسانه، خصوصاً في أخلاق المَلِك، الذي يفضله على سائر أحبّائه وندمائه، فهو حِمًى للقوم أمين؛ وحصن حَصين؛ ونصير ذو قوة عند الملك مَكين.

حتى إذا بلغا دار «تيمان» طرقا الباب، ففتح لهما، فدخلا بين الضجيج والتهليل وأسئلة السائلين عن «أرمنديس» وما تمَّ في أمره؟ فألقى «مناح» حِمله ثم شرع يشرح لأصحابه الخبر، وفُتحت بعد ذلك الصُّرر والأكياس فابتهج القوم بما فيها من الكُنوز والنفائس، وهم يضحكون من اعتراض «مندهور» واحتجاجه، ودعواه أن نصف هذا المبلغ لا يمكن أن يؤول لسواه، ثم وُزِّعت السبائك والقلائد على الفُقراء من الضباط، بمعرفة الأغنياء منهم، وفي أولهم «مناح» فأجزل «لمندهور» العطاء حتى أسكته وأرضاه.

ونظر القوم بعد ذلك في أمور تتعلق بأحوال البلاد عموماً، وحالة الجيش الوطني فيها خصوصاً، فنهض القائد «منهوت» والتفت إلى «تيمان» متبسِّماً من السرور، وقال له: لا يمضي يَسير زمان، يا عزيزي «تيمان»، حتى تَحُلّ في قصر الملك المَحَلَّ الذي أنت أهله، فيعتزّ بك العُنصر الوطني، وتكون هناك كالشمس، والضبّاط اليونانيون كواكب، إذا طلعت لم يبق منهن كوكب.

فعندما سمع الضبَّاط هذا الخبر آستبشروا به، وفرحوا وطابوا، إلا «تيمان» عَبس واكتأب، وتملّكه الغضب، حتى دَهِش رِفَاقهُ وتساءلوا عن السبب. وأردف القائد بأن قال: ما بال هذا الخبر السارّ قد أزعجك، يا «تيمان»؟ أتكره أن تكون سعادة المئين من إخوانك الضبَّاط على يديك؟ قال: لو ملكت ذلك، أيها القائد العزيز، ولكني لا أذكر أن لي علاقة بأحد ممن لهم سلطان على فُؤاد الملك. أو سبيل على اختياره، حتى أعلم سبب نَقلي من

القصر القديم إلى القصر الجديد. ومعرفة جلالته إياي بسيطة، فما أنا عنده كبعض الضباط، بل ربما آعتقد فيّ الرأي والعِناد، والتعصُّب لأشياء البلاد وهذه صِفات تحول بيني وبين ما زعمت من قُرْب تشرُّفي بالخدمة الخصوصية.

خنبو، داخلاً في الحديث: إني أرى في الأمر يداً لوليّ العهد، فإنه يُحب صاحبنا «تيمان» ويُجلّه، ويظهر العطف عليه أينما لقيه.

جماعة من الضباط: أصبت يا «خنبو»، أصبت!

مندهور، مندفعاً: أما أنا فأرى أن الملك، ووليّ العهد، في كل زمان ومكان، على طَرَفي نقيض، فالذي يراه الأول أبيض يَجده الثاني أسود، فلعلّ اليد التي يزعم صاحبنا «خنبو» أنه رآها في الأمر، هي يد لطيفة ناعمة.

الضابط: صرِّح، يا «مندهور»، قل، لا تخْفِ شيئاً.

مندهور: ويحكم! هل تستكثرون على هذا القوام المهزوز، وهذا الطَّرْف الفاتر! وهذا الوجه الجميل ـ قال هذا وهو يُشير بيده نحو «تيمان» ـ أن يَفْتِنَ بِنْتَ اليونانية، فتكون هي صاحبة اليد البيضاء، في هذا الارتقاء.

الضابط: ومن تريد، يا«مندهور»؟ أبنت «أبرياس» تعني؟ تُريد الأميرة.

مندهور: ولم لا؟ وأنا ما رأيتها في آجتماع عام أو خاص، وكان «تيمان» حاضراً إلا عرفتُ من عينيها أنها تميل إليه، كما أميل أنا إلى سمك «نقراتيس». أو طيرها اللذيذ النفيس، فباركت الآلهة لك، يا «تيمان» في هذا الوجه الذي تشهد السماء لو أن لي قطعة منه ما تصدَّيت إلا لمواقع الهوى، من قلوب الملكات والأميرات.

تيمان، مغضباً: إنك تَهْذِي، يا «مندهور»، فآبْقَ فيما تميل إليه من السمك والطير ولا تتعرَّض لأشياء لا تَعْنِيك.

مندهور: سوف يعلم الإخوان أن عينيّ الضيِّقتين لا تنظران إلا النظرة

الـوسيعة، وسـوف تذكـرني أنت، يا «تيمـان»، إذا نَهَيْت في القصر وأمـرت، بفضل بنت اليونانية.

والحقَّ أقـول: إن السماء لم تعـدل إذ أعطتـك الجمال كلَّه، وأعـطتني القبـح كلَّه، فـأنت تفتن بنـات الملوك والسـلاطين، وأنـا لا أكـاد أرُوق لعين امرأتي التي هي أقبح منِّي خِلقة.

فضحك الضبَّاط من مقالة «مندهور»، وهم لا يعلمـون السبب الحقيقي في كـدر «تيمان» وغمِّـه الذي لم يستـطع «مندهـور» أن يخرجـه منـه بمَـزحـه وهَزله.

وكان الليل قد آنتصف أو كاد، فأخذ الضبـاط يستعدُّون للخـروج، وقد آتفقوا فيما بينهم أن يمرُّوا في آنصرافهم على منزل اليوناني، لينظروا ماذا حل به، وهل أصابت المِصيدة؟

هذا ما كان من أمرهم، أمـا حديث «أرمنـديس» فإنـه لم يلبث أن أقبل آيباً إلى منزله، يكتنفه اثنان من أصحابه اليونان كالعادة، يتقدَّمهم غلام يحمل سراجاً يضـيء لهم السبل على ناحية الهِرّ الهائم، اتقاء البَغتات بالليـل، حتى إذا بلغـوا المنزل تقـدّم أحد صـاحبي الأعمى ليدُقّ البـاب، فإذا بـه مفتـوح، فـأعلم «أرمنديس» بـذلك، فـآضطرب اليـوناني وخشي أن تكـون أموالـه قـد سُـرقت، ودخل المنـزل وحده، وهـو يكـاد لا يبصـر من شـدة الغضب، فـإذا الأبواب في الداخل كباب المنزل مُفَتَّحة لمن أراد الدخول، فبلغ آضـطراب الأعمى عنـدئـذ إلى الجنـون، وانـدفـع يبكي ويستغيث ويصيح: سُـــرقت، نُهبت! آفتقرت، خَزَنْت للّصوص! كنت أجمع للأشقياء! كنت أكنز! أغيثوني أنصفوني!

وما لبث صَدَى هـذه الصيحات أن مـلأ الجهات المجـاورة، فاستـوقف المارَّة في الطريق، واستنزل الجيران من بيوتهم، وازدحم خَلق كثير على بيت الحادثة ثم جاء رجالٌ فدخلوا وعـلى أثرهم النـاس، فتأملوا وطـافوا وفتّشـوا، فلم يجدوا في المكان أثر إنسان.

وفي هـذه الأثناء سُمِـع من بعض الصناديق مُـوَاء مُتَقَطِّع يحكي الأنين، فتفزَّع الحاضرون لأول وهلة، فإذا أناس الشرطة فتحوا الصنـدوق، فأخـرجوا منه هِرّة عميـاء ضعيفة، تكـاد تهلك من الجوع والظمـأ، فصرخ الجمـع عند رؤيتهـا مـردِّدين: الآن ٱتَّضحت الحقيقـة، فـلا سَـرِقـة ولا سـارق، وإنمـا هم الآلهـة ٱنتقموا من هـذا الأعمى معذِّب الحيـوان المقدَّس، أنت، أيها الأعمى تنتقم لعينيـك من الحيوان المقـدّس، أنت تَسْجُنه وتُعـذِّبه؟ أنت تـدعه يَهْلك جوعاً وظمأ. إلى السجن الأبدي! إلى الإعدام! العقاب! العقاب!

وكـان جماعـة الضبَّاط قـد دَنَوْا من مَحَـلِّ الحادثـة، فحين رأوا الزِّحـام ادّخلوا في حَلقة ينظرون ماذا أصاب غـريمهم الأعمى، فلما رأوه قـد وقع في شِرَاك «مناح» ابتهجوا كثيراً، وامتلأوا سروراً وحبوراً، لعِلْمهم أنه لم يَعُـد في وُسْع أحد، ولو كان صديقـه الملك «أمـازيس» أن يُزحـزحه من العـذاب، أو يعصمه من شَرّ بأس الكهنة وٱنتقامهم.

وكـان رجال الـدين في «سايس» يبغضـون «أرمنديس» أضعـاف كراهـة الضبـاط له، ومقتهم إيـاه، لكـونـه النـديم الأول للملك، والآمـر النـاهي في مجلس شرابه. فلم يكن له شغل سوى التَّنْديد بهم، والحطّ من قيمة العُنصـر الـوطني في الجيش. وتحويـل فؤاد الملك عن رعيّته، وإسقـاط أشيـائهم من عَينه.

فبينمـا الأعمى في مخالب هـذه الداهيـة الفاجئـة، لم يشعر النـاس إلا وشِرذمة من جند الهيكل، قد أحاطوا بالمنزل، ثم دخله جماعـة منهم يتقدّمهم كـاهن من الرؤسـاء في الهيكل الشـرقي، وهومُمْسِـكٌ بيد غـلام «أرمنـديس» فتنحى الناس لهم حتى وصلوا، فقال الكـاهن «لأرمنديس»: إن غـلامك هـذا يتَّهمك بإخفـاء الحيوان المقـدَّس في بيتك، وإنـك سَمَلْت عينيه، ثم جعلت ديدنك سجنـه وتعذيبـه، فما استتم الكـاهن حتى صاح الحـاضرون يقـولون: نعم، وهذا هو الحيوان وجدنـاه في صندوق الأعمى، وقـد عاقبـه الآلهة على جـريمته بفُقـدان مالـه الـذي أُنفق العُمْـرَ في جمعـه، فعـاقِبـوه أنتم بـالسجن

المؤبد! أهلكوه عذاباً! قطِّعوه إرْباً!

فبُهت اليوناني عند سماع هذه التُّهمة التي ألبسه غلامه إيّاهـا، فلم يَعُدْ في إمكـانه الخُـروج منها، وعنـدئذ أشـار الكاهن للجُنـد، فداروا بـه وهُم لا يكادون يَقْدِرُون على تخليصه من ذلك الجمـع الحنيق المُغْضب، ثم خرجـوا بـه آيبين إلى الهيكل ليـودعـوه السجن، حتى تُحَقَّق تهمتـه، والنـاس وراءهم يُشيِّعـونه بـاللعن والشتم والضرب واللكْم، وتخلف الضبـاط غانمين فـرحين، يقول بعضهم لبعض همساً: لم يبق إلا «فانيس» من ذا يفعل به كفعل «منـاح» بـالأعمى، أبان يـوم متى الانتقام، افتكـوا به يَخْـلُ لكم وجه الملك! أنقـذوا الوطن! خَلِّصوا الجيش!

الفصل الخامس

سايس وقصراها

أتى على «سايس» حين من الزمن كانت قاعدة المملكتين، ودار حكومة القطرين، ومقام ملك الوجهين، يُدَبَّر الأمر فيها من مَدَبّ النيل إلى مَصَبِّه فمدّ الشاطئين. تداولت الأيام، وانتقل المُلْك من مهده الأول إليها، حتى رأت «طيبةٌ» مُؤْتمرة طائعة و«منفيس» ذليلة بعد عزّ خاضعة، وحتى انتظم حواليها من أقصى، «ايلفينتين» إلى مصابِّ النيل السبعة نحو أربعين مدينة، كلُّهن عروس النيل، ومُنية ذلك الجيل، وهو عدد لم يَسبق له في تاريخ مصر مَثيل.

فبينما «طيبة» حرم «آمون» المأنوس؛ وحمى الشمس المحروس، وربيبة النهر، ومحضونة البُحيرة والبحر، ذات الهياكل الأربعة المأثورات؛ والأبواب المائة المشهورات؛ التي يمثل فيها الأُمم الأربعون المقهورات، ويسعى لخدمتها الحُبْشَان والنُّوب، وأهالي برقة، والمصريّون من سائر الجهات. بينما هذه العاصمة الكبرى. والمدينة العظمى، تنوء بثِقْل ما حملتها الدول الأولى، دول العائلات الغابرة، من تالد المجد وطارفه، وحِلَى التمدّن وزخارفه، وعلوم الإنسان الكامل في معارفه، وغير ذلك مما ينتهي آرتقاء الأمم إليه، ويقصر تطاولها لديه، ولو ظلّت «طيبة» باقية إلى الأبد، ما زادها الأبد عليه، كانت «سايس» تسود وتَشيد، وتبتدىء في المجد وتُعيد.

وتفعل في سبيله ما تريد، وتسمو لمساواة «طيبة» و«منف» بسرعة ما عليها مزيد، كما هو شأن المدائن الفرعونية، والعواصم القديمة المصرية، فقد كانت لا يُعْوز إحداها إلا حكم ملك ذكي عاملٍ لتحيا بعد طول آندراس، ويجدد إنشاءها من الأساس، فإذا هي خير مدينة أُخرجت للناس.

هذا ما بلغت إليه «سايس» في أيام الملك «أمازيس» حيث وسَّع نطاق عمارتها، وكثَّر أسباب حضارتها، وشيَّد هياكلها الأربعين، وأباح فيها صنوف العبادات للعابدين، وجعلها أحياء شتَّى، مُقسَّمة مرتبة، على حدود الأجناس منظَّمة: حيّ العامة، وحيّ الخاصة، وحيّاً للجند خاصة، وقسمي الحُبشان والسودان، وآخر وَقْفاً على مهاجرة اليونان، وناحية من المدينة مَعْمورة بالآشوريين، وأخرى مقصورة على النزلاء الفنيقيين. وبالاختصار كانت «سايس» هي الدنيا في بلد، وكان سكانها هم الخلائق في جيل.

إلا أن هذه الحالة التي أصبحت القاهرة تنشر من مساوئتها ،اليوم ،ما انطوى بالأمس، لم تكن لتخفّ وقعاً على شعور المصريين القدماء، نظراً لما نشِّئوا فيه من أول الأمر، وتوارثوه عن جيل بعد جيل، من شدة الكراهة للأجنبي، ومزيد الاحتقار لشأنه، واجتناب مخالطته، والتحرّس بقدر الإمكان من معاملته، فكيف يحتملون لحكومة تمكِّنه من بلادهم، ولا تمكُّن الداء، وتُبيحه أن يعبد فيها من دون آلهتهم ما يشاء. وأن تكون له حكومة خاصة به وقضاء. خصوصاً اليونان، فقد كانت لهم ثُغور على السواحل المصرية، ومدائن مسماة باليونانية، يتصرَّفون فيها كأنها أرض هيلينية. هذا فضلاً عن رُسوخ قَدَمهم في العاصمة، واستئثارهم بالرياسات فيها، ورجوع المَلِك في جميع أمره إلى شُوراهم، حتى جعل بينه وبين الرعيَّة مَهواة من الحقد والبغضاء، تهوي حسناته فيها إلى قرار سحيق.

إذا عرفت هذا، سَهُل عليك أن تتمثّل «سايس» مدينة نادرة المثال، مختلفة الصور والأشكال، متنوعة معاني الجمال، لكل أمة فيها قَدَم، ولكُل مملكة صَرْح وعلَمَ. وهي تَموج بالعباد، آتين من أقاصي البلاد، لمزاحمة

أهاليها على التجارة والصناعة فيها، والتمتُّع بنِعم السلام الكامل الشامل، الذي لبثت مصر فيه على عهد «أمازيس» ثلاثين سنة أو تزيد، حتى استوجب أن يُقال: أول من حقن الدماء بين الملوك القدماء.

وكانت المدينة على النهر كأنها القلادة فوق النحر، وكان بها قصران شاهقان، قد ملكا طَرَفيها يتقابلان، كأنهما حِصْنان، على جبل يتناغيان.

أحدهما في غرب المدينة، وكان غضَّ البناء، جديد الإنشاء، من عمل المصريِّين واليونان، قد اشتركت فيه الصناعتان.

والآخر في شَرقها، وكان مُعْرِقاً في القدم، بادي دلائل الهَرم، لكنه متين القواعد والعَمَد، يريد أن يبقى على الأمد، قد بالغ بانيه، فجعل الدنيا فيه. من غُرف عالية، وجَنَبات زاهية، وأنهار جارية.

وكان القَصْران من التفاوت من العِزّ. والطّول، والمَنعة والصَّول؛ والملك والسلطان، والمكان والإمكان، بحيث ينطبق عليهما قولُ ملك الملوك (وتلك الأيام نداولها بين الناس)[1].

فالأول يمثل عِزّ الملك في غاياته؛ ونعيم الحياة عند تمام حالاته. وكمال أدواته، والثاني يُقلُّ الشقاء والبؤس، ونكد الأيام كلًّا في نهاياته.

هذا لِمَلك قائم يتقلَّب في صنوف السعادات، وهذا لِمَلك غابر قد مات. وصار شَمْلُ نعيمه إلى شَتات.

هذا مَهد سعيد، فيه حُكم وليد؛ ومُلْك جديد. وهذا لَحْدٌ مَشِيد، قد غُيِّبت فيه دولة ثابتة ودُفن مُلْك وَطِيد؛ فسبحان من لا يزول مُلْكه ولا يَبيد.

هذا رَفعه سُوقة وكان بغير عِماد؛ وهذا هَدَمه مَلِك، وكان أثْبَت أساساً من الأطواد.

---

(١) آل عمران: ١٤٠.

ثم، يا للثّارات بين القَصرين، فهذا غـالبٌ يتوطّـد في الأنام[1]. ويَـزداد طُـول دعام، وبشـاشة على الأيـام، وهـذا مَغلوب يَتـداعى، وتُنْقض دعـائمـه تباعاً، فيرثها الأول ويُحَلّى بها ويُجَمّل. ثم هـذا مَعمور بـالقاتـل، مأنوس به آهِل. وهذا خَراب وتُرْبُ مَهيل، ووَحْشة مَوَالي دم القتيل.

أمـا القَصر الـذي في غرب المـدينة، فكـان لفرعـون «أمازيس» ملك مصر في ذلك العصر.

وأمـا القصر الـذي في شرقهـا فكان لفتـاة من بنـات الملك والسلطان. وثمـرات العروش والتيجـان، قد زالت الدولة عن قومها وبَعُـدت النعمة عنهـا بُعْدَ ما بين أمسها ويومها. ولدت فيـه شقيّة بسَعـدها. ثم نشـأت فيه سَجينـة مَهْدِها، منه رهينة لَحْدها. وهذه الفتاة هي «دل» الرواية، وتعرف في التاريـخ بالأميرة «نيتيتاس».

خرج الشعب على والدها الملك «أبريـاس» فعزلـوه ثم قتلوه ومن معه، وكان «أمازيس» هو زعيم العُصاة، ويَـدهم التي أَنزلت والـد الأميرة عن سـرير المملكة، فولوه مكانـه، وكان من دُهـاة الأفراد، وكبـار الأبطال والقـواد، فلما تمكّن من الأمر، وآمتلأت كلتـا يديـه من أَزِمّة الشعب، رَجـع في أمر الـطفلة الملوكيّة للرحمة، وكانت فيه سجية، فاحتفظ بحياتها، وأبقى لها قصر أبويها، وأجرى لها رِزْقاً واسعاً، وأمر بها فـربِّيت أحسن التربيـة وأليقها، بفضـل آمرأة من المصريّات الزكيّات، هي العجوز «نانه» وكانت من قرينات والـدة الأميرة، فلما دَها البيتَ ما دهاه، التمست من الملك الجـديد أن يجعلهـا مربّيـة لبنت مـولاتها، فـأجابهـا إلى ما طلبت وأن تستبقي معهـا «هُـوريت» التي كـان أبـو الأميرة قد آختاراها لها منذ الرّضاعة، لتربّى معها في الصغر، ولتكون خادمتها الأمينة في الكِبَر.

إلا أن الملك رأى من وجـه آخر أنَّ صَفْـو أيـامـه، وسـلام مملكتـه،

---

(١) يتوطد: يستقر ويثبت.

يقتضيان بقاء بنت «ابرياس»، محجوبة عن أعين الناس، فأسلمها من أول يوم إلى حُـرَّاس، أولي أمانـة وبأس، يتـألف منهم مـركـز من المـراكـز المُهمـة، الموكولة لنظره مبـاشرة، وكـان رجال هـذا المركـز يُنتخبون من فـرقة الحـامية الشرقية، ويُستبدَلون على رأس كل ثلاثة أعوام مرة.

الفصل السادس

أسباب الهوى

وما برحت هذه حال «دل» منذ يتَّمها الدهر، دُرَّة يتيمة في صَدَف المقاصير، لا يَنْفُذ عليها حجابَها إلا الشمس إذا طلعت، أو النسيم إذا سرى، أو النوم إذا غَشِي من في الخُدور، حتى دبّت ومشت، وكَبرت وشبَّت، فبلغت الثامنة عشرة أو كادت، وهي كأنها المَلاك في عالَمه من السماء، لم يُحَطْ إلا بقليل ما ورد عليه من الصور والأسماء.

وكأن لم يَكْفِ الدهرَ ما صنعت حوادثه بالفتاة، من المهد إلى الشباب، حتى نَبهَ الحبُّ لها[1] فتنبَّه لنفس خُلقت لتشقى، ووجدان فوق ما لَقِي وما يلقى، ومِزاج تولَّد من أسى وكآبة، فليس صالحاً إلا للوجد والصبابة.

وذلك أن رياسة المَخْفر كانت قد آلت في المرة السادسةِ إلى شاب تأخذ الأعين بِشْرَه وجماله، وتعشق الأنفس ظرفه وكماله، له تربية أبناء الملوك والأمراء، وأدب المرزوقين الصالحين من بني الأفراد، وهذا الشاب هو «تيمان» كان على وجاهة عند الخاص والعام، يعلِّقون به آمالهم، ويعظِّمونه كما يعظمون أبطالهم، ويلقِّبونه بطل «قبرص» الصغير.

وحديث هذه التسمية أن الملك «أمازيس» كان قد أخرج أسطولاً

---

(١) نبه: فطن.

لاسترجاع جزيرة «قبرص» بعد وقوعها في قبضة الغير، وبقائها خارجة عن حكم المصريين مدة طويلة، فركب «تيمان» في سفن المَلِك متطوِّعاً، وكان يومئذ صبيّاً لم يجاوز الرابعة عشرة من سنيه.

فلما وطىء الجند الجزيرة أمطرتهم قلعتها حجارة تَصُوب، كأنها الدِّيمة السَّكُوب، حتى ظنوا عجزاً، وكان «تيمان» واقفاً ينظر، وكأنما يستجمع لوُثوب، فلم يدر الجيش إلا وآخترق الصبيُّ الصفوف، حتى بلغ مركز القائد العام. فحين صار منه وجهاً لوجه خاطبه على مَسمع من العسكر فقال:

«إن القلاع، أيها القائد أبكارٌ، لا يؤخذن إلا غَصباً، فإن لم يكن للجُند روح منك اليوم فإن لهم مني».

ثم إنه وثب نحو الحِصن وَثْباً، يريد أن يأخذه غصباً، تحت نار للعدوّ حامية وقذائف كالمطر دائبة هامية، فتدفقت الجنود على أثره متهالكة متفانية، وتمَّ النصر يوم ذاك لراية فرعون العالية.

فلما اطمأن «تيمان» بمركزه الجديد في القصر القديم، وخالط أهله، وانعقدت بينهما الألفة، كما هو مقتضى وظيفته، فضلاً عن توحد المقام، والتقاء العين بالعين على الدوام، لم تلبث نفسه الرحيمة أن شاطرت فتاة السجن الآلام، وأخذت بأوفى نصيب من حالها العجيب مع الأيام، ثم ما زال هذا التأثر يشتد، وتستوسع أسبابه وتمتد، حتى تكشفت له ظلمة المصائب، التي كانت الفتاة محتجبة فيها بماضيها، وحاضرها وآتيها، عن ملك كريم، طاهر الصبغة والأديم، يدعو الجماد جماله فيهيم، فكيف إذا توجهت الدعوة إلى فتى مثل «تيمان» جم الحياة كبير الوجدان، مملوء القلب من أرقِّ وأشرف عواطف الإنسان.

نعم هذا كان للأميرة عند حارسها الشاب، فلننظر الآن ماذا كان له عندها.

وجدت «دل» من أول يوم في حارسها الجديد، ما لم تجد في أحد ممن

قبله من التأثير والجذب، ودواعي رقة القلب للقلب، وجدت حياء يلائم نِفَارَها المكسوب في السجن، وبساطة تناسب سذاجتها المسبَّبة عن طول العُزلة، وأدباً يروق للعزّة الفرعونية، التي كانت لا تزال تزاحم دم الحياة في عروقها، وجمالاً من الطراز الأول يُصْبِي القلب، ويَسْبِي اللب. تآلفه جمالها لأول وهلة، وما أقرب ما تتآلف الأشكال، وما أسرع ما تَسري الجاذبية إذا التقى الجمال بالجمال.

إلا أن حب الأميرة «لتيمان» لبث مدة لا يجاوز حد المَيل الشديد، والعطف المزيد، يمازجهما من حين إلى آخر بعض الاستخفاف بشأن الفتى، والريبة في نسبه، واليأس من سعادة مستقبل يأتي به الغرام. أو هناء بقران يمكن أن تسمح به الأيام. وعما إذا كانت بنت فرعون ترضى، ولو هللت فرحاً، أن تَرْكُن شفتاها إلى جَبين لم يسبق له تَحَلٍّ بالتيجان، أو أن تضع يدها في يد لم يملأها من قبلُ الصولجان.

وكان «تيمان» يلحظ أحوال الفتاة هذه بعين لا تخطىء الصدق، ويتغالى إلى حد مشاكلة الغباوة، فلا يزيد الأميرة إلا أدباً وامتثالاً، وتلطفاً في الأمر كله وآحتيالاً. غير متصنّع في شيء، ولا متكلف حالاً، كأن في يمينه ميثاقاً من الحبيب، أو كأن له في الهوى أن يسأل وعلى السعادة أن تجيب.

الفصل السابع
الصورة

مـا زالت الأيام تمـرُّ، والليالي تنقضي، والعـاشقان على قـدم الحَـذَر، وفي مـوقف الهيبة، أحـدهمـا بـإزاء الآخـر، حتى طـالت «تيمـان» المـدة في القصـر، وأصبح يخشى أن يفـاجأ بنقـل، أو تنقضي أيامـه المعدودة في هـذه الـوظيفة، ثم لا يكـون إلا أيام التنـائي والبعاد، مضـاعفة بليـالي الفكر والهم والسهاد.

وتِلقاء ذلك لم يجد الفتى بُدّاً أن يـرى لنفسه بعض المَخـرج، من هذا الموقف الحرج، الذي تتهدده به حوادث الغرام، في مستقبل الأيام.

فأول ما أخـطر الحب على بالـه أن يأخـذ صورة الأميـرة لتبقى عنده مـا طال ليل الشتاء، واستأخر فجر اللقـاء، كتمثال حـاضر معبـود، لإله من آلهـة الجمال حاضر غير مشهود.

وكان «تيمان» من أبرع شبان زمانه في فن التصوير، خصوصاً مـا يحتاج إلى التلوين من ذلك، فقد كان هذا الفرع من الفن موضـوع تنافس الأذكيـاء، ومضمار تسابق المهذبين العقلاء، من أبناء الأغنياء والشـرفاء. وكـان «تيمان» قد جمع على الخصوص بين الدِّقة والحذق، الموصوف بهما قومه الأشوريون في هـذا الفن، وإيجاز الصـور إلى حـد حفظ الأجـزاء الأصليـة، والأوصـاف

الطبيعية، والاعتناء بتطريز الثياب. والحرص على كل صغيرة من الشعر، أو وتر من الأعصاب، وبين ذوق المصريّين القدماء واجتهادهم الفني، في إيجاد حياة للشكل الكُلّي، والتماس الروحانية للمجموع، غير مشتغلين بالدقائق، ولا آتين إلا ما يكفل للصورة وجود الرَّونق والنظام، وحفظ التناسب العام.

وإذا كان كلا الأمرين مما يؤخذ على تينك الأُمتين العظيمتين الوقوع في مثله، لكونه من التناهي المُخلِّ بالحقيقة، المُضرِّ بمجموع الصورة، كان الجمع بين الطريقتين، والتوفيق بين الذوقين، هو الكمال. و«تيمان» قدجمع وَوَفَّق، فشرع «تيمان» في أخذ صورة الحبيبة وهي لا تدري ما يأخذ منها، ولو علمت ما بخلت برسم الجسد على من عنده حقيقة الروح.

وكان معظم توجُّهه في عمله هذا، وغالب رجوعه واستناده فيه، إلى مثال لشخصها الكريم حاضر، قائم على الدوام في الخاطر، قاعدته القلب، وجهاته السرائر. وإذا احتاج إلى التَّبت والتحقيق، أو اضطرته الصناعة إلى النظر والتدقيق، فإن الأصل قريب لا يكلّفه إلا خطوة يخطوها، فنظرة ينظرها، ثم يعود إلى ما هو فيه من العمل.

وظل «تيمان» عاكفاً على هذه الصورة تسعين يوماً، لم يَألُها مِراساً وتهذيباً، وتلويناً وتذهيباً، وإدناء من الأصل وتقريباً. وهو يأتي من التفنن والإتقان، والإخلاص في العمل، لإتمام هذه الصورة التي يقربها للمحبوب، ما كان الصانعان الإسرائيليان «بيساليل» و«أويالياب» يأتيان في إنشاء قُبّة العهد المصنوعة لوجه الله، سبحانه وتعالى.

وكان قد اختار لعمل هذا الرسم لوحاً من الخشب الصَّلب الدقيق، من أحسن ما كانت تَتخذ التجارة المصرية من قُشورة الأشجار العظيمة البلدية وقد جعله في خزانة خَلْفَ غرفة نومه في القصر، لا يدخلها سواه، فكلما وجد برهةَ فراغ آغتنمها ليزيد في الصورة خطّاً أو خطين، فيدخل الخِزانة ثم يقبل على العمل بنفس راغبة، وصدر مشروح، وكانت الشمس تملؤها عليه شعاعاً كلما أضاءت، فلا تزيده إلا نشاطاً وابتهاجاً.

وكان الفتى كلما أتمَّ ظلًّا، أو فرغ من عضو، تأمل الصورة، فداخله الخُيلاء والزهو، فيبالغ لنفسه في الخطاب، ويناجي الرسم بكلمات الاستحسان والإعجاب. وقد نهاه الروح عن ذلك فلم يَنته، بل استمرَّ على تِيهه وفخره، واستقر لدى خُيلائه وكبره، إلى أن أتمَّ عمل الصورة، فجاءت حاصلة على الشَّبه التام، لا يُعوزها من أوصاف الحياةِ إلا الحركة والكلام. ولم يبق إلا اختيار المخبأ المأمون. وجَعل هذا المثال الكريم المصون. في حَرَم بعيد عن الأيدي، محجوب عن العيون.

وإذ كانت غرفة الحارس في القصر ليست لخصوصيّاته، ولا هي بالمكان المأمون على أسرار غرامه. وخبايا صباباته، صمَّم «تيمان» على نقل الصورة إلى مأواه في المدينة، حيث لا واشٍ ولا رقيب، ولا دبّاب مُريب. وأصبح لا يترقّب لتحقيق هذا الرأي المُصيب، إلا فرصة يغتنمها ليذهب إلى مأواه، فيودع فيه معبوده الذي صوّرته يداه.

فبينما الفتى ذات ليلة في الخزانة، يتمتّع من رؤية الصورة ورُوائها، وقد أضاء القمر له المكان، فأكسب الرسمَ شيئاً من اللَّمعان، لم يشعر إلا بالحائط قد أشرق وآزدان، وجلا صورة لم تر مثلَها عينان، صورة «دل» في الطُّول والعرض. وكما هي على هذه الأرض،وقد نقش المصوِّر تحتها، وخطت يداه ما معناه:

هذه الصُّورةُ البديعة لامَا يَدَّعي المُدّعي الفَخور سَفَاهَا
قُل «لتيمان» كيف خطَّت وسَلْهُ أي نَجم أضاءها فجلاها

فلما رأى «تيمان» الصورة، وقرأ الأحرف المسطورة، ذُهِل عن اللوح وما فيه، واستقبل الحائط جاثماً، ثم قال يناجيه:

«ويحك يا «تيمان». وويح عينيك! ماذا تبصران؟. وما هذا الذي تأخذان؟ وما لهما يدان؟ صورة لاحت على البديه ولم تك من قبل شيئاً، يكاد الحائط يُشرق ببهجتها وتبدو له أنوار، ارتجلها المكان ارتجالاً، إني لعهدي بنفسي فيه وحدي، فما هذا الذي أرى؟ ومن هذا الزائر يا ترى؟ أهذا ملك

الكـواكب قد نـزل إليّ من فلك الغيـاهب؟ أهـذه ملكـة الأفـلاك غُـرفتي بهـا مشرفة؟ أنا أراها جهرة؟ أهذا سَـرّ يسري ولا أدري؟ يـا للأمـر العُجاب! مـاذا أنظر؟ ما هذا الذي أرى على الحائط؟ صورة فتاة إنسية لو تمثّلت لي بحياة ما خِلتها من مَلأ البشر، ولا من عالم الشمس والقمر. بل ذاتاً فوق منـال الأوهام والفكر، تتصور للناظر المفتنّ كيف شاء، وشاء له النظر. أبهذا المِثال البـديع الارتجال، القدسيّ الجلال، الروحاني الجمال. الهـابط من أوج عال. عـزيز المنال؟ أي شيء أنت؟ حقيقة أم خيال؟ أم وهم وشيك الزوال؟

وأنت يا من خَطّ بقلم النور، على لوح الشروق والسُّفـور، بدائـع هذي النقـوش والسـطور، من أنت؟ أين أنت؟ هـل لـك في الـظهـور؟ لعلك إلـه خطير، أو عساك كاهن كبير، أو تراك شيطان شرير، أو أنت ساحـر قديـر، أو أنـا في رِقّ الأوهام أسيـر. منّي التخبيل وإليّ التصـوير؟ أو هـذا حُلم وأنا في الكَرَى؟ أو أنت يا «تيمان» إلى الجنون تصير؟

«أشـور» يا رب «نينوى» و«بابـل» وإله «النهـرين» ويا نـور السماوات، وضيـاء الأفلاك يـا من منه الـوجود وبـه البقاء، ومن بيـديه الهـلاك، أسـألـك بـأعوانـك الخمسة، أدار، وأستـار، ونيبو، ونـرجـال، وميـروراك، وبـأعـوان أعـوانك الـذي لا يُحصيهم عدداً سـواك، أن تكفيني شرَّ هـذا المكـان، وأن تجعـل فضاءً مَضِيقَ مـا أنا فيـه الآن، فإن لم تكن لي فـإن لي «آمون»، إلهٌ له الرئيس، والعجل الأقـدس آبيس، روح أوزيريس، والحيـاة الثانيـة لفتاح رب منفيس، ولي كـل إله يسكن الآن «سـايس» أسـألهم جميعـاً بلسـان الإجـلال والتقديس، أن يصرفوا عني كيد الشياطين والمناجيس.

ومـا كـاد «تيمـان» يَفْـرُغ من هـذه الأقـوال، حتى زاده آنـذهـالاً على آنذهال، أن رأى الصورة تَزول بعد ثُبوت، وتضمحل قليلاً قليلاً كأنها تموت، فكانت تنحلّ عضواً أثر عضـو، وتتلاشى طبقـة بعد طبقـة، وتنمحي خطّاً ثم خطاً، وهو تجاهها بموقف الحيران الـدَّهش، حتى آمتحق الرسم وبـان، ولم يبق إلا الحائط كما كان. فكان مِن فِعْـل ذلك في وجـدان الفتى، وتأثيـره في

أعصـابه، أن همَّ بـه النوم، فـاتَّكأ على مِنصـة شُغله، واهي القوى، مُنسـرق المفاصل، مثقل الرأس بالنوم، وعندئذ طرق أذنه صوت هاتف يقول:

«قد كان لتيمان غِناء، عن الكبر والخيلاء، وعـظناه فمـا اعتبر، ونهينـاه فما ازدجر، فهل علم اليوم أن نور الرُّسَماء الكامل، لا يُهـدى لفَخُورٍ مُتخايل، وأن فـوق هذه الأرض من العُلمـاء، في زيِّ العواجـز الضعفاء، مَن بيـده قَلم اللُّطف والبهـاء، يصيب به من دواة الفَلك مِـداد الضياء، فيُثبت بـه مـا يشـاء ويَمحو ما يشاء».

ثم انقطع الصوب فوثب «تيمان» إلى الحائط مرة أخرى، وجثم هنالـك ثم قال يُجيب الهاتف: «لَبَّيك، أيها الروح، لَبَّيك، ها «تيمان» قد جثم لديك، يعتذر عن عصيانه إليك، فحاسبه حساباً يسير، وتَوَلَّه بالإرشاد كبيراً، كما ربَّيته صغيراً». وانقلب الفتى بعد ذلك إلى حُجرة نومه فنام، حتى إذا كان الصبح، وخرج إلى أشغاله، وردت عليه المكاتيب الرسميّة كالعادة، ففضها وإذا بينهـا مـرسوم سلطاني، قـد جاء فيـه أن إرادة الملك آقتضت نقله إلى القصر بـرُتبة مسـاعد قـائد، مـع لقب حارس ثـان للملك، وأن يتخلى عن حِراسـة مَخْفر القصـر القديم لمسـاعـده «فللوس» ويـذهب تـواً إلى القصـر ليبـاشـر وظيفتـه الجديدة فيه.

فـلا تسل عمـا فعل هـذا المرسـوم بفؤاد «تيمان» مـع ما فيـه من الرقيّ الباهر، والمستقبل الزاهر، فقد كان يقرأه وكأنما يقرأ حكم إعدامـه، إلا أنه لم يجد مخالفة الأمر في الاستطاعة، ولم يَرَ بُدّاً من الـطاعة، فـاستدعى على الفَـور مساعـده «فللوس»، فبلّغه إشـارة المَلِك، ثم خرج إلى جنـود المَخْفر فـطاف بهم نقطة نقـطة، يُعلمهم بخروج الحـراسـة من يـده، وانتقـالهـا إلى رئيسهم الجديد «فللوس»، فعلت الكآبة وجوه الجميع، وحزنوا حـزناً شـديداً على فراقه.

الفصل الثامن

الـوداع

اليـومَ ٱبتـداء السجن الحقيقي «لـدل» سِجن النفس في أحـزانهـا، والمُهجة في أشجانها، والروح في ذُلِّ النَّـوَى وهوانهـا. نبَّأتها رُؤية «تيمـان» بهذا النبأ المشؤوم حال خروجها من الحـريم، لنزهتهـا المألـوفة، وهـو واقف يتـرقّب طلعتها الجميلة ليـراها مـرة ثم لا يثني، فكأنـه في هذه الحـال، ذلك الذي قال:

فكنتُ كـالمتمـنِّي أن يَـرى فَـلَقـاً   مـن الصبـاح فلمـا أن رآه عَمِـي

وكان من سَعْدِه، ورونق وجوده، أن الأميرة خـرجت هذه المـرة وحيدة، كأنها استبطأت «نانة» و«هوريت» فسبقتهما إلى الحديقـة، فلما صـارت فيها، وهي لا تكـاد تصدق أنهـا بمفردهـا، وأنها ستكلم «تيمـان» للمرة الأولى على خلوة، ولـو هنيهة، رأت الكـآبة على وجـه الفتى، وكـان من عـادتـه أن يلقى بوجه البشاشة، فارتاعت وأجفلت، وآنس هو منها ذلك، فغيَّر ما بنفسه وأشـار نحوها بوجه البشاشة والبشر، فثاب إليهـا أُنسها وسكـونها، ودلفت إليـه فحيّته مُصـافحة لأول مـرة منذ وجـوده في القصر، فلم يتمـالك الفتى أن بكى حتى بلّت دموعه يَدَ ذلك الملاك وهو يقبّلها، فرثت الأميرة لحاله وسألته:

ماذا بك مما يُثير ضميرك إلى هذا الحد، أيها الحارس الكريم؟

تيمـان: أَمْرٌ يُكثـر بَثِّي وحُزني، ويَهمني وحـدي، ولـو علمت أنـه يهم

مولاتي مِثقال خردلة ما تأخّرت لحظة عن عَرضه لأعتابها.

دل: بل تكلّم وبُح بما شئت، يا «تيمان»، لكن على شَريطة أن تَعجل، فإني أخاف أن تفاجئنا مُربِّيتي، ونحن في الحديث، فلا نملك له إتماماً.

قالت هذا والتفتت وراءها تتقصَّى النظر، من خوف ومن حذر، فكادت تلك الكلمات، وهذه الحركات، تنقل «تيمان» من عالم الأحياء إلى عالم الأموات.

وفي الواقع لم يكن «تيمان» يحلُم بأن ينال من الفتاة ما نال، وإن تأخّر النوال. فلأول مرة رآها تصافحه باليد، ولأول مرة سمعها تدعوه «تيمان» ولأول مرة لقيها وحيدة، فوجدها قريرة بلقائه سعيدة. وبالجملة ألفاها لأول مرة مستعدَّة لتبثَّ شكواها من الجَوى، ولتَبُوح بهواها إن كان في الفؤاد هَوى. فانظر الآن كيف السبيل إلى الخطاب، وبأي لسان ينطق الفتى بالجواب، لعلمه أن الخبر سيُؤلمها على كل حال، ويقف لغرامهما في طريق الآمال، وهي مُقبلة أيَّما إقبال، لكنه تلطّف في الإخبار، فقال:

لعل مولاتي يسرها أن تعلم شيئاً عن تقدُّمي وارتقائي بيُمْن طلعتها السعيدة.

دل: لعلك رُقِّيت لرُتْبة؟

تيمان: بل لرُتبتين، يا مولاتي، والأهم أن وظيفتي في الرتبة الجديدة تُسَهِّل عليّ خدمة إشارتك في كل مقترح، وتجعلني قادراً على أن أزيد ولو مثقال حبَّة في راحتك وسعادتك، اللتين هما ضالَّتي في حياتي. وعليهما دون سواهما وقفت هَمّي ومسعاتي.

دل: ما هذا الكلام؟ لعلك ماض وتاركنا، يا «تيمان»

تيمان: نعم، هذه إرادة الملك، يا مولاتي، ولا بد من الرُّضوخ لها.

فحين سمعت الأميرة هذه العبارة الأخيرة فاض الدمع، وآنهلّت بوادره،

فحاولت أن تَصُون عزيز دُرِّه عن الأرض، فلم تجد أَوْعى له، ولا أحقَّ به، من صدر الحبيب، فألقت برأسها بين ذراعيه، فضمّه إليه، وجعلَ يَشُمُّه بشفتيه، وهو لا يكاد يملك لقدميه ثبوتاً، من شدة التأثر، وفرط الانفعال، حتى إذا فرغت من بُكائها رَفعت رأسها، فنظرت يميناً وشمالاً، ثم شرعت تُخاطب نفسها فتقول: ويحك، يا «نيتيناس»، ماذا أظهرت؟ ماذا دهاك؟ فذَهِلت عن واجب المقام وحقّه؟ ماذا نزل بك،يا بنت فرعون،عما يفرض عليك النسب من التأنّي والاحتشام؟. العفو ثم العفو يا سيدي «تيمان» وان تكن أنت السبب في هذا، بك أذنبت، وإليك أنبت، فاغفر لي طيشي وخفتي، وتجاوز عن آندفاعي وجرأتي..

تيمان: وأي إثم أتيت يا مولاتي حتى تندَمي كل هذا الندم، وحتى يعتذر الرأس إلى القدم، أما والسماءِ وأربابها، والأرض وأقطابها، لأنت العِزَّة، أنت الحِشمة، أنت الطهارة، أنت الأدب، وما نحن فيما تهادينا من الهَوى والجَوى، وتشاكينا من حُرق النَّوى، إلا كهذا الزَّهر تَرَيْنَه زوجَيْن زوجَيْن، فهل في تعانُقه رِيبة؟ أم مَوَاقِفُه هذه معيبة؟

دل: إني أسمع حركة أقدام، وما أظنها إلا مربّيتي قد حضرت لتلحق بي، فاسمع لي هذه الكلم الثلاث وآحفظها، إن كنت مَن يحفظ العهد على القُرب والبعد، أما سِرّ هذا الحب فيبقى في غَيَابة جُبّ من القَلب، وأما تلاقينا فأنت تنظر فيه وتحتاط له وتحتال عليه، وأما القبلة الطاهرة فلن تنالها حتى تُعَرِّفنا آبن من أنت؟ قال: سمعاً وطاعة يا مولاتي. وفي هذه الهنيهة تَراءى عِيان المربيّة مُقبلاً، فأمسك العاشقان عن الكلام، ومشت «دل» نحوها مسرعة، فقالت لها: إن عندي خبراً أُخبرك به، وأعلم أن سماعه يسوء مربّيتي العزيزة، قالت: وما ذاك يا أعز البنات؟ قالت: إن الحارس ماضٍ اليوم وتاركنا، ولكن له في بَرَاح هذا القصر رُقِيّاً وتقدُّماً، فقد ارتفع رُتبتين معاً، وأصبح في مركز يُمكنه فيه أن ينفعنا، قال: إنه خبر يسوءني ويسرّني في آن؛ وإني أتمنى لعزيزنا الحارس «تيمان» رفعة الدرجة، وعلوّ الشأن، في خدمة

الأوطـان. قال «تيمـان»: وأنا أشكـرك على إظهار هـذه العـواطف نحـوي يـا سيـدي «نانـه»، وأشتهي من السمـاء أن تجعلني بحيث يُمكنني أن أقـوم لـك ولمولاتي ببعض الخدمة في الحال والاستقبال.

ثم كانت من «نانـه» ابتسامـة لم يفهم لها الفتى ولا الفتـاة معنًى، سِوَى أن العجوز قد تكـون وَقفت على بعض ما جـرى بينهما في ذلـك المَوقف من حيث لم يَشْعُرَا بذلك، ولو علما أنها هي التي هيأت لهما الموقف، وشغلت «هـوريت» حتى تعذَّر خـروجها في تلك السـاعة، وسـامحت «دلّا» في السَّبق إلى الحديقة، لتجد «تيمان» وحده وليجدهـا وحدهـا، لاعترفـا بالفضـل لهذه المربيّة، التي علمت بما ورد على الفتى من الأوامر في ذلـك اليوم، فـأرادت أن تتخذ عند الحُب يَداً بتسهيل الوداع على أهله.

إلا أن آبتسـامهـا على تلك الصـورة أخجـل «تيمــان» حتى ألجـأه إلى الاستئـذان. فانحنى مـودِّعا، ثم تـولّى يمشي الخطوات البـاقيـة لـه في أكـرم منـزل ـ منزل الحبيب الأول ـ فكـانت ساعـة شديـدة لا تصفهـا الأقـلام، ولا يعرفها إلا أهل الغرام.

لا ضَـرَبَ المَقْـدُورُ أحبـابَنـا ولا أُعــادِينَـا بهـذا الحُسَـامْ

وعلى أثر ذلك أقبلتْ «نانه» على رَبيبتها تقول:

إن «تيمان» يا أعز البنات، شاب قد رُزق الجمـال، وهذه صفـة يشترك فيهـا الجَمُّ الغفيـر من النـاس، لأن معـاني الجمـال كثيـرة، لا تـدخـل تحت حَصر، ولا تقف مع الزمن عند حَد، بل هي صِفة لا بُدَّ أن تـزول، فإن حُسن الـوجوه حـالٌ تَحُول. ولكن «تيمـان» مرشَّـح لنوعين آخـرين من الجمال، مـا أحسنهما إذا اجتمعا لجميل من الرِّجـال، وما همـا إلا الجاه والمـال. والفتى من الـذكاء وحُسن الأدب والإقـدام بحيث لا يُغادر في المعـالي غايـة إذا هي هَمّت بـه وهَمَّ بها، فمن أحبـه فَلْيَرْضَ اختيـار المَلِك في أمره. وتَعلم الآلهـة أنني حببتـه من أول يَوم، وانـه منّي بمنزلـة الولـد. فما أعـظم سروري اليـوم بنعمة الملك عليه! بل بودّي لو أعيش، إلى يوم أراه وهو كَفُّ الملك وسيفه،

ولسان المملكة القائل، وعُدّتها ضد الغوائل، يرفع لواء مصر للسماء، ويضع حدودها أنَّى شاء، فهناك تتمنّى أميرات البلاد، وتشتهي ملكات العباد، أن يكنّ له بعضَ النساء، بل من جملة الإماء، فطُوبى يومئذ لمن أَحَبّ، وكانت منه بمنزلة النِّياط من القلب»[1].

فلما فَرغت العجوزُ من كلامها، تحوّل حُزن الفتاة. هناءً، وآنقلب اليأسُ فصار رَجاء، لكنها لم تَزِدْ في الجواب على أن قالت: كذلك أنا يا أمَّاه، أعجب بأحوال الحارس «تيمان»، وأتمنى له أن يبلغ في خدمة المَلك والوطن أرفع الدرجات، ثم خاضت في حديثٍ غير هذا، كأنها تخشى فَلَتات اللسان، ورأت «نانه» أن تجاريها اكتفاء بما كان.

هذا حديث «دل» فأما «تيمان» فإنه لما آجتاز باب القصر، وجد عليه «إحيا»، فلم يكد يُبصره من الفِكر والغمّ، فتقدّم البستانيّ إليه وخاطبه، فقال: ما بال مولاي «تيمان» مرّ لا يَلْوِي على أتباعه، كأنّ به أَنَفاً أن يدعوهم لوداعه، ألأنني يا مولاي خادم أجير، ومن كان كذلك فهو حقير لا يُلْوَى عليه، ولا يُلتفت إليه؟ أم لأن مولاي غَضبان مُستاء منّي، فهو لا يسأل عني؟ فإن كان الأول فإن لي بالعقل بعضَ المقدار، وبهذا المَشيب شيئاً من الاعتبار، والآلهة يا مولاي على عُلوّ مكانهم، وفخامة ملكهم وسلطانهم، لا يتودّدون إلا إلى من يستخدمون من رُسلهم وأعوانهم، فرعاية الخادم الأمين إذن واجبة، وله المحل الثاني بعد البَنين والصاحبة، وإن كان الأمر الثاني فإن التجاوز والصَّفح، أحْرَى بهذا الخُلق السَّمْح، لا سيما في ساعة الافتراق، التي يَشهد الآلهة أني أَجِدُها مُرَّةَ المَذاق، فامض يا بني في حِفظهم وصِيانهم، واعلم أن قصور الملوك كالبساتين، فيها الزهر الذي يُعجبك منظره، ولكنه يُمَلُّ بعد حين، فلا تَكُنهُ يا بُني وكُنْ الورود والرّياحين، إن أقامت كانت المُشار، إليها، وإن رحلت كانتِ المَبْكِيّ عليها. ولا يمنعنك

---

(١) نياط القلب: عرق غليظ علق به القلب إلى الرئتين.

التنعُّم في خدمة المَلِك من نَصْبِ النفس لنُصرة مَلِكَين آخرين، كلاهما أولى منه بالطاعة، وأجدر بالخدمة المُستطاعة، وما هما إلا الحق والأُمة، فإنه مِلْك هذين من مِلك الآلهة، لا يحول ولا يزول. فلما أتمّ، «إحيا» كلماته رفع الفتى رأسه، وكان مطرقاً يُصيخ لما يقول، ويَفهمه فَهْم من له معقول، فنظر إليه حيران دهشاً، ثم قال: لقد كنت أذكر أستاذي بطلعتك يا «إحيا» والآن أذكّره بها، وبهذه الوصايا العالية، والنصائح الغالية فلأجله أقبلها منك، ولأجله أعمل بها، قال«إحيا» مقاطعاً: بل لو كان شيخك حَيّاً لرأى لك أن تأخذ الحكمة أينما وجدتها، وأن تقبل النصح الخالص من أين أتى، وأن لا تأبى ولا تكون من المستكبرين. قال: وأنت أيضاً تتهمني بالكبر يا «إحيا»؟ قال: إن اتهام مثلك بالكِبر الذي هو شر الأخلاق، مما يصغر عنه شأن مثلي يا مولاي، ولكني أردت أن تعلم أن النصح كالجواهر الكريمة، لا يُنظر معها إلى البائع، ولكن يُنظر إلى البضائع،، قال: وأنا قد قَدَّرت النُّصح والناصح حق قدرهما، والآن أستودعك الآلهة، وأسألهم أن يوفقوني لما فيه خير العباد، ومنفعة البلاد، ثم إنه مدّ يده إلى البُستاني يصافحه، فأخذها «إحيا» فقبّلها وآستمر «تيمان» بعد ذلك في مسيره نحو القصر السلطاني.

الفصل التاسع

عالم مصري في فارس

أصبح «قمبيز» ملك العجم، نـاعم البال قـريراً، كـأنما بُشِّـر بغلام، أو أُوتي سائر مُلْك الأنـام، فلَبس كِسْرَويّـات المَطارف[1]، وخَـرج إلى إيوان قـد أَحْصَى الـزخارف، جَمّ الـذُّرَى والمشارف، فمـا زال يَغيب في بُسُط الحريـر نِعَالُهُ، ويسحب على طَنـافس الخَزّ أذيالَه، حتى بلغ أريكة فارس، بل عرش آسيا جمعاء، فجلس ثم نظر إلى من حوله وقال: ائتوني بمُنجِّم الدولة.

فلم يكن أن تلهَّى المَلِكُ ببعض أشغال قَصره، حتى حضر رَجُلٌ شيـخ يَهُمّ بالستّين، أعمى أجدع[2]، موفور طـول القامـة، وافي الجسامـة، قد آلتثم يَسْتُر جَدَعـه. ولم يَبْدُ إلا صلعـه، واتخذ زيّ الكَهنـة المصريين، فتلفّف في قَبَاء[3] من الصوف الأبيض، يكسوه من صَلعته العارية، لِقَدَمِه الحافية، فـأقبل يُمَثِّله لدى الملك غلام من تلاميذه يحبو إلى العشرين، كأنه المِثَـال المُنْصَبّ شهامة وجمالاً وطولاً واعتدالاً، وقد تردَّى مثلَ الشيخ ثوبـاً ضافيـاً من الصوف الأبيض، الخاص بكُهّان مصر في ذاك العصر.

---

(١) كسرويات: نسبة إلى كسرى، والمطارف: جمع مطرف، بالكسر وبالضم، رداء من خـز مربـع ذو أعلام.

(٢) أجدع: مقطوع طرف الأنف.

(٣) قباء: ثوب يلبس فوق الثياب.

فلما دخل الأعمى على الملك خَفّ له، وبالغ لِه ولفتاه في المنزلة، فأجلسهما بجنبه، وأعلى محلَّهما من قُربه، ثم آبتدر خطاب الشيخ قائلاً:

ألا أقُصّ على رئيس القوم رُؤيا هي من حسنات النَّوم، ضاحية سعيدة، قريبة بعيدة الخيال، كل الخيال فيها، وتقبلها الحقيقة ولا تَنفيها، رأيتها وأنا عَفِيف الوِسَاد، طاهر الرُّقاد، حُرُّ القِياد، لم أظلم في أمسي، ولم أُسلم إلى الهواجس حِسّي، ولا ولَّيت الهوى على نفسي. قال: مُرْ يا ابن كسرى، لا زالت النجوم مسخرات لسعيد عهدك، مبشرات بمزيد مجدك، ولا برح المنجِّمون ساعين لخدمتك، داعين على الدوام بخلود نعمتك. قال: رأيت أيها الرئيس كأن عرشي على الماء، وكأن أبواب السماء، انفتحت لذِرْوة إيواني الشماء، فما زالت تسمو في السَّنَا والسَّناء، حتى خشيت أن يَنْقلني البِناء، إلى عالم اللُّطف والضياء، ثم رأيت كأني أسير في ضوء شَمس زَهراء، فحاولتها، فلما ظننت أني نلتها، آحترقت فإذا هي هباء. هذه رؤياي أيها الرئيس الجليل، فما عندك لها من التأويل؟

قال: ما أحسن آبتداء ما قَصصت، وليتك ما زدت أيها الملك، بل ليتك نقصت، فأمّا العرش الذي على الماء، فعرش الفراعنة العظماء، وأما سمو الإيوان بصاحبه على ما وصف الملك، فعنوان مُلك كبير، ودولة عرضها الأرض والسماء، وأما الشمس التي حاولها الملك سُدًى، فعَقْله الذي في رأسه، سوف يخرج منه فيتفرق شَعاعاً، فيذهب الشُّعاع هباء، فلا يملك المَلِك له رَدّاً ولا إدناء.

ثم إن المنجم قبض يده اليُمنى، واستقبل وجه الملك، فلما صار إزاءه نفضها فيه، فأخذ الملك للحين، فشرع الشيخ يسأله قائلاً: ماذا ترى أيها الملك؟ قال: أرى جنوداً ملء الأرضين، تتأهب للزحف، قال: ثم ماذا؟ قال: أراها قد زحفت وأراني صاحب رايتها. قال: ثم ماذا؟ قال: أرى بلاداً تُطْوَى لي، ويدنو بعيدها، وأمماً فيها يُولُّون مني فراراً، وأرى ملوكاً أتوني صاغرين. قال: ثم ماذا؟ قال: أراني على أبواب مصر. قال: ثم ماذا؟ قال:

أرى جنات وأنهاراً، ومدائن عشرين ألفاً كباراً، تُفيض فضَّة ونُضاراً، قال: ثم ماذا؟ قال: أراني أدمِّر القُرى، وأُبيد الزرع،وآخذ المدائن غَصباً. قال: ثم ماذا؟ قال: أراني أستبيح مصر، وأحمي نيلها، وأملك البلاد عريضها وطويلها. قال: ثم ماذا؟ قال: أرى الموت يفتك في جنودي مسرفاً، والمنون تقتلهم بلا قتال. قال: ثم ماذا؟ قال: أراني قد قُهرت أول مرة، وما قهرني أحد وأرى سواد جيشي في التِّيه صَرْعى هالكين، قال: ثم ماذا؟ قال: أراني مُغضباً هائجاً، أقتل سَراة القوم، وأخرِّب هياكلهم تخريباً، وأزيل ما يعبدون. قال: إذن فانتبه أيها الملك، إني أخاف أن ترى عُقباك فتموت قبل أن تدرك العُقبى، فانتبه الملك وهو يكاد يَسبح في عرقه، ثم نظر إلى الشيخ فقال: أهذا تأويل رؤياي يا «بترمبيس»؟ قال: بل ها أنا ذا أستتمّ وأُلمُّ بأطراف الرؤيا ما أُلمّ إعلم يا «قمبيز» أن السماء وهي نعم العون، سوف تكون معك على فرعون، لا لأنها قنطرة ركوب الظالمين، على دماء العالمين، لكن لأنك طاغ، ولأن فرعون طاغ، كذلك باغ. فهي إنما تسلط الرعد على الرعد، وهذي سنتها في الممالك من قبل ومن بعد. هذا بعد موت «أماسيس» فرعونها الذي صانها من أبيك، وما ينفك قادراً على صونها، فإذا هو هلك، وقام آبنه من بعده وملك. وَطِئتها خيلك المدمِّرة، ودهمتها جنودك المتبربرة، فهدّت كيانها، وهدمت في المجد بنيانها، ومَحت هياكلها الفاخرة، وعفت مدائنها العامرة، ودفنت العلم والحكمة والصناعة، تحت أطلال مدارسها الزاهرة. قال الملك، وقد كاد يخرج من صوابه لِمُدْهش ما رأى من فعال الشيخ، وما سمع من خطابه: أما عندك لنا يا «بترميس» ختام غير هذا الختام النحيس، فإن الجنون بئس الدار، صاحبه أذي مملول البقاء، لا في الموتى ولا في الأحياء؟

قال: إنه ليس بقولي، ولا دَفْعه في دائرة فوَّتي وحَولي، وإنما أنا رجل كُشِف له الغطاء، وناجته بَغيبها السماء، وأُعلم أنها تقضي مرة ثم لا يتبدل القضاء. أما أنت أيها الملك فإنك تذبح مصر، وتذبح فارس معها. من حيث

تُريد أن تبني دولتك على أطلالها وترفعها، لأن الكهنة الأوَّلين، أصحاب الآلهة العالين، قد أخبروا وحدّثوا وأورثونا فيما أورثوا، أنه يأتي زمن على مصر الوطن تكون للأجانب أبداً، وفي المصائب سرمداً، لكنهم نبأوا كذلك. أنه لا يملكها من الأجانب مالك، إلا كان هو وقومه وقفاً على المهالك. ولو أنه «قمبيز» ربُّ الممالك.

فلما سمع الملك هذا النذير، من محتوم المقادير، همَّت به الرّيب والشكوك، وغضب هذه المرة كما تغضب الملوك، فرفع الصوت قائلاً: إن آلهتك أيها المصري أكذب منك، وإنهم سوف لا يُغْنون عن فرعون ولا عنك.

والآن لك أن تختار كيف تموت، وعليّ أن أُوفِّيك مقامك في الكهنوت، بل أنا أختار لك النار ذات القدس، التي يموت بها الملوك والفوارس، وكهنة المقام الأول في فارس. فأغرق الشيخ في الضحك، من كلام الملك، ثم قال: إننا معشَر بني «هوس» قد مضى فينا حكم سابق، أن لا نموت إلا بالصواعق، فإن كان في يد الملك زِمام السحاب، فلينزل عليّ ما شاء من عذاب.

قال: النار بيننا أيها الكاهن الخائن، المُوهم المائن، الذي يتقوَّل على السماء الأقاويل، ليثني همي عن معالي ملك النيل. قال: لا يُطيشنك الغضب، وقِف يا «قمبيز» على حد الأدب، فلا وآبائي أولياء السماء، وأصحاب سرها في هذا الغبراء، ما الخيانة والمَين إلا فيكم معشر الملوك والأمراء.

فلم يكن من جواب الملك إلا أن آستل خنجره وانقض على «بترمبيس» فلما صار منه وجهاً ضرب الرَّجل الأرض برجله، ثم صرخ قائلاً: مكانك يا غادر، وتأمل في صفحة هذا الخِنجر ماذا ترى فيها؟

قال: أراني قد صرعت به أخي لأمي وأبي. قال: ثم ماذا؟ قال:

فأختي التي هي زوجتي، قال: ثم ماذا؟ قال: فسائر ذويّ واحداً بعد واحد. قال: ثم ماذا؟ قال فخواصِّي وذوي شُوراي. قال: ثم ماذا؟ قال: أراني قد صَرعت به العجل «آبيس» معبود قومك في «منفيس». قال: ثم ماذا؟ فصرخ الملك صرخة دَوّى بها الإيوان، ثم صاح قائلاً: أماناً أماناً «بترمبيس» اذكر يمينك لأبي أنك تحفظ ما عاش عهده، وتحفظ عهد هذا الملك بعدَه. قال: إذن فانتبه يا آبن كسرى، فلولا عهد أبيك لكانت هذه هي القاضية، فخرج مما كان فيه، وانتبه وإذا هو لا يزال مُرْعَشاً مُرْعَداً، لا يملك لقدمه فَكاكاً، ولا يستطيع للخِنجر إمساكاً. فسأله الشيخ قائلاً: ماذا رأيت أيها الملك مما راعك، وأكثر أوجالك وأوجاعك؟ قال: رأيت أني طعنت العجل «آبيس» فمشى الخِنجر من نحره، إلى أقصى صدره، ثم غاب في أقصى أعماق العظام. حتى أعياني رَدُّه كما يُعْيي الرماة رد السهام، فلم يكن من العِجل إلا أن عض على قَبضة الخِنجر بنابه، ثم جذبه إليه فصار بين فكيه، فحمل عليّ مُغضباً نافراً، حنقاً سائراً، فما زال يهاجمني وألتقيه، ويسدد الخنجر نحوي وأتقيه، حتى ذُقت العذاب مراراً، وأوشكت أرى الموت جهاراً، وإذا بك قد نبَّهتني فأنبهت من شِبه منام، فبحقّ أبي عليك يا «بترمبيس» بل بحُرمة آبائك الكرام ألا كشفت لي اللّثام، عن هذا الحلم السفيه في الأحلام، قال: ليس ما رأيت أيها الملك إلا تتمة رؤياك، وليس طعنك عجل السماء، وطعنه بعد ذلك إياك، إلا وخيم مصرع بغيك في دنياك.

وكان الملك قد فاء إلى صوابه، وزال سلطان النوم عن أعصابه، فعاد إلى سريره فجلس ثم رفع الحجاب، وأذن في الوصول لجميع من بالباب، فدخل عليه الأهل والوزراء والأصحاب. فلما رآهم آستأنس بعد النفار، وسكن فؤاده المذعور وكان بغير قَرار، فقام ونهض على قدم الإجلال، ثم حَرّك لسانه بالقول فأنصتوا، فقال:

«أيها الملأ، قد ثبت عندي أن هذا الكاهن المصري، وأومأ بأصبعه إلى «بترمبيس»، عدوّ لي ولكم، يوهم أن يصفينا، وهو لم يقم فينا، إلا ليظهر

على بادينا وخافينا. فما مثله حين حميناه، وما اتقينا وأجرناه، فلاقينا ما لاقينا إلا كمثل أفعى كَبَّدها البرد، فدبت إلى فراش دفيء، فشاطرت النائم لِحافه، وقضت الليل عنده في أحسن ضيافة، حتى إذا أخذت قسطها من الدفء، لوت على صاحبها لدغته، ثم مضت من حيث أتت، فما جزاء مثل هذا عندكم؟ وما عُقوبة من يخون عهدي وعهدكم؟».

فما كاد الملك يستتمّ حتى صاح القوم يُردّدون بلسان واحد: الصَّلْب المهين، الصَّلْب المهين. قال: ولكني وعدتُه أن لا يَمسَّه إلا النار. وأن لا يعدم إلا كما يعدم في فارس النُّفوس الكبار. قالوا: فليكن ما سبقت به كلمة الملك أن يكون. قال: ولكنه ساحِر قدير، وأخاف أن يخرج من السجن بسحره، قبل أن نخرج بنتيجة من أَمره. قالوا: وأين سَحَّار فارس، وكُهّانها من كل حابسٍ حارس، حتى يضيق ملك الملوك، بخطب هذا الصعلوك، فإذا أمر الملك، فإنا إلى السجن نزجيه، ثم نزجُّه فيه، ثم نسوّر المكان. ونحوط هذا الشيطان، بنفر من السادة الكهان. ثم يُعيِّن الملك رجالاً من أشجع الحرّاس، مسلحين من القدم إلى الرأس، ليدوروا بالسجن كالبنيان، وليكونوا للكهنة بمثابة الخدّام والأعوام. قال: قد أمرت واخترت يوم السوق موعداً لوقوع الجزاء على «بترمبيس» حرقاً بالنار، وأن يشهد إعدامه أهل المقامات والأقدار، وكل غريب يقطن الآن «بازرجاد» عاصمة الديار. ثم أشار الملك أن خذوه، فازدحمت على الشيخ أيدي الرجال، يجعلون فيه السلاسل والأغلال، ويشدّونه في أوثق الحبال، وهو بينهم يَبَشّ للأهوال، ولا ينوء بالأثقال، إلا كما تنوء الجبال. ثم خرجوا به على هذا الحال، فلما بلغ الباب التفت وراءَه، ثم قال يخاطب الملك بصوت عال: ألم أقل لك يا «قمبيز» إن الخيانة والمَين والرياء، أخلاق لم تجزكم معشر الملوك والأمراء.

الفصل العاشر

كتاب قمبيز الى امازيس

أصبح قصر فرعون في «سايس» قائماً بناسه، قاعداً وأصبح الملك وسائر الآل، والحاشية من نساء ورجال، في حال من الجزع والفزع شر حال.

وسبب ذلك أنه ورد على فرعون «أمازيس» وفد فارسي، يحمل كتاباً من «قمبيز» ملك الفرس، قد خطب فيه فتاة الملك بلسان المتحكم الآمر، وقد تجرَّدت عبارات الكتاب، عما يجب مراعاته في المقام من الآداب، حتى لم يبق شك أن العجم يحتالون على الشحناء، ويوقظون صاحب النيل للعداوة والبغضاء، لعِلْمهم أن فرعون أقرب إلى الرفض، على ما فيه من المخاطرة بالسلامة، منه إلى القبول الهادم للشرف المُسْقِط للكرامة.

وكانت مصر تعلم يقيناً أن يوم العجم فوق أمسها، وتستعدّ لجوار تجري بسعد القوم ونَحسها، وتتوقع التعدِّي القريب من ملكهم الشابّ الذي ترك له أبوه «كيروش» المشهور من المِيراث الجليل، والملك العريض الطويل، ما لا يستطيع معه صبراً عن وادي النيل.

فلما دها مصر كتابه لم يزدها بالحالِ علماً، وإن يكن قد أزعج صاحب الحكومة، واستفزَّ رجال الدولة فيها، ومثل المستقبل للجميع ليلاً داجي الظلام، تتعثّر في كُنهه الأوهام.

وكـان في انتـظار الملك على أبـواب غُـرف الجلوس في صبيحـة ذلـك اليوم الأسود، ولم يكن خرج بعـد من مقاصير النوم، كبير حَرسه ونـائبه على قيـادة الجيوش العـامة، القـائد اليـوناني «فـانيس»، ومشير المملكـة السياسي اليوناني «لاجوس». وكلاهما من أهالي جزيرة «ساموس». وفتيان مصريان من رؤساء الحرس الخاص المُتناوب على خدمة الباب، وولاية الحِجَاب.

فانفتح الحديث بين وزيري فرعون، ومـا فتحه إلّا كتـاب ملك العجم، فسأل «فانيس» صاحبه قائلاً: ما عندك لقمبيز من الجواب يا «لاجوس»؟ قال: عندي للقوة الغـاشمة من الجـواب، أنها يـا «فانيس» تُجـاب. قال: تُجـاب! وكرامة الملك، أين تجعلها أيها المشير؟ قال: أصونها عن أن يجيب «قمبيـز» رغماً كارهاً، وفي الإمكان أن يجيبه راضياً مختـاراً، والملك أدرى أن الإقدام يكـون على قدر المسـؤوليـة، وأن الجيش المصـري قـد صـار من الاختـلاط والاختـلال، وقلة العديـد والمال، بحيث يخشى عليـه من الحـرب على كـل حـال، فإذا نحن عرضناه لقمبيـز وجنوده، تكـون الصدمـة هائلة، وتكـون مسؤولية الملك أشد هولاً.

قـال: إنك يـا «لاجـوس» تهينني بهـذا الكـلام، من حيث تـطعن على الجيش الـذي أنا قـائده العـام، لكنك تتـطفل بمـا تقول، فـأنا أمهـد عذرك، وأشتهي على الحوادث أن تفضي بجنود الملك إلى ساحة القتـال، فإنهـا نِعْمَ نقّاد الجند والقواد. والآن هَب أن عساكرنا لا تقوى على «قمبيز» وكتائبه، وأن ذلك يضطر الملك إلى الإذعان، لإشارة طاغية الفرس، فهل في يمينك ميثاق من جـد الأميـرة، أنـه يـوافق على إلقـاء حفيـدتـه بين ذراعي وحش العجم، و«بـولقراط» كمـا عهدت ملك رقيق القلب، لـطيف الإحساس، آخـذ بـأوفى نصيب من حضارة قومه، ونعيم بلاده، يكـره عذاب الأنفس بـالطبـع ويأباه، ويحب هنـاء العيش لـذوي قُـربـاه، فلو خيّـر بين أن يسلِّم الفتـاة إلى زعيم المتـوحّشين على فخامـة شأنـه، وكثرة ممـالكه وبـلاده، وبين أن يدفعهـا إلى صُعلوك مصري، أو سوقة يوناني، ما اختار إلا أحد هذين، ولو كلَّفه ذلك مـا كلَّفه.

قـال: نعم، صدقت يـا «فانيس» ولكن فاتـك أن الحـوادث تحكم في النفوس الأبية، فتتسـامح كمـا تحكم النار في الحـديث فيلين، وأنها كثيـراً ما تعلو فـوق علياء الكبـراء، فتنزلهم عن صهـوة الكِبريـاء، وإني لا أظن الملك «بـولقراط» يضـرب على يد صِهـره، أو يكون مـع الحوادث عليـه في مُرْتَبـك أمره، لا سيما إذا أدرك أن عـاقبة الـرفض وخيمة على بيت فـرعون، فهـو إن يكن «أمازيس» عموده، فالملكة وابنتها طُنُبـاه، فلا بـد إذن للجَد أن يـرضى بكل ما يرضاه الوالد، سواء فتح الحـرب العَوان، أو جنـح إلى السّلم على ما فيها من هوان.

قـال: هذا من صـواب القول أيهـا المشير، ولكنـا أغفلنا أمـراً مـا كـان ليُغْفَل، وأهملنا شأناً حقيقياً أن لا يُهمل.

قال: وما ذاك؟

قـال: تخيير الأميـرة، فهي إمـا أن تجيب فتقـطع جَهِيـزَةُ قـولَ كُـل خَطيب[1]، وإما أن تأبى وتُصرُّ. وما عليها إن فعلت من حَرَج، فرفيع مَقـامها، وشديد حُب أبويها لها، وأحكام مصر وشرائـع اليونـان والحقوق الفـطرية، لا شيء من ذلك يرهقها عُسراً، بل كُلُّ مُبلِّغها عُذراً، أن تَرُدَّ زواجاً لا ترضاه.

قال: لا إخالها تَرُدُّ خطبة «قمبيز» والأُنوثة والإمارة فيها من لوازمهمـا في الغـالب الأنانيـة والخيلاء، وكلتـا الصفتين مما يُـزَيِّن للأميـرة فضـل الاقتـران بصاحب المُلْك الجسيم، والسبق إلى هذا الفوز العظيم.

قال فانيس، وقد حَوّل نـاظريـه إلى أحد الفتيين، وهـو «تيمان» يلحـظه شَزْراً: هذا أيها المشير إن خلت القلوب من الـداء، وسلمت بالعقـول أرؤس النساء، وإلاّ كان صاحب المُلْك الجسيم، هو مَن إليه يميل الفؤاد وبـه يهيم،

---

(١) جهيزة: امرأة جاهلية قطعت على خطباء قومها خطبهم، وقد كانـوا اجتمعوا للصلح بين حيين قتـل أحدهمـا من الآخر، حين قـالت: إن القاتـل قد ظفـر بـه بعض أوليـاء المقتـول. فقـال بعضهـم: قطعت جهيزة قول كل خطيب.

ولو كان شخص الضَّعَة والسفالة، ومثال الدناءة والخِسّة والنذالة.

وكان الفتى مُستجمعاً يَقِظاً، ينظر ويسمع، فتقدم خطوات وخاطب كبير الحرس قائلاً: إن الجنديّ البطل، إذا خاصم كان مُبيناً في الخصام، يتكشف ثم ينذر، ثم يأتي غريمه وجهاً لوجه، كما يلقى القِرْن المكافح صدراً لصدر، وأنت يا سيدي القائد العام، لك زمان تذيقني الجفاء في الخفاء، وتهينني بخَفِيّ النظر تارة وطوراً بِخَفيّ الكلام، فأنا إما واهم آثم الظن، فكلمة منك تخرجني من وهمي ولك الشكر، وإما محِقّ كريم الفراسة، وأنت حقيقة تشكو من أَمْرٍ صَدر عني، أو خليقة ساءتك مني، فالبلاد بقضاة وأحكام، فإن أبيت فالمَلِك خير من يتحاكم إليه الأخصام. وإن أبيت فكلانا حاملُ حسام، وما يحمله سُدًى والسلام.

وكان «فانيس» يتكلف الابتسام، ويتظاهر بآستغراب الأمر، والاندهاش من هذا الكلام. حتى آستتمَّ الغلام. فلم يَزِدْه في الجواب على أن تبسَّم قائلاً: بل أنت واهم يا «تيمان».

قال: إذن، فهذا جناه الوهم على اليقين عندي، كما جنى الظاهر عندك على الباطن، وما بيننا يا مولاي من ثأر فأصرُّ على ما أنا فيه، أو تغيِّر أنت ما بنفسك، بل لم يبق إلا العذر، وهو عندك مقبول. قال: عذرك مقبول يا «تيمان» وما زلت مني بأَسْمى منازل الكرامة، ثم إنه مدّ يده إلى الفتى يريد أن يصافحه، فأخذها «تيمان» فقبَّلها، ثم انحنى في حَضرة الوزيرين، وهو يرجع القَهقرى، حتى بلغ إلى حيث كان واقفاً فوقف.

ولم تكن هذه الحادثة لتفوت على الوزير السياسي، فلقد دهش لما رأى وسمع، وإن يكن عنده من الخَبر نِصْفه الذي لا يستحيل معه على رَجُلِ سياسة مثله أن يتنبأ بنصفه الآخر.

وفي الحقيقة كان «لاجوس» قد عرف من عيني صاحبه لأوّل وهلة أنه يحب الأميرة، ويؤثر أن تبقى في القصر، إلى الأبد، فهناك إن لم تكن له

فعلى الأقلّ لا تكون لأحد. وإذ كان «تيمان» من رونق الحسن، وغضاضة الشباب. بحيث تتطلّع إليه الألباب، من خلف سترها والحجاب، فلا يبعد أن يكون «فانيس» قد أخذ على الأميرة في بعض لحظها، أو بَنَى على بادرةٍ من بوادر لفظها، أن الحارس قد شَغفها حُبّاً، فلم يدع لها فؤاداً يعرف «فانيس» ولا لُبّاً. فكان ذلك داعياً إلى دبيب الحقد في قلبه «لتيمان».

هذا ما قام بخاطر «لاجوس» تلقاء هذه الحادثة، وانكشف لبصيرته من بواطن تلك المحادثة، ولكنه آدخر لنفسه فراستها، ولزم جانب الحياد التام، فلم يدخل في الحديث ولا سأل عن الأمر، كأن لم يُلْقِ له بالاً.

وفي هذه الأثناء تَراءى شخص الملك مقبلاً من مقاصيره الخاصة وهو مستعجل الخطو مضطرب المشية يفيض وجهه من الكآبة وتتقد عيناه من الغضب فانحنى الوزيران في طريقه ريثما مرّ ثم تبعاه حتى جاء نافذة فوقف ينظر إلى الفضاء. وكأنما يشكو بثه وحزنه إلى السماء. والوزيران بين يديه على قدم الإجلال. حتى إذا سكن جأشه بعض الشيء التفت فقال:

إن الأميرة ترفض كل الرفض ما زينت لها أنا والملكة من وجوب مجاملة «قمبيز» والرضا به بعلاً وتتهدّدنا أن تركب عار العقوق إذا نحن أوسعناها معالجة وضغطاً.

قالا «لاجوس» وقد أفزّته عبارة الملك كما تفزّ بغتات الحوادث عظماء رجال الأمور: قد كان يا مولاي ما خفنا أن يكون. فقد كنا نخوض في هذا الحديث قبيل التشرّف بأنوارك فما زلنا نقلب الأمر على كافة وجوهه ونحوّله إلى جميع مصارفه. فلم نخش عليه من شيء يحل عقد نظامه، أو يقف بسياسته في طريق إتمامه، إلّا أن تتمنع الكريمة الفخيمة. فتوقع الملك والملكة في حيرة عظيمة. قال: فما العمل الآن يا «لاجوس»؟ قال: هل يأمر مولاي أن تخرج الأميرة إلينا لعلي أن أغلبها على امتناعها. أو أوفق في حضرة الملك لإقناعها. قال: ليكن ذاك. ثم أشار «لتيمان» أن يدنو فدنا. فقال

له: امض فقل للأميرة أني آمرها أن تخرج إليّ الساعة: قال: سمعاً وطاعة يا مولاي. وانثنى للحين يقصد أبواب الحرم.

وفي هذه الهنيهة دخل «فانيس» في الحديث فقال للملك: لا ينكر يا مولاي أن سياسة صاحبي «لاجوس» هي من أحسن ما تبلغ إليه مرامي الرجال في مثل ما نحن فيه من الحال. بل هي أمضى سلاح يتقلّده السياسي الحكيم، ولكنها تلقاء القوة القاهرة ترفعنا من جهة أخرى إلى خطر، حريّ بالنظر والملافاة.

قال: وما ذاك؟

قال: إن فارس لا تزال تهاب مصر في ماضيها، كما أصبحت مصر تهابها في حاضرها، ولولا هذه المهابة لنا في نفوس العجم ما عاش «كورش» حتى الممات يظهر وُدّك، ويرعى عهدك، بعد أن اغتصب «بابل» بحد الحسام. وتغلب على بلاد الشام، وضرب الخراج على ملوكها العظام، ولولا آنتقال هذا الشعور نفسه من الملك الهالك بالأمس إلى ابنه القائم اليوم، لما احتاج إلى إنفاذ كتاب مثل الذي بأيدينا منه، يريد أن يبلو مَجَسَّتك، ليعرف حاليك: ضعفك أو قوتّك. ونحن يا مولاي لم ننزل بعد إلى حَفر الأجداث، حتى ندع ضَبُع العجم ينبش علينا القبور، ويفتك في جماجمنا الأبيّة قبل فتك الظُّبى[1] والنُّسور. هذا فإن كان ولا بُد من مداراة القويّ لأجل قوته، والرقص لِقرد السُّوء في دولته، فلا أقل يا مولاي من سُلوك نهجٍ يكفَل لنا السلامة، وتخرج المملكة منه ببعض العِزّ والكرامة. وذلك أن نتحفظ من الابتذال، ونظهر «لقمبيز» بادىء بدء في تيه التمنّع وعزّ المِطَال، وبهذا نتبيّن صدق حاله من كذبها، ونعرف الأمر إن كان من جِد الحوادث أو لعبها، ثم يكون لنا من الوقت ما يمكن السياسة أن تدبر لها أمراً، والجيش أن يأخذ أهبته كذلك. وبالجملة نكون على قَدَم الاستعداد للطوارق. قال الملك: سننظر في هذا يا

---

(١) الظبا: أي السيوف.

«فانيس». وكانت «فتنت» وهو اسم الأميرة، وقد أقبلت تخطر كأنها الغُصن الميّاس، فوقفت مُطرقة تقلب كفيها. ودلائل الكآبة بادية عليها. فابتدرها الملك بالسؤال قائلاً: ما بال أعز البنات مكتئبة؟ مالي أراك متغيّرة يا «فتنت»؟ أين شيمتك البشاشة والبشر؟

قالت: كيف السبيل للكآبة عليّ، ورأسك العزيز في الدنيا يا مولاي؟ وإنما أقلقتني إشارتك إليّ بالحضور في هذه الساعة، وأنت كما أراك بين هؤلاء الجماعة. فأشفقت لأول وهلة عليك، وتوهمت طروء أمر ذي بال.

الملك: لا بأس عليك يا أعز البنات، إن أباك بخير، وإني ما طلبتك إلّا لأمر فيه خير لك، وسلامة لمُلك أبيك، وصيانة للوطن العزيز.

فتنت: مر يا مولاي: إني سميعة مطيعة.

الملك: لا أظنك إلا قد بلغك الخبر برُمته، أو طرف من جُملته، ولو لم نكاشفك به إلى الآن، إذ ما أسرع ما تذاع الأسرار في قصور الملوك، وما أعجل ما تصل إليكن معشر البنات دخائل البيوت.

فتنت: وما هو ذلك الخبر يا مولاي؟

الملك: أنك قد خُطبت أيتها الأميرة. وغداً أقول الملكة الخطيرة. خطبك من تُصبيحن بقربه مالكة الممالك، وتصبح الشمس العالية دونك في أحوالك.

فتنت: ومن ذاك يا مولاي؟

الملك: «قمبيز» صاحب الوقت.

فتنت: إنك يا مولاي تُداجي على ابنتك، ولولا الأدب قلت: تغالطها، وهذا لا يصدر من أضعف الآباء، فكيف من ملك بمكانتك بين الملوك العظماء؟

الملك: أرى الغضب أدناك إلى الوقاحة، وهي توقعك من حيث لا

تشعرين في العقوق، فحذار يا «فتنت» حذار، واذكري أنك إنما تتَّهمين الأب في عقله؟

فتنت: عفواً يا مولاي، إن «قمبيز» وحش ضار، ليس له وإن افترس الناس جميعاً مقدار، وأنا أميرة يونانية مصرية، فلا تنتهي إلاّ إليّ المدنية، أبي «أمازيس» منار البر، وجدّي «بوليقراط» منار البحر، وكلاهما خير ملك لخير أمة أخرجت للناس، فبأي قلب تدفعني إلى رجل وَحشيّ الخلقة والأخلاق؟ وأي شأن رأيت لهذا الحيوان المفترس حتى آخترته قريناً لوحيدتك؟ أفتوحاته الوهمية؟ أم انتصاراته الخيالية؟ أم سيرته البربرية؟ ليس هذا من الشأن العظيم في شيء يا مولاي، فكم قبل «قمبيز» من ذئب عاد، أقلق البلاد والعباد، ثم وقع في أحبولة المصطاد. مولاي: إن السباع كثيرة، وآبنتك لا تعصي لك أمراً، فإن كان ولا بُدّ من هلاكي فألقني إلى مَن يفرسني مرة، ولا تلقني إلى من يفرسني مراراً.

وهنا خان الدمع الفتاة، فترامت على قدمي والدها تقبلهما مسترحمة مستجيرة، فأشار الملك «للاجوس» فتقدم فأنهضها، ثم تولّى بها إلى جانب، فسكن جأشها، وهدأ روعها، وبالغ في الملاطفة لها، وأقبل «فانيس» على الملك يقول له بصوت مخفوض:

«قد رأيت يا مولاي أن لا حيلة في هذه الكبرياء، وأن الأميرة مصمِّمة على الامتناع، بحيث لا يكون من تشبّثك بما أنت فيه إلا واحد من خطرين، العقوق، وهو من بنات الملوك سُبة تنتقل أخبارها، وفضيحة يخاف آشتهارها. أو قتل نفس الأميرة، وهذا لا ينبغي لأب رحيم، وملك بصفات مولانا عادل كريم».

الملك: إن «فتنت» جاهلة مغرورة يا «فانيس» وإنك تبالغ في جسامة الخطب، وأنا لم أستثر كل عواطف الفتاة بعد، فدعني أعالجها مرة أخرى لعلي أنجح فيما أحاول.

فانيس: شأنك وما تأمر يا مولاي.

فالتفت الملك إلى فتاته، وهو يتبسم وقال:

تعالي يا «فتنت» واحبسي دمع النَّزَق والطيش، وخلي عنك المخاوف والوساوس. إن «قمبيز» فيما زعمت، سيد القوم الهمجيين، وسلطان الأمم المتوحشين، إلا أنه ملك وابن ملك، وذو نسب في الملوك عريق، فلن يكون بيته خلْواً من دواعي الرفاهة، وأسباب السعادة، ثم هو أغضّ ملوك زمانه صِباً، وفتوة، وأنضرهم شباباً، يصفه الناس، بالملاحة والصباحة الإيناس، فماذا تبتغين وراء ذلك؟ وما يضرُّك من همجية قوم إذا كانوا هم السعداء؟ لهم الأرض ومنهم الملوك والأمراء.

فتنت: ولكنهم يا مولاي لا يعدلون رعيّة أبي، ولا قوم جدي، وأنا راغبة عن هذا القِران، غير مطمئنة إلى هذا القرين، فادفع عني سوء ما تجادلني فيه، وإني أسألك أن لا تزوِّجني أبداً.

فلما سمع الملك هذا الرد المَهين، والرفض المُبين، كاد الغضب يَقْذِفه من فوق عرشه، إلا أنه آستعمل الحزم، وتمسَّك بأذيال الحِلم، فالتفت إلى الفتاة وقال:

أنت يا «فتنت» فتاة هذا الملك، وأميرة هذا الوطن، تتقلَّبين في الألذِّ الأطيب من نِعم البلاد، وتأخذين بالنصيب الأكبر من ألقاب المملكة، ولكل شيء يا ابنتي ثمن، ولكن نِعم زكاة من جِنسه، فكما أن الفلّاحة الحقيرة تقرّب للوطن من عِيالها، وتعطيه من عمل ساعدَيْها ومن مالها، نظير ما تأخذ من خيره وإحسانه، وتتفيَّأ من عدله وأمانه، كذلك أنتنَّ بنات الملوك تأتي على الوطن أوقات تُطلَب له المساعدة، ويحقُّ عليكن له الفداء.

فآعلَمي أيتها الأميرة أن «قمبيز» وجنوده يتهدّدون مصر، وأن مصر لا طاقة لها بهم اليوم، فلا بد والحالة هذه من مُداراة ملك العجم، والاحتيال على محالفته، وقد خطبك «قمبيز» فأصبحنا نأمل أن تنال مصر كتابَ هذه المُحالفة بجميل سِفارتك لدى بَعْلك العظيم، فهلمّي يا ابنة فرعون آفتدي الوطن بقبولك، ثم حَيِّيه برضائك، وخلّصيه بامتثالك، وآنتشليه بوفائك.

هلمِّي يا «فتنت» أنقذي مُلْك أبيك بغير عظيم خسارة، فإنما تُـزَفِّين إلى ملك عظيم، وزوج كريم، وعيش رغيد، ونعيم وافر، وهناء مزيد.

فتنت: أنا يا مـولاي من اليونـانية، مـا أنا من المصـرية، لي جَـدٌّ مَلِكٌ عـظيم يسأل عن أمـري، وآخـر القـول عنـدي أني لا أحمـل هـذا النِّيـر، أو يحملني جَدِّي عليه.

فنزل جواب الفتاة كالصاعقة على هامة المَلِك، فأطرق بـرأسه طـويلاً، كـأن به دُوَاراً ثقيـلًا، فآستحضـر أربعين عامـاً في لحظة واحـدة، لا يـرى إلّا حِساباً للظُّنون مُنخرماً، وبُنيانـاً للآمـال منهدمـاً، أو ثِقَة قـد ضاعت على أُمـة اليونان من أول يوم. وبالجملة، نظر إلى شَجَرٍ غَرَسه ووالاه، كيف أصبح يبلو المُرّ من جَنَاه.

وفي الـواقـع، لم يبق في نفس «أمـازيس» رَيْب أن بيت مصـر ليس إلّا حجرة في بيت «ساموس». وأن عرشها ليس إلّا جزءاً من عـرش «سامـوس». وأن المُلْك زائل، وأن الساعة آتية لا ريب فيها. فآنتبه من طويل غَفلته، وهـو مُصِـرّ على صرف مَيله ومِقَتِه[1] عن اليونـان إلى أبناء بـلاده، أصحـاب الحق الطبيعي على فؤاده وقياده.

إلّا أن فرعون أسرّها في نفسه، وتجلّد للحاضرين من أصحابه اليونان، فلم يـزد على أن أشار لـلأميرة بـالانصراف، فـانصرفت آيـة بلعنةٍ ممن قَـرن عبادته ببر الوالدين[2].

ثم التفت إلى أصحابه يسألهم: ما العمل أيها الصَّحْب؟

لاجوس: أما أنا يا مولاي فرأيي أن تسير إلى مَلك العجم مُرْغَمَـةً، أدباً لها على عُقوقهـا الصريـح من جهة، وليعلم «قمبيـز» من جهة أخـرى أنك لم تَضَنّ بها عليه، وهي متى أبصرت جماله في جلاله، ونظرت إلى حسن شبابه

(١) المقة: الحب.

(١) يعني الله تعالى.

في إقباله، تترك ما هي فيه الآن، وتضع يدَها في يده فرحةً سعيدة بالقران.

فانيس، مقاطعاً: إن قول الوزير هذا قد يُعجبك الساعة، وأنت يا مولاي غضبان مُستشيط، ولكننا ما رأينا قطّ مَلِكاً أكره آبنته على زواج، تُفضِّل هي الموت عليه، ولا سمعنا بمَلِك سامح في شَمَم نفسه، فأراد آمرأة لا تريده، فلئن رضيت يا مولاي أن تكون ذاك الصِّهر، فإن «قمبيز» لن يرضى أن يكون هذا الزوج.

الملك: هذا أمر ننظر فيه بعد.

الكاهن الأعظم: وما لنا يا مولاي لا نستنبىء الآلهة عمّا يُزعجنا من أمرنا في ديارنا وأنفسنا، عسى أن ينفعنا سؤالهم، أو نجد على هياكلهم هُدى، على أن الأمر يا مولاي من الشُّؤون العالية، التي لا يُلجأ فيها إلا إلى رعايتهم السامية، كما هي أحكام الدين، وسنة الفراعنة الغابرين، وليس من مصري، من أي طبقة من طبقات الأمة، إلا ويَتَّهم الملك في دينه، أو يعزو الضعف كل الضعف إلى يقينه! وقد آن يا مولاي أن تبرِّىء نفسك، وأن تعرف للآلهة كرامتهم، فإن الرعية لا تكون في وَقار الملك حتى يرجو لها الملك في دينها وقاراً، فإن جَنَحْت يا مولاي إلى زيارة الأرباب، فأبواب المعبد مفتوحة لك بِتَرْحاب، ونحن معشرَ الكهنة ما زِلنا أركانَ هذا البيت وعماده، وقوائم هذا العرش وأعضاده، نذكر لملوكنا الحَسنات، ونتجاوز لهم عن كثير من السيئات.

الملك: كل هذا أنا به مُحيط أيها الرئيس العزيز، بل أنا أعرف شعبي كما أعرف آبني «ابسمتيك» ولكن المصلحة الكبرى، تضطرني أحياناً إلى إمهال المصالح الصغرى، ومخالفة العامة في كثير من أهوائها المتطوِّحة، وأميالها المتناهية، على أنني ذاهب يوم عيد الموتى إلى المعبد لأدعو له «سايس» الأعظم فيما يحرجني من أمر «قمبيز».

الكاهن الأعظم: إن المعبد يا مولاي دارُك، فليس بِدْعاً أن تُشرق فيه

أنوارك، والآن آستوهب الإذن لأذهب فأبشِّر أصحابي بهذا الوعد الكريم.

الملك: ذلك لك.

فدعا الكاهن الأعظم للمَلِك وآنطلق، وعلى أثره سائر الجماعة واحداً بعد واحد، مستأذنين كذلك منصرفين.

الفصل الحادي عشر

الملك وحده

فلما خلا المَلِك إلى نفسه تصوّرت له وجوه الحال مغبرّة كالحة، وتمثل له الأمر كثير العقبات، مُريب العواقب، خطيراً في الداخل، جَلَلاً في الخارج، يزيده حرجاً وشدّة قلّه المعونة معه، وكثرة المَواجد فيه. فأنَّى ذهب الفكر بالمَلِك وجد حوله عداوات لا يَدْرِي كيف يتَّقيها، ولا من أين يلتقيها، الفُرْس ما يضمرون، وأهل مصر الساخطون، والكهنة الحاقدون، واليونان المسلطون. وبِنته العاقّة وما في أمرها حيلة. ولا إلى تأديبها وسيلة، إلى غير ذلك من مكاره الأمر وشدائده.

وأوّل ما بحث الملك في نفسه عن رَجُل يكون الساعد والمساعد، والعون على جَوْر الأداني والأباعد، ينتقيه من مواضع ثِقة الأمة، ومحالّ ولائها واعتبارها، ليجعله رقيباً على «فانيس» في إدارة شؤون الجيش، وتدبير مهامٍّ الدفاع، حتى إذا صلح لهذا الأمر قُطْباً، وصار القائد الكافل سلْماً وحَرْباً، عزل الوزير اليوناني وولّاه مكانه، إلاّ أنه لم ير من الحزم مفاجأة «فانيس» بهذا التحوّل السريع، من الثقة العمياء إلى سوء الظن وإعلان العداء.

ولقد جدّد الموقف ذكر «تيمان» في بال المَلِك، فتذكر حسن سيرته في الجيش، وجليل سوابقه في خدمة القصر، ووجاهته عند الشعب منذ حرب «قبرص» وما أظهر فيها من ثبات ضُربت به الأمثال، وبسالة قَصُر عنها

الأبطال، وهو يومئذ حَدَث لم يدخل في صَفّ الرجال. ففكّر المَلِك بادىء بدء في وظيفة يسندها إلى «تيمان» يكون فيها عند أعلى الدَّرج، ليس بينه وبين قيادة الجيش العامة إلاّ وثبة، فصمّم على أن يعهد إليه قيادة الفِرَق السلطانية في «منفيس» العاصمة الصغرى للمملكة، وأن يعيّن قائد «منفيس» اليوناني حارساً للمَلِكة اليونانية وآبنتها الأميرة، اللتين بلغ به السخط عليهما إلى الرغبة في نقلهما إلى «نقراطيس» لتُقيما في قصره الفاخر بها، بعيدتين عن عينه بقدر بُعْدهما عن قلبه.

وبالواقع آستدعى الملك على الفور الحارس «تيمان» فلما مَثل بين يديه كاشفه بنيَّته، ثم ما زال به حتى أقنعه بأن الأخطار، وهي تتوعَّد المملكة من الداخل، وتتهدّدها من الخارج، توجب عليه النُّهوض بالمنصب الخطير، الذي يرشِّحه له، وأنه مُرسله إلى «منفيس» لمحو نفوذ اليونان منها، وتقليص ظل سلطتهم عنها، فلم يسعِ الفتى إلاّ القبول، مقروناً بشكر الملك على هذه الثقة العظيمة.

ثم إن «أمازيس» دنا من «تيمان» وقال له: لا يمضي أسبوع يا «تيمان» حتى يكون سيفي على رقاب أعدائي في «منفيس» أما خَلَفك فيها فلا أشك في أنه سيبتهج بالوظيفة الجديدة، التي اخترتها له، لأني عاشرت اليونان وصادقتهم أكثر من ثلاثين سنة، فعلمت أنهم يحبُّون الأُبهة والظهور، ويلذُّ لهم العيش في ظل شاهقة القُصور، وليس أوسع من قصر «نقراطيس» فليذهب إليه غير راجع، والآن أكلِّفك يا «تيمان» أن تتوجَّه الليلة إلى القصر القديم، فتُسرّ إلى «إحيا» أنني قادم عليه منكّر الهيئة، في خلال هذا الأسبوع، لأكلِّم الأميرة على خلوة في شأن هامّ فلا تفجؤه زيارتي، وليبذل الجهد في كتمانها عن الجند هناك، وليكن الباب السرِّيّ الذي عنده مفتاحه مهيَّأً لي، أدخل منه حين أشاءُ. قال الفتى: سمعاً وطاعة، ثم أذِن المَلِك له في الانصراف، فخرج وهو يكاد يسقط مغشيّاً عليه من ذِكْرَى حديث الملك، وما تضمَّنه من الرغبة في إبعاده عن «سايس» أولاً واحتيال «أمازيس» على

زيـارة «دلّ» ثانيـاً، فمـا زال يجهـد الفكـر في التمـاس سبب يبني عليـه هـذه الزيارة، فلا يجد لهـا مبنى ولا معنى، هل يـريد المَلِك بـذلك أن يجني على حياة الأميرة؟ كلاًّ، إنها لا خَطر من جانبها فيُخشى من بقائها على قيد الحياة، هل أصبح «أمـازيس» مشغوفـاً «بدلّ»؟ هـذا أمر بعيـد الاحتمال، فـإن للملك شؤونـاً من الأهمية بمكـان، وأيسرهـا يلهيه عن لَعِب العشق، وسفـاه الغرام، هذا فضلاً عن تقدّمه في السن، وظهـور دلائل الضعف عليـه. فهل للسيـاسة علاقة بهذه الزيارة؟

كلا؛ إذ ما للأميرة وللسياسة؟ وهي طفلة ناعمة بلهاء تكاد تجهـل كيف وُلـدت وكيف نشـأت. إذن؛ فمـا مُـراد الملك من الـزيـارة؟ ولمــاذا يحـاول كتمانها؟ وما ذلك الباب السرّيُّ الـذي مفتاحـه عند «إحيـا» وحده؟ وكيف بلغ من ارتفـاع الكُلفة بين الملك والبُستانيّ أن يستخدمـه في جمعه بفتـاة عذراء ليكلّمهـا على خلوة؟ كان «تيمـان» يلقي على نفسه كـل هذه الأسئلة، فتَنكُـل عن الجواب في جميعها، حتى كادت الهواجس تَطِير بُلبّه، إلا أنه تصبّر ورأى الحزم أن يَثق بعَفاف المَلِك الشيخ، ورجاحة عقله، حيث ذهب به الـظنّ في آخـر الأمر إلى أن «أمـازيس» ربما أراد بهـذه الزيـارة أن يعترف لفتـاة السِّجن بجنايته، وأن يستعطفها وهو يدنو من الأجل، لعلها تدعو الآلهة ليغفروا له ذنبه العظيم.

الفصل الثاني عشر

تيمان في القصر القديم

فلمَّا كان الليل خرج «تيمان» تحت مَدَارع الظلماء، قاصداً القصر القديم، ليؤدي الرسالة الملوكية، فذكر في الطريق أن الليلة من ليالي أستاذه التي تجب له الزيارة فيها، وأنه لا بأس في أداء هذا الواجب قبل الذهاب إلى «إحيا» وتبليغه مقالة الملك.

ومما قوّى عند الفتى الرغبة في إيثار شيخه على «إحيا» بتقديم الزيارة آرتباكه في أمره، وتحيُّره كيف يقابل البستاني بدون أن يشعر أحد بمجيئه إلى القصر، أو يسمع بحديثه مع «إحيا» كما أمر الملك.

وإذ كان الروح هو «لتيمان» مرجع، وإليه المشتكى والمفزع، قدّم زيارته وهو يرجو أن سيجد الهدى على هيكله المقدّس، فأقام من فوره الجَواد في أقصر الطرق، نحو ناحية الهِرّ الهائم، حتى بلغها، فاجتازها، إلى منزله، وهنالك نزل عن الفرس، ثم دخل فأشعل المصباح ولَبِس للعبادة لباسها الذي تقدّم ذكره.

حتى إذا استقبل الستار كالعادة، ترنم بتلك الدعوات، ثم أردفها بهذه الكلمات، وهي:

شَيْخِي لقد حِرْتُ والهُدَى هُدَاكْ . فإن لم تَكُنْ لي فَمَنْ لي سِوَاكْ

أَرشِدني كيف أدخل القصر وحدي، وكيف أجد «إحيا» وحده لأبلغه مراد الملك وقَصده.

فقاطعه الصوتُ يقول:

«أهلاً بالحَيران القاصد، لا المشتاق العابد، ومرحباً بالزائر وفي نفسه حاجات، لا المُطيف الراغب في المناجاة، «تيمان» آسمع وعِ، من صدق مشى على الماء، ومن أخلص، رَأى بعين السماء، ومن كان الوفاء سبيله، لا يعدم الحيلة، ولا يخطىء الوسيلة، وقد كلّفك الملك ما تستطيع، فكن الرسول الأمين المطيع، وآمض فيما به أُمرت، ومن أجله سِرت، فالرأي عند العمل، والحاجة أم الحِيل، والضرورة مفتاح مغالق التدبير، والصدق يُنير لك الدَّياجير، والإقدام يذلِّل الأمر العسير.

ثم انقطع الصوت، فبرح الفتى حُجرة الهيكل، وهو لم يأخذ من الروح جواباً، يرجع في التدبير إليه، أو يعتمد في العمل عليه، فخرج هائماً على وجهه، ينهب الأرض والفكر ينهبه، إلى أن اقترب من القصر القديم، فترجّل ثم نظر حوله، فرأى شجرة ملتّفة الأغصان، متكاثفة الأفنان، فساق الجواد إليها، ثم ربطه لديها، وتركه بعد ذلك ومشى نحو القصر، حتى دخل في ظِل جدرانه العالية، فجعل يُطيف بها وقد سهل له الإقدام تسلُّقها، لو أيقن أن ذلك يوصله إلى «إحيا» بدون أن يدري أحد به، أو يسمع بحديثه مع البستاني.

فبينما هو كذلك تطوف به القدم مرة ويطوف به الفكر ألف مرة، لمح شبح إنسان يقترب من جدار خلف القصر، وكأنما يحاول أن ينفذ منه، فتبعه «تيمان» موارياً عنه عيانه، وهو لا يحققه لبعده عنه من جهة، ولحيلولة الظلام بينهما من جهة أخرى.

ثم لم يكن من ذلك الشبح الطائف إلا أن نقل حجراً عظيماً من حجارة الأساس، فانفتح له مدخل فدخل، و«تيمان» على أثره، فما زال يمشي في سرداب مظلم ضيِّق طويل، حتى بلغ إلى آخره، فرفع بكلتا يديه حجراً مثل

الأول، فتهيَّأ له مخرج فخرج، فصار فوق ظهر الأرض، وتخلَّف «تيمان» فلم يَحْذُ حَذْوه في الخروج، بل اكتفى بأن رفع عينيهِ ليَخْبُر الحال، وإذا آخر السرداب أول الغُرف الخاصة برئيس المَخْفر، ثم إذا هو برجلين يتهاديان تحيّة اللقاء، فحقّقهما فعرفهما كليهما، وإذا أحدهما رئيس المَخْفر نفسه، وهو ذلك اليوناني الذي خَلَف «تيمان» على حراسة القصر، والآخر الأمير «جادي» ابن شيخ العرب «منجاب» زعيم القبائل الموالية على الحدود، وكان الملك قد طلبه من أبيه فربّاه في «سايس» بنعمته، ثم ألحقه بمعيَّة وليّ عهده، فأصبح من حُجّابه المقرَّبين.

فاندهش «تيمان» من رؤيته بتلك الحال، إذ لم يكن يعلم عليه السوء، ولا يعهده إلا من صفوة المخلصين لوليّ العهد، الساعين في نجاح العنصر الوطنيّ وفلاحه، ثم إن الفتى أنصت يستمع للرجلين، فسمع «جادي» يقول لليوناني:

إن الرئيس «فانيس» يأمرك أن تسهل «لتيمان» الدخول في القصر والخروج، وأن تتعامى كلَّما احتال على مقابلة الأميرة، لأن من مصلحة اليونان أن تصبح «دل» شغل «تيمان» الشاغل، حتى إذا قيده الغرام بقيوده الحديدية، صار من السهل إذلاله، والفتك به عند الحاجة.

فأجابه اليوناني، وهو يتبسم: ومن مصلحة الرئيس «فانيس» كذلك أن يخلو له وجه «فتنت» إذا اشتغل «تيمان» عنها بسواها. مساكين أهل العشق، وأعذرهم المحبّ غير المحبوب.

جادي: هذا شأن الرئيس، وهو من خصوصياته التي يتصرف فيها كيف يشاء، والآن أبلغك عنه أيضاً أن تسهر على البستاني «إحيا» فتتعرف أخباره وأحواله، وتحيط بجميع حركاته وسكناته، وأن تعرض للرئيس كل ذلك في حينه، فأجاب اليوناني، سمعاً وطاعة، ثم انتقل الرجلان من هذا الحديث إلى غيره مما لا يهمُّ «تيمان» ولا يفيده، فرأى الفتى أن ينقلب آيباً قبل أن يُباغته «جادي» فانثنى يحبو في السرداب، وبينما هو ينسلّ منه احتكت رجله

بأوراق، فظن بادىء بدء أنها قد سَقطت منه في أثناء مروره، فأخذها وجعلها في صدره، ثم آستمرَّ في خروجه حتى آجتاز النَّفَق، فصار خارجَ القصر كما كان، فرفع عينيه ينظر، وإذا هو بإنسان قائم لدى الجُحْر، وكأنما ينتظر خروجه، فأجفل الفتى لأول وهلة، ثم هم باغتيال ذلك المتربّص، فاقترب الرجل منه، وقال له: وهو يخفض من صوته:

إن كان لك ثأر عند «إحيا» فتعال بنا يا سيدي «تيمان» نتوارى ريثما يخرج ذلك الجاسوس الأحمق.

تيمان: أنت هنا يا «إحيا» ترى وتسمع؟

إحيا: نعم يا مولاي، ولكنك رأيت ما لم أرَ، وسمعت ما لَم أسمع، فلعلك وقفت على أمور ذات بال؟

تيمان، وهو يتبسم: وأهمّها ما له علاقة بشخصك يا «إحيا»..

إحيا: شخصي! وما لهم ولبُستانيّ حقير مثلي؟

تيمان: كفى مغالطة يا والدي «إحيا» واعلم أن رجلاً يبعث الملك إليه الرسائل، وينفذ الرسل، لا بد أن يحسب الأعداء حسابه.

إحيا: أي رسائل؟ وأي رسل يا مولاي؟ وهل بلغ من شأني؟ إنك مازح يا سيدي «تيمان» أو أنت تسخر من «إحيا».

تيمان: بل أنا أحد أولئك الرسل، وما يدريني أنني لست أوَّلهم، ولا آخرهم؟

إحيا: وما تريد مني؟ وفيمَ أرسلك الملك؟

تيمان: كلفني المَلِك أن أبلغك أنه يزورك في خلال هذا الأسبوع، وهو يأمرك أن تجمعه بالأميرة، بدون أن يشعر أحد من ناس القصر بمُقابلته لها.

إحيا: ما أيسر ما طلب الملك، فارفع إليه أن الإشارة بلغت إليّ، وأنني

سأمضيها بالأمانة والطاعة، والآن قُل لي يا مولاي: ماذا يهم «جادي» ورئيس المَخْفِر من أمري؟

تيمان: بل أمرك يَهمُّ الرئيس «فانيس» وهما إنما يعملان بإشارته، ويجتهدان في خدمته، فكن على حذر من اليوناني، وآعلم أنه مأمور أن يُحْصِيَ عليك حركاتك وسكناتك.

إحيا، وهو يتبسم ضاحكاً: ومَن أمره؟ أذلك العربي اللئيم، وأنا لو شئت الآن لأضللته في سراديب لا يخرج منها حتى اليوم الآخر، أم «فانيس» وأنا لو شئت لألّبت عليه خُطوباً لا طاقة له بها، ولكني أنظر إليهما صبيّين يلعبان لعبة الاستخفاء، أضحك منهما مرة وأستهزىء بهما أخرى.

تيمان: أنت إذن رجلٌ ذو شأن يا «إحيا».

البستاني: لعلك أحد أبناء الملوك يا سيدي «تيمان» فإن فيك كثيراً من أخلاقهم التي هذا منها، فلقد عهدتهم لا يعرفون مِقداراً لأحد من الناس.

تيمان، وهو يتنفس الصُّعداء: ليتني أحد أبناء الصعاليك يا «إحيا» فأعرف على الأقل والديّ، لكني أجهل نسبي، ولا أدري مَن أبي؟ فتَّحْتُ العين على وجه شيخي الموقّر، ثم لم أعرف لي من عائلة سواه، وطالما وعدني حيّاً، ولا يزال روحه المقدس يجدِّد لي الوعود، بكشف اللِّثام عن سرّي الخفيّ.

إحيا: إذن، فعليك أن تصبر، وأن تدأب فيما تتطلّع إليه من العظائم، وهنالك تنظر، فإن كان النسب وضيعاً قلت: ها أنا ذا، وإن كان رفيعاً قيل: عظيم من عظيم، وكريم للوجود من كريم، فهل ترى أن الشيخ أخطأ الصواب حيّاً، أو جاوزت مرائيه الحكمة ميتاً؟

تيمان: لعلكما كليكما على الحق في أمري، والآن. . .

إحيا: الآن تُمسك عن الكلام، لأني أرى كلب العَرب يُخرج رأسه.

فسكت «تيمان» والتصق الرجلان بالجدار يستتران، وإذا هما «بجادي» قد خرج من النَّفق ناشطاً، خفيّ الدبيب، فأعاد الحجر إلى مكانه، فامتزج بالجدار كما كان، ثم انطلق يعدو، وكأنه النسيم خفةً وسرعةً.

وعند ذلك التفت «تيمان» إلى البستاني وقال: الآن أسألك يا والدي «إحيا» أن تذكرني عند الأميرة، وأن تجعل عِرْضك وقاءً لعرضها الطاهر، وشيخوختك فداء لشبابها الناضر، وإني لواثق من حنانك ووفائك، بقدر ما أنا ممتلىء اليدين ثقة من كرم الملك وعفافه، هذا رجائي إليك يا «إحيا» وقد بلّغتك الرسالة الملوكية. فها أنا مودعك وذاهب.

إحيا: في حفظ الآلهة يا بُني أنت ومن تُحِبّ.

الفصل الثالث عشر

تيمان في أثر جادي

زَيَّن حُب الاستطلاع «لتيمان» أن يقتفي أثر «جادي» في تلك الليلة الدهماء، ولقد كان وهو يحادث «إحيا» يتقصى النظر، ليرى أي طريق يسلك العربي، فلما ودّع البستاني وانطلق، عمد تَوّاً إلى مربط الفرس تحت الشجرة، وكانت في الطريق التي سلكها «جادي» وإذا بالقرب منها شجرة أخرى، وقد صدر عنها العربيّ ممتطياً جواداً، فارتقب «تيمان» ريثما آبتعد ثم ركب هو أيضاً جواده، وسار خلف «جادي» يقتفي أثره.

لكنه ما لبث أن استشعر تغيّراً في مشية الجواد وحَجمه، فحقّقه في الظلام فإذا هو حقيقة قد تبدّل، فأدرك الفتى على الفور أن «جادي» قد غَلِط في الشجرة فأخذ جواد «تيمان» كما أخطأ هو شجرته فأخذ جواد العربي.

وبينما هو في التأمل والعجب من هذا الاتفاق افتقد «جادي» فلم يرَ له في الظلام شبحاً ولا خيالاً، فعلم أن عينيه قد ضلّتا أثره، وأن البحث عنه تحت سماء الليل تعب بلا فائدة، فصمَّم على الأُوبة مكتفياً بما شاهد في تلك الليلة من الأمور الغريبة، والأسرار العجيبة. وعندئذ جذب بعِنان الجَواد يريد أن يُقيمه في الطريق نحو القصر السلطاني، وإذا بالجواد عصيّ العِنان، يأبي إلا أن يسلك طريقاً آخر، فلم يجد «تيمان» من بأس في مُطاوعة الحيوان على سلوك ما اعتاد من الطُرق، وانتياب ما ألِف من المَحالّ، فأرخى عِنانه

ثم ركضه، فجرى يَنتجع به دُروباً لم يسبق له المسير عليها، إلى أن وقف به على باب دار شاهقة البنيان، وهي تملك الفضاء من كل الجهات، وكأنها معمورة من جانب واحد، كانت أنوار المصابيح تنبعث منه ولا تَتعدّاه إلى سواه، من أرجاء الدار الوسيعة، فداخل «تيمان» الريب من أمر هذا المكان، خصوصاً إذ كان الجواد ينجذب إليه كما تجذب الدوابّ مرابطُها، فآلى على نفسه أن لا يبرحه إلا وهو قد آطلع على طَرف مما يجري فيه من الحوادث، ويقع من الأحوال، فنزل من فوره عن صهوة الجواد، ثم رجع به قَسْراً مسيرة بضع دقائق، إلى أن صادف في طريقه مكاناً خَرِباً، قد آنهار منه جداران وبقي الآخران قائمين، فعمد لأحدهما فاتخذ عنده مربطاً للفرس، ثم انثنى متوجِّهاً وجهة القصر، وهو خفيف الخطو من حِذار ورقبة، حتى اقترب منه، فشرع يطيف به من كل جهة، لعلّه يهتدي لمَنفذ يَلِج منه، أو يجد سلماً يطلع القصر عليه.

وبينما «تيمان» في مُرْتَبك أمره، سَمِع نَقل أقدام، ولمح زُمرة تتقدم في الظلام، فاختبأ عند ركن جدار، وتربص هنالك يتقصّى النظر ليرى، فإذا بالشِّرذمة تقترب من الدار، ثم إذا بها تتقدم نحو الباب، حتى صارت بمرأى من «تيمان» ومسمع، فحقَّقها في الظلام واحداً ثم واحداً، فعرف أكثر القادمين، وإذا هم جميعاً من الرؤساء اليونانيين في الجيش، وهم ثَمِلون يَمِيد بهم السُّكر، ولقد كان «لتيمان» دهشاً أن رأى مع القوم ثنتين من قرينات الملكة، وخادمات الملك الخاصات بقصره، المأمونات على سرِّه، وكانتا كلتاهما يونانيتين كذلك، فحين رآهما الفتى على تلك الحالة من السكر والانطراح بين سواعد الأعداء، كاد يَنصعق من شدة الحزن، إلا أنه تجلّد وأنصت لما يجري بينهم من الحديث حالَ دخولهم الدار، فسمع «فانيس» يقول:

كيف سبقنا «جادي»؟ وكيف قطع المسافات من قصر وليّ العهد إلى القصر القديم إلى نادينا في مثل هذه البرهة القليلة؟ حقاً إنه لعربي، وإنه لأخف من النسيم.

فأجابه آخر:

لا عجب بالأمر، فقد وجدنا جواده بالمَربط يكاد يَسبح في عرقه، ويختنق بأنفاسه المتردّدة السريعة.

فقالت إحدى الفتاتين:

أما أنا فلا يهمني إلا شيء واحد، وذلك أن حبيب القلب حاضر، وأني سأجده في أعلى السلم بآنتظاري...

قال «فانيس» بلسان تعقده بِنْتُ الدِّنَان:

ما أوفَر حظك أيتها الفتاة السعيدة: فيا ليتني أملك من «فتنت» ما يملك «جادي» منك، فلا والآلهة الذين أعطوني ملك «أمازيس» أتصرَّف فيه ما حَسَدت في عمري إلا محبّاً يحبه محبوبه، وإن هما لم يتلاقيا مرة، فكيف إذا اجتمعت لهما النعمتان: من هوى مشترك وتَدَانٍ؟

قال ثالث:

لن تنالهما يا «فانيس» حتى يهلك النذل «تيمان»...

ثم انقطت الأصوات، وآحتجبت الأشباح، واحتوت الجميع الدار، فوقف «تيمان» حيران لا يدري ما يصنع، للتوصل إلى حضور هذا المجلس الذي كلُّه أسرار تهمُّ المملكة، وتذكر الخطر الذي هو فيه من إمكان حضور «جادي» على أثر أصحابه، ووجدانه الفرس بالمربط كما وجدوه هم قبله، وعندئذ يعلم الجميع من وجود الجواد بلا فارس أن سارقه جاسوس لا محالة، وأنه مختبىء على المكان، فيبحثون عنه جهدهم، فإن لم يجدوه في الليل عرفوه في الصبح بجواده، ذلك الجواد الذي أخذه «جادي» غلطاً.

فأراد «تيمان» أن يكون بطل الليلة، والظافر الحقيقي فيها، فاكتفى بما بلغ إليه عِلْمه من أحوال القوم، وما وقعت عليه يَدُه من مكاتيب أحدهم، وهو الملف الذي سقط من «جادي» في السرداب، وعثر هو مصادفة عليه، فعمد من فوره إلى مربط الفرس لدى الجدار، فحلّ وِثَاقه ثم مشى به يتولّى إلى

ناحية لا تراه الأعين عليها، وهنالك أقام يرمي بالبصر، ويتقصّى النظر، فلم تكن برهة قليلة حتى أخذت عيناه شبح فارس يقبل في الظلام، وهو يقصد نحو المربط المعهود حتى بلغه، وهنالك نزل عن جواده، ثم أوثقه ومضى عجلاً إلى أصحابه بالدار، فأمهله «تيمان»، ريثما آبتعد قليلاً، ثم رجع بالجواد إلى المربط مُسرعاً، وهنالك نظر وإذا الفرس الذي تركه الفارس به وسار هو فرسه، فآستبشر بذلك وسرَّ كثيراً، ولم يبق في نفسه شك أن ذلك الفارس هو «جادي» وأنه إنما حضر ليجتمع بأصحابه اليونان، وحينئذ امتطى «تيمان» جواده الكريم، وخرج من معترك تلك الحوادث سالماً به.

هذا حديث «تيمان» ونحن ندعه الآن يسير عائداً إلى المدينة، ليتدارك بقية الليل بالنوم فيها آمناً مطمئناً، وننظر في عجيب ما كان من أمر أولئك اليونان، وذلك أن «جادي» دخل عليهم رَدهة الاجتماع، فوجدهم سُكارى، وكان هو أشد منهم سُكراً من غير مُدام، فقامت إليه خليلته تمازحه وتغازله كالعادة، وتكثر له من العتاب، وتتهم وداده، وهو لا يلتفت إليها، ولا يقبل كعادته عليها، فانثنت غضبى ترْغي وتُزْبد، وتتهدد وتتوعد، ودخل سائر الحضور في الأمر، فاندفع «جادي» يُحدثهم حديثه من أوله إلى آخره، وما أخذه من القلق حينما رأى أن الجواد الذي أخذه لم يكن له، وأن جواده هو لا بد أن يكون قد وقع في يد جاسوس مهين، أو عدو للحزب كمين، فاستبعد أصحابه وقوع مثل هذا الأمر، وذهب أكثرهم إلى أن الحادثة بسيطة لا تستوجب كل هذا القلق والجزع، وأنه لا خوف عليهم منها ولا فضيحة، إذ لا بد لهم أن يهتدوا إلى آخذ الجواد غلطاً فيستردوه منه، فإن كان ذا شأن اعتذروا عن وجود الجواد قريباً من القصر القديم، بكون «جادي» قد أنفذ عليه خادمه في بعض الشؤون الخصوصية، فضلّ الخادم الطريق، فاضطر إلى تركه هناك والاقتراب من خفراء القصر ليسألهم عن الطريق الأقصد، ثم عاد فأخذ ذلك الجواد غلطاً مكان جواد مولاه.

فسكن جأش الفتى عند سماع هذا الكلام، وذهبت عنه الوساوس

والهـواجس، فضحك بعـد عبوس، ثم تهـافت على الشراب والـطعام ظمآن نَهِمـاً، يجمع بين الكـاسات، ويتـدارك ما فـات، من الطرب واللذات، حتى سـاوى أصحابـه أو داناهم في درجـة السُكر التي كـانوا عليهـا، وهو في هـذه الأثناء يستعطف خليلته ويعطف عليها، ويعذرها ويعتذر إليها، إلى أن أخرجـه «فانيس» من السكرين: سكر الهوى وسكر المدامة، بأن سأله قائلاً:

هل علم رئيس المَخْفِـر يا «جادي» كيف يفتح الأبواب من الآن فصاعداً «لتيمان» أو بعبارة أخرى، هل علم أننا إنما نـريد أن نـوسع لـه الشرك لنـوقعه بعد ذلك فيه؟

جادي: نعم، صار هذا في عِلمه، وأخذ على نفسه تحقيقه.

أحد الحاضـرين: إني أرى الحوادث تَجِـدّ، ونحن نعربـد بإزائهـا كما نعربد، الآن بين الدِّنان، وبين هذه الغانيات الحسان.

يوناني آخـر: وأنا أيضـاً أوافق على هذه العبـارة، وأرى أن هذه الحِيلة من التدابير الجليلة، ولا يُجعل التراب في طريق العارض الهَطِل ليصده، فإن أردتم دوام ما أنتم فيه من النعمـة، فاجتهـدوا أن لا يمضي شهر إلا وأنتم قـد فتكتم بوليّ العهد و«تيمان».

فانيس: قد كان هذا قبل أن تجري الأمـور في مجراهـا الحاضـر، فقد كنـا بالأمس نلتقي عـداوة الأمة ونتقي أحقـادها، بمـركز الملك نفسـه، واليوم المَلِك مـع الأمـة علينـا، يؤيـدهمـا الكهنـة الـذين طـالمـا حُلْنـا بينهم وبين «أمازيس» أن يصادقهم أو يصادقوه، فإن كان ولا بد مما تشيران به، فـإن ذلك لا يكون إلا باستعمال الحِذق المزيد، والحزم الشديد.

جادي: أما «تيمان» فأصحـابنا في القصـر القديم يتكفَّلون لنـا به، وإذا قتل في القصر، وعَلم الشعب أن قتله كان بسبب الأميرة، وفي سبيـل هواهـا، احتقره ولعنه مَيتـاً، ولم ينهض أحد لـطلب ثأره، ولا يبقى سبيـل إلى اتهامنـا بـدس الدسـائس لإهلاكـه. وأما ولي العهـد فتتكفَّل لكم بـه، «ماتيلد» - اسم

الفتاة الثانية ـ والتفت إليها متبسماً.

فانيس: هل تستشعرين من نفسك المقدرة على هذا العمل الخطير؟ وهل في وسع هذه اليد الناعمة أن تتحوَّل ثعباناً يَنْفُث السمَّ القاتل، حين هذا الفم الباسم، يناول شُهد الغرام.

فما كاد «فانيس» يستتمّ حتى تنفّست الفتاة الصُّعداء، وقالت، وبوادر الدمع تنحدر على خديها:

قد كان لكم غِنًى عن تذكيري حالة ينتهي إليها الشقاء في الغرام، غَرّتكم كما غرتني ابتسامات من«أبسماتيك» كان الفؤاد ينفتح لها، كما تنفتح الأكمام للندى المتساقط، فتأخذه منتعشة به مشرئبة إليه، حتى وقعت في الهوى، وعرفت مثلكم أسباب الغرام، ولكني آبتليت بفخور قاس مستكبر، لا يلبّي دعوة الجمال إذا دعا، ولا يلين ولا يخضع لسلطان الغرام، ولا يدين، همّه في اليونان يعاكسهم ويناوئهم، ويريد أن يهدَّ كيانهم، هذا وأنا لا أرى لي من ذنب لديه غير كوني يونانية، ولولا أن للعشاق قضاء يرجعون إليه لخاصمته، ليعلم أن العشق شريعة لا أنساب فيها ولا أجناس، ولا تفرق بين أحد من الناس.

فانيس: إذاً فالأمير لا يُحبّك بل أنت التي تحبّينه.

ماتيلد: نعم، أنا التي تتنافس في حبه جوارحي وجوانحي، مع علمي علماً حقيقياً أنه يبغضني بغض العَمَى، ويرى القبر أحسن منظراً مني.

فانيس: وأنا أيضاً أحب «فتنت» حب الجبان الحياة، مع علمي بأنها مشغولة بغيري، مشغوفة بسواي، فنحن إذن متساويان في البلاء، ولكني لا أبكي وأنت تبكين مُرَّ البكاء.

وفي هذه الأثناء كان «جادي» يلاطف حبيبته ويلاعبها، ويسترق منها الاذن في السَّفر إلى الحدود إجابة لطلب أبيه، ويعدها أنه لا يتغيّب عنها أكثر من شهرين، ويفهمها أنه إن لم يفعل وقع في حبائل سُوء الظن من جانب

وليّ العهد لأنه أذِن له في السفر، ويعتقد أنه سافر هـذا اليوم، فـإذا علم بعد ذلـك بوجـوده في «سايس» أسـاء به الـظن، وصدق أحـاديث الوشـاة عنـه في المستقبل، فاقتنعت الفتاة مضطرة لا مختارة.

وكـان الليل قـد ذهب أكثر من نصفـه فهمّ الملأ بـالانصراف، حتى إذا صاروا خارج الدار، وهم لا يملكون لأقدامهم وزناً، من شدة السكر، قصدوا إلى ذلـك المكان الخَرِب يلتمسون دوابهم عليـه، فـاتفق أن «جـادي» افتقـد أوراقـه في الطريق فلم يجـدها، فـأفـاق للحين من سكـره، وأعلم أصحـابـه بالخبر، فاهتزُّوا له اهتزازاً، وكلَّفوا واحداً منهم أن يـرافق «جادي» فـلا يتركـه حتى يعثرا على الأوراق المفقودة.

ثم تقدم كلٌّ فأخذ دابته، إلا «جادي» فإنه صـرخ صرخـة دوَّى صداهـا في القضـاء، وهو يقـول: افتضحنا! ظفـر بنا الأعـداء! وقف وليّ العهـد على خيانتي! انتقم مني «أبسمتيك». .

فـازدحم الجماعـة عليه دهشين مـذعورين، يسـألون عن الخبـر، فقال لهم: هـذا جوادي قـد رُدّ إليّ، ومـا ردّه إلا الـذي أخـذه أولاً، فهـو لا شـك جاسوس ماهر، وعدوّ مقتدر، عـرف أين كنت في أول الليل، وأين أنـا الآن، ولا أظنه إلا قد سرق مني أوراقي، فيا للخيبة! يا للفضيحة! يا للعار!

فنزل هذا الخبر على الجميع كـالصواعق الصـاعقة، وعلى الخصـوص «فانيس» فإنه أفاق توّاً من سكرته، وعلم يقيناً أن أعداء اليونـان يَقْوَوْن، وأنهم يَنْصِبُون الشراك له ولحزبه في كل ناحية، إلا أنه تجلّد تجلُّد الرجال، والتفت إلى «جـادي» فقال: إنـك تبـالـغ يـا «جـادي» في الحـادثـة، وإني أعـدك أن سأكشفها على ما فيه رضاك وسلامتك، وأمنع وقوع أمثالها في المستقبل.

جـادي: ولكن لا بد لي يـا مولاي أن أسـافر في الصبـاح إلى الحدود، لأن وليّ العهد كما تعلم يعتقد أنني مسافر.

فانيس، مقاطعاً: أعلم بذلك، وأرى أن تعجيل السفر الآن أوجب، لما

فيه من نَفْي الظن عنك، فيما وقع لك الليلة، فسِرْ في كَلاءة السماء، وآعلم أنني لاحق بك بعد أيام، وسأجتمع بك هناك، فاستغرب أصحاب «فانيس» هذه العبارة، وسألوه بلسان واحد:

أنت تلحق به؟ ولماذا؟

فانيس: ربما دعاني إلى ذلك واجب التفتيش العسكري.

ثم لم يزدهم على هذا الجواب، بل ضغط على يد «جادي» وهو يصافحه، كأنما يُسرّ إليه باليد ما يَعْجز عن إسراره باللسان، وآنطلق الجميع بعد ذلك آيبين كلٌّ إلى مأواه.

الفصل الرابع عشر

يوم أغر وليلة بيضاء

كان يوم عيد الموتى في «سايس» سعيد الفجر للمَلك، ميمون الصبيحة للأُمة عموماً، مباركاً للكهنة على الخصوص. خرج المَلِك في ضُحاه إلى الزيارة الموعودة، زيارة المعبد الأكبر معبد «فتاح» إله المدينة، وحامي حِماها، وكان قد سبق خروج المَلِك إلى الأهالي خَبَرَانِ عنه لم يُسَرُّوا بأطيب منهما مدَّة حكمه الطويل: أحدهما صدور أوامره بآنتقال زوجته اليونانية إلى القصر السلطاني، «نقراطيس» لتُقيم به هي وحاشيتها إقامة مستمرة، والآخر تعيين «تيمان» قائداً عاماً «لمنفيس» العاصمة الثانية للبلاد، ونقل السَّلف اليوناني فيها إلى «نقراطيس» حارساً لذات الملكة، فلا تَسَلْ عن آبتهاج الشعب بهذه الأنباء، التي أنسته ذكر ما كان من جفوة «أمازيس» له، ورفعت لِلْمَلِكِ في القلوب منازل، فكانت الأمة في آستقباله لِسَاناً واحداً يهتف قائلاً:

صفحاً «لأمازيس» عن هفواته، إذ كان هذا اليوم من حسناته، وما أعجل الشعوب إلى الرضا والصفح، وما أقرب ما تُذهب الحسنات عندهم السيئات! لا سيما في معاملة الملوك. يجور المَلِك عاماً ويَعدِل يوماً، فيُغْفَر العام لليوم. يسيء الملك ألفاً ويحسن واحدة، فتذهب الحسنة الواحدة بالسيئات الألف. يبخل الملك دهراً ويجود ساعة، فلا يُقاس به جواد ولو أنه حاتِم القُصاد[1]. لعمري، إن نِعَم الله على الملوك كثيرة، ولكن هذه أجلهنّ.

(١) حاتم: من أجواد العرب قديماً.

خرج، «أمازيس» إلى زيارة المعبد بين وُجوه متهلّلة، وقلوب ضاحكة، وأيد مبسوطة بالدعاء، وألسن منطلقة بالثناء، فكان يوماً مشهوداً، ليس له في تاريخ المَلِك ثانٍ إلا يوم التولية.

فحين بلغ المعبد خفّ الكهنة لاستقباله، واستبقوا على قَدَمٍ في إكباره وإجلاله، وقُرِّبت القرابين الغالية من عنده، ومن عند وليّ عهده، ثم دخل الحُجرة الخاصة به من حُجر الهيكل، هيكل «فتاح» إله الإقليم، وهنالك خلا المكان له وللكاهن الأعظم، فوقف هذا الأمير موقف العبادة، واستقبل المعبود الأكبر، ثم قال:

«أيها الأمير الأعظم، والأب الأرأف الأرحم، هذا الملك «أمازيس» آبنك وفتاك، وأمينك على رَعاياك، قد جاءك يخشع لديك، ويضرع إليك، أن تُلهمه وترشده، وتُعزّه وتُؤيده، وأن تنير بصيرته فيما يُجيب به «قمبيز»، ويدفع به البَلاء عن الوطن العزيز». فكانت هُنيهة سكون وسكوت، ثم سمع من جانب الهيكل صوتاً يقول:

«تحمل إلى «قمبيز» «نيتيتاس»، مكان بنت «لادياس»، وتهجر الملكة اليونانية وبنتها العاقّة الشقيّة، ويُبحث عن سُرَّاق الموتى من القبور، ثم يُعدمون بمرأى من الجمهور، فإن فعل «أمازيس» نجا ونجح، وإن لم يفعل انخذل وانفضح».

ثم انقطع الصوت، فلبث الملك والكاهن الأعظم هنيهة مبهوتين صامتين، ينظر أحدهما إلى الآخر، كأنما يتساءلان: كيف تُسرق الموتى من القبور؟ ومن السارقون لهم؟ وكيف الاهتداء إليهم؟ ثم خرجا من السكوت، ودخلا في الكلام: فقال الملك:

لا تَخف أيها الرئيس ولا تَحزن، وثِق بحَزمي وعَزمي في البحث عن الجُناة مُهيني الأموات، ولكني محتاج إلى عَضُدك في هذه المَهمة، وأرجو أن لا تخونني.

الكاهن الأعظم: الكهنة ورئيسهم ساعدك القويّ في هذا وغيره يا مولاي، فثق بإخلاصهم، وصِدق طاعتهم، وآسع بجهدك كلِّه في كشف دَخيلة هذا الأمر، الذي ستقوم له الأمة وتقعد، ولا ترجع عن المُظاهرة والمطالبة، حتى تأخذ ثأر الموتى، ولو فنيت عن آخرها.

ثم خرج الرجلان يخترقان صفوف الكهّان، إلى أن صارا خارج المعبد، وهنالك آستلم الشعب بالمركبة السلطانية يستصرخون، «أمازيس» ويستغيثون به ويصيحون: يا للملك رُدّ إلينا موتانا، إِئْتنا بالمجرمين نرتوي من دمائهم، أين مزعجو الأرواح الخالدة؟ أين مُهينو الأجسام المقدسة؟ ليكشف الملك عن الأمة هذا العار، ليرفع الملك غَضب الآلهة عنا، لا يكون الجناة إلا من اليونان، اليونان سرقوا موتانا، آقتلوهم، افتكوا بهم، اشربوا دماءهم، إلى غير ذلك من العبارات التي دلَّت الملك على أن الشعب في غايات هِياجه، وان الحادثة جسيمة لا يمكن السكوت عنها.

فركب وهو يلاطف الأهالي، ويوهم أنه أحدهم في التأثر مِن هذا الأمر والاهتمام به ويعدهم بإظهار الحقيقة، وتسليم الجناة إليهم في القريب الممكن من الزمان، ثم سارت به المركبة عائدة إلى القصر، وهو يستغرب الأمر، ويسائل نفسه، كيف ذاع هذا السر وبلغ إلى الجمهور، وهو لم تمض عليه دقائق، ولم يجاوزه، هو والكاهن الأعظم؟ فلم ير للأمر وجهاً يحمله عليه غير كون الكهنة يتقلدون أمضى أسلحة المكر والدَّهاء للحَملة على اليونان، وتأليب الأهالي عليهم، وإن لهم في ذلك مآرب لا يَضُرُّه قضاؤها، فدخل القصر وهو مصمِّم على مجاراة هذا التيّار الجديد، الذي أقامه الكهنة فيه ليقضوا على اليونان القضاء الأخير.

هذا ما كان من حوادث ذلك النهار، الذي تكشَّفت فيه العداوات، وتجلَّت للفريقين العظات، وانقلب الصديق عدوّاً! وعاد العدو صديقاً مرجوّاً، وردَّ إلى الأُمة ملكها الشيخ بعد حُكم طويل آستأثر اليونان بخيراته، وضربوا على أيدي المصريّين أن تأخذ من طَيِّباته.

فلما كان الأصيل لم يخرج «أمازيس» كعادته إلى النزهة، بل لزم القصر، وأرسل إلى ولده الأمير «أبسمتيك» يستدعيه، وهذه أول مرَّة لجأ الملك إلى مشورة ابنه الشاب ومعونته، في مداورة الشُّؤون الخطيرة، وأخذ الحيطة للمواقف الحرجة، بعد أن كان يداري فيه اليونان، فلا يجتمع به إلا عن كُلفة أو تورط، لعِلْمه أنهم يمقتونه أشدَّ المَقت، ويتهمونه بمعاكسة نفوذهم في السّرْ والجهر، فصار من الواجب علينا إذاً أن نعرِّف القارىء من «أبسمتيك» الذي هو منذ اليوم فتَى البلاد وواحدها، وملكها في الحقيقة، والذي لم يدعه والده إلا ليتخذه عصاً شيخوخته، وصولجان صَولته.

«أبسمتيك» شاب جاوز الثلاثين في ولاية عهد البلاد، وهو في نسبته إلى الملك عصاميٌ من جهة والدته الملكة المصرية، وعِصامي من جهة أبيه الملك «أمازيس» وقد عرف من أول يوم بالتعصُّب لجنسه، والظهور في كراهية اليونان، الذين طالما سلّطوا عليه شيطان إغوائهم وخداعهم، فأعيا ورجع بخُفَّي حُنَين، فشرعوا حينئذ يَشُون به لدى أبيه الملك، ويظهرونه في العيوب، ويخلقون له الذنوب، حتى انحرف عنه بثقته ومِقَتِه، وهجره إلا ما يوجب المقام ويقتضي صِلة الأرحام، فلم تؤثِّر هذه المعاملة شيئاً عند الأمير الشاب، ولا زحزحت من أخلاقه، التي كان الشعب يُعجب بها، ويثبته فيها، ويتهافت عليه بأمياله وآماله. وكان الأمير جميل الصورة، قوي الجسم، لم يَفْسُد، ولم يتبع الهوى، ولم يُطَوِّح بشبابه الثمين إلى موارد اللذات، التي ملأ اليونان يومئذ منها البلاد، ليفسدوا فيها، وكان على سُنَّة الكثيرين من الفراعنة قبله، تمسُّكاً بالدين المصري، وغيرة عليه من أن تُشْرِك البلاد به ديناً سواه، فلذلك كان الكهنة أيضاً من حزبه، وكانوا يجتمعون به، فيأخذ من أدبهم وتجاربهم، وينتفع بعلمهم، وهم يومئذ مدينة العلم وبابها، حتى أصبح صالحاً للأمر، وأصبح الأمر صالحاً له، ولم يبق إلا أن يُعِينَ والده الشيخ على مهامّه في الحياة، أو ينهض بمتاعبه كلها إذا أدرك «أمازيس» الممات.

دخل «ابسمتيك» على أبيه، وكان حديثه معه على خَلوة، فقال الملك:

آعلم يا بنيَّ أني ما صادقت اليونان كل هذه السنين الطويلة، ولا حالفت «ساموس» بعد أن صاهرت ملكها «بوليقراط» إلا وأنا أحسب لِغَدر الفُرس حساباً، وانظر إليهم عن مستقبل مملوء من الفتوح والغارات، فأردت أن أجعل لمصر صَولة في البحر، وقوّة في البر على قوتها، باتخاذ «بوليقراط» حليفاً لها، وبذل صفوف الرعاية والمُجاملة لسائر الشعوب اليونانية، لكي يكون لنا من مجموعها مُدَافِع وظهير، في المستقبل. واليوم خاب ما كنت أرجو، وكان ما خِفت أن يكون، خاب ما كنت أرجو من نُصرة الحليف لحليفه، ووفاء الصديق بعهد صديقه، وقيام الصِّهر بحقوق صِهره، حيث غدرني «بوليقراط» بإعانة الفرس عليّ، حتى لقد علمت يقيناً أنه عاهد «قمبيز» أن يَمده بسُفن من عنده، متى عقد العزم على مهاجمة مصر. وعقّتني حفيدة «بوليقراط» التي هي بنتي من صُلبي، عقوقاً بيِّناً لا أنساه لها، ولا تغفره لها السماء، وكان ما خفت أن يكون من اتّساع مُلْك الفرس وامتداد صولتهم الوحشية، وطموح مَلِكهم الجبار، إلى الاستيلاء على هذه الديار، فالآن أشكو إليك يا أعزَّ البنين أن ما أَمَّلْتَ قد فات، وأن العناية خَذَلت أباك في أصعب الأوقات، وأنه قد صار شيخاً كبيراً لا يقوى على حَمل أعباء الأمور، في مثل هذه البرهة العَسراء، لا سيما وأن بي داءً ما زِلت أكتُمه عن الناس، وفيهم أمك الملكة وضَرّتها اليونانية، حتى أصبح كتمانه شديداً لا يُستطاع، ولقد وَدِدْت لو نزلتُ عن العرش وجلستَ أنت عليه، لكني أرى الساعات سوداً، وأشفق على حُكمك أن يَبتدىء فيها، فأنا أترك لك العمل وأستبقي لنفسي المسؤوليّة، وقد أشار الآلهة عليَّ اليوم بما كنتُ قد صمّمت عليه من زفاف «نيتيتاس» بنت «أبرياس» إلى «قمبيز» كأنها بنتي، وأنا ذاهب إليها الليلة وحدي لأفاوضها في هذا الأمر، فإن هي قبلت به زففناها إلى «قمبيز» ولم يبق ما نخشاه، إلا أن تنكشف الحقيقة لطاغية الفُرس، فنكون قد غَنِمنا الوقت الكافي لتحصين الحدود، وتهيئة الجيش لدفع الطوارىء المُستقبلة، وإن هي رفضت لم يَبق إلا أن نستعد للحرب، والنصر بيد السماء، تؤتيه من تشاء. وسأنهض الليلة بهذه المَهمة، وهي آخر عمل لي

في سياسة هذا المُلْك، الذي يشهد الآلهة أني خدمته ثلاثين عاماً أو أكثر، أنشر العدل، وأحقن الدماء، وأجلب لرعيّتي الرفاهة والرفاء.

ثم عَقدت العبرات لسانَ المَلِك، فأمسك عن الكَلام، وأثّرت شكوى الوَالد في قلب الولد، فاغرورقت عيناه بالدمع كذلك، ولم يزد في الجواب على أن قال: الولد يا مولاي بارٌّ، والعبد مُطيع، والآلهة جديرون بأن يحققوا رجاءنا، ويؤمّنونا من خوفنا على البلاد، وإشفاقنا على صاحبها العظيم.

الفصل الخامس عشر

الملك في القصر القديم

فلما كان المساء نَكر الملك زيّـه، ثم خرج ممتـطياً متن جـواد، يقصد إلى القصر القديم، حتى بلغه، وهو يأتيه من غير بابه، ويتقي أن يشعر به أحد حسب الاتفاق بينه وبين «إحيا» فإذا هو بالبستاني في انتظاره، وقد عرفـه لأول وهلة، فتقدم لديه وقبّل الركاب، فتلطف لـه «أمازيس» في التحيـة، وسأل عن أمره ثم قال:

هل بلغتك رسالتي يا «إحيا»؟

إحيـا: بلغتني يا مـولاي، وأديّتها كمـا هي: فالبـاب السـريّ منفتـح لجلالتك، والأميرة مستعدة لسماع مقالتك.

فنـزل الملك عن متن الجـواد يمشي، والبُستـاني يتبعه آخــذاً بشكيم الفَـرَس، وهو يهـدي مولاه الـطريق، إلى أن بلغا البـاب السّـريّ، فـاستـأذن «إحيـا» في التخلّف لحراسـة الباب، وإمسـاك الجواد، ودَخـل الملك وحـدَه فسارعت «دل» إلى آستقبالـه ناشـطة لتحيّته وإجـلاله، ثم مشت خلفـه، حتى صادف حُجرة منـارة، فدخـل فيها وجلس، ثم أشـار للفتاة فجلست كـذلك، وآبتدر بعد ذلك خطابها فقال: أتأذنين يا «نيتيتـاس» أن أعرض عليـك صَنَعين أنت بهما كليهما خلقاء.

الأميرة: وما هما يا مولاي؟

الملك: الأول أن أتبنّاك لعلي أن أكَفِّر بذلك بعض ما وصل إلى بيتك من جُوري وغدري.

الفتاة، مقاطعة مغضبة: أما هذا يا مولاي فلا، وأنا في غِنًى عن هذه المِنّة وعن أختها، إن كانت من نوعها.

الملك، مستغرباً دهشاً: علام الغضب أيتها الأميرة، وأي بأس ترين في أن أكون أباك وتكوني بنتي؟

الفتاة: لا ينبغي لقاتِل الوالد أن يتبنّى الولد، كما لا ينبغي لثعبان آفترس حمامة أن يَحْضُن صِغارها، وبَطْنه ممتلىء من الأم، فإن قبلتُ يا مولاي مِنَّتك التي تعرضها عليّ كنتُ أولى باللُّؤم منك بالكرم..

الملك: تعلمين أنني لم أقتل أباك، ولكن الشَّعب قتله، ومع ذلك فلا يزال دمه مُنِيخاً فوقضميري،عابثاً براحتي، يُعذبني في الحياة، ويتهدّدني في الممات، فرفقاً يا «نيتيتاس» رفقاً بهذا الشيخ الكبير، وآرحمي رَجُلاً في مخالب المرض الأخير، لم يبق له في هذه الدار الفانية سوى أيام يقضيها، بين عذاب المرض ووخز الضمير، ولا يُسَهّلها عليه غير صَفحك وغُفرانك، فآغفري له تَغْفِرْ السماء لك ولأبويك، ولا تَضنّي عليه بمفاتيح الدار الباقية فإنها في يديك، ولا يجدها إلا لديك. ثم إن «أمازيس» لم يتمالك أن بكى جزعاً وآتفاقاً، فأثّر هذا المشهد في الفتاة تأثيراً عظيماً، وعطفت على الملك، فأقبلت عليه تسلِّيه وتُلهيه، ثم قالت: أُشهد الآلهة يا مولاي أني غفرت لك، وأسألهم أن يَغْفروا لك كذلك، وأن يكونوا لك في ضَعفك وفي مرضك، ولكني لا أُسيء إلى أبي المسكين من حيث أحسن إليك، فلا يسعني البتة أن أقبل التبنّي الذي عرضتهُ عليّ.

فنهض الملك حينئذ، وكان لم يملّ المَلَوان قامته[1]، فقبل جبين الفتاة

(١) الملوان: الليل والنهار.

وضمها مرتاحاً شكوراً، ثم قال: الآن ألقى الآلهة بنفس آمنة مطمئنَّة، وأما أنت يا بنت الملوك، فيفديك «أبسمتيك» وتفديك اليونانية اللَّعينة، وإن لم تقبليني أباً، والآن أعرض عليك الأمر الثاني، وآمل أن لا يكون له نصيب الأول من الامتناع، وذلك أني أريد أن أزوجك «بقمبيز» صاحب الوقت، وملك ملوك «فارس» و«ميديا». .

الأميرة: «قمبيز»؟ صاحب الوقت؟ ملك ملوك، فارس، وميديا؟ بنتك يا مولاي أولى بهذا التَّشريف، وأحق بهذا الفخار، فكيف آثرتني بهما عليها؟ ولم لم يوجه «قمبيز» الخطبة إليها، إني أراك تدبِّر حيلة. ولا بُدّ للأمر من دخيلة. فآرتبك الملك بادىء بدء في أمره، ووجم هنيهة لا يُحير جواباً، ثم أدرك أن هذه النفس العالية الشريفة، لا ينفع معها إلا الصدق، وأن مثل هذا الذكاء النادر لا يمكن أن يُخدع، فأقبل على الفتاة يحدِّثها الحديث من أوله إلى آخره، ويفصّل لها الحوادث تفصيلاً، وهي مطرقة تُصغي بأذنيها للمَلك، وتصغي بالقلب «لتيمان» وكأنها تقول لمحدِّثها: قل ما شئت، وبالغ ما شئت، فما دام في الأمر زواج «فتيمان» ينهى عن ذلك، وما لا يريده الحبيب لا يكون أبداً، إلى أن فرغ «أمازيس» من كلامه، ولم يبق إلا جواب الأميرة، فخرجت من الإطراق وقالت: لا حاجة بي إلى الزواج الآن يا مولاي، وهب أنّ لي فيه حاجة، أليس الأولى بالنظر لحالك، والعمل على راحتك، بنتك التي لها عشرون سنة، تدعى بنت الملك، وتنعم في جنة من مُلك أبيها، ممتعة بالحال والجاه الفخيم، وسائر صنوف النعيم، فمن الظُّلم إذاً وقد رفضتْ طَلِبتك، وعَصت أمرك أن تسومني الرِّضا بما لم ترض به، وأنا لستُ منك، ولا حقوق لك عليّ، فأُسأل عن راحتك. وأُطالب بحفظ مصلحتك.

فحين سمع الملك هذا الجواب، أظلمت الدنيا في عينيه، وأطرق برأسه مشتَّت الفكر، حائر البصيرة، لا يدري ما يصنع، حتى ابتلاه الموقف بكلمة أخيرة قالها، وهو يتوقع أن يكون لها في الفتاة فِعل المنوّم القدير في المزاج المستعدّ، حيث قال:

اعلمي يا «نيتيتاس» أنه لو كان المقصود سلامتي الشخصية ومصلحتي الخصوصية، لكنت أول من يُسامح فيهما ويضحيهما ولا يبكيهما إذ ليس لرجل مثلي قادم على الموت، أن يأسى على فقد شيء، ولو كان ملك البسيطة، لكن هناك مصلحة أخرى هي أكبر وأهم، وسلامة هي أعلى وأعمّ، مصلحة الوطن الذي أصبح ولا مَناص له من الضياع ما لم نُدار الفرس فيه، ومداراتهم لا تكون إلا بإجابة «قمبيز» إلى ما طلب، وسلامة البلاد التي يخشى إن هي وقعت في مخالب الضبع الفارسيّ أن لا تقوم لها بعدُ قائمة، وهذه المصلحة وهذه السلامة كلتاهما بين يديك، إن شئت صنتهما، ولو إلى حين، وإن شئت قذفتهما إلى حالق.

فلما أتمَّ الملك كلماته، اضطربَت «نيتيتاس» منها، وآهتزَّ وجدانها العالي، وكادت عاطفةُ حب الوطن تَظهر عندها على سائر العواطف، ويتغلّب هوى الأوطان على هوى «تيمان» لو لم تَعِنّ لها ملاحظة لم تَرَ بُدّاً من إبدائها للملك، فقالت: ولم لا تكون «فتنت» هي المحافظة على مصلحة الوطن؟ الحافظة لسلامته؟ وهي بنت ملكها وصاحبتها، وأول من يمسُّه الضرّ إذا أصيبت مصر بسوء.

الملك: لأنها يونانية، ولأن. . .

الأميرة: كفى أيها الملك، كفى، فقد قبلت أن أَفدي بلادي، ووطن آبائي وأجدادي، لعلي أُظهر لرعاياي أن الدم الذي سفكوه من نحو ثلاثين سنة لا يزال حياً، ولا يزال زكيّاً.

وعلى أثر هذا القبول الصريح آستشعرت الفتاة كأن الأرض الفضاء تَدور بها وأحست كأن في صدرها ناراً، فاتكأت على الكرسي بين الصحو والإغماء، والدمع ينسكب من عينيها، فتركها الملك على هذه الحالة، وخرج وهو يَقُول لها: آذْكُري، يا «نيتيتاس» أنّك قد وَعَدْت، وأنّ بَنَاتِ الفَرَاعِنة إذا وَعَدْنَ صَدَقْن.

ثم آنْصَرَف جَذْلَانَ فَرِحاً ببُلوغ المَرَام.

الفصل السادس عشر

العتاب

ولم تَمْضِ هُنَيْهة على خُروج «أمـازيس» من الحُجرة وآنْصِـرَافه، حتى شَعَرَت الأَمِيرة بيدين تُمْسِكان يديها اللَّطِيفَتَيْنْ، وفم يقَبِّلهما تَقْبِيلاً، ودَمْع صار يَسِيل فوقهما مَسِيلاً. وشَمَّت في هـذه الأثناء ريحاً طَيِّبة لا من العِـطْر ولا من الـزَّهْـر، آشْتـركت الحَـوَاسّ جُملة في التَّمتُّـع بـه، وآنْتعش منـه الـوجْـدان، فآنتبهت الفتاة من إغمائها ونَظرت، فإذا هي بتيمان قد جَثا لَدَيْها. وخَبأ رَأْسَـه في يَدَيها، يَبْكي ولا يتكلَّم، ويَخْفِق قلبُـه، ولا يتحرَّك جِسْمُـه، فحينَ أَيقنت أنَّ الجِسمَ جِسْمُ الحبيب، وأن الرأس رَأسه النافِحُ من غير طيب، أَقبلت عليه تُقبِّله وتَملأ ثوبَه من لُؤْلُؤ دَمعها الرَّطِيب. فكان مَشهداً تَمِيد له جِبال الحَدِيد، ولا يَقْوى عليه فُؤادُ الشَّهِيد:

جَثَـا لَـدَيْهـا وأَذْرى الـدَّمْـعَ نـاظِـرُهُ ... وعــاتَبَتهـا بــأن قــالت مَحَــاجِــرَهُ

يـا دَلُّ هـذا الهَــوَى إنْ كـان أوّلــه ... مــا قَــد رأيتُ فــدُلِّي كيف آخِــرُهُ

وَعَـدْتِ بـالقَلْبِ مُلْكـاً ليس يَمْلِكـه ... ولَـيس تَبـلُغـه يــومـاً عســاكِــرُهُ

هَبِيـه قَـمْبيــزَ أو قِيــرُوشَ والــدَه ... فـإنّ تيمَـانَ يــومَ الـرَّوْع قــاهِـرُه[1]

فـأَطْـرقت خَجَـلاً من عَتْبِـه وجَــرَى ... دَمْــعَ النَّـدامــة لا تَـرْقـا بَــوادِرُه[2]

---

(١) قيروش: يريد كورش والد قمبير.

(٢) لا ترقا: أي لا ترقأ، بالهمز: تسكن وتخفف. وبوادره: أول ما يقطر منه.

تَقَبِّلُ الـرَّأْسَ من تيمـان تـائبـةً عن ذَنبهـا وحبيبُ الـقَلْب غـافِـرُهُ
كـأنـما فَمُهـا في شِعْـرِ عـاشِقهـا (خَمْـرٌ يُخـامِـرُهـا مِسْـكٌ تخـامِـرُهُ)
تَقُـولُ تِيمـانُ مـاذا كُنْتُ صـانِعَـةً وهَـلْ يَـرُدُّ قَـضَـاءَ الله حَـاذِرُهُ
لَكَمْ لَـدَيّ هَـوًى والقَلْبُ حـافِـظُهُ وللبِـلاَدِ هَـوًى والقَـلْبُ نـاصِـرُهُ
إنْ لم يَكُنْ وَطَنٌ لِي في الهَوى ولَكَمْ فـأيّ دَوْح الهَـوَى تَـأوِي طَـوَائِـرُهُ[1]

وبعد هُنَيهة أفاق العاشقان كلاهما من سَكْرة هذا العِتاب، وعِتَاب هذه السكرة فنهَضا فَلَبِثا هُنَيْهَةً أُخْرَى يَنْظُر كلاهما إلى صاحبه ولا يتكلّم، إلى أن نَطقت بادِرَة الفَتاة بأنْ قالت:

مِنْ أين يا تِيمان، وأين كُنْتَ ساعةَ ذلك الكَرْب العظيم؟

تيمان: من حيثُ لا أعلم يا مـولاتي، لكنِّي عَلِمْتُ أن المَلِكَ آتٍ إليكِ في هذه الليلة ليُكَلِّمك على خَلوة، فطاش منِّي اللُّبُّ، وطار بي القَلب، حتى رأيتُني هنـا خَلف هذا الستـار، أُشهد مـا شَهِدْت، وأُسمـع ما سمعتُ، فليتَ القَـدَمَ قُطِعَت فلم تَسْـعَ، وليت العَيْنَ عَمِيَتْ فلم تَرَ، ولَيت الأُذن صُمَّت فلم تَسمع، ويا ليتني مِتُّ قبل هذا وكُنت نَسْياً مَنْسِيّاً.

دل: قُضِي الأمـرُ يا تيمـان، ووَعدت بنتُ الفَـراعنـة، وهي إذا وَعـدت وَفت، ولكنّي أقسم لـك بِـدَم أبي الـزَّكِيّ: إني كمـا حَفِـظْتُ عَهْـدَ السَّـريـر الـذي أَعَـزَّ آبـائي وأجـدادي نحـوَ ثـلاثمـائـة عـام، أُحفظَ عَهـدك، فـلا تَمْسَسني يـدُ قَمبيز، ولا يَقـع فَمُـه على خـدٍّ لي ولا شَفَـة، حتى تكـونُـوا قـد آستعددتُم لقتاله، ورَفَعت الحربُ أَوْزَارهـا بَينه وبَينكم، وحينئـذ إما أن تُنْتَصَـر مِصر فأَمُوتَ راضِيَةً مَسرورة، أو أَرْجِعَ إليها وإليك فرحةً فَخورة، وإمّا أن تَدُور على الوطن الدَّوائر، فلا يكون المُلْتقى إلاَ فى الدار الباقية.

فلما سمع تيمـان هذا القَسم العـظيم من هَذا المَلَك الكَـريم، آرتفعت الفتاة مَنازلَ في فؤاده الكبير وصار هَوَساً وجُنُوناً، ما كان هَوًى وشُجوناً، فوَقع

---

(١) الدوح: الشجر العظام. الواحدة: دوحة.

على يَدها بُقبّلها، والعَينُ تَبُلُّها بدمعها، ثم قال:

شَهِدت الآلهة لو توزَّعت هـذه العواطف السـامية بين البشـر لكانُـوا هم الآلهة، الآن أرى سيفي يَخْطف رَأسَ قَمبيز، بعد أن تخطيت له نِصْفَ مِليـون من المُقـاتلة الأقويـاء والأبـطال، وأرى كفِّي تَنْشُلُك من مَـراكـز القَنـا إن كُنْتِ في الحيـاة، وتقلِّب عنكِ ثَـرى فارس إن كنت في الممـات، فيا ظِـلَّ الآلهـة في الأرض، ومِثَـالَ الفَضيلة والطَّهـارة في العـالَم، ودِّعي من أسـأتِ إلى نفسـك وإليـه، لِتُحْسِني إلى مـلايين من العبـاد، ودِّعي مَن قَتَلْتِ نَفْسَـك وقَتَلْتِـه في سبيل حَياة البلاد. ودِّعي مَن ذهبت بِصَفْوك وبصَفْوه في آسْتِبقاء شَرف الآباء والأجداد، ومُرِي أن يكون بعد هذا الوَداع وَداع آخر، نُجَدِّد فيه هذا المِيثاق، ونَأْخُذ الأُهبة للفِرَاق.

قال هذا وآنثنى يتولَّى، وهُناك ودَّع الصَّبْرُ الفتاةَ، فمالت على مُتَّكأ لها، تَسْكُب دَمْع اليأس، وتَعَضُّ بَنَانَ الحَسْرانِ النَّدِم.

الفصل السابع عشر

الوفد الفارسي

لم تَمْض أيّامٌ على وُقوع هذه الحوادث المُختلفة، حتى عَلِم الخاصّة وبَلغ إلى العامة، أن المَلِك مُلازِمٌ الفِرَاشَ في مَرضه الأخير، وأنّ ولي العَهد قد قام مَقَامَه في سياسة الأمر، وتَدْبير المُلْك، فلم يَخْلُ الأهالي مِن جَزَع على مَلِكهم الشيخ، وإن هم سُرُّوا كَثِيراً برُؤية «ابسمتيك»[1] على العَرش قبل أوان الجُلوس.

وكانت حُكومة الأمير قد تَوَصّلت في هذه الأيام القلائل إلى معرفة اليَد المُسلَّطة على المَوتَى في تَوابيتهم، لِتَسْرِقَ الذَّهب الذي فيها، وذلك أنّ مَرْكَباً شِرَاعِيّاً كان يَخترق النّهر، فعاكسته الرِيح، فَجَنح دون مَعبد مِصْرِيّ على مَسِيرة ساعات من العاصمة، فأَنْفَذ الكهنة مَن يُنقذه، فلما جاءوه وجَدوا فيه تابُوتَيْن مَخبُوءين، وثلاثة من اليُونان، فقبضوا عليهم وساقُوهم إلى الحُكومة لِتُباشِر تحقيق الجِناية، فَشرعت في ذلك حِين هي الخَصم والحَكم، فلم يَكُن يَمْضِي يَوْمٌ بدون أن يُقْبَضُ على رَجُل أو رَجُلين من يُونان الجيش أو المصالح، بتُهْمَة الاشتراك في جَمعيّة سرِّية، اكتشفت الحكومة وجُودَها، وغايتها سَرِقةُ الجُثث المُقدَّسة، والانتفاع بما لَديها من الحُلِيّ النَّفِيسة.

(١) هو ابسمتيك الثالث، ابن أحمس الثاني.

وكـان اليُونـان قد أحسُّـوا بـالشَّـرِّ لأَوّل وَهْلة، وعَلِمُـوا يَقينـاً أنَّ الكَهَنـة والأَمير يَمُدَّان لهم المِصْيَدة، ويُريدان المَكيدة إِثْرَ المَكيدة، وأنهما خَلقا هـذه الحادثة، وبـالَغا في تَجسيمهـا، ليَهِيجَا خَـواطِرَ الشَّعْب عليهم. ثم يَـدفعانهم إليه يَفعل بهم ما يَشاء، فرَحَل فريقٌ عظيم منهم عن البـلاد مهاجِـرين فارِّين، ولَزِم الفَرِيقُ المتخلِّفُ منهم السُّكون التامّ، تِلقاءَ هذه الحوادثِ الجِسَام.

وبينما التَّحقيق جارٍ في مَجْراه، كانت المَمْلَكـة تستعدّ لِتَـرْحِيل الأَمِيـرة وزِفـافِها إلى مَلِك الفُـرْس، ولا تَرْقُب لإتمـام ذلك إلاّ قُـدُوم الوَفـد الأَعْظَم، الـذي أنبـأ بـه رُسُـل قَمْبِيـز، حين أتَـوْا البِـلَاد حـامِلين كِتـابَـه إلى الملك «أمسيس»[1].

وكـانت الظُّنـون قـد آختلفت في مَهمَّـة هـذا الـوَفـد، فمِن النَّـاسِ مَن يَجدها طَبِيعيّة ظاهرةً من نفسها، من حيثُ هي الأليق بمَقام الزَّوْجَين كِلَيْهما، ومِنهم من يرى بها حِجَّة وحاجة[2]، وأنَّ ظاهرها قُدوم النَّفر الفارسيّين ليَرْجِعُوا بعد ذلك مُرافقين رِكاب الأميـرة، وباطنَهـا الخِداع والتَّجَسُّس والاحتيـال على معرفة أحوال البلاد، والوُقوف على حَقيقة قُوتها.

وفي هـذه الأثنـاء لم تَلبث الأخبـار أن وردت على القَصـر من حُكـومـة الحُدود مُنْبِئةً بمجيء الوَفد المُلوكي، وأنّ الحُكومة ومَشيخة القبائـل هناك قـد آشتركتا في آستقباله، وأَجازتاه بعد أَخْذ الحِيْطة الواجبة مع الأجـانب أَمثالِـه، بحيث يَصِحّ أن يُقال عنه: مَرّ وما مَرّ.

ثم ما لَبث الوفدُ نفسه أن دَخـل سايس مؤلَّفاً من عُـظماء رِجـال فارس وكُبراء قوادها، فبالغت حكومة الأمير في آستقباله، وأنزلت أعضـاءه منازلهم، إلا أنها أخذت منها الحَذَر وبـالغت لهم في الرُّقْبى فكـانت تَشغلهم بكثرة عن أن يعملوا عَمَلاً في الخفاءِ، أو يجتمع أحدُهم بأحدٍ من الأعداء.

---

(١) أمسيس: هو اسم الملك أحمس الثاني.
(٢) الحجة، بالكسر، الاسم من الحج. وهذا مثل يضرب لمن يفعل شيئاً ويبغي معه شيئاً آخر.

وقد ضَرب الوفدُ لنفسه سَبعة أيـام، يقيمها بسـايس في ضيافـة المَلك ومُذاكرته فيما يتعلّق بخُروج الأميرة إلى فارس، فكان النـائب عن أمسيس في ذلك كُلِّه ابسمتيك والوزير لاجُوس، مُشير المَملكة السياسي، الذي بقي على عهد الوَلاء للأمة التي يُجاورها، ولبيتَهـا المالـك، وكان الأميـر قد سَكن إليـه بالثِّقة من أول يوم، وطلب إلى والده الملك أن يُشركه في أمرِه، ويَشُدَّ به من أزره، فلَنْدعهما فيما يشغلهما من الأمر، ولْنَنْظُر فيما كَان من أَمْر الآخرين.

الفصل الثامن عشر

الوداع الآخر

كان فانيس أوَّل يونانيّ في مصر آهتزَّ مِن مَرض الملك، وأَخذ بنَصِيب من مَصير الحوادث إلى ما صارت إليه في تلك البُرهة، وإذ كان أَعْدَى عدوّ للأمير، وكان الحُكم قد آنتهى في الحَقيقة إلى هذا الأخير، لم يَبق له من هذه الجهة أمل في خَير، إن لم نَقُل فِرَارٌ من الشَّر. ومن جِهة أُخرى، فإنّ اليأس قد بَلغ به في غرامه بِفتنت، حتى آضطره إلى التَّرك والنِّسيان، لأن الأمير كان قد صيَّر أُختَه لأبيه بحيثُ لا تَقِلّ سُوءَ حالٍ عن السَّجِين، ولا تُمازُ عن الأَسِيرالمَهين. لا تُزَار هي وأُمها كلتاهما، ولا تَزُوران، ولا يكاد شُعاعُ الشمس يَصِل إليهما إلا بإذنه، فلفانيس إذاً العُذر أن لا يَستطيع الصُّعود إلى السماء، لا سيّما وهو يَعلم عِلْماً حقيقياً أن الأميرة تنظر إليه بِعَين المقت وتختصّ تيمان بكُل فؤادها الوَلهان، وممّا زاد فانيس آرتياباً بمَجْرى الأمور، وتخوُّفاً من عواقبها، صَبْرُ الأَمير عنه دون سِواه من بَني جلدته، وظُهورُه له في التلطُّف والمُداراة، فَتمارض من أول يوم، وأوهم أنه مُلازم الفِراش، وأنّ في عِيادة العُوَّاد ما يُتعبه، ويُكَلّفه الجُهد المُضِرّ به، فكانت آمرأتهُ تَنُوب عنه في آستقبال الزائرين، وشُكرهم على الاعتناء بأمر المريض.

هذا من جهة فانيس، أما تيمان، فإن الأمير ما صَدَّق أن آغتنم تَقادُم عهد المرض على اليُوناني فُرصةً لِيستدعيَه، ويجعله مُشيره العسكري بجَنب

لاجُوس، الذي كان قد أبقاه مُشيره السياسي، وبالفِعل كان الفتى لا يفـارق وليٍّ العَهـد إلا حيث يَجب الفِراق، أي في أوقـات الطعـام والمَنـام، وكـانـوا يعلّلون ذلك بمرض الـوزير فـانيس، ووجوب وجـود من يَنوب عنـه في تدبيـر الحَفلات مُدَّة إقامة الوفد الفارسي في العاصمـة، والاستعداد لإخـراج الأميرة إلى بلاد العجم، وما سوى هذين فلم يَبْقَ من يهتم شـأنه إلا دل، وقـد نُقلت من أول يوم إلى القصر السلطاني، ونقلت معها مُربِّيتهـا وصاحبتهـا المُتقدّمتـا الذكر، وجَرى كل هذا وما سَمع أحدٌ به ولا درى، بحيثُ أصبح عامةُ الشَّعب يَحْسَبون أن التي تُزَفّ إلى «قَمبيز» هي بِنت الملك، وأنها قَبِلت بذلك كُرهاً، بعدما أظهر المَلِك الغَضَبَ عليها.

فمـا بَرِحَت دلّ تَحتمـل البَـلاء الـذي أوقعت نَفْسَهـا فيـه، حُبـاً للوطن وآبتغـاءَ إنقاذه ، وهي تُبْـدِي من التجلُّد والأسى مـا لم يُخْلَق إلا للرِّجـال. لا لِـرَبّات الجمـال، ولا تَتسلّى عن ذلك كُلّه إلا بمـا كـان وُجـودُهـا في القَصـر السلطانيّ يُسَهِّل عليها من رؤية تيمان، بين الحِين والآخر، والاجتماع بـه في بعض الأحيـان، وفي حضرة الأميـر للنَّظر فيمـا تحتاج إليـه في السفر، إلا أن الفتاة كانت تَشْعُر على الدوام كأنّ قُوَّةً خَفِيّة تَدفعها إلى زِيارة قَبر والدهـا قَبل الرَّحيل، وقد بَلغ من تسلُّط هذه القُـوة عليها أنهـا كنت تنسيها أهـوالَ ما هِي فيه من الغُدُو على مُفارقة الوطن والأحباب، حتى آضطرت إلى مُكاشفة تيمان بذلك، وآستنزال رأيه في الأمر، فلم يَرَ بَأْساً أن تذهب إلى المَقْبَرة جَهْراً، بل أشار عليها بـالخروج تحت مَـدارع الظلمـاء[1] وأن يكون ذلـك في اللّيلة التي يُسْفِر صباحُها عن يَوم مَسِير المَوكب بها من سايس، وأعلمها أنه يكون هنالك في آنتظارها ليـودِّعها الـوَداع الأخير، فـاستصوبت دلّ هـذا الرأي، ثم افتـرق العاشِقان على أن تجمعهما مَقبرة أبرياس في المَوعد المَضْرُوب.

(١) المدارع: جمع مدرعة، بالكسر، وهي جبة مشقوقة المقدم.

الفصل التاسع عشر

العقد

فلما كان أَوان المَوعد تَحيَّلت الأميرةُ حتى خَرجت من القصر مُتنكِّرة، بعد أن أَفرغ تيمان الجَهد في مُساعدتها على ذلك، ثم خَرجت والظلامُ يُخفيها، وعُيون تيمان تُراعيها، إلى أن بَلغا المَقبرة، وهنالك سَبقها تيمان إلى المَدخل، وكان عليه فارسان من الجند المِصريّين، فأمرهما أن يختبئا حتى تَعْبُر الأميرة، فامتثلا ثم دخلت هي وتيمان بجانبها يَخُوضان ظلام السَّرَاديب والمَضايق، حتى آنْتَهيا إلى الحُجرة التي فيها قبر الملك المَقتول، فاستقبلته دل على قَدم الوَقار والخُشوع، ثم قالت تُناجيه:

أيها المَنزل الباقي المُشرَّف بخير أب في خَير مَلِك، لأَجْلِك أُفارق الدِّيار، وأَرْكَب النار، وأَقْتحم الأخطار. لِيَعلم قومٌ سَفكوا دِماءك، أنّك الوَرْدُ[1] ذَهبتُ وخَلَّفت فيهم ماءك. وأُشْهِدُك كما أُشهد الآلهة أنِّي أَفِي لتيمان كما وَفَيْتُ للأوطان، وأني وَقَفْتُ له الرُّوح والجُثمان، فلا سَبِيلَ لِقَمْبيز عليهما ولا سُلطان.

ثم خانها الدَّمع، وفارقها الصَّبْر، فجعلت القَبر سَنَداً لِجَبينها، ومُتّكأً لِذراعَيْها، ثم آندفعت تَبكي، فصيَّرت الفَتى جِسْماً بغير عَقل، فدنا منها

---

(١) الورد: النصيب من الماء.

فأخذها إليه، فٱعتنقا مُتكلِّمين في السُّكوت، مُتشاكِيين في الصُّموت، وفي هذه الهُنيهة لم يَدْرِيَا إلاّ بِيَدٍ قد مَسَّت رَأْسَيْهما، وكأنما خَشِي من مَدِّها أن تُفَرِّق فيما بينهما، فأُتبعها صوتٌ يقول: «تيمان لا تَخف ولا تَفزع إني أنا الرُّوح».

فلم يَزِدْ الفَتى في الجواب على أن قال: بلسان الدَّهشة والخُشوع: الرُّوح.

الصوت: نعم، رُوح شَيخك، فلا تَرفع رأسك، وقُل «لنيتيتاس» لا تَرفع رَأْسها، وٱبقَيا كما أنتما، وأنْصِتا لما أقول.

وٱنطلق الصَّوت بعد ذلك بأن قال:

«أنا الكاهنُ الأَشوريّ الساحر البابلي، «برمبال» أُقِرُّ في هذه الحُجرة المُقَدَّسة، بأني ٱختطفت الأمير «يوهاشيم» أصغر أنجال الملك «سدسياس» مَلك بيت المقدس، وصديق ساكن هذا القَبر الملك «ابرياس» لأُنجيه من القَتل، وأُرَبيه في الدِّيانة الأشورية، فكانت على يَدِي نَجاتُه دون إخوته وأبيه وسائر أسرته، وإني ٱنتقلت به إلى هذه الديار لآخُذَ من عِلْم المصريّين وكهانتهم. وأتعلَّم الدِّيانة المصرية، كما تعلّمت الدِّيانة اليَهوديّة من قبل، وإني قد كُشِف لي أن يَوْمي مَرْهُون بيوم الأمير، وأن عُمْرَيْنا مَوْصولان بِحَبْل من مَحتوم المقادير، فأردتُ أن نَحْيَا معاً إلى يوم نموتُ فيه معاً، فاختطفتُه وسَيف المَنِيّة على أعناق إخوته الستة، ينزل بها واحداً بعد واحد.

وأني ربّيته صغيراً، وأَدَّبته كبيراً، وسمّيته «تيمان»..

عند ذِكْر هذا الاسم كاد المُتعانقان يَخِرّان صَعِقَيْن لو لم تَجْمُد عُروقهما، فحفظا شَكْلَيهما كما يَحْفَظ الميت شكلَه الذي يموت عليه، ولم يَزِيدا في الاستنكار على أن صَرخا بلسان واحد يقولان: «تيمان».

وٱستمر الصوت، فقال:

والآن أختار لنفسي و«لتيمان» دينه الأول، دينَ «موسى» الأعدل،

وأعْقِد له ببركة النبيّ، وبأعيُن الله العليّ على «نيتيتاس» بنت الملك «ابرياس» عَقداً لا يَحُلُّه إلا الشيطان. إذا سَعى بين الزَّوجين، ولا يَفْصِمه إلا الموت إذا فَرَّق بين الصاحِبَيْن، فآنْهَضا، أنتما في حِلٍّ ممّا يركب الغـرام، ويتطوّح فيـه الواجد المُسْتَهام».

ثم آنقطع الصوت، وآرتفعت اليدُ، فتحرك ذلـك الجسمُ الواحـد، وإذا هو جِسْمان كما كانا، فجعل كلا الزَّوجين يَنْظُر إلى صاحبـه، ثم يَنظُر حـوله، فلا يرى على المكان شَبحاً ولا رُوحاً، ولا يَسمع فيه صوتـاً ولا صَدًى، فلبثـا بُرهة في سَكَر الدَّهش، لا يَستفيقان منه إلى أن ثابت إليهما السَّكينـة وعادت، فاطمأنت بهما الحُجرة الأمينة، وحينئذ عادا إلى ما كـان فيه من عِنـاق، وأخذا الأُهبـة لأيّام الفِـراق، وكان الـوَداع وداعَ الزَّوج لـزوجته. لا العـاشقَ العفيف لمَعشوقته. . . ثم خَتمت طيِّبات هذه الساعة بأن قالت:

آعلم يا مولاي أننا كِلَينا غاديَانِ على جِهاد في سَبِيل هذه البلاد، التي أَنتمي أنا إليها بالآباء والأجداد، وتَعتزي أنت إليها بفَضل النَّشـأة والتَّربـيـة. ومـا أجزلت لـك من الكرامـة والتَّرْقِيـة، فأمـا جهادُك أنت فبنفسـك التي بين جَنبيك. ثم بالجَيش الذي أصبحتْ أزِمَّته في يَديك. وأمّـا جِهادي أنـا فبِحِيَل النِّساء، وما فُطِرْن عليه من المَـكر والدَّهاء، بعد أن سَمحت في سبيل الوَطن بأشياء ما لها ثمن، فمن ذلك الطاعة، «لأمازيس»، وهو كما تعلم قـاتِل أبي، وغاصِب عَرْشي، والسَّـاجِني من المَهد إلى اللحـد، لو لم تَعْـطِفْه الحـاجاتُ عليّ، وتُحْوجه الضُّرورات إلى الرِّضا بفراق هذا الوطن الكريم، الذي أحببتُ فيه البؤس كما أحببتُ النعيم، والذي لو خُيِّرت فيما أريده ما آشتريت «قمبيز» ومُلكـه الكبير، بجُنْـدِيّ مصريّ حقيـر، أُشاطـره عَيش الذَّلِيـل؛ على إحـدى ضِفاف النيل، ثم فِراقَك أنت يا أعفّ العُشّاق بالأمس؛ وأَكرم الأزواج اليـوم، وأبرَّ الآباء غـداً فِراقُـك الذي أُقْسِم بـإله مـوسى، الذي جَمـع بيننا بـرحمته، ويُميتنا على كَلِمته، إنه عذاب أليم، وإنه لنار الجحيم.

إذاً، فأنا مَسُوقة غداً إلى «قمبيز» إمّا في زيّ زَوجة، أو عـدوّ في ثياب

صـديق. وهو لا بُـدّ أن يَطَّلع عـاجـلاً أو آجـلاً على دَخِيلة الأمـر، ويَعْلَم أن «أمـازيس» خَدعـه وغَشّه، فيَثُـور إلى الانتقام منـه، آنتقـامـاً يُـراد بـه نُشُـوبُ المخالب الفارسيّة في أحشاء هذا الوطن، الذي يحـلُم به الفُرْسُ منذ أربعين سنة، فإذا جاء هذا اليـوم الجَلَلَ. فآذْكُـر أنَّ لك في سِجن المُتَبـربرين زوجـةً مُقَطَّعة الأوصال، مُثَقَّلة بالقُيود والأغلال؛ مُعذَّبة بين وُحوش في ثِياب رِجَـال، وأنهـا تُفضِّل يـومئذٍ هـذا الحال. الـذي ينتهي إليه الشَّقـاء والإذلال؛ على أن تَـراك جَبانـاً مَقْهُوراً، أو تَلْقـاك مُسْتَضعفاً مـأسُوراً، فهيّـا «تيمان» آنْـظِم شَمل الجَيش المُبـدَّد، وآجمع قـواه المُتفرِّقـة، وكُنْ بحَـزْمـك وعَـزْمـك، وجْـدَانَـه العالي، وحياتَه الكبيرة، ولا تَنْس في وقت من الأوقات أنّ اللِّواء الذي ستُقاتل تحتـه، تتعلّق به مـلايينُ من الأرواح، بينهنّ رُوحي، فلا تَخْتَـطِفها منـك يـد «قمبيز».

كانت الفتاة تتكلّم والإبـاء الملوكيّ يسمو بـألفاظهـا، والعِزّة الفِـرْعونيّـة تـرفع من ألحـاظهـا و«تيمـان» بين يـديهـا كـالتمثـال المنصـوب من المهـابـة والاستجماع، إلا أن كلَّ جارحة منه أُذُن تسمع وتَعِي، وقـلب يَخفِق تأثراً بهـذه الكلمات التي تنتقـل بأمثالها قلوبُ الأسود، إلى صُدور الجُنود، حتى فَـرغتْ من كلامها، فأخذ الأميرُ يـدها فقبّلها، ثم قال:

عَلِم الله لو لم تعِدِي يا مولاتي، ووَعْدُك الصِّدق، ولو لم تُرْكِبي نَفْسك هذا المَرْكب، الذي يَجْفُل عن مِثْله الرِّجال، وتَخُور دُونَه عـزائمُ الأبطال. مـا رأيتُ للّواء مَن يَحمله في ساحة القِتال غَيرُ هذه اليد، التي يُحـرِّكُها أشـرف القُلوب وأشجعُها، ولكنّ الله الذي رَبط بها يَدِي إلى الأبَد، جَدِيـرٌ بأن يُحقِّق رَجَاءكِ في بَعلْكِ، وأن يجعلَ لِمصرَ منّي لِوَاءً لا يُطاوله لِواء، أو فِداء لا يُذْكَر في جَنْبه فِداء.

الفصل العشرون

حادثة على الحدود

كان الطريقُ بين الشام ومصر، في العهد الذي نحن في الكلام عنه، أو طريق مُلوك آسيا المهـاجمين إلى وادي النيل، ممّـا تَحْلُم بمثله الممالـك، مَحْمِيّاً عن وثَبات الخيل، وثبات الفوارس يبتدىء من «خان يونس» آخر تخوم الشـام، فيمتـد في الصحـراء مَسِيـرةَ بضعــة أيـام، حيثُ لا زادَ إلّا جَـراثيم الحُمّيـات، ولا وِرْدَ إلا ميـاه المُستنقعـات، حتى تَنتهي إلى جهـة «الفَـرمـا»، السُّويس أو ما حَواليها الآن، وهُناك كانت حكومة الحُدود تُنظِّم الـرِّباطـات[1]، وتُدَبِّر الدفاع، وتُعزِّز المَواقع والحُصون.

وكانت تَملك أطراف الطَّريق المُشار إليها من عَهدٍ غيرِ معلوم لنا، قبائلُ من عَربِ البادية المُحالفين فِـرْعون وحكـومته، كـانوا هم مِفتـاح هذا البـاب، ودَلِيلَ كُلِّ مَن سار على ذلك الباب، ولهم شيخٌ أَعـظَمُ تعرفـه حكومـة المَلِك ويعرفها، وتُكاشفه بمسائل الدفاع ويُكـاشفها، وهي التي تُقلِّده الـزَّعامـة على قبـائل الحُـدود، بعد أن تَـأْخُذ عليـه المَواثيق والعُهـود، أن يكون هـو وقومُـه لجلالة الملك مِن أصـدَق الجُنود، ثم يَجُـود عليه المَلِكُ بـالخَيل والسِّـلاح، وتَتوالى عليه نِعَمُ الدَّولة آناً فآناً.

(١) الرباطات: مرابط الخيل.

وقد نيطت هذه الزَّعـامة في أول حكم الملك «أمـاسيس» بشيخ العـرب «مِنْجـاب» الذي تقـدم ذكره في هـذا الكتاب، وكـان من سُلالـة ملوك الشـام التابعين دين «موسى» عليه السلام، عَرفه «أماسيس» قبل أن يعرف المُلْكَ، فـآنعقدت بينهمـا الألفة بـلا كُلفـة، فلمـا أدرك المُـراد من مُلْك البـلاد، قلَّد صاحبَه مَشيخة الأعراب، وهما يَومئذ في عُنفوان الشباب، ثم شابَـا كلاهمـا، والعَهْدُ ما كَبِرَ وما شاب.

وكان قد آلتفّ حول «مِنجاب» مِن العشيرة والأصحاب نحوُ ثمانين ألف مقاتل، من خِيرة العرب ولُباب القبائل، قد تَقـاسموا خـطَط الصَّحراء، فنَـزل فريقٌ في الأحشاء، ومَلَك الفريقُ الأَعظم أطرافها، يَحمون مَداخلها وأَكْنافها[1] فَمدَّت كُلُّ قَبيلة أطـرافهـا، وحصَّنت بـالخَنـادق مَصَـافَّهـا[2]، فـأصبحتْ بهم الصحراء مَنْاطَ الثُّريّا[3] من الأعداء، وصارت حُكومة الحُـدود الحقيقيّة في يَـدِ الشيخ وقَومه الأشدّاء.

وكـان الشيخُ نـازلًا على جَوانب البُحيـرة في طِرَاف[4] هنـالك مَمـدود، تُحيط به طُرُف الرُّؤساء وخِيام الجُنود، وله دِيوان وِلاية يَجلس فيه لِتَـدْبير أمـر القبائل، والنَّظر في شُؤونها المُختلفة، وسَمـاع الدَّعـاوَى. وإصدار الأحكـام، وهو من كُل ذلك في فَضاء من أمـره بإزاء الحكـومة المصـريّة، لا يَـرجع إلى رأيها إلا في مسائل الدِّفاع، أو المُخابرات السِّرّيّة، التي هو أمين بَـرِيدهـا في جَمِيع ما وَراء الحُدود من المَمالك والبلاد.

فبينمـا هو ذاتَ يـوم في مَجلس وِلايته، يَحْكُم بين قَـومـه، تقـدَّم إليـه الحُرَّاسُ بِرَجُلٍ غريب، له شَأن مُريب، وقد أخذوا منه سِلاَحَه، وحَجبـوا نُورَ

---

(١) الأكناف: الجوانب.

(٢) المصاف: المواقف في الحرب، الواحد: مصف، بفتح أوله وثانيه وتشديد ثالثه.

(٣) الثريا: مجموعة من النجوم، والمناط: موضع التعلق، ويقال: هو مني مناط الثريا، أي شديد البعد.

(٤) الطراف: بيت من أدم، والجمع: طرف، بضمتين.

عَيْنَيه بِحِجاب كَثِيف، فخاطبه أحدُهم قائلاً: إن هذا الرجلَ يا مولاي وُجِد على الحُدود، فسألناه مَن هو؟ ومن أين؟ وإلى أين؟ فنَكَل بادىء بَدء عن الجَواب، فلما أرْهبناه بأنواع الوَعيد، أخبرنا أنه رسولٌ من بعض المُلوك إليك، وأنه لا يُحرِّك لسَانَه بشيء إلا بين يديك، فأتينا به نَعْرِض الأمر عليك، قال: اكشِفُوا عنه غِطَاءَه، فَنَزعُوا عن عَينيه الرِّباط، ولم يَبْقَ إلا اللِّثَام، وعندئذٍ قَبَّل الأَرضَ، وبالغ للشَّيخ في الخِطاب، فسأله الأمير قائلاً: ما شأنُك أيها الرجل؟ قال: شأنٌ خَطِير يا مولاي، ولو أذِنت كلّمتُك على خَلوة، قال: ذلك لك، آخْرُجوا الآن يا قوم، فخلا المجلسُ، فأقبل الرجلُ يقول: إنني يا مولاي رسولٌ من الملك قَمبيز إليك: قال: وما يُريد مَولاك منِّي؟ قال: لا تعجل أيها الأمير، وآسمع ما أقول، قال: تكلّم. قال: إنه يَعِدُك أَلَف قِلادة من ذَهب، وألف حُسَام مُجَوْهر، وألف جَواد من أكرم الخَيل. وولاية من ولايات الشام تَختارها فيُولِّيكَه، ورُتْبةَ قائدٍ في جُيوشه المُظفَّرة لواحدك الأمير «جادي» الذي هو أسيرُنا الآن. قال: أسيركم؟ «جادي» آسيركم؟... بأي حق؟ في أية حرب؟ أين وجدتموه؟ كيف آستبحتم أسره؟ وفِيمَ أيها الرجلُ وُعودُ مولاك العريضة الطويلة؟ لعلّك تدعوني إلى الخيانة، عَساك تُساومني في دُنياي وآخرتي بما عَرَضْت من المال، وزيَّنت من الآمال، إذاً فحَذَار من هذا حَذَارِ، وقَبض على سَيفه يُشير به، إنه حُرٌّ يَحمله حُرّ، شَريف يتقلّده شريف، وَفِيّ يَصْحَبه وَفيّ، تكلَّم أيها الرجل وأَوْجِز، قال: مهلاً يا مولاي، إن للحِلْم مَواضِعَ، وهذا منها، فما أنا إلا رسول، إنّ الملك يُنيلك ما ذكرت لك إذا بذلتَ له المُساعدة فيما صَمَّمَ عليه من مُهاجمة وادي النيل، وهي تنحصر في أُمور ثلاثة، كتمان الأمر عن الحكومة المصرية، وهِدَاية عساكر المَلِك في الطريق التي تَحْمِيها، وتَقديم الماء إليهم كلما آحتاجوا إليه فيها، فما جوابك أيها الأمير؟ فما أتمّ الرجلُ عبارته حتى آمتقع «منجاب» وآختضبت لِحيتُه الكَثيفة البيضاء بغَير خِضَاب، وأكْسَبه الغَضبُ في الشَّيب نَشاط الشباب، فآستلّ حُسامه وصاح بالرجل يقول، ما معناه:

بأيِّ جَوَابٍ غيرِ ذا السَّيْفِ تَطْمَعُ وهَلْ دُونَهُ رَدٌّ لمولاك مُقْنِعُ
فعُد يا رسول الغادرين مخيَّباً فما كل من يدعى إلى الغدر يهرع
وأبلغْ عظيم الفرس أني أصدُّه وأحمي على الأيام جاري وأمنع
وما أنا بالباكي على ابني وقتله وعرضي إن يسلم قتيل مضيع
وخير لجادي من حياة بذلَّة ممات إلى أسمى ذرى العز يرفع
وخير لقلبي منه أن ذاق ناره وفاء يذود النار عني ويدفع
أبَعد شباب قد تجمَل بالهدى يلاح لشيبي بالضلال فيتبع
وترغب نفسي في القلائد والغنى وصدري بتقوى الله حالٍ مرصَّع
وأقبل أن أعطى بذلٍّ إمارة فأبني بها جاهي وديني مضعضع
نعم ملك قمبيز ابن قيروش واسع ولكنما ملك الفراديس أوسع

فحين سمع الرسول هذا الجواب وتبين فصل هذا الخطاب أخذه القلق بشرَّ حالة وأيقن أن الشيخ قاتله لا محالة وآنس منجاب ذلك منه فوضع السيف مشهوراً أمامه على منصَّة الأحكام وأقبل يقول للرسول: لا تخف أيها الرجل فإنما أنت رسول ونحن نحمي الرسول كما نحمي الجار فسر إلى مولاك في حفظ الله وكلاءتي حتى تخرج من أرضي. فإذا وفدت على الملك فألق عليه جوابي برمَّته وقل له إني أنصح له أن يكفَّ العداء ويحقن الدماء فما جنح إلى السلم إلا الملوك العظماء. فإن أبي ففينا قوة ومضاء ولنا سيوف ظماء ما لها إرواء. فأطرق الرجل هنيهة ثم قال: أما الحرب يا مولاي فواقعة لا محالة وقد عقد الملك العزم فلم تعد تنجح فيه مقالة. وأما الأمير جادي فإني لا أجد ما أجزيك به عن كرم أخلاقك وجميل عطفك عليّ وإشفاقك إلا خلاصه ورده إليك سالماً سلامة عرضك من العيوب. قال الشيخ بتلهف:

أنت تخلِّصُ «جادي» أنت تَرُد إليّ مُهجة فُؤادي؟ أنت أيّها الرجلُ تبلِّغني مُرادي؟ كيف؟ متى؟ عجِّل، فَوَرَبِّ موسى ما حاجتي إلى «جادي» بحاجة المُشتاق إلى لِقائه، ولا المُتفاني في آستبقائه، ولكنّي أرى الساعة قد آقتربت، وأرى الحرب أدنى من وَرِيد، وأتمثّل من مَوقفي هذا جُنود «قمبيز»

وقـد ملأت أعمـاق الصحـراء، وأحب أَن يكـون آبني بجنبي يَصُـدّ الأعـداء، ويَظهر «لأمسيس» أنّ مَودّة في الآباء يَرِثُها الأبناء، قال الرجل: وإني لا أسألك الجَزاء على إنقاذ ولدك، إلاّ كتاباً بالأَمان لي إلى قِومـك على الحُدود، بحيث يتسنّى لي الـوُصولُ إليـك متى شئت، فإني قـد لا أُفلح في مَسْعاي فيَفْتَضـح أمري، فلا يَعْصِمُني من بَـطش «قمبيز» سـواك، ولا يُنجيني، إلا الالتجاء في حِمـاك، كما أنني قـد أحتاج إلى رُؤيتك مرةً ثـانية، فيما حمَّلتني من الأمـر، وتكون السُّرعة في لِقائك من لوازم النَّجـاح، فأجـد من تعرُّض قـومك لي مـا يَصُدّني عنك، فلا أجيء إلا في الزمَّن الأخير، قال: ذلـك لك، فمـا آسمك أيها الرجل الكريم؟ قال: عبدك «نيدور» يا مـولاي، فأخـذ الشيخ قـرطاسـاً، وآتكأ على المِنَصّة ثم كتب هذه السطور، وهي:

قـد أجزنـا للفارس «نيـدور» أن يَفِـد علينـا متى شـاء، من حيث شـاء، فَلْيعلم رجالُنا ذلك، وليخلُّوا له المَسالك، ولا يُمانعه أحد في الوصـول إلينا، فإنه من اليوم واحدٌ منّا، له ما لنا وعليه ما علينا.

زعيم قبائل الحدود
منجاب

وكان الرسولُ مُشْرِفاً يَنظر، وقد تَحَيَّل حتى أَخذ سيفَ الشيخ، فلمـا رآه قد فَرغ من الكتابة عَلاَ هامَته بالسَّيف فضَربه ضَرْبَةً فَصَلَت رَأسـه عن جسده، فَهَوى للأرض ميتاً بغير حَراك، وعندئذ صرخ الرجلُ صَـرخة، جَمعت لـه كُلَّ من في الطِّراف، فلما رآهم وقد أَذهلهم المَشهد، حتى كأن بهم سِحْراً، نزع اللِّثام عـن وجهه، وإذا عند رأس القتيل قاتله ابنه الأمير «جادي» فازداد المَـلأ دَهَشاً، وصاحُـوا بلسان واحد: ما هـذا البلاء؟ فخـاطبهم الفتى قائلاً: مهلاً رويداً يا قوم، وأَصيخوا لي حتى أَسْتَتِم، ثم آفعلوا ما بَدا لكم، إنّ زعيمكم، «منجاب» قد قُتِل، وأنا الذي قتلته، أنا آبنه وواحده، وأَحَبُّ الناس لـه، قتلتُه عندما تحقّقت أنه يخون عَهد العرب، ويَخْفِر ذِمّة اليهود، ويُواصل العجم في السِّرّ، ويُراسل مَلِكهم، ومَن كان في رَيب ممّـا أقول فهـذا كتاب من «قمبيـز»

إلى أبي «منجاب» فخذوه فاقرأوه. فاختطف القومَ الكِتابُ يقرأونه وإذا فيه:

«إلى سيّد قومه عَزيزنا شيخ العرب «منجاب» قد وَصلت جُيوشي المُظفَّرة إلى «بابل» ولا ألبث أن ألحق بها متى جَمعت أمري، وأخذتُ للفتحِ أُهبته. فإذا مضى ستّون يوماً على وُصول هذا إليك، فاعلم أنني آت «بابل» ثم أَبرحها قاصداً قَصدكم، وقد عَلِمت أن «أمسيس» اشتد عليه المرض بحيث لَمَ يبق من عُمرهِ إلا أيام قلائل، فرأيتُ أن آتيَكم لِوَفْق الأمر، والمَملكة في ارتباك والأمة في اضطراب، والأمر خارج من يد وليّه الشاب.

ملك ملوك العجم

قمبيز

واستمر «جادي» بعد ذلك، فقال: على أنني قد تمكّنت بفَضل قَرابتي من القتيل، مِن معرفة الخِيانة في أولها، وكان عَهْدُ والدي بها يومَ وَضع يَدَه في يَدِ الوزير «فانيس» وهو مارٌّ بنا في مَظهر المُتجوِّل المُستوثق من قُوة الحُدود، ومَقدرتها على المقاومة، والحقيقة أنه هاربٌ من خِدمة الملك، راكب عارَ خِيانة الوطن، إلى الملك «قمبيز».

هنا قال الملأ: نعم، إن المُتَوَاتَر عنه أنه خان، وفَرَّ من خِدمة المَلِك والأوطان، قال: ولكنّي مع عِلمي بأن أبي شَريك «فانيس» في الخيانة، كنتُ في أولَ الأمر أُبرِّئه في نفسي، وأظُن به الظَّنَّ الجَمِيل، حتى غَلبني حبُّ الوطن، وكرمُ العَهد، على برِّي الزائد، وشَفقتي المُتناهية، فعزمتُ على قَتله، ثم رأيتُ أن لا أفعل حتى أزداد يَقيناً، فركبتُ جَوادي ولَحِقْت «بفانيس» وكان قد بلغ «بابل» وصادف قُدومَه لها وُصول «قمبيز» في جُنوده إليها، فاجتمع بِمَلك العَجم، وعَرض خِدمته عليه، فقَبِلها وولّاه قيادة الحَملة، كُل ذلك قَبل وُصولي، فلما وصلتُ قابلتُ «فانيس» فَسُرّ بقُدومي كثيراً، ثم قَدَّمني إلى المَلِك، فكان سُروره بلقائي أعظمَ، وعندئذ طَلب الوزير منه أن يُحمِّلني رسالَة تَشريف بخطه وتَوقيعه إلى أبي، ليطمئنّ قلبُه، وليعلم أنه في أَجمل مكانة من حَفاوة المَلِك، فكتب «قمبيز» الرِّسالة التي قَرأتموها، وناولني إياها،

وَوَعدني ولايةً يـولِّينيها في الشـام، إذا هو تمّ لـه النَّصر على «أمسيس» فقبّلت يدَه شاكراً، وآستأذنت في العَودة، فأذن لي، فـآنثنيتُ عائـداً إليكم، وكان من أمري ما كـان، حتى دخلتُ على أبي مُتنكراً كمـا رأيتم، فأوهمتُـه أنِّي رسولٌ من «قمبيز» إليه، وناولتُه كتابَ مَلِك العجم، ثم أردتُ أن أُحْصُل كـذلك على شيء من خَط يده، يُبرِّئني بين أيدِيكم اليوم، وبين يَدي الله غداً، فقلت لـه: إن الملك آختارني لِحَمْل رسائلهِ إليك وأخذ الأجوبـة عنها، فـأعطني رُخصـة مُرور حتى لا يتعرّض لي رجالك، كما فعلوا هذه المَرة، فأعـطاني هذا الخطّ الذي قرأتموه، وعندئذ لم أتمالـك أن وثبتُ عليه وثبـة الأسد المُغْضَب، وأنـا كما رأيتُموني عُطْلٌ من السِّلاح، فلّمـا عَرْفني وعلم أنِّي قـد وقفتُ على أمره، باديه وخافيه، آستَلَّ سيفه هـذا وهَمّ بقتلي، فأيّدني ربُّ موسى بحَوْله وقُوته، فَرغْتُ من ضَربتين ما كان أُقتَلهما، لولا أن الله أُلهمني فـآختطفتُ السَّيْفُ من يده، وضربتُـه به هـذه الضَّربـة القاضيـة، والآن فَلْيعلم شُركـاء أبي منكم في خِيانته أنني لهم بالمِرْصـاد، وأنه إن لَؤُم الـوالدُون فـربما كَـرَم الأولاد، ولْيَسِرْ جمـاعة منكم معي إلى الملك لنعـرض عليه الأمـر، وهو يُـولِّي مَن شاء على حدود البلاد.

فما فرغ «جادي» من خطابـه حتى شَحّ كُـلُّ جَفن كان قـد جاد بمـائه، لرُؤْية الشيـخ مُضَرَّجـاً بدمـائه، وانـدفع في التـأنيبِ مَن كان آستعـدَّ للتأبين، وقامت الشَّماتة والشتم مَقام الرحمة والرثاء، حتى إذا وَفَّوه الإهانة ميتاً آشتغـل غلمانه بِدَفْنِه فـدُفن بغيرِ جنـازة ولا آحتفال، كمـا يُدْفَن أحقـرُ الرِّجـال، وسار «جـادي» للحين في وَفد من وُجـوه العـرب، وسَـراة القبـائـل يَقْصِـدُون مِصْـرَ لِعَرْض الأمر على حُكومة المَلِك.

الفصل الحادي والعشرون

جلوس فرعون ابسمتيك

إشتدت العلَّة على الملك، ودَبّ دَبِيبُ الفَناء في جِسمه، وحَيَّر مرضُه الأطباء، فلم يَعُدْ لهم في شِفائه رَجاء، فما زال كذلك يَستحثّ داءه الكِبَر، وتنجدُه الهُموم والفِكَر، حتى لَزِم الفِراش، وآنقطع للعِلاج، وخلا وَجْهُه للطبيب والعائد.

وكانت «نيتيتاس» قد رَحلت في موكب زِفافها إلى فارس، والمَلِك يَعلم ذلك، ويتوقّع من وَخامة العاقبة إذا آتْضح الأمر ما يتوقّع، ويعلم كذلك أن «فانيس» عَدوّه الكبير، وخَصمه الشديد الانتقام، قد تغيّب وآحتجب، وشاع أمر فِراره في الناس، وأن هذا الفرار لا يكون إلا إلى بلاد «قمبيز» حيث أسباب الانتقام حاضرة، ومذاهبُ الأخذ بالثأر بادية كلّ ذلك كان يَسْرِي بالمَلِك فوق سَرَيان الداء، ويجعله بحالة من المَرض والألم لا ينتهي إليها الشفاء.

وكان الأطباء والسَّحرة من كُل مَذهب وطبقة، لا يُزايلون مَقاصِير المريض العالِي، ويتناوبون على سَريره في الخِدمة الشريفة، إلا أن الرُّقى والطّلاسم كانت لا تكشِف عن مَقام الشياطين في أحشاء الملك حالاً، والعقاقير تَخُون أربابَها، ولا تُدْنِي إلى نتيجة في العِلاج، إلى أن أخطر الناسُ على بال المَلِك ذِكْرَ صديقه اليوناني الأعمى، الذي تقدّم الكلام عنه عند ذكر

ناحية الهرّ الهَائم، فسأل عنه فقيل له، إنه في سِجن الظلام الأبديّ، يذوق العذاب ألواناً، عُقوبة له على سَجْنه الحيوان المقدس في بَيته، وتعذيبه إياه.

وإذا كان الملك يَعتقد صِدْقَ تَنجيمه، ويَثق بِطِبّه، آرتاح لاستشارته في دائه العُضَال، فطلب من الأمير وليّ عهده أن يتوسَّط لدى مجلس الكَهنة الأعلى في الإفراج عنه، وقد كان ذلك وعَفا الكَهنةُ عن أسيرهم، وأطلقوه كرامةً للملك، فجيء به إلى القصر، وقَدِم لدى المَلِك، فأمر به أن يكون في جُملةِ من يتولّى أمر العِناية بصحته من الأطباء، وبذلك اجتمع في القَصر ثلاثة من المُطبِّبين المَهَرة. يُمثِّل كلُّ واحد منهم عَظمة الطّب، ومَبلغ آرتقائه عند الأمة التي يَنْتمي إليها، فالأعمى يُمثِّل الطبّ اليُونانيّ، وكان مُعظم الاعتماد فيه يومئذ على العقاقير ومزاياها، والنباتات وخواصِّها، و«إحيا» البستاني يمثّل الطبّ الأَشوريّ، وكان يستمدّ قوته من التَّنجيم، فالجواهر لا تؤثّر أثرها المَقصود منها حتى تَأذن بذلك الكواكب، وتُقِرّ به الفَرَاقِد[1]، والنباتات لا ينفع منها إلا ما غُرس في أوقات مَرسومة، ثم طَلع تحت نُجوم معلومة، أما الطبّ المِصريّ فكان يُمثّله لدى المَريض طبيبه الخاص، القابس من أنوار «ثوت» المُستمد من ألطاف «أمحوتبو» إله الطبّ ومُلهم الأطباء، وكان ساحراً كبيراً، وقارئاً قديراً، إذا قرأ على الرأس رَدّ الشيطان إلى اليأس، وأخرجه بقُوة البأس، وإذا أمرَّ يَده على الأحشاء وتَلاَ مِن الكَلِم ما شاء أحرج الأرواح الخَبِيثة إحراجاً، وأَخرجها من مَكامِنها إخراجاً.

ولا يُستفاد مما تقدّم أن الطبّ عند كُل أُمة من الأُمم الثلاث، المُشار إليهن، كان مَقصوراً على الفَرع الذي نَسبناه إليها، من طِبّ حَقِيقيّ، أو سِحْر، أو تَنجيم، ولكن يُراد منها أنها كانت أَكثر تعلُّقاً بهذا الفَرع، وأَعظم براعةً فيه، من سواها، وإلاّ فإن الطب القديم بفُروعه الثلاثة المذكورة، كان شائعاً في بلاد مِصر وأشور واليونان، مَوَفوراً عند الأمم الثلاث على السواء.

ولكن ماذا يَنفعِ التَّطبيب، أو ماذا عسى يَأْتي الطَّبيب، إذا حُمَّت الأقدار، وأَنشبت المَنِيَّة الأظفار وحيل بين الجارَيْن في الدار، فما زالت العِلَّة بالمَلِك حَثِيثةَ السَّير، شديدة الوَطْء، لا تَعُوقها العوائق، ولا تَدفعها التَّدابير، حتى أَخذت من الجِسم، وأَشرفت على الرُّوح، ولم يَبق إلا آفتراق هذين الصاحبَين إلى الأبد.

وكان المَلِكُ كثيراً ما يَغِيبُ عنه الحِسُّ، ويُفارقه الإدراك، من آشتداد المَرض عليه، وآنحلالِ القوَى العقليّة، على أَثَر القَوى البدنيّة، وكان إذا دخل في مِثل هذه الحالة أكثر من ذِكْر آسم «ابرياس» وبنته «نيتيتاس» لكثرة آشتغاله بأَمرهما في حال الصَّحْو، وتخوفّه من شأن يكون له معهما في الدار الباقية، بسب ما وَصل إلى الوالد من أذاه وغدْره، ولَحِق بالبِنْت من خِدَاعه ومَكره، فكان الأطبّاء، وسائرُ مَن حَول المريض من الأَهل والمُمَرِّضين، يَحسبون أن ميّتاً يغشاه في بَعض الأحيان زائراً، وأن خيالاً يُطيف به مُؤذياً جائراً، فيَجعلون كُلَّ آهتمامهم في تَطبيبه من هذه الجهة، ولا يُغادرون وَسيلة في طَرد الأرواح المُلِمّة إلا ويأتونها.

إلى أن كانت ليلةُ الوَفاة، فبلغت بالمَلِك عِلَّتُهُ، وطالت إغماءتُه، واستمر آحتضارَه حتى الفجر، والأهل والأصدقاء حول سريره، ينتظرون الساعة الآتية، بنُفوس جَزِعة، في أجسام ساكنة، من الخُشوع والوقار، حتى أتت الساعة، وفاضت رُوح الملك، فقامت قِيامةُ القَصر، وهُرِع النِّساء إلى ساحاته وباحاته يَشْقُقن الجُيوب، ويُهِلْن التُّراب على الرُّؤوس مُعْولات نائحات، مُصوِّتات صائحات، وفَعل العبيدُ مثلَ النساءِ، فانتشروا في الشوارع، وهامُوا على الوجوه في الطُّرقات، يَنْعون المَلِكَ إلى الأُمة، فلم يلبث الخبرُ المشؤوم أن تردّد في العاصمة، من أقاصيها إلى أقاصيها، ثم جاوزها إلى ضواحيها، فهاج الأهالي له وناحوا، وآضطربت شُعب الرجال، وبكى «أمسيس» العُقلاء والأخيار، الذين يحبُّون السَّلم، ويُكرِّمون أنصاره، فكيف بملك مثل«أمسيس»حافظ على كِيان السَّلام، وحاط بنيانه في مصر ثلاثينَ سنة أو تزيد.

وبينما خواصّ المَلِك يشتغلون بغَسل جُثته ليدفعوها بعد ذلك إلى مشاهير المُحنِّطين في البلاد، وقعت حادثة من الحادثات الكُبر، بالغ القصرُ في كتمانها، وإن يكن أخذ تِلقاءها من الحِيطة والاهتمام ما يُظْهِر جَسامتها، وذلك أنه قد قُبِض على أَثر وفاة المَلِك على اليوناني الأعمى، وفتاتين يونانيتين في «نقراطيس» بمعيّة الملكة الأجنبية، وزُجّ الكُلُّ في السجن، ثم لبثوا فيه إلى الأبد، ثم لم تَرَهُم عين، ولم يَسمع بهم أحد، وسبب ذلك أن الأعمى، لمّا بلغه نَعْيُ الملك، وكان بين ناس القصر، آستفزّه الطربُ، ثم جاهر بأن قال: الآن قَتل السُّمُّ الغادر «أمسيس» الغادر، وما صنعتُه إلّا لَهُ، ولا سميّتُه إلا بآسمه، وإن حياتي هذه اللحظة بعد عدوِّي لكثير، فمن قَتلني في «أماسيس» فقد أراحني من عذاب هذه الدنيا كما أَرحت اليونان من غَدره، ولكي لا تنال الرِّيَبُ شَرف الملكة اليونانية أُقِرّ بأني صَنعت له هذا السمَّ وأنا في السِّجن، ثم رَشَوْت السُّجَّان حتى أوصلوه إلى «فانيس» وهذا استعان على الخيانة «بهيلانة» و«ماتيلد» قَرينتي الملكة، وخادمتي الملك الخُصوصيتين.

فنُقلت هذه العبارة كما هي إلى الأمير «أوب» الملك الجديد، فتصرَّف في الحادثة أحسنَ تصرُّف، حيث آستحوذ مِن فَوْره على الجُناة، ولم يدع الألسنة تَستحوذ على سيرة أبيه في الممات، كما طالما آشتغلت بها في الحياة.

ثم عُرضت جُثة الملك على المحنِّطين، وكانت هذه الصنعة دَرجات على قدر طبقات الناس، وعلى حسب اقتدارهم وغِناهم، وكان لأربابها عِيِّنات مجسّمة يعرضونها على أهل الموتى، ليختاروا منها ما يَسعه يَسارُهم، ويحتمله آقتدارهم، أمّا الفراعنة فكانوا في الممات مثلهم في الحياة، فوق الطبقات والدرجات. وكان يُحنِّطهم أشهر الأطباء، وأمهر الصناع، فلما فرغوا مِن عملهم شُيِّعت جنازة الملك بالاحتفال الواجب لمقام الفقيد، وعلى إثر الدفن أَعلن القصرُ حداداً، وظهرت الأمة في الحداد كذلك، ثم ما زالت فيه إلى أن آنقضت مدته، فأعلن الشعبُ البشائر والتهاني بالملك القائم،

وأخـذ وادي النيل زُخْـرَفَه وآزَّين. وجلس «ابسمتيـك» على عَرش الفـراعنـة، حين المخاوفُ جَمّة، والأخطار مُحدقـة، والمُستقبل مُظْلم، والـغد مُسْتَـطِير الشرّ، مائج بالحوادث، والكوارث، فَلْندعه الآن يُدَبِّر أمـره، ولْنَنْظر فيمـا كان من أمر «جادي» ووَفْد العرب الذي تقدَّم لنا القول بمسيره من الحدود، قاصداً العاصمة ليعرض الأمر على حكومة الملك.

الفصل الثاني والعشرون

جادي والعرب في سايس

كان «جادي» وأصحابه من العرب قد وصلوا إلى «سايس»، والسرير فيها مُطمئنٌ بالملك الجديد، وليّ نعمة «جادي» ومكرمه ومقربه الأمير «ابسمتيك» فكان العربي يرجو الخير كل الخير من هذه الوِفادة، ويطمع من الملك بالمكافأة وزيادة، قد أنساه جنون الطمع ذِكْر ضلاله القديم، والشرك الذي مدَّه له البغي، والبغي مَصرعه وخيم.

وبالواقع كان المَلك يُحب «جادي» أعظم الحُب، فلما آجتمع به، وعرض عليه تفصيل الحادثة صدّقه لأول وهلة، وآنفتحت له مسامعه من الثقة العَمياء، ثقة الشباب، وهمّ بإقامته مَقام أبيه، وتسليمه مفاتح البلاد، فاستشار «لاجوس» في الأمر، فقال له اليونانيّ:

آعلم يا مولاي أن «منجاب» عاش ما عاش مخلصاً في محبة الملك، شديدَ الوفاء له ولكم آل البيت، وإن رجلاً يحفظ العَهد أربعين سنة، وهو في قُوة الشباب، ومقدرة الولاية، يُستغرب منه أن يَخون الوُد، ويُضيِّع العهد، وهو مقتبل المنايا، لَمْ يَبْق له في هذه الدنيا إلا يوم أو بعض يوم، لا سيَّما والعهد في «منجاب» أنه كان متمكِّن الديانة، متيناً في تَقواه؟ فلا يجوز على العقول بعد ذلك أنه يَخون سَرِيرَك، حين لا حاجةَ إلى الخيانة، أو يُضيِّع دِينَه حين هو يُؤَهَّب لمفارقة دنياه، فصار من الواجب علينا إذاً أن نَسعى في كشف

دَخيلة الأمر، وأن لا نسكت عن دَم رجل خَدم المملكة نحو أربعين عاماً بالصدق والأمانة، وكانت له عند والدك الملك أعظمُ مكانة.

فحين آنتهى الوزيرُ من كلامه، خَضع الشبابُ للمشيب، وأذعنت الغِرّة[1] للتجاريب، وعَدل الملكُ عن عَزمه الأول، وعَمِل برأي الوزير وعليه عَوَّل، وكَان «لاجوس» قد رأى أن يُتْرَك «جادي» وشأنه في العاصمة حُرّاً، ولكن تحت أَعْيُن الجواسيس والأرصاد، ومراقبة الحُرّاس والأجناد، وفي خلال ذلك يجري التَّحقيق مجراه الخفي، إلى أن يَعثر البغيُ بالباغي، وتنجلي الحقيقة في مَقتل «منجاب» فوافق الملكُ وزيرَه على ذلك كُلِّه، وأمهل الفتى أياماً كان فيها مُعزَّزاً مكرَّماً في الظاهر، ومُهاناً مُضطهداً في الباطن، تُراقَب حركاته وسَكناته، وتُحْصَى عليه إشاراته.

وكان مضِيّ المُدة الطويلة على ضياع ملف الأوراق من «جادي» بدون أن يذيع عنه خبر، أو يظهر للحادثة أثر، قد أعاد الفتى إلى طمأنينته، بحيث لم تعد المخاوف من هذا القبيل تخْطِر له على بال.

إلا أنه كان يُوجس خيفة من «تيمان» ويسأل عنه بين الوقت والآخر، فيعلم أنه متغيِّب في الأقاليم، مشتغل يتعهد الحاميات السُّلطانية، وتقوية المواقع والحصون.

وما زالت الهَواجس تذهب بالفتى كُلَّ مذهب، حتى قام بنفسه الشِّرِّيرة أمران، وصمّم على إتيانهما، أحدهما أو كليهما، وذلك أن يستحوذ على أوراق «تيمان» فإن لم يمكن فَتَك به قبل أن يُظهر المِلَفّ، هو أو أحد رجال حزبه، إلا أنه رأى الأولى تقديم العَزم الأول على الثاني، نظراً لتغيّبه عن منزله يوم ذاك، وما هو مشهور عنه من السُّكنى بمفرده، ثم خرج من هذا من النيّة إلى الشروع، فلندعه الآن في عَمله، ولننظر أين «تيمان» وماذا يجري من أمره.

---

(١) الغرة: الغفلة.

الفصل الثالث والعشرون

تيمان في منفيس

كان أول ما خَطر ببال «تيمان» عندما أُسندت قيادة الجيش العامة إليـه، أنه يجعل صديقَه «منهـوت» في مركـز يليق له، وينفـع فيه، وهـو قيادة الفِـرَق السلطانية في «منفيس» العاصمة الثانية للمملكة، فعرض ذلك على الملك، فأَجابه إلى طلبه، وعَيّن «منهوت» قائداً عاماً للمدينة، وكان «تيمان» منذ خلف الغادر «فانيس» على زَعامة الجيوش لا يألو المـدائن والتُّخوم تعهُّـداً وتفتيشاً، فبينمـا هـو هذه المـرة في «منفيس» عند صـديقه «منهـوت» أبلغته الأرصـاد أن عـدداً عظيماً من السفن الحربية يُؤَهَّب للخـروج من مياه «سـاموس» ولا يُـدْرَى ماذا تؤم هذه السفن، فقام القائد لهذا الخبر وقعد، وذهبت به الظنون كلّ مذهب، فاستعدّ من فـوره للمسير إلى «نقـراطيس» أكبر الثغـور المصريـة يومئـذ، لعله يكشف حالاً عن تجهيز ذلك الأسطول، أو يعرف له مقصداً.

فلم يكن منـه إلا أن أنفذ إلى الملك من يُسِـرّ إليه هـذا النبـأ، ويُعلمـه بقيامه من «منفيس» إلى «نقراطيس» لتحقيقه، فخرج الرسول يَحُثّ الركـاب، وركب «تيمان» جواده يصحبه ضابطان من خاصة أعوانه وخدمة ديوانـه، وسار الجميع سيراً حثيثاً يؤُمون «نقراطيس» فبلغوها والظلام سائد.

وكـانت هذه المـدينة اليـونانيـة من يوم أُسست قـد ازدحمت بمهـاجـرة اليونان الآتين إليهـا من أقاصي البـلاد المصريـة، هُروبـاً من ضغائن الأهـالي

وأحقـادهم، وآتقاء ثـورانهـا في يـوم من الأيـام، فلم تـزد هـذه الحـالـة ثغـر «نقـراطيس» إلا دُخولاً في قبضـة اليـونـانيين، ولم يبق لمصـر فيهـا إلا بعض حصون لا تملك لنفسها دفاعاً، إذا أراد اليونان بالمدينة شرّاً، وأسطول للمملكة ليس بالكبير الرهيب، معظم رجاله من الفينيقيين، كان الملك «ابريـاس»، قد آستعملهم في سفنه قبل خُـروج فينيقيا من يَـد المصريين، ثم لبثـوا وأعقابهم في البحرية المصـرية طَـوال حكم الملك «أماسيس» الـذي هو سـلام في البر والبحر.

نرجع «لتيمان» فنقول، أنه لما وصل المدينة، وجدهـا هادئـة مطمئنَّـة، ولم ير على الأهالي دلائل الاضطراب والشغب، فاطمأنَّ قلبُـه بعض الشيء، وفكّـر بـادىء بـدء أن يـزور الملكـة اليـونـانيـة وآبنتهـا الأميـرة في قصـرهمـا «بنقـراطيس» فتوجـه على الفور إليـه. وكان لا يـزال في الحِـداد على الملك المتوفَّى، فلما وصله استـأذن على الملكة، فـأذنت له في الـوصول، ورحبّت بـه، وبالغت في قيمتـه، وأقبلت عليه إقبـالاً أنعشـه وأدهشـه، ثم سـألت عن صحَّة الملك وأحواله، فأجـابها القـائد بمـا سَرّهـا وعطفهـا على آبن زوجها، فدعت له وللمملكة، جرت بعد ذلك أحاديث «قمبيز» وما يبلغها من آستعـداد الجيش لشـأن يكون لـه معهم، وذمَّت «فانيس» واستقبحت هـروبه، ووصفتـه بالغدر والخيانة، كل ذلك والفتى دَهِش يُنصت لمـا تقول الملكـة، ويستغرب كيف تكون هذه عواطفها، وتكون هناك مَظِنّة خـطر على البلاد من «سـاموس» مملكة والدها، التي علم أنها تهيىء أسطولها لأمر مجهول.

وعندئذ سأل تيمان الملكة فقال:

أُحبُّ يا مولاتي أن أعلم شيئاً عن صحة جـلالة الملك «بـوليقراط» فـإن عهدي بأخباره عهد طويل.

الملكـة: إن مكـاتيبـه الأخيـرة إلى «فتنت» تنبىء بـاستقـامـة صحتـه وأحواله، وسروره بجريان الأمور في المملكة على مُراده.

تيمان: وكيف عواطفه نحو الملك الجديد.

الملكة: لا أعلم ما هي، ولكني أظنها صادقة حسنة، لأن والدي يحب بيت «أمسيس» قبل المُصاهرة وبعدها، وهو كريم العهد، فلا إخاله إلا حافظاً للولد ما كان في فؤاده للوالد.

تيمان، وقد أخذ منه الاستغراب كل مأخذ: إن كنت جلالتك لا تَعلمين عواطف الملك نحو رعاياك المصريين فمن يعلمها يا مولاتي؟

الملكة: حفيدته تعلم منه ما لا تعلم آبنته، لأنها تحبه ويحبها، والرسائل والرسل بينهما لا تنقطع ولا تتوانى، وهي تطلعه أولاً بأول على الأحوال في مصر، كلِّيها وجزئيّها، وتتلقى أوامره فيما تورد وتصدر، وتأتي وتَذر.

تيمان: وأين يا مولاتي الأميرة، فقد وَدِدت لو أديت الواجب فلثمتُ يديها، فإن لي زمناً أرْقُب نَيْل هذا الشرف.

الملكة: «فتنت» في مقاصيرها يا «تيمان» ويحزنني أن أعلمك بأنها منذ غَضب عليها فقيدنا الملك لم يَنعم لها بال، ولم تَطِب عند حال، فتراها على الدوام لا بالصحيحة ولا المريضة، ولا بالفرحة ولا الحزينة، ولا بالآملة ولا الآيسة، ولا بمفقودة الطمأنينة ولا ذاهبة السكينة ولكن بحال لا توصف، ولولا أنها تقول ما يفهم، وتفهم ما يقال، لقلت مجنونة متقلبة الأحوال.

وهنا لم تتمالك بنت «بوليقراط» أن تنفّست الصعداء، ونظرت إلى الفتى نظرة مِلْئُها الشكوى، كأن هنالك سِراً يضيق عن كتمه جَنانها، ولا ينطلق به لسانها، ثم قالت:

اعلم يا «تيمان» انه لولا إنسان في هذه الديار تُحبُّه، فتأتي الشقيَّة وتنقاد بأزمة غرامه، ما احتملنا لك ولا لسيدك الملك ما تَسومانا من خَسف وتَرخصان من أسعارنا، مع أننا في غِنى عن الهوان، بما وهب الله لنا من الملك والسلطان، بل لولا ذلك الإنسان لرأيتما كيف يُزْجِي والدي الأساطيل المتهيِّئة، المتأهبة، ويعرضها على «قمبيز» أو يغشاكما بها بَحْراً حين يغشاكما

ابن «كورش» وجنوده بَراً، وذلك الإنسان هو أنت يا «تيمان».

تيمان، دهشاً: أنا يا مولاتي، ومن أنا حتى يقع عليّ آختيار الأميرة في الغرام؟

الملكة، مغضبة مقاطعة: لا تقل هذا، وقل: ما أنا حتى لا أرضى من الأميرة ما رضيت مني.

تيمان: ذلك يا مولاتي، لأني عبدها وعبد أخيها، فليس لي أن أسمو إلى عشقها بادئاً أو مجيباً، ولو عشقتها لكتمت ذلك عن العباد، بل لهجرت هذا الوطن إلى غيره من البلاد.

الملكة: هذا أيها القائد تنصُّل لا ينفع، وتكلُّف في العذر لا يدخل على آمرأة ملكة، إذ المعلوم أنك عاشق، وأن التي تعشقها أميرة، لا تقل عن «فتنت» كرم محتد وشرف أصل، وقد دعوتها للغرام فلبّت، ودعتك له فلبّيْت، فما بالك تدعي مَهابة للأميرات، وتحسب حساب المقامات.

تيمان: إذاً فأنت ترين يا مولاتي أن أمري في الاختيار ليس بيدي، إلا أن خلوي من عِشق الأميرة لا يمنع من أن أحبها محبة الولاء والإجلال، وأحترم غرامها على كل حال، ولا يوجب حرماني من شَرَف مقابلتها.

الملكة: إنها تعلم بوجودك وكونك بين يدي الساعة، فلو رَغِبْت في لقائك ما كلّفها ذلك إلا خطوة.

تيمان: أمركما مُطاع على كل حال يا مولاتي.

وكانت هذه العبارة ختام الحديث بين الملكة والقائد، فأذنت له في الانصراف، فانصرف إلى نُزله في «نقراطيس» حيث صاحباه في انتظاره، وهنالك أخذ الثلاثةُ يُدبّرون لهم أمراً في كشف حقيقة الخبر المتواتر، عن تأهّب السفن الساموسية، فنحن تاركوهم وعملهم، وناظرون فيما كان من أمر «جادي».

الفصل الرابع والعشرون

جادي وما أصابه

تركنا «جادي» يفكّر ويدبّر ويتخيّل ، لعله يَستحوذ على أوراق «تيمان» في غيابه، لاعتقاده أن الملف الذي يتهدده موجود بينها لا مَحالة.

وبالواقع أخذ العربيّ يخرج كلَّ ليلة، فيتوجّه إلى ناحية الهِرّ الهائم، وهنالك يَقترب من منزل «تيمان» ويحوم حوله، ويُطيف به، ليتحقّق خُلُوَّه من الساكن، كما هو الشائع عنه، فثبت عنده أن الإشاعة في محلّها، وأن الدار ليس بها ديّار، وعندئذ صَمَّمَ على العمل، وشَرع من فوره يَقتني الآلات اللازمة، ويستعدّ للسرقة الهائلة.

حتى إذا أخذ للعمل أُهبته، خرج في ليل بَهيم، حالك الأديم، يَؤُمّ منزل «تيمان» على ناحية الهِرّ الهائم، حتى غَشِيه غشيان آبن آوى من حذَار ورُقبى، فما زال يُعالج مَدخله حتى آنفتح له، فدخل وفعل مثل ذلك بالباب الأول، فصار في دِهليز الدار، وهنالك أشعل مِصباحاً صغيراً كان أعدّه لهذا الغرض، ثم مشى في ضَوئه يتنقّل من دِهليز إلى آخر، ويخرج من حُجرة ويدخل غيرها، وهو يُنَقِّب ويقلّب، حتى عَثر على صندوق من الحديد، مُتقن الصُّنع عَسِير شديد، لا يُتخذ مثلُه إلا للأوراق الغالية أو النقود.

وقد وُضع هذا الصُّندوق على شِبه عَمود يَحمله في وسط حُجرة مُفتَّحَة الأبواب، دون سائر الحُجر، فاستغرب «جادي» الأمر، واتَّهم «تيمان» في نفسه

بقِلْة الحِرص وسُوء التدبير، إلا أنه برُؤية هذا آستبشر وأيقن أن فيه طِلْبَته، فدنا منه، وعكف عليه يُعالج فَتحه، فانفتح بغير كبير علاج، فـأدخل العـربيّ يده في الصُّندوق ليأخُذ ما فيه، فوقعت على أوراق، ففرح بذلك أشدَّ الفرح، وأراد أن يُخـرجها بمـا آستحوذت عليـه من الورق، فـاستعصت، فحسب ذلك من عُسر الغطْاء وثِقل حديده، فأَولج يَده اليسرى لتُنجد أختها، فعلقت كذلـك، فوقف اللِّص كالمجنون، لا يَدري ما يَصنع، وقد علم أن صنـدوقاً يصـطاد الأيدي لا يُخْشَى عليه، ولو جُعل على قارعة الطريق.

فلما رأى «جادي» أن الصندوق لا يُفْلِت يديه، وأنه بين أَمـرين لا مَنَاصَ من أَحدهما تَرْك يديه في الصُّندوق والانقلاب بدونهما، أو الخروج بالصندوق كما هو، وإن كان حَمـل ثِقله ممّا لا يُـطاق، اختار أهـون الشرين وأخفّ الضررين، فأَجهد قواه ما أجـهد، وشَدّ الصنـدوق إلى صدره بسـاعدَيـه فرفعـه، ثم خرج على هذه الصورة، وهو يَنوء بثِقَل ما يَحمل، إلى أن صار خارج الدار، وهنالـك لم يَدْرِ إلا برَجُلين من العَسَس قـد آعترضـاه، ثم أمراه بـالوقـوف فوقف، وقـد أيقن أنه وقع في الشرك الأكبر.

وكـان مع الشُّرطيّـين رجـلٌ شيـخ كبـير، فلما قَبضـا عـلى «جـادي» قـال يخاطبهما:

هذا هو اللص، وله ثلاث ليال يَحوم حول منزل القائد العام، وقد رأيتـه من ساعة وهو يدخل البيت، فخُذَاه ولا تخافا آنفلاته، فإن يَديه لا تخرُجـان من الصندوق إلا مَقطوعتين.

ثم ترك «إحيا» العربي للرجلين يَسوقانه إلى حيث يلقى جزاءه.

الفصل الخامس والعشرون

عودة تيمان إلى سايس

عاد «تيمان» ومعاوناه إلى «سايس» بعد أن كشف أمرين هامّين، استعداد الأسطول الساموسي ليكون تحت طلب «قمبيز» ورهن إشارته تملُّقاً له وتزلُّفاً إليه، وانتقاماً من حكومة «ابسمتيك»، والأمر الثاني مَرَضُ الأميرة إلى حدّ يكفيه خطر مناوأتها له، ومعاكسته في كل خطوة يخطوها.

فلما وصل إلى القصر وجده مهتمّاً بمقتل «منجاب»، كثير الاشتغال بحادثة السرقة، التي قبض على «جادي» متلبِّساً بها، وكانت يدا العربي لا تزالان عالقتين في الصندوق، ولم تقدم الشرطة على كسره، احتراماً لأسرار القائد العام، وخشية العبث بأوراقه.

ولم تكن محاكمة الجاني متوقّفة إلا على قدوم «تيمان»، لأن الجناية كانت ثابتة من نفسها، أما الأهالي في «سايس» فلم يكن لهم شُغل أو حديث غير هذه المسألة، وكانوا يرقُبون حُضور «تيمان» بصَبر نافد، وقد كثر تحدُّثهم بمقتل «منجاب» بقدر ما ضَعف تصديقهم دعوى «جادي» بعدما ظهر عليه من الخيانة ما ظهر.

ثم كان من عناية السماء بدَم الإبرياء أنه وفد على العاصمة في هذه الأثناء جماعة من تجَّار المصريين، قادمين من «بابل» فطلبوا مقابلة الملك في أمر ذي بال، فأذن لهم، فلما مثلوا بين يديه عَرضوا له أنهم شاهدوا «فانيس» و«جادي»

يساير أحدهما الآخر في طُرقات، ويكثران من الاجتماع، وأنه قد ذاع في جميع أنحاء الولاية أن القائد العام للجيوش المصرية فرّ من خدمة الملك، والتجأ في حمى «قمبيز» ملك العجم، وعرض عليه خدمته ضد المصريين، وأن «قمبيز» قَرَّب الخائنَ مِنه، وهو يُعدُّه لرياسة الحَملة التي يُوجِّهها إلى مصر، فشَكر الملكُ هذا الوَفد، وأمرهم أن يُؤدُّوا هذه الشهادةَ أمامَ المحكمة، التي تحقِّق تُهمة العربيّ.

فلما كان يومُ المُحاكمة ثَبتت على «جادي» تُهمة السَّرقة، وبَقِيتَ تُهمةُ لغَدْر مُفْتَقِرةً إلى مزيد ثُبوت، وعندئذ تقدّم «تيمان» لدى القُضاة وقال لهم، بَمسمع من الجُمهور:

أيها القضاة، إن أَدِلّة ثُبوت الخِيانة وافرة حاضِرة، يُقدِّمها لكم هذا الخائن بيديه.

ثم إنه فَتح الصُّندوق وأَخرج منه مِلَفاً يحتوي على كثير من الأوراق السرّيّة، وكلُّها تآمُرٌ ضدّ المَلِك أيام كان وليَّ العهد، وغالبها ممّا كان «فانيس» و«جادي» يتبادلان في هذا الشأن الخَطير.

وشَرع «تيمان» بعد ذلك يُحدِّث القُضاة حديثَ هذا المِلَفْ، ويَذْكُر لهم حادثةَ القَصر القديم، ثم الدار التي كان خَوَنُ اليُونان يَجتمعون فيها، ويجتمع بهم «جادي» لتدبير المَكايد للأُمة، ونَصْبِ المَصائب لوليّ العهد يومَ ذاك.

فلمّا لم يبق في نفوس القُضاة شَكّ أن «جادي» قاتل أبيه البريء النَّزيه، أصدروا حُكمهم بِقَطْع يديه، وسَمْل عينيه، وصَلْبه إلى أن يهلك، ليكون عِبْرَةً للمُعتبر.

ثم عُرِض هذا الحُكْم على الملك ليُصادق عليه، فاَعتمده وأَمر بتنفيذه توّاً فنفِّذ، وهكذا لَقِي السارقُ الخائن القاتلُ جزاءه وقَلَّ الجَزاء.

الفصل السادس والعشرون

الأفراح في فارس

كانت «بازرجاد» على عهد «كـورش» وفي أيام آبنه «قمبيـز» من بعده، أي في آبتداء حُكم هذه العـائلة الكبيرة، والدولة العـالية الشهـيرة، عاصمـة فارس والـدِّيار. ومَقـرّ بني «كـورش» الكبـار. قَضى السعدُ لهـا، وصار القـولُ في مَجمع البلاد قولَها. فأخضعت آسيا لأحكامها، وتغلّبت على أشهـر أُممها وأقـوامها، ولم يبق سِوى ممالك النيل ما لم تَغْصِبْه بحدِّ حُسامها.

وكانت في سَهلٍ يُقال له «مرغاب» يجري فيه نهر بهذا الاسم، يَحـوزه واد ضيّق، ينـدفـع منـه إلىَ سهـل «مــرداش» حيث يلتقي بنهـر آخــر يسمى «بندمير» ثم يصبُّ النهران في بحيرة «بختكان»، وكان ذانك الواديـان كلاهمـا شـرقيّ الإقليم المعروف الآن «بفرنسستان»وكـان من الخِصب بمكـان، وكـان لكثرة الأمواه فيه وما يعترض من الحياض والغياض في نواحيـه مَنيعاً لا يُنـال، إلا على جسر من الأهوال، وكان في أولِه «بـازرجاد» العـاصمة، وكـانت مُقام الملك «قمبيز» وفي آخره إلى جهة «مرداش برسبوليس» المدينة الثـانية يـومئذ لأُمـة الفُرس، وكـانت مَقَرَّ زوجـة الملك الأولى، وأخته الـواحدة لأُمـه وأبيه، الأميرة «مندان».

وكانت «بازرجاد» شَمسَ أُفق «مرغاب» التي يجلوها بالمنظر العُجـاب، وهي في كبده تُناغي السحاب، بمشَارف الأسوار والأبواب. وكان أفخم هاتـه

وأفخرها وأعظمها شأناً وأكبرها بابُ كسرى، الذي كان يُزْجَى لديه الجُيوش، ويخرج منه إلى غَصب التِّيجان والعروش. ولم يكن في المدينة غيره ما يُزْرِي سناؤه بسنائه، أو يَسمو فوق سُمُوّ بنائه، الإيوان المذكور إلى الأبد، المشهور فما يخفى على أحد. فقد كان من «بازرجاد» بمنزلة المئذنة من المَسجِد، كلُّ شيء دونه، وكان عبارة عن بناء كثير العَمد والرَّفارف، جم الذُّرى والمَشارف. مُنَسَّق القباب. مُتفرِّق الأبواب، له مَدخل بشَكل عمود مربَّع الأضلاع؛ متناهٍ في الارتفاع. قد كُتب على أعلاه، ونقش على أُم ذُراه، هذه العبارة: «أنا كسرى الملك الأخمنيدي» باللغات الثلاث: الفارسية، والميدية، والأشورية، وكان يُحيط بهذا الإيوان من كل جانب رياضٌ جمّة جميلة، ومُروج عريضة طويلة. كلُّها بناؤه «لقمبيز» وذويه، ومنازل ورثها المَلك عن أبيه. وكان «كسرى» مدفوناً في بعض هذه البساتين، قد ضُربت على قبره دعائم بُنيان، أشبه بالهيكل، كان المعبد الخاص للملك آبنه ولناس قصره.

أمّا مجموع مناظر المدينة، فكان يجلو عن بَلَدٍ حَسن البناء، جديد الإنشاء، مَرموق آثار العزّ والثراء. ولكنه ناشيء على يد «كسرى» مولود، قريب عهد بمزاحمة بلاد الوجود. فهو بغير قيمة أثرية. ولا منزلة تاريخية. ولا يمكن حسبانه من المدائن الكبرى البشريّة. بل لولا «كسرى» وحياته، وفتوحه وآنتصاراته. لبقي أمره خافياً على العباد، ولكان عندهم كبعض البلاد.

والآن لك أن تتخيل «بازرجاد» في يوم عيد من أعيادها، وأن تتمثلها وهي في الزينة عند تمام آستعدادها. قد أمر الملك بها أن تُزَيَّن فزيّنت وآستعدت، وأخذت زُخرفها وتحلّت. آحتفالاً بوفود المَوكب الجليل، موكب الشمس ذات الإكليل. المَحفوفة بصُنوف التعظيم والتبجيل، المَزفوفة إلى «قمبيز» مِن مَلِك ممالك النيل، ظلّ الآلهة الظَّليل، وابنهم الأصيل فرعون «أمسيس»، والد العروس. الذي أنفذها إلى ملك الفُرس في موكب مأنوس، محاط بالآلهة محروس.

وكانت نجائبُ البريد قد سَبقت تَتْـرَى،حاملة البُشرى إلى ابن كسـرى. بأن الرِّكاب قد خَف، وأن العروس آتية من أقصى البلاد تُزَفّ. فـأقام المـدينة على قَدم. وأُنهض على ساقٍ عاصمةَ العجم، وآستقدم عُمَّالـه لدى الشعـوب والأمم، بعــد أن أعلن ملوك آسيــا أجمعين، الخــاضعين منهم والتــابعين، فَـأسْتَبَقُوا العـاصمة الكبـرى، في أعظم مـظاهـر مُلكهم وسلطانهم، ومـواكب عزهم وإمكانهم، يرفعون إلى مَتبوعهم الأعظم جليلَ التهنئات، ويُودِعون إلى بابه ثمين الهديات، و«قمبيز» يتلقّى هذي الـوفود السـامية بتـرحاب وإعـظام، ويُمتِّعها بما أعدَّ لها من ضيافة وإكرام.

حتى إذا كـان يومُ وصـول الموكب الـزّفافيّ، هُـرع النـاس إلى السهـل أفواجاً، حتى ضـاقت الأبواب بمن لَـدَيها، ونـاءت الأسوار بمن عليهـا، وماد السَّهل وماج، وآرتجَّت الأرض أيّ ارتجاج، وسَبَق الملكُ الجُموع إلى فضـاء السَّهل على مركبة سنيّة، فارسية كِسْرويّة، يَجُرّها جـوادان ضخمان، أسـودان كأنهما مارِدان. وتُحيط بها المركبات من كـل الجهات، مُقِلّة أُمـراء الولايـات ورُؤساء الحكومات، وعلى آثارهم أُمراء الأساطيـل والقوّاد؛ خلفهم الأجنـاد. رَجْلاً وعلى مُتون الجِياد. تَحْسَبهم وُقوفاً وهم يمشون، من كَمال الهَيبة وتمـام السُّكون.

حتى إذا آعْتَلَت الضحى، وآستـوت الشمسُ على السماء، تُضْفي على النهار حُلَلَ الأضواء، سَـرى صوت الأبـواق من جانب الفضـاء، فأجـابتها من الفـرس النايـات والصَّوافيـر، وتلَتها الـطُّبول والمزاميـر، ثم مـا لَبثت طلائـع الموكب أن هلَّت، بالمَنظر البَهج وتجلَّت، فحيّتها الجُموع بهُتـاف موصـول، لا يَقطعه إلا ضجيج الطُّبول.

وعنــد ذلـك آنبـرى المَلِك لاستقبـال الأميــرة، فتنحّت الصُّفـوف من الجـانبين حتى مَرّ، فلمـا تـواجهت المـركبـةُ والهـودجُ السنيّ، نـزل الملك، وأَفضى الجُنْدُ بالهودج إلى الأرض، فنزلت الأميرة كذلك، فتقدم «قمبيز» ومدَّ يدهِ إلى الفتاة فقبّلها، ثم صافـح مَأمـور الموكب، وكـانت المركبـة إلى جَنب

العروسين، فصَعِدا فجلسا، وتلت مَركبة ثانية خُصوصيَّة، ركب فيها مأمور المَوكب، وكاهنٌ آخرٌ من مِصر، مُلْحَق بركاب الأميرة، ليقوم لها بالخِدمة الروحانيّة. ثم اندفعت المركبتان تسيران، خلفهما الموكبان، ممتزجين يتموّجان، حتى جاز الجميعُ سهل «مرغاب». وشارفوا من العاصمة الأبواب، فإذا هي مفتوحة لهم بتَرحاب، تكاد تُكلَّل بحُلاها السَّحاب. وهناك آبتدأ اجتلاء الزِّينة. وحازت الموكبَ المدينةُ، فآستمر يسير بين جَبلين يَموجان من الجماهير، حتى بلغ الإيوان في سلام وأمان. وهنالك صعد العروسان، إلى رَفرف فيه كرسيّان مُعدّان، للمناسبة مهيّآن، فجلسا ريثما يستريحان. وإذا الأميرة تنجلي للعِيان، وتَظهر للشعب من قاصٍ ودان، كأنها الهلال إذا آستبان. أو المِثال المُنْصَبّ المُزدان، لكثرة ما جعل عليها من الزينة، وثِقَل ما حَملت من الجواهر الثمينة، نخصُّ بالذكر من ذلك نِقابها الذي هو عبارة عن سُلوك؛ من الذهب النقيّ المَسبوك، رَقِيقة شفّافة. تُعْجِز الصُّنّاع رقَّة ولطافة. يَحسبها الرائي شُعاعاً، وهي من خالص الإبريز. ولو وَجَدْتَ مُنْصِفاً لاستقلّ لها ثمناً مُلْك «قمبيز». وفوق هذا النقاب التاجُ الثُّعباني، شِعار المَلِك الفِرْعونيّ، يمثّل باللونين مَلِك الوَجْهين، ودولة القُطرين، وكان المَلِك لابساً حُلَّته التشريفيّة، كذلك وهي ثوب حرير من الصِّنف الأول، محلّى الحواشي والأثناء، بأشرطة من الذهب المَنسوج مَنْضودة فيها اللآلىء واليواقيت، وقد نقشت على سائر الثوب صُور الكَلب المُختلفة، دلالة على صِفة هذا الحيوان الرُّوحانيّة في اعتقاد الفُرس الأقدمين، وكان تاج المَلِك يمثّل الثُّعبان كذلك، و«كِسرى» هو أول من تَشبَّه بالفراعنة، كما أنه أوَّل من أخذ من الملوك الأشوريين الأجنحة الخَلفية. التي كانت آية ملكهم في المَجامع، وحلية دولتهم في المحافل، فكنت ترى «قمبيز» يبدو في جَناحين من مُجتمع الريش العزيز؛ المائج بَسَنا الإبريز، وكانا ضافيين عليه من أعلى مَنْكِبيه؛ إلى ما تحت جَنبيه، وهو فيهما كأنه عُقاب كاسِر، وكان مأمور الموكب ورجالُه قائمين خَلْف عرش العَرُوس، يؤدّون وظيفتهم التي هي حِراسة وجُودها الغالي، وبعد هُنيهة من آستقرار المجلس بالمهابة والوقَار، أظهر الملك الإقبال على

الأميرة، كَلِفاً بغير تكلّف، حتى أدهش رجالَ دولته المُطّلعين على سرائره في السياسة، وما يُضمر لعرش مصر من الغَدر، فكان يرحِّب بها ويُحيِّيها، ويتلطّف لها في العِبارة، ويتأمَّلها فيَحْسُد فُؤادُه عينيه على نصيبهما من مُحيّاها الملتمع الناضر، وجَمالها الكامل الباهر.

واتَّفق أنه ذَكر آسمها المُستعار في أثناء كلامه لها، فدعاها «بِفتنت» فدارت الأرض عندئذ بالفَتاة، وكاد الإيوان أن يَميد بها، وبَدت دلائل الاضطراب على وجَهها الممتلىء من أثر العِزّة، كأنها تستنكف أن تَركب مَتن الخِيانة، ولو في سبيل الوطن، إلا أنها عادت فكتمت شُعورها هذا، وتغلّبت على عواطفها الثائرة.

حتى إذا بلغت الحفلةُ غايتَها، فَضّ الملكُ نِظَامَها، فأمر بالأميرة أن تُحْمَل إلى القصر السُّلطانيّ المُعَدِّ لمُقامها، وكان «قمبيز» قد ملأه من الجواري وغِلمان الحريم، وحمل إليه جميعَ ما تحتاج إليه «فتنت» أو ملكة العجم، من أسباب الراحة. ودواعي الرفاهية والنعيم.

فسار الموكبُ بالأميرة إلى قصرها الخاصّ بين صِياح البَشير، وهُتاف الجماهير، وهنالك أَلْقت عَصاها، وآستقرت بها النَّوَى على ما تكره.

فلما صارت وحدَها، أخذت تذكُر حادثة مَجيئها إلى فارس، وتتمثَّل أطوارها، وقد أيقنت أنها خَسِرت عشيقها وزوجها «تيمان» وعرَّضت حياتها للخطر المتهدّد في كُل آن، ولم تَرْبَح من وراء هذا العَناء الجاهد، وهذه التَّضحية العظيمة، إلا أمراً واحد، وذلك أنها برُكوبها هذا المركب الخَشِن قد مكَّنت قومها من الاستعداد لِحَرْب هائلة مع الفرس، لا بُدّ لهم منها، وإن طال المَدَى. فكانت هذه الفكرةُ عَزاءَها الأكبر، وتَسليتها العُظمى، عن مَصائبها، ما مَضى منها وما يُتَوَقَّع.

الفصل السابع والعشرون

بترمبيس

طال عهد القارىء بخَبر عن هذا المُنجّم الكاهن المصريّ، الذي تقدّم لنا القولُ بأنه أُلقي في السِّجن رَيثما تُعَدُّ المُعِدَّات لإعدامه. والآن نَرجـع إليه فنقول: إن «قمبيز» كما يصفه التاريخ «مَلِكٌ مُصاب في عَقله إصابـة لا يَسْتَمِرّ أثرُها. ولا يَتّصل ضَررها، فهو مـا حَضَر عقله كبيـرُ العَقل، سـامي المَدارك، رَحيم القلب. دقيق النـظر في عواقب الأمـور، فـإذا نـاء ميـزان هـذا العقـلِ بِثقله، ودخـل المَلِكُ في ساعـة من ساعـة جُنونـه، ونَوْبـة من نُـوَب خَبَـالـه، فهنـالك يُعْـدِم الأقاربَ، ويَقْتُـل الخادم الأمين، والصـاحب، وتحدث الأمـور الجسيمة العواقب.

وقد كانت هـذه حالـة المِلِكُ منذ بـدء جُلوسه، ولكنّهـا كانت خَفِيفـة، فـزادِتها كثـرةُ آشتغالـه بالحُـروب، وإسرافـه في سَفْـك الـدمـاء، وتمكّن داء المطامع منـه، إلا أن هذا الجُنـون لم يَجِدّ، ولم تَتفـاقم شُروره، إلا بعـد أن آستولى «قمبيز» على مصر و آسْتَتَبَّ له الأمر فيها.

نَخْرُج من هذا إلى أن الملك رَجـع في أمر «بتـرمبيس» إلى الحِلم بعد الجَهل، والرَّحمة بعد القَسوة، فأمر أن يؤجِّل إعـدامه إلى أن يَـرى الملك في ذلك رَأياً، فتُرِك الكاهن وغلامَه في السِّجن بُرْهَةً طويلة مُهْمَلَين مَنْسيَّين.

فلما وفدت الأميرة المصريّة على عاصمة فارس، وكانت تقاليد المملكة

تَقضي عليهـا بتعلّم آداب القَصر الفـارسيّ من جهـة، والـوقـوف على تعـاليم الديانة الفارسية لاعتناقهـا من جهة أُخرى، فكّر المَلِكُ بُـرهة فيمن يُسْنـد إليه هذه المهمة العظيمة، ويتكفّل له بتهذيب الأميرة، التي كـان من زيادة شَقـائها أنها حازت قَبول الملك، واستحوذت على فؤاده.

وبينما هو في التفكّر خَطَرَ «بترمبيس» على باله، فسأل عنه، فقيل له: إنـه وغلامـه في السجن، ولا يـزالان حبيسَيْن يـرزقـان، فتهلَّلْ «قمبيـز» لهـذا الجواب وآستبشر به. لِعلمه أن الكاهن المِصريّ خيرُ من يُهذب لـه خَطيبتـه، ويُرشِّحها لتكونَ الملكة الكاملة الأوصاف في نَظر قومه العجم.

فأمر الملك للحِين بإخراج الكـاهن وغلامـه من السّجن، وآستدعـاهما إليه، فلما مَثلا بين يديه آبتدر الملكُ خطابَ الأعمى، فقال:

تذكر يا «بترمبيس» أن الذي أَسْخطني عليك، وعرّضك لشديد آنتقامي. حتى لبثت في السجن بُرهة، إنما هو دِفاعك في حَضـرتي عن قومـك، وشِدّة تعلّقك بوطنك..

بترمبيس: نعم، أذكر ذلك أيها الملك، وأدعو جلالتـك لِتَعتقد أن هـذه شيمتي، وهذا شِعاري، وأنّ السِّجن أحبُّ إليّ من أن أُخـاطَب في مَبْدَئِي، أو أَرجع فيما صَمَّمت عليه، من الدِّفاع عن وطني، وإن أساء إليّ، ومحبّة قومي وإن هم جارُوا عليّ.

الملك: وأنا لم أَعْفُ عنك، ولا قَبِلْتُـك في حَضرتي إلاّ لأَهْـدِيَك نُـورَ السبيل في خِدمة مبدئك الشريف، وتحقيق أُملك الكبير.

الأعمى، وقد تهلّل وآهتز، وشَمخ بأنفه كالمُعتـزّ: وكيف ذاك يا مولاي؟

الملك: لعلّك سمعتَ بمجيء بنت «أمسيس» إلى هــذا البلد، وأنهـا زُفَّت إليّ خَطِيبةً، وعمّا قريب أقتـرن بها وتَصِيـر مالكـة فؤادي، ومَلِكة رَعِيّتي وبلادي.

فحين سَمـع «بتـرمبيس» هـذه العبـارة، آنقلب تهلُّله عُبـوسـاً، وتحـوَّل

سُروره نَكداً وبُؤساً، وأجاب الملك بأن قال:

هـذا يا مـولاي أول عَهدي بسمـاع الخَبر، ولكن لي بالأمر عِلْمـاً قبلَ وقوعه، فليته لم يقع، وليتني هَلكت في السجن ولم أكُ إلى اليوم حَيّاً...

الملك، منـدهشاً: وكيف تعلم شيئـاً قبل وُقـوعه؟ وهَبْـك تَنبَّأت فمَـاذا يُحْزُنك أن أقترن بأميرة مصريّة، والأمر فيما أظن مُوافق لمُرادك، وفي مصلحة قومك وبلادك.

بتـرمبيس: إن ذلك يـا مـولاي من عِلْم السمـاء، وإنهـا تختصّ بـه من تشـاء، وأنا أسـألها أن تُكَـذِّب نُبوتي، وأن تجعـل هـذا القِـران بَـركـة ويُمنـاً لجلالتك، وسلاماً وعِصمة لوطني، والآن ماذا تأمر جلالتك؟

الملك: تعلم يا «بترمبيس» أن تقاليد المَملكة تحتِّم على قَرِينـات مُلوك فارس أن تَكُنّ على دين بُعولتهن، وإن لنا مَعْشَرَ ملوك الفـرس رُسومـاً وآداباً أحقّ الناس بإجـرائها والعمـل بها نسـاؤنا، الـلاتي يُسْأَلن عن حفظ الأدب في الحركة والسَّكنة، ويُطالبن بالتلطّف في مُعاملة بعضهن البعض، وبَذل صُنوف الـرعايـة والاحترام لأمهـاتنا وقَـريباتنـا، وأنت يا «بتـرمبيس» قد أُتيـح لـك أن تجاورنا بـرهة طـويلة، وأن تَدْخُـل في قصورنـا وتخرج، وتـدبّ في مجالسنـا وتَدْرُج، حتى صِرْت كأنك أحدُنا؛ هذا فضلاً عمّا آختصَّتك به السماء من قُوة العقـل، وشِدّة الـذكاء، ولهـذا كلِّه رأيتُ أن أجعلك المُرْشِـدَ لِبنْت فرعـون، والمُقِيم لها في ديانتنا وآدابنا، ولا إخـالك تَكـره أن تكون أُستـاذاً لبِنْت وطنك ومَلِكك.

فحين فَرغ الملكُ من عبارته، أظلمت الدنيـا في عيني «بترمبيس» فـوق إظـلام العمى، وتحيَّر مـاذا يقول، وكيـف يُجيب «قمبيـز» أيُطلعـه على حقيقة الأمـر، ويُخبره بـأن «أمسيس» قـد غَشّـه حيث زَفّ إليـه بنت الملك المَخْلُوع مكانَ بنته المَقصودة بالخُطبة. كـلاّ، إن ذلك يكـون مِن ورائه إعـلان الحرب على مصر لِلحين. وهذا ما يكرهـه الأعمى، ويَسعى في دفع بـلائه عن وطنـه

وأُمته، أم يُجيب الملكَ إلى طَلبه، فيَقْبل أن يكون أستـاذاً لِبنت عدوّه الألـد. وظالمه الغَشُوم، وهذا أيضاً جَهد البَلاء. وحال هي أشـد مَضاضـة على الحُرّ من وَقع الحُسام المهنَّد. فأطرق، «بترمبيس» هُنيهةً يقلِّب الأمر على وُجـوهه، ويذهب به في مَذاهبِهِ، ويحتاط لما يكـون من عَواقبـه، وقد أخـذت الرحمـةُ تَدبّ في فؤاده للفتاة المَظلومة، فرَثى لها في نَفسـه ورَقّ وانحاز في مُعـاملتها إلى جانب الحق. وبينما هو في التَّفكير أخرجه الملكَ من إطراقه بأن سأله:

ما بالك تتردَّد يا «بترمبيس» كأنك تُحجم عن القبول؟

بترمبيس: لا تردّد يا مولاي ولا إحجام، إن أوامرك عنـد عَبدك لا تُـرَدّ، ولو كانت ضِدّه، فكيف إذا كانت في مصلحتـه، وفائـدة قومـه وبلاده، وإنمـا كنت يا مولاي أفكِّر في شُروط ثلاثة أُعرضها على جـلالتك، وأُعلِّق بهـا قبولَ هذه المَهمَّة الخطيرة.

الملك: ومـا هي شروطـك علينا يـا «بتـرمبيس»؟ تكلَّم ولا تَخف، إني أُحِبُّكَ وأُجِلّك، ولا أُحِبُّ منك ولا أُجِلّ أَعْظَم مِنْ حُـرّية ضميـرك، وإبائـك، لأنّ هاتين الصّفتين حَبيبتان إلينـا معشَر الملوك، ولكن قَلّ أن نَجدهمـا فيمن نُحِبْ ونُقرِّب من الرجال.

بترمبيس: عِشْتَ يا مولاي وبُورك للفضـائل فيـك، أمّا مَـطالبي الثلاثـة إلى جـلالتـك فهي أولاً: أن تَهب لي كُـلّ ذنب جَنَتْـه الأميـرة، أو تجنيـه في المُستقبل، مهما كان عظيماً.

الملك: ذلـك لك يـا «بترمبيس» إلاّ مـا نال العِـرْض، وآنتهك حُـرْمـة الزَّوج.

بتـرمبيس: الثاني يـا مولاي: أنـه إذا نَشبت الحربُ بين فـارس ومصر، في يوم من الأيام، وآنتصرت جيوشُك الجرّارة على فرعون وجُنـوده، لا يأخـذ الملكُ قَومي المصريين بجَريرة ملوكهم، بل يستعمل في أمرهم ما جُبِلت عليه سجاياه من الرأفة والرحمة.

الملك، متبسِّماً: وذلك أيضاً لك يا «بترمبيس» فهات الآن الشرط الثالث.

بترمبيس: الشرط الثالث، أنه إذا قَضت السماء بأنّ خَيلك تُهاجم وطني يكون لي الحق أن أعود إليه متى شئتُ، وأن أندمج في صُفوف قومي للذَّود عن دياري الحَبِيبَة.

الملك، مُغْرِباً في الضحك: وهذا أيضاً حقُّك يا «بترمبيس» والعَدْلُ يَأْبَى أن أُمانعك فيه، ولكن بحقِّي عليك، ماذا يُغني عن مصر، إذا دَهَمْتُها بنصف مليون من جُنودي الباسلة، أن يدخل في صُفوف المدافعين عنها رجلٌ شيخٌ أعمى.

بترمبيس: يا مولاي، ولكن يُغنيني أنا الذي وطَّدت النيّة على أن أَقْرن أجلي بأجل مصر، فإذا هاجمتها أمة هي القاضية عليها سافرتُ إليها طلباً للموت في ساحات القتال.

الملك: قد أجبتك يا «بترمبيس» إلى طلباتك، فلم يَبق إلا أن تتوجَّه إلى رئيس الخِصيان، فتُبلغه أوامري بشأنك، وأن لا يتعرّض لك أحدٌ منذ اليوم في الدخول على الملكة متى شئت، والخروج من عندها متى شئت.

قال الأعمى: سمعاً وطاعة، ثم نهض، فتقدّم غلامُه وأخذ بيده منصرفاً به من حضرة الملك.

الفصل الثامن والعشرون

اجتماع بترمبيس بدُل

دخل رئيس الخِصيان بالمصريّ الأعمى على الملكة، وبلّغها أوامر الملك بشأنه، وكانت «دل» لا تعلم شيئاً عن وقائع «بترمبيس» مع والدها، ولكنها شعرت عند ذكر هذا الاسم كأنّ حياتها آنبعثت، وآنست راحة للخاطر لا مزيد عليها، لكونه اسماً مصريّاً، فلا يكون حامله إلا مصريّاً، ولأن صُورة الرجل مصريّة، كذلك فلا يمكن أن يكون الاسم مُستعاراً، فلم يَسعها عندئذ إلا أن رَحَّبت بأستاذها الأعمى، بلسان المُستأنس الفَرِح، ثم التفتت إلى رئيس الخِصيان وقالت له:

بَلِّغ جلالة الملك مَزيد آمتناني من هذا الصُّنع الجميل، والشُّعور اللطيف، فلا أظن جلالته إلا قد راعى جِنْسيتي، فأراد أن يكون أولُ مَن آخُذ معه وأعطي، في عاصمة فارس، رجلاً بمنزلة الأستاذ من علماء المصريِّين.

قالت هذا، وأشارت للخَصِيّ أن يَنصرف، ففعل، ثم تقدَّمت نحو «بترمبيس» وأخذت بيده فأجلسته، هي فَرِحة برؤيته مَسرورة، وعندئذ تحرّكت شَفَتا الأعمى للكلام، وهو في حالة من الاضطراب لا تحتمل المزيد، فقال:

أتدرين يا بنت «أبرياس» من هذا الأعمى الذي سِيق إلى هذا الموقف شَوْقاً، وأطاق أن يكون لك جليساً وأستاذاً برهة من الزمن؟

فوقع هذا الخِطاب من الفتـاة موقـعَ الاستغراب، وآهتـزّت له، فسـألت الأعمى مقاطعة:

من تكون أيها الأستاذ؟ وما حملك على القبول بشيءٍ تكرهه؟

الأعمى: اسمعي يـا «نيتيتـاس» وعِي: أنـا الـذي سَمـل أبـوك عينيـه، وجَدع أنفه، وقطع أذنيه، وفجعه في أعزّ النـاس عليه، ولكنّي لا آخُـذ الولـد بجَرِيرة الوالد، فلن أنالك بسُوء، ولن أريد بك شرّاً، وقد ندبني «قمبيز» زوج «فتنت» لأُهذّب له «دل» زوجة «تيمان».

دل، وقد دخلت في أَشبه الحالات بالجنون: لا أيها الأستـاذ، إن هذا سُوء ظن، ومَحض كذب، ما أنا بنت «ابرياس» ولا أنا زوجة «تيمان» وإنما أنا «فتنت» زفّني أبي «أمسيس» إلى الملك «قمبيز»..

بترمبيس: لا حاجـة إلى الإنكار يـا «دل» فإني أُبصـر من المَقبرة، وأنـا أعمى بعيد عنها، فوق ما تذكرين أنت ممّا مَرّ لك لديها.

الملكـة: أواه! ما هـذا البـلاء؟ ارحمني أيهـا الشيـطان، رفقـاً بي أيهـا الملك. إتّق السماء فيَّ أيها الخيال، من أنت؟ ماذا تكون؟ لعلّي حالمـة، أو أنا في جنون.

بترمبيـس: اجمعـي قواك يـا «نيتيتاس» وآستـرجعي صوابـك، وأيقني أنني لستُ شيئاً ممّا زعمتِ، إنما أنا إنسان مثلك.

الملكة: كيف ونحن لم نَر شَبحك ليلة المَقبرة، ولكن سَمِعنا صوتـك. وأنت الذي عقدت «لتيمان» عليّ في حَلَك المقبرة.

بترمبيس: آعلمي يا «نيتيتاس» أنني لم أعقد «لتيمان» عليك، ولا كنتُ صـاحبَ حادثـة المقبرة، ولكنـه أخي، ونحن إخوة، ثـلاثة من سُـلالة سـاحِر قدير، قد أعطتنا السماء من عِلم غَيبهـا، وأسرار قـواها الخفيّـة، ما لم تُعـطه بشراً غيرنا، وقد سَبق في عِلمهـا المتقادم أننـا نموت في سـاعة واحـدة، وأننا نموت على دين موسى.

وقد اعتنق أحدنا هذا الدين، فكان ذلك دليلاً على أنّ الساعة قد أتت. وأننا عن قريب مَيِّتون، والآن لا يُنقذك يا «نيتيتاس» من الخطر الذي زَيَّن لـك «أماسيس» ركوبه، إلا أمر واحد، وهو أن يضـطر قمبيزك إلى هجـرك، لأنه لا يفعل ذلك مختاراً، أو إذا قـرُب فِراشك ولم تُمكّنيه من نفسك، فأنت هالكـة لا محـالة. إذن وجب أن نَنـظر في طريقـة تَضطره إلى ذلـك. ولا تُنَبِّهـه لمـا هنالك. والذي أراه أنك تتعاطين مُرَكَّباً سرّياً يكسوك صُفرة، ويُلبسك السَّقام، ويَجعلك غير صالحة إلى أجل معلوم لأن يَقْربك الملك.

فحين سمعت «نيتيتاس» كلام الشيخ، داخلها مِن صِدقه، وأوجست من العاقبة خيفةً، فقاطعته تقول:

ولكنّي أخاف يا مـولاي أن أكون حـاملاً، فيـذهب الجَنين شهيدَ أَثَـرَتَي وأنانيتي، ولهذا فإني أفضِّل الموت الوقتي الفعّال من سيف «قمبيز» أو خنجره على مُقاساة العِلل والأدواء.

بتـرمبيس: لا عِلل ولا أدواء، ولكن يُشَبَّه للنـاس ولك يـا «نيتيتاس» ثم إنـه لا خـوفَ عليـك، ولا على جنينـك، ممـا سـأصنـع بـك، لا أفعله في مصلحتـك وحَدك، بـل لـوجـه الـوطن الكـريم، الـذي ركبت من أجله هـذا المَركب، فأنسيتني ذِكر إساءة والدك إليّ، وأصبح من الواجب عليّ أن أسعى بكُل وُسْعِي في إنقاذك، وردّك إلى الوطن لتُلَاقي هناك مِيتَةً شـريفة، أو عيشـة راضية.

فلمـا بلغ الأعمى في كلامـه هذا المَبلغ من الصـراحـة، سكنت الفتـاة إليه واطمأنّ قلبها، فأجابته تقول:

إنني أسلمت نفسي إلى إله موسى، ثم إليـك يا مـولاي، فافعـل بي ما أنت فاعل، والله يُوفِّقك لما فيه سلامة جَنيني.

قال الأعمى: وأنا أغتنم هـذه الفرصة يا «نيتيتـاس» لأَخرج من ضـلالي القديم، وأتبع الدين القويم، دين موسى الكَلِيم، والآن خُذي من هـذا الحُقّ

حَبَّتين أو ثلاثاً، ولا تُشْفِقي من أثرها، إذ هي أحدثث لك دُواراً وآلاماً خفيفة في الأطراف، أما أثرها الحقيقيُّ فلا يظهر إلا بعد بِضعة أيام. وعندئذ لا يَستطيع الملك أن ينظر إليك، أو يَقترب منك.

فأخذت «دل» الحبّات الثلاث بيدٍ مُرتجفة، ثم ابتلعتهن وهي تقول: اللهمَّ إن كان في هذا مماتي، أو ممات جنيني، فآحْسَبنا على وجهك الكريم، وآجعلنا فداء لمصر الوطن العظيم.

قال الأعمى: إن للموت يا مولاتي أواناً لم يَأْنِ بَعْدُ، ولا أطلب منك الآن، إلا أن تتلطَّفي للملك في اللِّقاء، وتُبالغي له في الاحتفاء كلما دخل عليك الإيوان. وآعلمي أنه لا يدنو منك في أيامك الأولى. فإن هذه سُنّة مُلوك الفرس أن لا يَقربوا نساءهم الشرعيّات إلا بعد أن يتألّفوهن، وأنا الساعة ذاهب، إلى الملك لأذْكُرك عنده، وأتغنّى بأوصافك، وأسْترق لك قياده وفؤاده، ولكني منذ الآن أدعوك لِتَدعي عنك العِزّة الفِرعونية، والإباء المصريّ، وأن تجتهدي في حد الاستيلاء على فؤاد الملكة الشيخة والدة «قمبيز» وذلك لا يكون إلا بالإكثار من الاستئذان عليها في هذه الأيام، والمبالغة في إجلالها، وإظهار الذّل والاستكانة لها، فإنها هي المَلِك وهي المَمْلكة، وهي كُلّ شيء تحت سماء فارس.

قالت الفتاة: سمعاً يا مولاي وطاعة.

ثم إن الشيخ آستأذن منها على أن يعود إليها بعد بُرهة، فأَذنت له، فانصرف وتركها كالمَسحورة من هول ما رأت وسمعت في تلك الجلسة، وقد عوّلت على مُطاوعة الشيخ في كُل ما يأمر به، والاعتماد عليه في مَوقفها الحَرج، وحالها المُريب.

الفصل التاسع والعشرون

فيما كان من أمر فانيس

عَلِم القـارئُ من أمر هـذا الخائن أنـه فرَّ مِن مِصـر آتِّقاء بـأس الملك الجديد، وهَرباً من مُتَـوقَّع العقـاب الشديـد، وأنه عنـد مروره بمنـازل الزعيم «منجـاب» على الحـدود، آجتمـع بصـديقـه الحميم «جـادي» ولـد الـزعيم. وآستصحبه معه إلى «بابل»، وهنالك دَبَّرا للزعيم المسكين شَرَّ المكايد. وقـد كان ذلك، وقُتـل «منجاب» وعَـرَف القارىء كيف آقتصَّ الله من ولـده اللئيم، فقُتِل أفضح قِتْلة.

والآن نـرجع «لفـانيس» فنقـول: مـا بـرح «فـانيس» في «بـابـل» يهيىء للخيانة أسبابها، ويمهِّـد للغَدر سبله، وهـو من جهة بين الشـك واليقين، من أمر العروس التي زُفّت، إلى «قمبيز» هل هي «نيتيتـاس» كما تَـرك الأمر عليـه حالَ فِراره من مصر، أم عادت «فتنت» فقبلت بالزواج، وحينئـذ يكون السَّعي في حمل «قمبيز» على مُهاجمة مصر أدنى إلى الإخفاق منه إلى النجاح، ومن جهة أخرى فقـد كان شـديدَ الاهتمـام بمَعرفـة الخَلَف الذي تجعله الحُكـومة الفـرعونيـة مكان «منجـاب» لِعلمه أنّ الحـدود هي المفتاح يـومئـذ، وأنّ على التمكُّن منها ومن حُرَّاسها يتوقّف نجاح مسعاه عند «قمبيز» لحمـل هذا الأخيـر على فتح مصر عَنوة، والانتقام مِن مَلكها «ابسمتيك».

فمـا زال «فانيس» يبحث ويُنـقِّب، ويُسـائل الـرُّكبـان، ويُنْفِـذ الـرُّسْـل

والجَواسيس حتى ثَبت عنده أنّ الحكومة المصريّة أقامت أحد قُوادها خَلَفاً «لمنجاب» فآستبشر الخائن بهذا الخبر، وتهلّل له، لعلمه أنّ هذه الخُطة الجديدة من شأنها أن تُغيِّر قلوب رؤساء القبائل على الملك وحكومته، لما فيها من مَسٍّ آستقلالها، والحَيلولة بين ولاية الحدود وبين آمالهم، وبذلك تكون آستمالتهم إلى الفُرْس أسهل، والأمل بإشراكهم معه في الخيانة أقرب إلى التحقيق.

وعلى أثر ذلك صَمَّم اليوناني على برَاحِ «بابل» إلى عاصمة الفرس، والاحتيال على مقابلة «قمبيز» وإغرائه بمُهاجمة وادي النِيل، والاستيلاء على عرش الفراعنة.

فلندعه الآن يَذهب لهذه الرحلة، وهذه الحيلة، وننظر فيما كان من أمر «نيتيتاس».

الفصل الثلاثون

مرض نيتيتاس

كان «قمبيز» يزور عروسه في أيامها الأولى مرَّات في اليوم، فيُسَرّ ويَنْشرح صدراً، بما يرى لها من الجمال الباهر، والذكاء النادر، والأدب الوافر، وتوقّد الخاطر، وسُرعة التعليق، وكمال الاستفادة من دروس «بترمبيس» وتعاليمه، فلم يَسَعْه إلاّ الثناء على مقدرة الأعمى على الإفادة، وآجتهاده في تحقيق ما يَرُوم من عروسه الفتانة، في الأقرب المُمكن من الزمان.

وكان سائر أهل القصر مع الملك في آمتداح الملكة الجديدة، والإعجاب بمزاياها السامية، وفي مقدمة الجميع الملكة الشيخة والدة «قمبيز» فقد شَغفتها الفتاةُ حُبّاً، واستمالتها إليها بكل وُجدانها، حتى لم تكن تُطيق عنها صبراً فنشأ عن ذلك حسدُ سائر زوجات الملك الشرعيّات منهن وغير الشرعيات، لبنت فرعون.

ولم تَمض سبعة أيام من أخذ الفتاة على «بترمبيس» حتى كَمُل تعليمها الدينيّ، وآستعدّت للخروج مِن الديانة المصرية، والدُّخول في الديانة الفارسية، وكان الظن أن هذه العقبة تشغل أربعين يوماً لاجتيازها، فاتّفق الأعمى والأميرة على أن يَطلب الأول من الملك صُدور أوامره بآعتناق بنت فرعون الديانة الفارسية، وقد كان، وعرض «بترمبيس» ذلك على الملك، بعد

أن أقنعه باستعداد الفتاة لهُ كلّ الاستعداد، فلما سمع «قمبيز» بذلك كـاد يُجَنّ فَرَحاً وسُـروراً، ولكنه لم يَستغـرب الأمر، لعِلْمـه أن التلميذة على ذَكـاء نادر، وأن الأستاذ ماهر قويّ قادر.

وعلى أثر هذه المقابلة أصدر الملك إشارته بـإعداد الحفـلات الرسميّـة وإقامة معالم الزينة والأفراح، لتقليد الملكةِ ديـانة البـلاد، وإدخالهـا في عبادة الآباء والأجداد.

فلم يَمْض يـومٌ أو بعضُ يـوم على صـدور الأوامـر الملوكيـة، حتى آستعدَّت الأمة والحكومة كلتاهما للاحتفال بهذا العيد، ودخل رُؤساء الديانة، وعظماء الدولة، على الملكة حُجرة العرس، فآمتحنها الكهنة، فـأَلْفَوْهـا تكاد تكون كأحدهم عِلْماً بأسرار الديانـة الفارسيـة، والإحاطـة بدقـائقها، وهنـالك دُعِيت لتُعْلِن آختيارها لدين الملك، واعتناقها إياه، فأعلنت أنهـا تَخْرُج من الديانة المصرية وتَدْخُل في ديانة فارس الرسميّة.

ومـا كـادت الحَفلة تنقضي، وينفضّ المـلأ من حـول الملكـة، حتى، مسكت أطرافها كأنها تشكو من ألم طرأ عليها، ثم اعتراها دُوار، فاتكأت على العـرش مُستلقية، فـلا تَسَـلْ عن هَـرْج القـوم ومَـرْجهم، وتَـطايُـر قلوبهم من الهَلع، فسـأل «بترمبيس» عن الخبـر فذُكـر له، فـآخترق الصفـوف، ودنـا من الملكة، ثم أخذ يدها وجَسّ نبضها، فأيقن أنّ الدواء قد وَلَّد الداء، وأن هـذا أول أعراضه، وعندئذ آلتفت إلى الحاضرين وقال: الملكة بخير يا قوم، وهذا الذي آعتراها نوع من الحُمَّى الصفراء خاصّ بمصـر، ولعله ناشىء عن تغيير الهَواء، وتبديل إقليم بإقليم، وإني آمـركم أن تنفضّوا مِن حَـوْلها، وأنـا أتولَّى علاجها في الحال والاستقبال، فأجاب القوم «بترمبيس» إلى طلبه، وآنصرفـوا على الفور، تاركين الأعمى والملكة وشأنهما.

وكان الخبر قـد نَمَى إلى الملك في حينه، فكـاد يَطِيـر بلُبّه، وخَفّ مِن فَوْره إلى الإيوان، فدخل على الملكة غُرفتها، وإذا هي قد أفاقت من دُوارها، بفَضْـل آعتناء «بتـرمبيس» وتَطبيبـه، إلا أنَّ الصُّفـرة عَلت مُحَيّـاهـا الجميـل،

فنَقصت من جماله، وصيّرته أشبه بالأموات منه بالأحياء، فاضطرب المَلِك من هذه الحالة، وآقشعرّ بدنه، وسأل الشيخَ يقول:

هل عرفت داءها يا «بترمبيس»؟

الأعمى: نعم يا مولاي، هذه هي الحمَّى الصفراء المصريّة، وهذا أشدُّ أشكالها، إلا أنه لا خطر من الدَّاء على الملكة، لا سيما إن أَمَرْت أن تُفْرد في مقصورة، فلا يدخل عليها إلا جلالتك وأنا.. أو غيري ممن تختاره لتطبيبها.

الملك: ليكن ما أشرت به يا «بترمبيس» ولا يتولّى تطبيب الملكة سواك، لعلّ شفاءها أن يكون على يديك، وأن يَعْجل، ببركة إله فارس الأعظم الذي دانت به الملكة من لَحظة.

ثم إن الملك آستدعى رئيس الخِصيان، وأمره أن يجعل الملكة في مَقصورة خاصَّة، بها، لا يدخلها عليها إلا «بترمبيس» ومن يأذن له من الجواري والممرِّضات.

قال الخَصِيُّ للملك: سَمعاً وطاعة. وعندئذ بَرِح الملكُ الحُجرة، ودلائل الأسف بادية على وجهه، والكَدر مُستحوذ على وجدانه، وهو يحاول أن يتزوَّد من عَروسه نظرة فلا يَستطيع، لأنها كانت ألصَق بعالم الأموات منها بعالَم الأحياء، فلما خلا المكان «لبترمبيس» ولرئيس الخِصيان، آشتغل هذا الأخير بإعداد المقصورة المأمور بها، ونَقل الأميرة إليها، ثم جِيء بالجواري والممرِّضات، فآنتقى منهن العَدَدَ اللازم، ووقف «بترمبيس» نفسه على مُلازمة الملكة وتَطبيبها.

ثم أخذت الأيام تَمُرّ، والليالي تتعاقب، والمرض كما كان في البِداية لا يزول ولا يَشتدُّ، والملك يَسأل عن صحَّة المريضةِ من حِين إلى آخر، ويَبعث إليها بالطَّبيب إثر الطبيب، من أَمْهَر ما أخرجت فارس في ذلك العهد، فلا يستطيع الأطباء التأمُّل في وجهها، ولا مَدَّ الأيدي إليها، لجهلهم كُلَّ الجهل بدائها العُضال. وعِلّتها العَسْراء.

الفصل الحادي والثلاثون

طبيب أجنبي

بينما الملك «قمبيز» ذات يوم في مجلسه الخاص، دَخل عليه الحاجب فـأنهى إليه أن بـالباب رجـلاً من الأجانب، يَـزْعَم أنه من أمهـر الأطباء، وأنـه يكفيه أن يَنْظُر إلى وجه الملكة المريضة، ليعرف حقيقة الداء، فأمر الملك به أن يدخل، فأُدْخِل عليه، وإذا هو رجلٌ متلثِّم، متلفِّف في رداء ضافٍ، إلا أنّ عينيه الزَّرْقاوين تُنبئان أنه من جزائر اليونان، فما زال الرجل يَنحني حتى صـار على خُـطوات من الملك فجثـا، فـأشـار لـه «قمبيـز» ثم أذن لـه في الجُلوس فجلس، وحينئذ سأله الملك: مِن أين الطَّبِيب وما بُغيته؟

الغريب: طبيب يا مولاي، يونانيّ الأصل، مصريّ المَهَبّ، قَدمتُ هذه البلاد طَلباً للرِّزق، فعلمتُ أن جـلالة الملكـة مريضـة، وأن مرضهـا عُضَالٌ، وإذ كنت على ثِقـة من نفسي، وتمكُّني من صنـاعتي، أحببـتُ أنْ أعْـرِضَ خِدمتي على جلالتك، لعلَّ شفاء الملكة أن يكون على يـدي، فـأُغْمَرَ بِبـرِّك وإحسانك.

قال الملك: ليس أَحبَّ إلينا ممّا تَطلب، ولكنيّ أخاف عليك أن تكـون هذه وَساوس تَهْذِي بها، فقد سَئِمْتُ رَقاعة الأطبَاء، ومَلِلْتُ كَذِبهم وجَهالتهم. وأصبـح الذي يتعـرَّضـون منهم منـذُ اليـوم يُعـرِّضـون أنفسهم لبـلاء غَضَبي. وصَواعق بَطشي وفَتْكِي.

الغـريب: وأنا راضٍ يـا مولاي بهـذا الوعيـد، وعلى الحظ أنْ يَـرفعني للسماء، أو يُنزلني أعماق الغَبْراء.

فالتفت الملك حينئذٍ إلى الحُجّاب وقال: ليذهب أحدُكم بهـذا الطبيب إلى الإيـوان، وليبلِّغ رئيس الخِصيان أني آمِـرٌ بدُخـوله على الملكـة، ورُؤيته إياها.

فٱنطلق الحاجبُ، واليونانيّ على أثره، يَقْصِـدان الإيوان حتى وَصـلاه. وهنالك بُلِّغت إشارة الملك إلى رَئيس الخِصيان، فمَشى والـطبِيبُ يَتبعه حتى بلغا مقصورة المريضة، فسَبقه الخَصِيّ إليها، وٱستأذن له عليها، فأَذِنت له في الوصول، فمَثل لَديها، وعندئذ دنَا الطبيب من المريضة، وتأمَّلها مليّاً، وهو لا يـرفـع عَينـاً ولا يَنبِس بِبِنْت شَفـة، حتى إذا فـرغ من تـأمُّله ٱلتَفت إلى رئيس الخصيان، وخاطبه بصَوت جَهْوَرِيّ قائلاً: عليّ أيّها الرئيس بالمَلِك، وهـا أنا في ٱنتـظاره خارجَ الغُـرفة حتى يَحْضُـر، فأدهشت هـذه العبارةُ الخصِيَّ الأول بِقَدْر ما ألقت القَلَق والفَزع في نفس «نيتيتاس» و«بترمبيس».

ثم إن الطبيب خرج ينتـظر قُدوم المَلِك، ولم يَسَـعْ رئيسَ الخِصيان إلاّ التوجُه تَوّاً إلى حيث الملك، لِيَعْرِضَ الأَمْرَ عليه.

وفي هـذه الأثناء خـلا المكان «لبتـرمبيس» ولِلفتاة، فقـال لهـا بصـوت منخفـض، لا يسمعه سـواها لا تخـافي يا «نيتيتـاس» ولا تَجـزعي، وهَبِي أنَّ الـرجل واشٍ في زيّ طبيب، وخـائن في ثياب غَـريب، فليس عليـكِ إلا أن تَعْـرِضي الحقيقة للملك، ولا تُخفي عنـه شيئاً، فـإنه جَـريء يُحبُّ الجَراءة، شَهم يُحبُّ الشهامة، صَريح في الأفعال يُحب الصراحـة في الأقوال. قـالت: لا يكون يا مولاي إلا ما به أشرتَ.

الفصل الثاني والثلاثون

الملك لدى المريضة

رَجع رئيس الخِصيان بالملك إلى الإيوان، وكان الطبيب خارجَ الحجرة في آنتظاره، فابتدر الملكُ سؤاله يقول: ما حاجتك إلينا أيها الطبيب؟ قال: ستعلمها يا مولاي متى جَمعتنا حجرةَ المريضة، قال: إذن فَلْنَدْخُل، ثم دخل يَتبعه الأجنبي، وما هو إلا أن جمعهما والمريضةَ المجلسُ، حتى قال الرجل يخاطب الملك:

إن الملكة يا مولاي لا يمكن أن تكون إلا مَسحورة، وإلا فليست هذه الأميرة «فتنت» بنت الملك «أمسيس» فرعون مصر، فقد رأيت الأميرة في مصر غيرَ مرّة، ولا يزال خيالُها في عَينيّ، وعِيَانُها في خَيالي، والآن أرى أن تلك إنسانة وهذه إنسانة.

الملك، مندهشاً: وأنت لا يمكن إلا أن تكون مجنوناً أيها الطبيب، فإن هذه هي «فتنت» بنت «أمسيس» وهو أضعفُ من أن يَجترىء على غِشّنا، فيسوق إلينا إحدى البنات مكان بنته المَقصودة بخطبَتنا.

الطبيب: إن كنت يا مولاي في رَيْب مما أقول فآسأل الملكة المَريضة. فإنها أَدْرَى بنفسها منّي.

فحين سَمعت «نيتيتاس» عبارةَ الطبيب وثَبت من مَضجِعها كالظَّبْيِ

المُـرَوَّع في كِناسـه، وآستقبلت الملكَ بـوَجْـهٍ يُبين عن أثـر العِـزّة، سـاطـع البُرهان، ثم قالت:

ما أنا يـا مولاي بمَسحـورة، ولا الطبيبُ بِمَجْنـون، ولكنِّي مريضـةٌ حقّاً وهو صادقٌ فيما زعم.

الملك مقاطعاً مُغْضَباً هائجاً: وَيْحَكِ، ما تَقُولين أَبْـلَغَ من قَدْرِ «أمسيس».

نيتيتاس: حِلمك يا مولاي، وراعِني حتى أسْتتمَّ، ثم آفعل ما بَدَا لك.

الملك: تكلَّمي يا خائنة.

نيتيتاس: لستُ الخائنة، بل الخائن مَن خَدعني كما خَدعـك، وغَشَّني كما غشَّك، الخائن أيها الملك هو صِهرك «أمسيس»، وأنـا إن قبلتُ أن أكون آلَته الصمّاء فيما جَنى على نفسه وملكـه، فحبّاً ببـلادي، ولأجل عَـرش آبائي وأجدادي. آعلم أيها الملك أنك لمّا خَطبت إليه آبنته «فتنت» وكلَّمهـا هو في ذلك، آمتنعت كُلَّ الامتنـاع، وتهدَّدتـه بالعُقـوق إذا هو ألـحَّ بها، وتمـادَى في الضَّغط عليها، فلم يَجِدْ عندئذ غيري أنا المسكينة اليتيمة السَّجينة «نيتيتاس» بنت الملك «ابرياس» مَنْ يُقَـدِّمها مكـان آبنته، ويستخـدمها في إنفـاذ حِيلته، وتَشهد السماء أنه ما تَهـدَّدني بقَتْل، ولا تـوعَّدني بعـذاب، وإنما جـاءني مِن السَّبب الأقـوى، وتملَّك منِّي المَحَلَّ الضعيف، فقبلتُ بـأن أُزَفَّ إليك مكـان آبنتـه، وأنا موُقـنة أنِّي أَفْتَدِي وطني بحيـاتي، وأُريق دمي الزَّكيّ فِـدَاءً لِعَـرْش آبائي وأجدادي، هذه أيها الملك هي حقيقة الأمر، وأنـا متهيِّئة من يـوم قَبِلت بالزِّفاف للوقوف تحت غائلة عِقابك الصارم، وآنتقامك الشديد، فـآقْضِ الآن بما شِئْت، وليكُن بالموت، فلألَقَينّه لا كارهةً ولا خائفة.

بتـرمبيس، داخلاً في الحـديث: عَلِمَت السماءُ لقـد غَشَّ الظَّلُوم نفسـه من حيث غشّك أيها الملك، وما قدّم لك إلا خيراً من بنته؛ قدّم لك العَرِيقَـةَ النَّسَب في الفَـراعنـة، وإن كـان أبـوهـا أَعْـدَى عَـدُوّي، قـدّم لـك الـطاهـرة الأخلاق، الزكيّة الأعراق، الوفيّة لِعَرش آبائهـا وأجدادهـا، المُخْلِصة في حُبّ

قَومها وبلادها، فيا أسفاً عليك يا «نيتيتاس». أفي مثل هذا الشباب تصابين بالداء القَتَّال، ثم لا يُريحك منه إلا خِنجر «قمبيز» أو سيف جَلّاده.

قال الملك، وقد عَطفت عِبارة الأعمى على الفتاة: وهل داؤها قَتَّال كما زعمت أيها الأستاذ؟

بترمبيس: نعم، داؤها قتّال يا مولاي، ولكنه يُلازمها الأيّام الطوال.

الملك: ألا ترى أنها أقرّت بمشاركة «أمسيس» في جناية الغِشّ والخِيانة، وهذا ذَنب لا يَسعني غُفْرانه لها.

بترمبيس: ولكن في وُسعك يا مولاي أن تَهَبَه لي كما سبق بذلك وعدك، ووعد الملوك دَيْن.

فأطرق الملكُ هُنيهة، ثم رفع رأسه وقال: لقد وَهبت لك ذَنبها يا «بترمبيس» ووهبتُها هي أيضاً لك، لأني آنف أن تكون زوجتي بعد أن شاركت أعدائي في غِشّي وخداعي، مهما كانت الأسباب الحاملة لها على ذلك، وآعلم أنِّي أُنْجِزُ ما بقي من وَعدي، فآذن لك منذ الآن أن تتوجّه أين شئت، وأقِرّ لك أنني لا آخذ قَومك المصريين بجَريرة ملكهم الغاشّ الخادع.

فأطرق الأعمى هُنيهة، وأطرقت الفتاة كذلك، وقد دارت بهما الأرض، وأُظلمت الدنيا في عَينيهما، وأيقنا أن وطنهما العزيز قد أصبح عُرضة لأعظم الأخطار، خطر السقوط والدَّمار، ثم رفع «بترمبيس» رأسه وقال:

نفس «بترمبيس» تفديك من مَلِك صادق الوعد، ولكن يُحْزُنني يا مولاي أن أراك قد صَمَّمت على محاربة فرعون، لأنني أرى في هذه الحرب القاضية على ملك الفراعنة لا محالةَ ضرراً ينال وجْدانك الشريف بالذات، وقد سَبق أن مَثلت لجلالتك عواقب الأمر، فآخذتني بجَراءتي، وعاقبتني على صراحتي في النصيحة.

الملك: وليس ما يَمنعني من أن أعود إن أنت عُدت يا «بترمبيس»

وتماديت في محاولة المُحال، وهَب أن تَنْجيمك قد صَدق، ولَحِق بشخصي من جرّاء الحرب ما لحق، أليس من بعدي لفارس وعَرْشها وتاجها، النصرُ الأعظم والفتح، ونحن معشرَ الملوك ما خُلقنا إلا للأحاديث من بَعدنا، سواء سَلِمت نفوسنا أو غالَتها غُول، فالحرب يا «بترمبيس» آتية لا بُدَّ منها، ولا يمضي شهران حتى يكون لي مُلْك مصر، والأنهار تجري من تحتي.

فلم يكن من الطبيب عند سَماع هذا الوعيد الصَّريح إلا أنه أطّرَح رداءه، وانتزع لثامه، فتمثّل للناظرين شاباً يونانيّاً في ثياب قائد يوناني، من أعاظم القواد، ثم خاطب الملك بلسان جَهْوري يقول:

ولا يكون ساعدُك في هذه الحرب ومُساعدك إلا عبدك «فانيس» القائد العام لجيوش فرعون.

الملك، مُندهشاً: أنت ذا «فانيس» الشهير، أنت وزير فرعون ونائبه على جيوشه. وفي هذه الأثناء كان الأعمى والفتاة يَستمعان مُطرقين، فرفعا رأسيهما وقالا بصوت واحد: لعنات السماء عليك يا خائن، ثم عادا إلى الإطراق.

أما الملك فلم يَحْفِل بقولهما هذا، بل أقبل على اليوناني هاشّاً باشّاً، مملوء القلب من الآمال، وسأله:

وما الذي أغضبك على الملك أيها الوزير؟ حتى فررت من خدمته وأتيت تَخطُب مودّتنا، وتسعى لخِدمتنا؟

اليوناني: بَغْيه يا مولاي وطغيانه، وتصدِّيه لإيذائنا مَعشرَ اليونان، ناسياً قديمَ صداقتنا لبَيته وعرشه، وجليل خِدمتنا لبلاده وجَيشه.

الملك: وهل تُقسم لي أيها الوزير أنك تَخْدُمني بالصدق والأمانة.

فقدّم القائد عندئذ سَيْفه، وجَعل يُمناه على قَبضته، ثم قال بصوت عال:

«أنا اليوناني «فانيس» أقسم للملك «قمبيز» ملك ملوك فارس، وميديا،

وفينيقيا، وآشور، بآلهة اليـونان وبـالشرف السـاموسي، وبهـذا السَّيف، أنني أخْـدُم جلالتـه بالصـدق والأمانـة، وأكون أكبـر أعوانـه على محـاربـة مصـر. والانتقام لِبَني جِنسي اليونان من الملك «ابسمتيك».

فتقدّم الملك على أثر هذا القسم العظيم، وقبّل القائد فوق جَبينـه، ثم أخذ بيده وخَرجا من الحُجرة، والأعمى والفتـاة ينظران إليهمـا، ويكرِّران قـولهما: لعنات السماء عليك يا خائن.

الحملة على مصر وقائدها

الحربُ لا بُدَّ مِنها	وإن أباها الأنَامُ
حَقِيقَةٌ وَضَعُوها	فَلَيْس فِيها كَلامُ
ما دَام شَرٌّ فَحَرْبٌ	والشَّرُّ فِيهم لِزَامُ
في كُلِّ يَوْمٍ دعاوى	لا تَنْقَضِي وخِصَامُ
إذا استراح حُسَامٌ	في الغِمْدِ قامَ حُسَامُ
وإن تَصالَح قَوْمٌ	تَقَاتَلَتْ أَقْوَامُ
والناسُ للنّاس بالحَرْ	بِ سَيِّدٌ وغُلَامُ
ولَن يَسُودُوا جَمِيعاً	حَتَّى يَسُودَ السَّلَامُ

أقبل اليوم الذي كان «قمبيز» يرجوه لاكتمال السَّعد، وأتت الفُرصة التي كانت حكومته تَرْقبها لكيلا تُفْلِتها بعد، وحَدث الحادث الذي كانت أُمة الفرس مُهيّأة الخواطر له، مُستجمعة للوُثوب على أثره.

وكانت الأمم يومئذ في أول عهدها بإدراك عواقب الحرب، والشُّعور بجَسَامة المسؤوليّة التي يُعرِّض البادىءُ لها نَفْسه، وكانت بُرْهة السّلْم التي تَعاصر فيها «كورش» و«أمسيس» وليست بالقليلة، قد علَّمت حكومتي فارس ومصر كيف تَنتفع الأولى بمُسالمة الثانية، لكونها أَضْخم منها حضارة، وأرقى بكثير في معارج المدنية والعرفان، فلا يَنبغي لها إذاً أن تُطفىء نُورها، كما أنه

لا ينبغي للساري أن يُطفىء السراج الذي يَسْرِي في ضوئه، ثم كيف يجب على مصر أن تَحْسَب لفارس حسابها، وأن تَلزم الحكمة في مُداراة القويّ، وتَرْكه مُشْتَغِلاً بالغزوات والحروب، حتى يُضْعِفَ نَفْسَه بنفسه.

إلا أنّ هذه الاعتبارات السامية، التي كان الملكان المتقدِّما الذكر قد آتخذاها قاعدةً لسياستهما الشخصية، في معاملة أحدهما الآخر، لم تَلبث أن زالت بزوال الملك الشيخ الحكيم «كورش» وقيام «قمبيز» من بعده، وتظاهر هذا الأخير بمُجافاة المصريين، وحَسد ملوكهم على مظهرهم العالي في العَصر، حتى آضطر «أمسيس» في أواخر أيامه إلى مُداراته وخِداعه، ولو إلى أجل، رَيثما تستعدّ مصرُ لقتاله وصَدّ غاراته.

ثم كان ما كان من آفتضاح ذلك السرّ، ووقوف «قمبيز» على حقيقة الأمر، فتمزَّقت بذلك التقاليد السابقة بين الحكومتين، وكان سرور «قمبيز» بسُنُوح الفرصة أعظم من غَضبه على «أمسيس» وآبنه، لاستهزائهما به، وإهانتهما إياه.

فلم تلبث الإشارة السلطانية أن صدرت إلى معظم القوات الفارسيّة بالتأهّب للسفر، والاستعداد لمحاربة المصريّين، وكذلك صدرت الأوامر إلى جميع الولايات بَحْشد الجُنود، وتَسْييرها إلى «بابل» حيث تجتمع الفِرَق المؤلّفة للحَملة، وبالواقع لم يَمْض شهران حتى آنعقد اللّواء «لقمبيز» في عاصمة آشور، القديمة، على خمسمائة ألف مقاتل، أو يزيدون، على قَدم الرحيل إلى مصر وأخذها عَنوة.

على أن هذه القوَّة وإن عظمت، وهال تمثيلُها، لم تكن لِتحْكم وحدَها في نتيجة الحرب، لو لم تعزَّز بقوة أدبيّة هائلة، من آنضمام «فانيس» القائد العام لجيوش مصر بالأمس، ورئيس أركان حرب العدو، في حملته على مصر اليوم.

وبالحقيقة كان «فانيس» أعلم من المصرِّيين بمواقع البلاد، وقواها العسكريّة، الحاضر منها والمُمكن جمعه في زمن الحرب، وكان أعرَف الناس

بمحالّ الضعف والقوة، من جِسم المملكة المصرية، وكان أقدر إنسان على آستمالة الشعب الساخطة من مَجموع الأمة، وحرمان المصريّين مُساعدتها في الشدّة، وكان مُطَّلِعاً وحده على سرائر القوم على الحدود، ومقاديرهم ومواضع الأماني من نفوسهم، وبالجملة كان «فانيس» وحده هو الكُفء لِوَضع خُطَّة للحملة، تسير عليها فتسير على الطريق الأقصد إلى النجاح والفلاح، فإذا أعطينا هذه الاعتبارات حِصَّتها من الأهميّة، علمنا أن شخص «فانيس» بمُفرده يَعْدِل الخمسمائة ألف جندي، التي كان لواؤها «لقمبيز» وزمامها في يد الوزير المصري السابق، يدبِّرها كيفما شاء، ويسَيِّرها أينما شاء.

الفصل الثالث والثلاثون

الحالة على الحدود

عَلِم القـارىء مما تقـدّم أنّ الحدود المصـريّة كـانت طولَ زمن الـزَّعيم «منجـاب» أمنع من عُقـاب، وكانت المِفتـاح الذي لا سَبِيـل إليه. ولا سُلطان لأيدي السُّرَّاق عليه، وأن حكومة فرعـون أخطأت خـطأ كبيراً في نَـزع الوِلايـة العامّة على الحُدود، من مشايخ القبائل، وجعلها في يَـدِ قائـدٍ مصريّ، حتى نفرت قلوبُهم عن ولائها، وتغيّر ما بـأنفسهم نَحْوَهـا، وتمهَّد السبيـل الطبيعي لِدَسائس المُفْسِدين بينهم وبينها.

وإذا كـان «فانيس» يعلم ذلـك علماً حقيقيّـاً جَعَلَ أوّل هَمِّـه أن يَجْذب إليـه العربَ على الحُدود، ويَسْترقَّ رؤساءهم عَبِيداً «لقمبيز» وأعواناً لدى الحاجـة، فكانت رُسُلُه إليهم لا تنقطع، ورسائله لا تَمتنع، وكانت قلائـد الذهب تُسـاق إليهم أحمالاً، ونفائسُ الهَدايا تُحمـل إليهم ثِقالاً، وكـان لا يَأْلُـوهم وَعْداً عن لسان «قمبيز» أن يَرُدّ إليهم آستقلالهم الضـائع، وأن يَمنحهم من الامتيـازات والنِّعم أضعاف ما نالُوا على عهد الملك «أمسيس».

وحيث كـانت القبـائـل لا تَـزال تخشى بـأس فـرعـون، وتتَّقي سَـطوة حكومته، وتخاف عواقب المُجاهرة بعِصيانه، فيما إذا رجع «قمبيـز» عن البلاد خاسراً، أجْفَل رؤساؤهـم عن إجابة «فانيس» إلى جميع مَـطالبه، واكتفـوا بأن عـاهـدوه على أن لا يقِفـوا لجيش الملك في طـريق، وأن يكـونـوا أدلّائـه

المُخلصين، وأن يَحملوا إليه الماء، كُلّما احتاج إليه في صحراء، لا يجد الماء عليها إلا من يعرف الطريق إليه.

فبعد أن حصل «فانيس» على هذه المزيّة الكُبرى، التي هي في الحقيقة نِصْف الظَّفر، أشار على الملك بالزَّحْف، فزَحف ذلك الجيش الجرَّار، يَؤُمُّ تُخُومَ مِصر، حتى بلغها بسلام، فنزل دونها ولم يَبْقَ إلا مخابرة رؤساء القبائل، ومطالبتهم بالوفاء بعُهودهم، وبالفعل شَرع «فانيس» في العمل من أول يوم.

الفصل الرابع والثلاثون

استعداد المصريين وخطبة لاجوس

إذا كان الاستعداد في فارس للحرب عظيماً، فهو في مصر أَسْبَق عهداً وأعظم، فقد تقدّم القول بأنه قد بُدىء بها قبل وفاة الملك «أمسيس» أي من يوم تنازل هذا الملك في مَرضه لابنه «ابسمتيك» عن إدارة شُؤون المملكة، فكانت الجُنود تُحشد من أقاصي المملكة والأسلحة تُصنع من كل طراز، وعَظُم الاعتناء بإعداد المركبات الحربية، والإكثار منها، والاعتماد على هذه القوة العظيمة من بين القوى العسكريّة القديمة، فلم تَرِد الأنباء بتأهّب الفرس للزّحف على مصر حتى كان لدى «ابسمتيك» نحو ثلاثمائة ألف مقاتل، من خِيرة الجُنود بسالةً وسلاحاً.

فلمّا جاءت الأخبار بهُبوب الجيوش الفارسيّة في البرّ والبحر، وعِدّتها نصف مليون من الجند، وأن باب الإمداد لا يزال مفتوحاً للحَملة، وأن ثلاثمائة ألف جندي آخرين يأخذون للزحف أُهبته، وعن قريب يلحقون بإخوانهم، قامت الحكومة المصريّة لذلك وقعدت، وآشتغل رجالُ الجيش بالأمر آشتغالاً عظيماً، فانصرفت الأفكار، وتوجّهت الهِمم، واشرأبّت العَزائم إلى أمر واحد جَلَل، وهو إبلاغ عَدد الجيش المُدافع إلى نِصف مليون جُندي على الأقل، ليحفظ التوازن بعضَ الشيء.

إلاَّ أن الأمر لم يكن بالهيِّن اليسير على مملكةٍ فَقدت مستعمراتها واحدةً

بعد واحدة، ثم لم يبق لها ما تَعتمد عليه غيرُ قوَّتها الذاتية، وقد قَضت الأحوال من نحو قَرْنٍ خلا، أن تكون هذه القُوَّة قائمة باليونان المُستوطنين مصر من قديم الزمان، كما قضت أيضاً أنْ يَعظم الجفاء ويشتدّ بين هذا العنصر وبين المصريين، هذا مع عِلم عُقلاء اليونان في مصر، وفي سائر البلدان، بأن بقاء مصر في قَبضة المصريّين من أكبر أسباب سعادتهم في كُلِّ زمان.

ولم يكن بَقي في مِصر من عُظماء القَوم من يقول فيُسْمَع له، ويَدعو فتُجاب دعوتُه، غيرَ المُشير «لاجوس» فأخذ هذا الوزير الصادق على نفسه أن يُعيد مياه الصَّفو والوئام إلى مجاريها، بين العنصرين المُنقسمين، والقوَّتين المتخاذلتين، وألقى خُطبة على يونان «سايس» العاصمة دوىّ صداها في الآفاق، حتى بلغ الجُزُرَ المُجاورة، وكانت الشُّعوب اليونانية قد أخذت تُوجس خِيفةً من عَواقِب هذه الحرب، وتتوقّع آمتداد سَطوة الفُرس عليها، عاجلاً أو آجلاً، إذا هم ظَهروا على المصريين في الحرب المَشبوبة، فما كاد نِداء «لاجوس» يبلغهم حتى تطوَّع منهم الألوف وعشرات الألوف في خِدمة مصر، ودخلوا في جَيشها أفواجاً مُتقاطرين من أقاصي البلاد، فتألّف منهم ومن جَماهير اليونان الأصليّين بمصر جيشٌ جَرّار رَهيب، آعتزّ به الجيش الوطنيّ كثيراً، وبلغ بانضمامه إليه العددَ المطلوب.

ثم أضاف «لاجوس» إلى هذه الآية في الإخلاص لمصر آيةً أُخرى أعظم وأكبر، وذلك أنه تمنَّى على الملك، وهو يومئذ في الثمانين من عمره، أن يجعله على لِواء الجُيوش اليونانية المساعدة، فأجابه الملك إلى طلبه فَرِحاً بذلك فخوراً، وبالفِعل عُقِد لواء اليونان المُحاربين لهذا الشيخ الوَقور، والوزير الصادق، والخادم الأمين، فكان لذلك أحسنُ تأثير في نفوس القوم، وأشرفُ مِثال يَحتذيه شيوخُهم في كَرم العهد وصِدْق الوفاء.

الفصل الخامس والثلاثون

القتال

إن من البُلدان ما هو حصين بطبيعة أرضه، مَنيع بفَضل موقعه، إذا هوجم صدّ المهاجم، وإذا زُوحم أتعب المُزاحم، جبال مُعترضة، وشِعاب منخفضة، وبُرُور وَعِرة، وسواحل صخرة. وهذا الصِّنف من البلاد لا يخلو أهلُه من شَقاء ونَعيم، يَشقى أكثرهم بالجَدب - ويَتعبون بالرِّزق وتَحصيله، لكنهم ينعمون في غالب الأحيان بالاستقلال، ويحكمون أنفسهم بأنفسهم.

وإنَّ منها ما هو كالبُستان يَسْهُل دخوله من كُل مكان، تُخومه سَهلة مُستباحة، وشواطئه مَوْطوءة الساحة، ويدخل في هذا الصِّنف البِطاح والسُّهول والأودية، ويكون سكّانه في الغالب مُتمتِّعين برَغد العيش، حاصلين على صنوف النِّعم، إلا أكبرها وأجلّها، وهو الاستقلال، إذاً يتحتّم عليهم أن يكونوا على الدوام في يَقظة، وأن لا يَشتغلوا بما يُلهيهم من سَعة الرزق عن الحُروب والفتوحات، والاستكثار من المُستعمرات، لكي يُهيبوا الممالك، ويخوِّفُوا الطامع، ويُرْهِبوا العدو المترقِّب. وقد كانت هذه سياسة الفراعنة من أول يوم، ولعلها السبب في بَقاء مُلكهم مهيباً رهيباً واسعاً كبيراً، إلى اليوم الذي ألهاهم فيه التَّكاثر، وأعماهم التَّرف المُتناهي، فسكنوا إلى السِّلم طويلاً، حتى نشأ عن ذلك زوال مُستعمراتهم واحدة، وطمع الجارُ فيهم، وتمكّن الغريب منهم واستخفَّ العدو بشأنهم.

على أنه إذا صدقت هذه المُلاحظة على ناس الزمن الأول، وجاز الحُكْم بمقتضاها في أمرهم، فلا يمكن تطبيقُها على أحوال هذا الزمن وأممه، فإن التحصُّن الصناعيّ، والمعاقل المُتنقّلة، والتفنُّن في عمل الأسلحة، وتقدُّم الفنون الحربيّة، كل هذا تغنى به البلاد إذا خَلت من المواقع الطبيعية، ويقوم لها مقام الجبال العاصمة، والشِّعاب الساترة.

زحف «قمبيز» في نصف المليون من جُنده على مصر، وهي خلو من المستعمرات، معطَّلة الأساطيل، موكولة لشعب مُختلط أنسابه، ساقطة أخلاقه، طويل العهد بحمل السلاح، والخروج إلى ميادين الجلاد والكفاح، ومع ذلك فلم يكد يقترب من التُّخوم حتى تهيّأ للقائه عليها جيشٌ جرّار، لا يقلّ عن جيش «قمبيز» عُدّة ولا عديداً، ولا قيادة ولا رهبة.

تقابل الجيشان على فضاء «بلوز» وهنالك مدّ كلاهما المضارب بالمنظر الرَّائع الرهيب، ولم يكن بينهما إلا مسافة النزال والساحة اللازمة لمثليهما في القتال، وكان فرعون «ابسمتيك» يقود عامة الجيش بنفسه، ويُعاونه عليها الوزيران «تيمان» و«لاجوس» بعزمة لا تعرف الكَلال، وقد تنازعا القَلب ليقوداه، فحَسَم الملك النزاع، بأن تولى هو قِيادته، وجعل «تيمان» على الجناح الأيمن، و«لاجوس» على الجناح الأيسر.

وكان القلب مُؤلَّفاً من أبطال اليونان وشُجعانهم، وكانوا أبرع من المصريْين في الرِّماية، لكنهم عَرضوا للملك أنهم لا يُباشرون الحَرب حتى يدفع إليهم أولاد «فانيس» فَفَعل ودفع إليهم ولداً له صغيراً، وبنتاً طفلة كذلك.

وكانت النيران قد أُوقدت من جانب العدو، عُنوان الصلاة، واستنزال البركات على الجيش، وطلب النصر له، وكان الكهنة مُنبثّين في مُعسكر المصريّين يباركون الصُّفوف، ويسترعون لها أَعين الآلهة، وقد قُرِّبت القرابين لهؤلاء، وذُبحت الذبائح، ونَذرالملك وسَراة الأمَّة لهم النذور، فجاءت الوعود منهم بالنصر العاجل، والفَتح القريب.

حتى إذا أخذ كلا العدوّين أُهبته للقتال، أصبح الصبح، وإذا الطُّبول تَدُقّ في صُفوف الفُرس، إيذاناً بنُشوب الحرب، فأجابتها الأبواب المصريّة تردِّد صداها الآفاق، وحينئذ تراءى «قمبيز» للمصريين، تَزُفّه جيوشه، ويَحُف به أعاظمُ قوّاده، فرأوا بينهم «فانيس» وكان أقربَهم من الملك، وأولهم على مَشورته، فكادوا يتميّزون من الغيظ، وزادتهم رؤيته حماسة على حماستهم. أما اليونان، وهم القلب، فلم يكن منهم حينئذ إلا أن آفتتحوا القتال بمَشهد من أفظع المشاهد، وأبغضها إلى من عنده النصر، يؤتيه من يشاء، وذلك أنهم حملوا ولدي «فانيس» على رؤوس الحِراب، بمرأى من والدهما الغَلِيظ القلب، بعد أن قتلوهما وشَرِبوا من دمائهما، فَلا تَسَل عن ثورة الأنفس في الجيشين، لرُؤية هذا العمل الفظيع، الذي هو على ما به من شدَّة وقَساوة، أول الانتقام من ذلك اليوناني الغادر.

ثم أخذ القتال جِدّه بين الفريقين، وكان قد آفتُتح بالرماية التي كان المصريون عموماً، ومؤازروهم اليونان خصوصاً، أبرع فيها بكثير من الفُرس، حتى لم يكن في وُسع هؤلاء الهُجوم على العدوُّ بالسِّلاح الأبيض أمام المنايا المنصبَّة عليهم من سماوات أقواسه ـ وكانت المركبات الحربية المصريّة لا تُخطىء مراميها، التي كانت تأتي العدو من طرفيه، فتَنْقَصه منهما نقصاً مبيناً.

وما بَرِحت مخايل النصر في جانب المصريّين، حين العدوّان الألدّان «ابسمتيك» و«فانيس» يتراميان بخفّة ومهارة، أدهشتا الأبطال وشغلتاهم، عن جيئة المنايا وذهابها في ساحة القتال، حتى سدّد الملك نحو خَصمه سهماً كسهم المنيّة لا يُخطىء، فسقط على الأرض مضرَّجاً بدمائه، فحمله الفرسُ جُثّة لا حَراك بها، وشهد المصريّون وإخوانهم مصرع الغادر، فطربوا أعظم الطَّرب، واستمروا يقاتلون مُستقتلين، وكلهم لسان يردّد قول القائل:

وإنّ حَياة المَرْء بَعْدَ عَدُوِّه ... وإن كان يَوْماً واحداً لَكَثِيرُ

الفصل السادس والثلاثون

ما سلم حتى ودع

كانت الجُثث قد تعالت في المُعسكرين كالجبال، وكان القَتْلَى والجَرحَى من الفريقين قد تكاثروا كالتِّلال. والجيشان لم يتحوّلا بعدُ من الرِّماية إلى الهجوم والنِّزال، إلى أن كان الأصيل، فبينما «تيمان» في مركبته يُسَدِّد ويرمي ويَصِيح بالجُند، ويُنشد أناشيد الحرب، سمع صوتاً بقُربه يقول: قد جَمع الله الشَّتِيتين يا «تيمان» فليكن شُكرنا له أن نستمرّ فيما نحن فيه، فنَكِر القائد الصوتَ لأول وَهلة، والتفت مُندهشاً، وإذا هو، «بنيتيتاس» قد تزيَّت بزيّ الجُند، وكشفت اللِّثام عن وَجهها الفتان، وهي تسدِّد وترمي، فتَفتك بالأعداء فَتك الأبطال الأشداء، فكاد الفتى يُجنّ فوق جُنون الحرب، وأشار لها أن تَصْعَد في المَركبة فصَعدت فآتخذها مِن فرط الشوق، وسُكر الفرح بالنصر وبها، سنداً له، فكانت تُناوله السِّهام فيرمي وتَرمي معه، وهما فَرِحان أحدهما بالآخر، لعِلمهما أن الموت لا يَخْترق منهما إلا صدراً واحداً.

وفي هذه الأثناء كان رجل شيخ أعمى، يَمشي في صُفوف المصريّين ويخطُب فيهم، ويُحرِّضهم على الصبر والثبات، وهو يُدْهشهم بفعله هذا، حتى اقترب من مركبة «تيمان» وهناك عَرفه جنديّ شيخ، كان يقاتل تحت أقدام القائد، فصاح به يقول: «بترمبيس» أخي، أنت هنا، أنت بُوق النصر في هذا الجيش الباسل، فأجاب الأعمى: وأنت أيضاً يا أعزّ الإخوة تقاتل

الأعـداء، ثُم آعتنق الشَّيخان هُنيهـه، وعندئـذ قال «تيمـان»: يا للعجب: إني أسمـع صوت الـرُّوح، فقالت «دل» وأنـا أيضاً أسمـع صوت «بتـرمبيس»، ثم التفتا حولهما فرأيا الشيخين يتعانقـان، فصاح «تيمـان» عندئـذ يقول: «إحيـا» أرى أم الروح، فرفع الشيخ عينه ثم قال: لقد رأيتهما كليهمـا يا «تيمـان» وما هما إلاَ أنا لم أمت طالما تـوهّمت، لكني كنت أسهر عليـك من بعيد، وأُتمِّم تـأديبك، وأُعـدك لمثل هـذا اليوم العصيب، فـالحمدلله الـذي حقَّق رجائي، فرأيتك بطل هذه الأمَّة، وقائدها العام، فاستغفر لي في هذا الموقف العظيم، واعلم أنه ليس بيننا وبين الجنَّة إلا مسافة السُّقوط على الأرض.

إلى أن فاجأ الفرس المصريين بحيلة دونها سائر الحِيَل في فَنّ الحـرب والقتـال، وذلـك أن طليعـة جيشهم حملت الهِـرَر، ثم رفعتهـا على مَـرأى الأعـداء، فكـأنمـا رُفعت الـرايـة البيضـاء، لأن هـذا الحيـوان مقـدَّس عنـد المصـريّين، فلـم يكن في الـوسـع أن يَتَّخـذوه هـدفـاً لسهـامهم، فكفّـوا عن الـرمايـة، ولـم يَبْقَ من يُقاتـل العدوّ إلا اليـونان، ثم هجم الفُـرس على هذه الصـورة، فلـم يجدوا مَن يلقـاهـم غيرَ القلب، فـآضطرب لصَـدْمتهم الهـائلة، وقاتل اليونان مُستقتلين، إلى أن فَنِي منهم الخَلق الكثيـر، أما المصـريّون فلم يَسْتَمِرّ منهم على القتال بعد رُؤية الهِرَر إلا «تيمان» ومن معه من أتباع موسى.

وفي هذه الأثناء أُرعدت السماء وأبرقت، ونَزلت منها صاعقة تفزَّع منهـا الجيش، والتفت المتقاتلون، وعندئذ صاح الـرُّوح بأصحـاب المَركبـة يقول: الآن نَنتقل مــن دار الفنـاء إلى دار البقاء، فـأجابـه «بترمبيس» لأن هـذا نذيـر السماء، ثم تلفَّف الشَّيخان كلاهما في ردائيهما، واستمرَّ «تيمـان» و«نيتيتاس» يقـاتلان حتى سقط الأربعـة شُهداءَ الـوفاء، شُهـداء العهد، شُهـداء الغـرام، شهداء الوطن.

وكانت بعد ذلك الهزيمة الكُبرى، فتمكن «أبسمتيك» من الفِرار، وتبعه عشـرات آلاف من جُنده الأمنـاء، حتى جاءوا «منفيس» وتمنَّعـوا بها، فـركب «قمبيز» لساعته إليها، وحاصرها وأخذها عَنوة، وأسر الملك، وكانت الحـادثة

المشهورة التي نظمتُها في قصيدة «تاريخ مصر» فقلت:

لا رَعاك التاريخُ يا يَوْم قَمبيز ولا طَنْطَنَت بك الأنْبَاءُ

دارت الدَّائرات فيك ونالت هذه الأُمَّةَ اليدُ العَسْرَاءُ

فبِمصْرٍ ممّا جَنَيْتَ لِمصْرٍ أيّ داء ما إن إليه دَواء

نَكَدٌ خالدٌ وبُؤْسٌ مُقيمٌ وشَقَاءٌ يجِدّ منه شَقَاءُ

يوم مَنْفيس والبلاد لِكِسْرَى والمُلوكُ المُطاعة الأعداء

يأمُر السيفُ في الرِّقاب وينهى ولمصرٍ على القَذى إغْضَاء

جِيء وبالمالك العَزيز ذَليلاً لم تُزلزل فُؤاده البأساءُ

يُبْصِرُ الآل إذ يُرَاحُ بهم في مَوْقِفِ الذُّلِّ عَنْوَةً ويُجاءُ

بِنْت فِرْعَوْن في السَّلاسل تمشي أَزْعَج الدَّهْرُ عُرْيُها والحَفَاءُ

فكأنْ لَم يَنْهض بهَوْدَجها الدَّهْر ولا سار خَلْفها الأُمْرَاء

وأبُوها العَظِيمُ يَنْظُر لمّا رُدّيت مِثلما تُرَدّى الإماء

أُعطيت جَرّة وقيل إليك النَّهْرَ قُومي كما تَقُوم النِّسَاء

فَمَشت تُظْهِر الإباء وتَحْمِي الدَّمْعَ أن تَسْتَرِقَّه الضرَّاء

والأعادي شَواخِصٌ وأبُوها بيَدِ الخَطْب صَخْرَةٌ صَمّاء

فأرادوا ليَنْظُروا دَمْعَ فِرْعَوْن وفِرْعَوْنُ دَمْعُه العَنْقاء

فأرَوه الصَّدِيقَ في ثوب فَقْرٍ يَسأل الجَمع والسُّؤالُ بَلاَء

فبكَى رحمةً وما كان مَن يَبْكي ولكنّما أراد الوَفاء

هكذا المُلْك والمُلوك وإن جار زمانٌ وروِّعت بَلْواء[1]

وكان بموت «ابسمتيك» آخِر الفراعنة موتُ مصر، وزوال آستقلالها الحقيقيّ إلى هذا اليوم.

---

(١) انظر قصيد شوقي التي مطلعها:

همَّت الفُلك واحتواها الماء وحواها بمنّةٍ شقل الرجاء

فهرس المحتويات

الموضوع — الصفحة

لادياس

مجنون ليلى

مصرع كليوباترا

دل وتيمان
أو آخر الفراعنة









